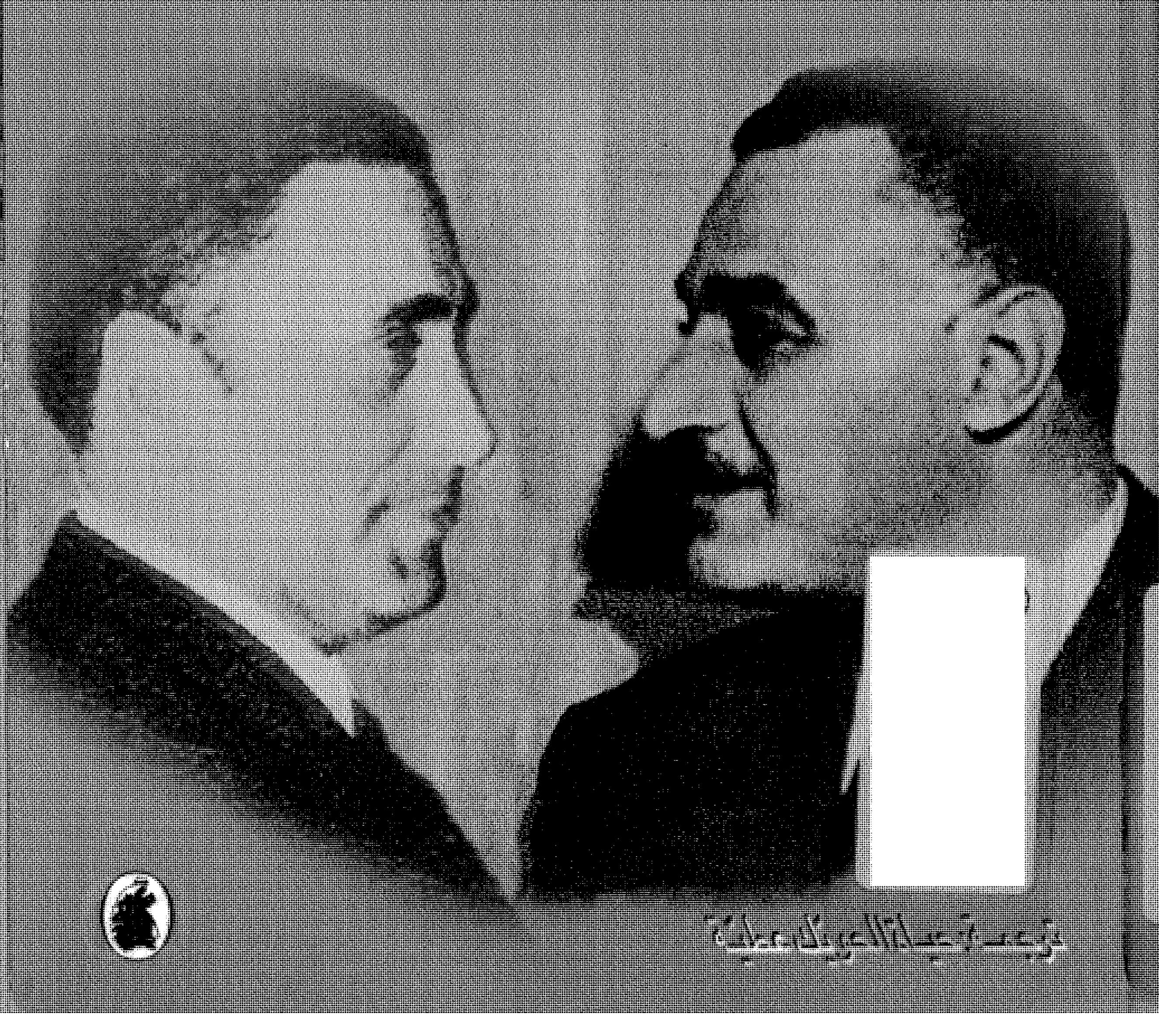
جمال الشلبي

محمّد حسنين هيكل

استمراريّة أم تحوّل؟



ترجمة [illegible]



جمال الشلبي

محمّد حسنين هيكل

استمراريّة أم تحوّل؟

ترجمة : حياة الحويك عطيّة



"عندما كان محمد حسنين هيكل قرب القمة ، كان الكل يهتمون بما يعرفه . . وعندما ابتعد عن القمة تحول اهتمام الكل الى ما يفكر فيه" .

انتوني ناتنغ
وزير الدولة السابق للشؤون الخارجية
في حكومة ايدن
B.B.C 14 كانون الأول 1978

" لا يبهرنا الماضي من حيث كونه يشبه حاضرنا ، إن ما يبهرنا ، هي الأشكال التي اتخذها الإنسان على الأرض . والتي نحاول عبرها أن نتعرف إليه" .

اندريه مالرو
مسرح المتخيل في النحت العالمي
Musée imaginaire de la
sculpture mondiale

الإهداء

إلـى والديّ . . مصدر الوجود .

إلى خالي زكريا عوض الديّـات . . رمز المحبة والعطاء منذ إقامته في مدريد .

إلى روح أستاذي جان لويس سوران J. Louis Seurin ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بوردو 1 . . . صاحب فكرة هذا الكتاب .

إلى الدكتور محمد عدنان البخيت / رئيس جامعة آل البيت . . الذي أخذ بيدي وشجعني منذ تخرجي للعمل في المجال الأكاديمي والبحثي .

جمال عبد الكريم الشلبي

مقدمة عامة

" هل السلام ممكن في الشرق الأوسط؟ " ، " مؤتمر مدريد 1991" ، "المصافحة التاريخية بين عرفات ورابين" ، "اتفاق إعلان المبادئ في واشنطن 1993" ، " المعاهدة الأردنية – الإسرائيلية 1994" . كل هذه العناوين الصحفية ، والإذاعية ، والتلفزيونية ، تدل على الأهمية القطعية التي تكتسبها منطقة الشرق الأوسط عالمياً ، وتظهر أيضاً بقوة النتائج "الإيجابية " التي أفضت إليها سنوات من الجهود الدبلوماسية والسياسية التي بذلها المعنيون العرب والإسرائيليون لحل الخلاف القائم بينهم ، وذلك بتشجيع من القوى الغربية ، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية .*

وإذا كانت هذه الأحداث تشكل علامات مبشرة بالسلام والاستقرار في المنطقة ، فإنها تظل رغم ذلك ، مندرجة في سياق لا يحمل دائماً " فأل خير" ، خاصة عندما نعرف بأن عوامل التوتر ما تزال كافية بين العرب والإسرائيليين ، وجاهزة لاستغلال الظروف كي تتخذ أحياناً أشكالاً "دراماتيكية" .

ومن المؤشرات على تدشين المرحلة الجديدة بروز الأصولية الإسلامية ، بعد فشل القومية العربية في نظر الشعوب العربية ، فشلاً قدمت أزمة الخليج برهاناً نموذجياً عليه .

فالطرح الإسلامي يطفو على السطح ، وكلمة السر فيه هي العودة إلى فضاء الهوية الإسلامية وإعادة تحديد المجالات : السياسية ، التشريعية ، الاقتصادية ، والاجتماعية . ويرافق الطرح الاسلامي أيضاً موجة من أعمال العنف ضد الغرب ورموزه ، وضد إسرائيل التي تشكل " مرآة الغرب" في العالم العربي .

وسواء تعلق الأمر بالأحداث الراهنة التي أثرت في العلاقات العربية الإسرائيلية في الشرق الأوسط ، أو " بتدفق أمواج الأصولية الإسلامية " ، فإن تحليل المعطيات الحالية للوضع السياسي في الشرق الأوسط بشكل خاص ، وفي العالم العربي بشكل عام ، يتطلب عودة إلى تاريخ العلاقات بين القومية العربية والأصولية الإسلامية ، والليبرالية الغربية ،

---

* الكتاب ترجمة لأطروحة دكتوراه في العلوم السياسية نوقشت في جامعة باريس II (السوربون) عام 1995 . وأشرف عليها الأستاذ فرنسوا مون كوندوي F.Monconduit أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس ومعهد الدراسات السياسية .

والتوسعية الإسرائيلية . وتعتبر مصر أفضل ساحة لدراسة مميزات هذه العلاقات وتكونها، وتطوراتها اللاحقة . فقد عرفت مصر كل هذه العوامل المتناقضة التي تحرك العالم العربي اليوم : القومية العربية الناصرية ، الصراع المتواصل مع إسرائيل ، الليبرالية الساداتية ، والأصولية الإسلامية . ألم يكن عبد الناصر زعيم العالم العربي في الخمسينات والستينات ، وبطل النضال ضد إسرائيل ، والعداء للإمبريالية الغربية الممثلة بالولايات المتحدة ، ورأس الحربة في الحرب ضد الأصولية؟ . ثم ، ألم يكن السادات الردة الليبرالية بعد النظام الاشتراكي الناصري ، ورمز الانفتاح على الحركات الإسلامية وعلى مشروع السلام في الشرق الأوسط؟

وإذا كان الجواب عن هذه الأسئلة إيجابياً بالضرورة ، فإن التاريخ المصري السياسي الحديث يشكّل نموذجاً معبراً لفهم الحاضر العربي ، بل والمستقبل .

ولكي نحيط بهذا التاريخ السياسي اخترنا تحليل شخصية تشكل أحد مفاتيح هذا التاريخ . شخصية تبدو في الظاهر "متناقضة" ، وهي بذلك رمز لمرحلة كاملة ، عايشت ، على التوالي ، نظام عبد الناصر ونظام السادات . إنه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة الأهرام ، والمستشار السياسي لعبد الناصر وللسادات . فمنذ الانقلاب العسكري الذي قاده جمال عبدالناصر عام 1952 ضد الملك فاروق ، الذي أجبر على ترك البلاد بعد ثلاثة أيام من ذلك ، أبدى محمد حسنين هيكل تعلقاً عميقاً بمُثل وأفكار النظام الجديد الذي راح يأخذ ، تدريجياً شكل ثورة اقتصادية ، اجتماعية وسياسية ، عرفت فيما بعد بـ " ثورة الضباط الأحرار " أو "ثورة يوليو" .

وقد أسفرت هذه الثورة عن انقلاب في المشهد السياسي الشرق أوسطي . فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتشكل القوتين العظميين ، كان على مصر أن تحدد موقفها من المعسكرين . وجاء خيار النظام الناصري لصالح عدم الانحياز ، مع بعض نقاط الالتقاء مع السياسية السوفييتية في الشرق الأوسط ، دون أن تشكل تحالفاً رسمياً معها .

فخلال الحرب الباردة ، عمل عبد الناصر على تحريك الطاقات القومية ، بهدف إدماج مصر في اللعبة الدبلوماسية الدولية ، محاولاً أن يضمن لها موقعاً يليق بموقعها الاستراتيجي

وبتاريخها الألفي .

لقد كان ترتيب الأولويات لدى عبد الناصر على النحو التالي : " الأمة العربية " ، "الوحدة العربية " ، " الأمن القومي العربي" ، " المصير العربي المشترك " أولويات تعبر عن القيم الأساسية في أيديولوجية القومية العربية ، التي أطلق عليها مصطلح " الاشتراكية العربية " أو " الناصرية " .

ويتحدد مفهوم الناصرية بمجمل المفاهيم والقيم الأيديولوجية التي تغذي استراتيجية عبد الناصر وعمله السياسي . هذا العمل الذي شكل مصدر الكتابات التي نظَرت له ، أي كتابات هيكل ، المفكر الرسمي للثورة الناصرية . إنه ، كما يصفه الصحفي الفرنسي إيف غو في كتابه *إسرائيل تهاجم* الذي كتب مقدمته ريمون آرون : " واحد من أقرب مؤتمني الرئيس . وكانت مقالاته الطويلة ، التي تصدر كل يوم جمعة ، بعنوان " بصراحة " في صحيفة الأهرام ، تبشر بكل الأزمات ، وتهيئ لكل التصفيات السياسية وتمكن من التكهن بمضمون ونبرة الخطاب المقبل للرئيس . فالرجلان يعيشان منذ فترة طويلة حالة تكامل فكري . وهيكل يلتقط بسرعة الأفكار التي يطلقها الرئيس ، يجسدها ويعطيها مضموناً عقائدياً . فالصحفي يعكس أفكار رئيس الدولة ، وهو في الواقع غالباً ما يقولبها" [1] .

والحقيقة أن هيكل قد شكّل جزءاً لا يتجزأ من النظام الناصري حتى مجيء السادات عام 1970 حيث تخلى هذا الأخير عن الناصرية قبل اغتياله عام 1981 .

إن تحليل سيرة هيكل وخط سيره السياسي وإنتاجه الفكري ، لا يسمح فقط بفهم أفضل لفكر مستشار عبد الناصر والسادات ، ولكنه يفسح لنا المجال أيضاً لفهم عمل الرجلين واستراتيجيتهما وظروف تشكل القرار السياسي لديهما .

ولد محمد حسنين هيكل في القاهرة في حي باب الشعرية في 23 أيلول / سبتمبرعام 1923 . درس التجارة في الجامعة الأمريكية في القاهرة[2] . وبدأ حياته العملية عام 1942 ، في صحيفة الإيجبشيان جازيت التي تصدر بالإنكليزية ، حيث أوكلت إليه مهام

1- Cuau,Yves, *Israël attaque*, préface de Raymond Aron, Robert Laffont, Paris,1968, p. 27.

2- المحلاوى ، حنفي ، " السادات بين هيكل وموسى" ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، 1994 ، ط1 ، ص31 .

تتعلق بالسكرتاريا . وبما أن هذه الصحيفة كانت موجهة للإنكليز المقيمين في مصر ، فقد كان عليها أن تأخذهم في اعتبارها . وبعد الحرب العالمية الثانية ، تركها هيكل عام 1944 ، لينتقل إلى مجلة آخر ساعة التي كان يرأس تحريرها الكاتب المشهور محمد التابعي . واستطاع هيكل الذي تدرب على "صحافة الخبر" في الايجبشيان جازيت ، أن يتعود على "صحافة الرأي" وهو يكتب في مجلة آخر ساعة التي كانت تعتبر منبر حزب الوفد . وفي عام 1946 انتقل إلى الكتابة في صحيفة أخبار اليوم حتى عام 1957 [1] . رغم أنه بقي في الوقت ذاته محرراً في مجلة آخر ساعة . وكانت الصحيفتان ملكاً للأخوين مصطفى وعلي أمين المعروفين بتأييدهما للملك فاروق .

مع وصول عبد الناصر إلى السلطة عام 1952 ، لم يتردد هيكل في الوقوف إلى جانب الثورة وزعيمها ضد الإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، ومنافسي عبد الناصر (مثل محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر المعاصرة) . وقد جسد هيكل وفاءه لعبد الناصر في العديد من المقالات التي كتبها لصالحه ، ونشرها كرئيس لتحرير صحيفة الأهرام من عام 1957 إلى 1974 .

1• الموضوع وسياقه :

يعتبر هيكل شخصية خلافية في تاريخ مصر السياسي المعاصر ، حيث لعب ، كصحفي وكسياسي دوراً رئيسياً في خدمة نظامين متعاقبين بقيادة عبدالناصر ثم السادات . فوقوف هيكل إلى جانب السادات ، وتأييده له للوصول إلى السلطة بعد موت عبد الناصر ، ومشاركته في وضع السياسة الإعلامية قبل وأثناء "حرب أكتوبر" ، ثم معارضتة الأكثر فأكثر راديكالية لتوجهات السياسة الساداتية ، جعلا منه شخصية خلافية سواء على المستوى الشخصي (انتهازية) أو على صعيد (الالتزام) ، حيث اتهم بأنه عمل مع السي أي إيه ، ثم مع السوفييت ، وبأنه مارس أحادية إعلامية لصالحه وصالح عبد الناصر ، على حساب حرية الصحافة .

1- الحلاوى ، حنفي ، مرجع سابق ، ص 135 .

يترك دور هيكل وموقفه من السادات وتحوله عنه فيما بعد ، مجالاً للتساؤل حول انسجام استراتيجيته الفكرية والسياسية . فهل تنكر هيكل لالتزامه بالتوجه القومي العربي؟ أم أن هذا الانعطاف يؤكد ، على العكس ، وفاءه الثابت لمبادئه ، على اعتبار أن تحول السادات عن السياسة الناصرية خيانة لها ؟ .

وهنا يبدو تأييد هيكل للسادات في البداية حالة سوء فهم ، اعتقاداً منه بأن هذا الأخير سيتابع مسيرة عبد الناصر ، وثمة نقطتان تستحقان الإثارة :

1. هيكل / عبد الناصر : تلاقي المثل .

ففي ظل حكم عبد الناصر كان دور هيكل مزدوجاً :

- يساهم في إنتاج ونشر الأيديولوجية الناصرية . (مقالات وافتتاحية صحيفة الأهرام) ، تحرير *فلسفة الثورة* عام 1954 ، " الميثاق الوطني" عام 1962 ، "وبيان 30 مارس" عام 1968 .
- يساهم في عملية بلورة القرار السياسي ، عبر نشاطه كمستشار مقرب وكوزير للإعلام فيما بعد . ويُمثل نمط العمل السياسي ، كما كان يؤديه هيكل ، شيئاً من الخصوصية المبتكرة : فاشتراكيته السياسية تتحقق عبر الصحافة ، وعبرها يتشكل وعيه السياسي والأيديولوجي أيضاً . وقد سمح له التزامه بعبد الناصر منذ وصول هذا الأخير إلى السلطة ، بأن يحول الشهرة التي اكتسبها من مهنة الصحافة ، وما توفره له من إمكانية التأثير في الرأي العام ، إلى رأسمال من التأثير السياسي . وظل يحافظ على السياقين إلى أن أجبر وبضغط من السادات على التخلي عن رئاسة تحرير الأهرام عام 1974 .

2. هيكل / السادات : سوء الفهم .

قدم هيكل دعمه للسادات في حملته الانتخابية عام 1970 إذ اعتبره استمراراً لعبد الناصر ، سواء من الناحية الشخصية أو الأيديولوجية . ولم تكن وراثة عبد الناصر

بالنسبة لهيكل مسألة وراثة شخص ، وإنما مسيرة سياسية اعتقد أن السادات سيتابعها . ولذا راح انتقاده العلني لسياسة الانفتاح التي انتهجها هذا الأخير ، يتزايد كلما ابتعدت هذه السياسة عن مُثل وأفكار الثورة الناصرية . لكن السبب الرئيسي (للانفصال) بين هيكل والسادات تمثل في السياسة الخارجية : إبعاد الخبراء السوفييت عام 1972 وما يعنيه ذلك من الابتعاد عن موسكو ، والتقارب مع الأمريكيين . وحرب عام 1973 (نصف الانتصار المصري) والمفاوضات التي أدت إلى اتفاقيات كامب ديفيد عام 1978 . وهكذا راح هيكل يُحرك ، ضد التوجه الليبرالي الساداتي ، المصادر ذاتها التي كان يحركها لخدمة عبد الناصر والسادات (إمكانية التأثير في الرأي العام) .

وقد مارس لعبة التأثير هذه خارج مصر عبر الصحف العربية : الوطن ، والقبس (في الكويت) ، والخليج (في الإمارات العربية المتحدة) ، الرأي ، والدستور (في الأردن) .

إضافة إلى نشره أكثر من ثلاثين كتاباً حول مصر ، والعالم العربي ، والشرق الأدنى عامة .

2• الإشكالية :

إزاء الخلافية التي لا يزال يثيرها هيكل ، يبدو من المهم إضاءة الجوانب المظلمة في شخصية هذا الصحفي - السياسي في التاريخ السياسي المصري المعاصر ، والذي عمل مع نظامين مختلفين ، بل متناقضين بشكل ظاهر وجلي : النظام الاشتراكي الناصري ، والنظام الليبرالي الساداتي الذي مهّد للانفتاح .

يشكّل هيكل ، وكمستشار معروف لعبد الناصر والسادات ، مصدراً قيّماً لمعرفة وفهم التاريخ السياسي المصري . لقد عاش مرحلتين متناقضتين : الناصرية طوال ثمانية عشر عاماً (1952 - 1970) وسياسة الانفتاح الساداتية منذ عام 1974 وحتى عام 1981 .

وتقع التناقضات الكامنة في شخصيته وفي إنتاجه في صميم عملنا . فهل كان وفاء هيكل لشخص عبد الناصر ، أم للحلم القومي العربي الذي كان يحمله ؟

أهو رجل مخلص للمبادئ الكبرى للوحدة العربية التي يجب النضال من أجلها حتى

النهاية ، وبكل ثمن؟ أم أنه سياسي انتهازي يبحث عن مصالحه وعن طموحاته الشخصية؟ وكيف يمكن تفسير هذا الوفاء لعبد الناصر عندما نعرف أن هيكل ساعد السادات على الوصول إلى السلطة؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تحيلنا إلى أسئلة أخرى أولية :

1• من هو هيكل ؟
2• ما طبيعة علاقاته مع عبد الناصر والسادات ؟
3• ما الفكرة المحورية في فكره ؟
4• ما أنشطته السياسية ؟
5• هل ظل وفياً لمبادئ عبد الناصر الوحدوية بعد وفاة هذا الأخير ؟
6• لماذا حصلت القطيعة مع السادات ؟

سنحاول ، من خلال الإجابة عن هذه التساؤلات ، أن نقدم نظرة أخرى عن السياسات الناصرية والساداتية ، وعن تاريخ مصر المعاصر خلال رئاسة الرجلين اللذين يبدوان متناقضين بشكل كامل . وذلك على أساس المقالات والكتب ، والحوارات الإذاعية والتلفزيونية لهيكل نفسه ، إضافة إلى مذكرات وكتابات بأقلام رجال سياسة ، وصحفيين ، وباحثين ، من العرب والغرب حول مصر والعالم العربي .

3• المنهج

للإجابة عن هذه الأسئلة ، تبنينا منهجاً ووسائل لا بد من تحديدها ، ومن تحديد أداة هذا البحث .

أ - أيّ مقترب ؟

إن اختيار موضوع بحث هو عملية دقيقة . لأنه يفرض مقاربة جديدة ونظرة مجددة إلى وجهة النظر العربية في التاريخ المعاصر للشرق الأوسط ، وخاصة في الصراع العربي - الإسرائيلي .

كان علينا أن نعيّن حدود هذا الموضوع :

فما يهمنا في هيكل ليس الرجل بذاته . بل رجل السياسة إزاء الأحداث ، ودوره بجانب الرئيسين ؛عبد الناصر والسادات . هذا التناول سيسمح لنا بتحقيق هدف مزدوج :

- إضاءة الأحداث انطلاقاً من رؤية رجل سياسي وكتاباته .
- فهم فكر وسلوك رجل انطلاقاً من الأحداث .

وقد قادنا هذا التناول المتركز على رجل السياسة إلى استبعاد بعض المظاهر المتعلقة بشخصية هيكل وبحياته الخاصة ، ومنها المظاهر النفسية والاجتماعية .

ما يهمنا بالدرجة الأولى ، هو المواجهة بين الرجل ومقاله السياسي ، بين الرجل والواقع السياسي .

ونحن ، هنا ، نتساءل مع المفكر الألماني ماكس ويبر (M. Weber) : " هل يستطيع المرء أن يكون رجل فعلhomme d'action ، ورجل بحث ودراسة homme d'étude ، دون أن ينتقص من رسالة هذا أو ذاك؟ " مميزاً في هذا المجال بين اختلاف المسؤولية (بالنسبة لرجل السياسة) واختلاف الرسالة (بالنسبة للعالم أو الصحفي)[1] . ولذلك ستكون نقطة وفاء هيكل لرسالته النقطة المركزية في بحثنا .

ب - فيما يخص الوسائل .

هنا يتعلق البحث بالمصادر التي أفدنا منها لبلورة هذا العمل : الاقتراب من شخصية هيكل وبناء "موضوع هذا البحث " ، أي مسيرته الصحفية والسياسية . فكان المصدر الرئيس هو أعماله من مقالات وكتب ، ومقابلات ، وأخيراً حوار شخصي معه أُجري في الإسكندرية في شهر آب/ أغسطس عام 1994 . ويبدو أن أهم هذه المصادر هي سلسلة مقالات الأهرام " **بصراحة** " . ولا شك أن أصل هذه المصادر يطرح مشكلة الحيادية طالما أن جميع هذه الوثائق ذو طبيعة ذاتية ، مؤدلجة ، لا تسهل البحث عن موضوعية "علمية" . ورغم ذلك لا يمكن أبداً الاستغناء عنها كونها المصدر الأغنى بعناصر التحليل ، والأكثر

1- Weber, Max, *le Savant et le politique*, introduction Par Raymond Aron, Plon, Paris, 1959, p. 8.

كثافة بالتفاصيل والوثائق الرسمية .

خارج ذلك ، ورغم وجود عدد لا بأس به من المقالات والأعمال حول هيكل باللغة العربية ، إلاّ أننا نادراً ما نعثر على مصدر أكاديمي حول هذا الموضوع . حيث نذكر رسالة الدكتوراة التي قدمها منير ناصرفي الولايات المتحدة الامريكية عن المسيرة الصحفية لهيكل[1] .

ونظراً لضعف المصادر المتيسرة ، فقد لجأنا إلى أعمال أكثر عمومية ، تتناول التاريخ السياسي لمصر والعالم العربي . حيث نلحظ عدم وجود أية وثائق غربية عن هيكل ، في حين أن الكتابات العربية مؤدجلة تماماً ، بمعنى أنها إما مؤيدة جداً للرجل وإما معادية جداً تبعاً لانتماءات كتابها .

ومما زاد أيضاً في صعوبة الالتزام بتحليل سياسي موضوعي ، أن الوثائق المستعملة ، خاصة تلك العائدة إلى هيكل نفسه ، تتسم بالأسلوب الصحفي والأدبي ، الذي يخصص حصة كبيرة للصورة والوصف ، وفنون اللغة ، وأحياناً للخطابة ، رغم اعترافنا بأن لغة هيكل هي لغة دبلوماسية ، لكل كلمة فيها معناها الدقيق وقيمتها في تفسير وفهم القضايا المتعلقة بمصر والعالم العربي .

ونحـن ، هنا ، نعي تماماً محدودية هذه الوسائل ، وقلة عددها ، وطبيعة الالتزام الايديولوجي فيها . لكننا سنحاول رغم ذلك أن نبلور منهجاً لفهم الموضوع ، يسمح لنا بتحقيق موضوعية نسبية .

والحقيقة ، أن المنهج هو الجانب الأكثر حساسية ودقة في البحث . وأكثر ما يمكن أن يتعرض للنقد . ورغم ذلك لا مجال لتجاوزه في مجال العلوم السياسية . ولقد حاولنا أن نتبع سلوكاً يحدد الخلافيات ، لنظهر ، بما لا يقبل الشك القيم بالمعنى الذي قصده ماكس ويبر في كتابه ***العالم والسياسي***[2] . حيث يطرح ويبر قضية الموضوعية عبر كلمات : "الحيادية" أو "علاقة القيم" .

1- Nasser, Munir, *Press, Politics, and Power: Egypt's Heikal and Al-Ahram*, The Iowa State University Press, Ames, 1979.

2- Weber, Max. *op. cit.*, p. 38.

إن علاقة القيم هذه تمس الباحث نفسه ، تمسه كباحث عربي أردني من أصل فلسطيني ، ينظر إلى المشهد السياسي العربي ، بكل ما يتفاعل فيه من أمور مؤثرة بل ومؤثرة جداً .

والواقع ، انه من الصعب الوصول إلى هيكل كموضوع بحث ، في حقيقته الموضوعية المطلقة ، كونه محاطاً بخطاب يقدمه بصورة ونقيضها ، وبمعتقدات تغذي مثال الوحدة العربية الذي يحمله .

وانطلاقاً من الرغبة في البحث عن الموضوعية ، ومن إرادة الفهم دون الحكم والتقييم المسبق ، تشكل هذا البحث من جزئين :

الجزء الأول : نظري – فكري ، يخصص الفصل الأول منه لبدايات هيكل في الصحافة (1942 - 1957) وبداية علاقته بعبدالناصر ، وبالثورة منذ عام 1952 ، وبتأييده الكلي للناصرية ، وموقفه من مواقف المفكرين والمثقفين إزاءها . أما الفصل الثاني فيتناول الرؤية السياسية والفلسفية لهيكل إزاء خصوم الثورة (الإخوان المسلمون والشيوعيون) .

الجزء الثاني : عملي – سياسي ، وسنحاول في الفصل الاول من هذا الجزء أن نحيط بفكر هيكل وأعماله المتعلقة بالواقع السياسي المصري : الإصلاح الزراعي ، والاقتصاد الاشتراكي ، والحزب الواحد ، وسياسة عدم الانحياز عام 1955 ، وأزمة السويس عام 1956 ، وحرب اليمن عام 1962 ، الوحدة المصرية – السورية 1958 - 1961 ، وحرب عام1967 .

كذلك ، سنتناول في الفصل الثاني من هذا الجزء علاقة هيكل بالسادات ، بدءاً من دعم الأول للثاني في الوصول إلى السلطة عام 1970 ، وفي تحالف الرجلين ضد " مراكز القوى" عام 1971 ، ومساهمة هيكل في التهيئة لحرب أكتوبر عام 1973 ، ووصولاً إلى تحليل خلافهما حول اتفاقيات السلام مع إسرائيل عام 1978 .

الجزء الأول

الجزء الأول

بداية العمل الصحفي والالتزام السياسي المبكر

لقد أراد هيكل دائماً أن يكون صحفياً ، وكانت هذه مهنته . ورغم ذلك فإن إرادته في خدمة قضية مصر ، وعشقه للشأن العام ، قاداه تدريجياً للدخول إلى عالم السياسة .

والواقع أن إحساسه بالمشاركة في صناعة تاريخ في طور التشكل ، وفي القضية القومية ، مستقبل مصر ، شكلت دوافع شخصية ومهنية جعلته لا يقتصر على الصحافة ، بل يشارك مباشرة في الحدث السياسي .

لم يصبح هيكل أبداً محترف سياسة ، بالمعنى الذي يقوله ماكس ويبر "يعيش للسياسة il vit (pour) la politique وليس منها non (de) la politique"[1] . ويمكن القول إنه كان يقترب من دوائر السلطة .

بهذا المعنى ينتمي هيكل إلى "الطبقة القائدة " ويقترب أحياناً من أن يكون من "الطبقة الحاكمة" . مع ذلك فإن خصوصيته تكمن في أنه لم يجتز أبداً العتبة نحو "المهنة السياسية" بل انه كان يمارس دائماً الرسالتين في آن واحد .

هكذا يمكن فهم فكر وعمل محمد حسنين هيكل إلى جانب جمال عبد الناصر . إذا اعتبرناهما مجال تقاطع تأثيرين حاسمين ، لكل منهما متطلباته الخاصة : الصحافة بكل ما تتطلبه من حرية واستقلالية فكرية من جهة ، والتزامه بالأيديولوجية الثورية الناصرية كصيغة خاصة للاشتراكية العربية من جهة أخرى .

1- Weber, Max , *op. cit.*, p. 111.

وعن مجالي التأثير هذين تنتج مواقفه إزاء التيارين الاجتماعي والسياسي اللذين يشكلان نوعاً من " التعارض الممنوع " opposition interdite ، الذي تتفاوت مدته بحسب الظروف ، إزاء السلطة الناصرية من وجهة نظر الحركة الإسلامية من جهة ، والحركة الشيوعية من جهة أخرى . فيكون هيكل ، الوفي للناصرية ، صوت السلطة التي تتعارض معهما ، ولا تلتقي باحدهما إلاّ عندما تفرض الظروف السياسية الدولية ذلك . لكن وضعه كصحفي ، سيفرض عليه الحفاظ على مساحة لا يمكن تجاوزها ، من الاستقلالية وحرية الفكر بين السلطة ومعارضيها .

في إطار جدلية هذه التناقضات ، التي يصعب التوفيق بينها – ولا يعني ذلك الاستحالة – يمكن الاحاطة بهوية فكر هيكل وعمله في اطار نظري .

هذا هو طرحنا الذي سنحاول تعميقه في هذا الجزء ، عبر فصلين : يخصص الأول منهما للمسيرة التي قادت هيكل ، تدريجياً ، من الصحافة الى الالتزام السياسي بعبد الناصر . والثاني لمواقفه وممارسته الفكرية المختلفة إزاء الإسلاميين والشيوعيين .

الفصل الأول

هيكل - عبد الناصر: ولادة وفاء أيديولوجي طويل

سيشكل هذا الفصل مناسبة للإشارة إلى نقطتين مترابطتين : من جهة ، مسيرة هيكل الشخصية ، من الصحافة إلى السياسة ، أي المشروع الذي استطاع بواسطته الدخول إلى صفوف " الطبقة الحاكمة " وأن يصبح جزءاً من النخبة السياسية المصرية انطلاقاً من عشقين : للكتابة والصحافة أولاً ، ولمصر والسياسة ثانياً . ومن جهة أخرى ، لقاؤه مع عبد الناصر وتطور هذه العلاقة .

وتشكل علاقة هيكل - عبد الناصر ، صلب الموضوع ، والخط الذي سارت عليه

سلسلتان من الاهتمامات :

– اهتمام شخصي بخدمة مصر . فهيكل يحتاج ، كي يجسد طموحاته بخصوص مصر إلى المضي إلى ما هو أبعد من الصحافة ، وإلى الالتقاء برجال السياسة . ولذلك ، سيجد في عبد الناصر الرجل القادر على أن يكون الرمز ، والرجل الذي يجسد أفكاره ويحققها .

– زعيم سياسي جديد ، يفهم ويتفهم بسرعة أهمية وسائل الإعلام والاتصال لتجسيد مشروعه السياسي .

وهكذا ، فإن قيمة عبد الناصر في النظام السياسي المصري وقيمة هيكل كصحفي ، سيساهمان معاً في تغذية هذه العلاقة وتجسيدها .

هذه العلاقة ستؤكد نفسها ، وتزداد قوة بين الرجلين ، ليس فقط لأنهما يملكان توجهات وتصورات واحدة نحو العمل السياسي العام ، بل لأنهما أيضاً – وعلى ما يبدو – سلكا نفس الطريق الاجتماعي والاقتصادي ، مما زاد التقارب العاطفي والوجداني بينهما .

سنقسم هذا الفصل إلى أربعة أبواب تكفي لإلقاء الضوء على شخصية هيكل . في الباب الأول سنتناول بدايات المهنة الصحفية لدى هيكل ، وسنحاول أن نفهم كيف بدأت مسيرته نحو دوائر السلطة السياسية ، مع اهتمامنا بتحليل بعض المكونات الحاسمة لهذه المسيرة .

بعد ذلك ، وفي الباب الثاني ، نعرض لدوره في انقلاب عام 1952 ، الذي وضع نهاية للحكم الملكي ، وبداية الحكم الجمهوري الناصري .

أما الباب الثالث فيعالج " التفاهم " الذي كان يجمع هيكل وعبد الناصر ، مما سيسمح لنا بالإجابة عن سؤال : إلى أي حد كان هيكل متعلقاً فعلاً بعبد الناصر والناصرية؟

أخيراً ، وفي الباب الرابع ، سوف نتطرق الى واحدة من أهم الأزمات التي هزّت الأوساط الفكرية المصرية في الستينات "أزمة المثقفين" ، وهي القضية المتعلقة بالديمقراطية والثورة ، وهنا أيضاً سندرس مختلف وجهات النظر لدى هيكل .

الباب الأول : من الصحافة إلى كواليس السلطة

إن ما يهمنا في هذا الباب هو العمل الصحفي لدى هيكل قبل ثورة عام 1952 . فقد شكّلت هذه المرحلة من شبابه ، الخطوط الدائمة لشخصيته ، وهي الخطوط التي سنجدها مستمرة على مدى مسيرته المهنية ، والتزامه السياسي وخط سيره الفكري . فقد نمّت فيه هذه المرحلة حس الملاحظة éspirit d'observation ، ونوعاً من الواقعية pragmatisme من جهة ، كما أعطته من جهة أخرى ، فرصة الوصول إلى دوائر السلطة بفضل الاتصالات التي كان يجريها في نطاق مهنته . وكان هذان البعدان في شخصيته متلازمين مع نمطين من الممارسة الصحفية : صحافة الخبر ، وصحافة الرأي .

1- في الصحيفة الإنكليزية " الإيجيبشيان جازيت " (1942 - 1944)

في الأربعينات كانت مصر تجتاز إحدى المراحل الأكثر صعوبة في تاريخها المعاصر . ويعود ذلك جزئياً إلى موقعها الاستراتيجي ، الذي جعل منها منطقة نفوذ ، ومسرح مواجهات بين القوى العظمى . هكذا واجه الإنكليز الألمان في واحدة من أشهر معارك العصر ، "معركة العلمين" عام 1942 التي أسفرت عن انتصار الإنكليز والحلفاء ، ووضعت حدّاً نهائياً لدخول الألمان إلى الشرق الأوسط . وإذا كان هذا الحدث قد ترك آثاره على المنطقة فقد تبعته سلسلة من الأحداث الأخرى الهامة : هزيمة المصريين أمام الإسرائيليين عام 1948 ، والحرب الشعبية ضد الإنكليز المعسكرين في قناة السويس (1950 - 1951) وأخيراً انقلاب عام 1952 ونتائجه .

في هذا المناخ من الانفجارات والتغيرات السياسية بدأ عمل هيكل في الصحافة ، كمراسل بين الإدارة والتحرير في صحيفة (The Egyptian Gazette) الصادرة بالإنكليزية في شباط/فبراير عام 1942[1] . وكان يستغل فرصة مرض أو غياب أحد

1- الحلاوى ، حنفي ، مرجع سابق ، ص 135 .

الصحفيين ليحــل محله ، محاولاً تطوير معارفه الصحفية ، ومتطلبات مهنته الجديدة .

في الوقت نفسه ، كان يتابع دراسته في الجامعة الأمريكية في القاهرة ، حيث التقى أستاذاً سيكون له التأثير الحاسم في مفهومه للعمل الصحفي كان اسمه سكوت واطسون ، ويعمل أيضاً محرراً في الايجبشيان جازيت . وخلال إحدى محاضراته حول "مكونــات الإعــلام " أعطى أمثلة من الحرب الأهلية الإسبانية ، مبيناً نتائج انقسام الأوروبيين بين معسكرين : فاشي – عنصري ، وديمقراطي – ليبرالي . فأثّرت هذه الأمثلة بعمق في تلميذه . ومن جهة أخرى ، جاءت دعوة سكوت واطسون ، لتحدد مستقبله ، ففي ذات يوم ، وقبل انتهاء محاضرته ، طلب هذا الأستاذ من جميع الطلاب المهتمين بالتمارين العملية ، أن يلقوه في مكتبه في الايجبشيان جازيت ، وكان بينهم هيكل الذي يروي هذه الحادثة بتأثّر :

" وجدت نفسي في جو صحافة عملية ، أمارس مهنتي لأول مرة ، بين رجلين كان لهما التأثير البالغ على بنائي الصحفي الأولي ، سكوت واطسون نفسه الذي كان يتمتع ، إضافة إلى قدراته المهنية ، بثقافة يسارية غذّتها تجربة الحرب الأهلية الاسبانية ، بكل ما تحمله من عناصر فكرية وأبعاد إنسانية . وهارولد إيرل رئيس تحرير الايجبشيان جازيت ، وكان صحفياً كلاسيكياً قديراً ، ويعمل في الوقــت نفــسه مراسـلاً لصحيفة مانشستر جارديان الانكليزية في مصر "[1] .

خلال المقابلة ، طلب رئيس التحرير من الطلاب أن يصفوا معركة العلمين من وجهة نظر مصرية ، بما تفرضه هذه التجربة على صعيد المخاطر والمسؤولية الشخصية . وهكذا وجد هيكل نفسه في قلب إحدى أكبر معارك العصر . وهو يتحدث عن هذه التجربة الحاسمة ويصف آثارها على حياته :

" في الماضي ، وعندما كنت أعمل في قسم الأخبار ، كانت جريمة ما تبــدو لي وكأنها قمة المأساة الإنسانية ، هذا ما يحدث عندما يلجأ رجل إلى القوة عنــدما يعجز عن حل

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1984 ، طبعة 3 ، ص26 .

تناقضاته مع الآخرين عن طريق العقل . وخــلال تجربتي الصحفية ، كان يبدو لي وكأن الحرب هي قمة المأساة الانسانية على مستوى الشعوب والأمم . ذاك أنه عندما يقف أحد المجتمعات عاجزاً عن حل صراعاته مع مجتمعات أخرى بواسطة العقل ، فإنه يلجأ إلى القوة " [1] .

بالإضافة إلى العناصر الإنسانية التي حملتها له تجربته في الايجبشيان جازيت ، منحته هذه التجربة نفاذاً في الملاحظة ، وعقلانية واقعية ، وبراغماتية ، أفاد منها بمهارة فيما بعد خلال التزامه الناصري .

وكمراسل عسكري كان هيكل على تواصل مع أحداث خام ، عليه أن يقدم تقاريره عنها بأقصى ما يمكن من الموضوعية والدقة ، كما كان عليه أن يفك رموز تطورات الأحداث وأبعادها الاستراتيجية ، من هنا نشأت لديه ميزة خاصة في تحليل الظواهر في المجالات الأخرى : الدبلوماسية ، والعلاقات الدولية ، والاستراتيجيات العسكرية . ميزة كانت تظهر فيما بعد بشكل بارز ، خلال الأحداث الكبرى التي هزّت المنطقة .

2- في الصحيفة الوفدية "آخر ساعة" (1944 - 1946)

بعد سنتين من العمل مع الصحيفة الإنكليزية ، انتقل هيكل إلى صحيفة ناطقة بالعربية ، ويرئس تحريرها محمد التابعي ، الصحفي المعروف باهتمامه بجمال الأسلوب عبر اللعب الأنيق باللغة . كان هذا الرجل مناصراً لحزب الوفد ، الحزب الوطني المستقل ، والمعروف جداً في العالم العربي كونه حزب سعد زغلول ، الذي يمثل الصورة الزاهية لنضال الشعب المصري في سبيل حريته واستقلاله .

وقد نجح التابعي ، وخلال لقاء عُقد في مكتب هارولد إيرل ، بإقناع هيكل بأنه لن يجد مستقبلاً مهنياً لامعاً في الايجبشيان جازيت ، التي توقع لها التوقف عن الصدور بعد الحرب العالمية الثانية ، تبعاً للروابط التي تصلها بالوجود الأجنبي في المنطقة . فقرر هيكل الانتقال إلى آخر ساعة وكان مما قاله له التابعي :

" الصحفي المصري يجب أن يلعب دوره في مجال الصحافة المصرية ، وباللغة العربية

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص27 .

. . . هذا هو المستقبل "[1] .

وحتى لو كان صحيحاً أن التابعي أراد إقناع هيكل بالعمل معه . فلا شك أن نوايا وطنية ، إن لم نقل قومية كانت تحرك طرحه . لقد تحدّث عن صحافة مصرية ، وعن اللغة العربية ، وعن المستقبل المتوقف عن الالتزام بهذين الخيارين . ويقوي هذا الاحتمال بأن هذا التوجه إلى الحس الوطني قد أثر بشكل حاسم بالرؤية الصحفية والسياسية لهيكل ، وبمشروعه المستقبلي ، منبهاً لديه وعياً لمسؤولياته الوطنية المصرية والعربية .

ففي آخر ساعة ، قام هيكل بأعمال السكرتارية ، كما عمل مراسلاً . وكان يلقب التابعي بـ "ستالين آخر ساعة" في حين كان هذا الأخير يلقبه بـ "ساحر آخر ساعة" ذاك أن هيكل كان يطفح بالحيوية ، يقوم بأعمال السكرتارية ، يلخص تقارير المراسلين ، ينقل له روايات المراسلين الأجانب عن آخر مغامرات الملك فاروق ، ويلعب دور الوسيط بين التابعي والمحررين ، إضافة إلى انكبابه على مقالاته الخاصة[2] .

رغم ذلك لم تكن المرحلة الانتقالية سهلة عليه . ففي حين كان رئيسه السابق هارولد إيرل يعتقد بأن الجريمة والحرب ، هما المجالان الأفضل لتكوين صحفي جديد ، كان رئيس التحرير الجديد يعتقد بان المسرح والبرلمان هما المجالان الأفضل لذلك . ويعكس هذا الاختلاف في النظرة إلى دور الصحافي ، اختلافاً ثقافياً وسياسياً . ففي حين كان إيرل ينتمي إلى امبراطورية استعمارية كبرى ، لا يمكن الحفاظ على هويتها ووجودها ، إلا بالحرب والأمن الداخلي ، كان التابعي يرى في المسرح مجال التعبير عن تطلعات الشعب المصري نحو الحرية والاستقلال ، خاصة وأن مصر ترزح تحت الاحتلال البريطاني . أما البرلمان فهو دون شك أحد الخصائص المميزة للسلطة قبل مجيء عبد الناصر . ورغم كونه الساحة التي تتفجر فيها تناقضات السياسة المصرية ، بين السلطة والإنكليز ، فإنه كان يحمل الكثير من المعاني الرمزية منذ تبنيه لدستور 1923 ، بعد الثورة الشعبية التي قادها سعد زغلول عام 1919 .

وفي كل الأحوال ، يمكن التأكيد على أن هذه المرحلة من تجربة هيكل المهنية كانت

1- هيكل محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسية" ، مرجع سابق ، ص 28 .

2- همام ، طلعت ، " هيكل الرجل اللغز : القصة الكاملة لعلاقة عبدالناصر وهيكل " ، دار نصّار للنشر والتوزيع ، الكرك ، 1984 ، ص13 .

مرحلة البحث عن توازن جذري بين ثلاث صفات تجتذبه : عقلانية إيرل ، ورومانسية واطسون ، وجمالية أسلوب التابعي .

داخل الصحيفة الجديدة ، عرف هيكل أول اتصالاته الحاسمة بدوائر السلطة . حيث أُسند إليه نشر مقالات عن الحياة السياسية والوطنية ، وعن الأحزاب السياسية . ويقول الكاتب طلعت همام :

" كان هيكل يبرهن عن صبر عجيب في جمع المعلومات عن زعماء الأحزاب . ويروي أنه ظل ليلة ونهاراً بأكملهما (24 ساعة) واقفاً أمام منزل الدكتور محمد حسين هيكل[1] زعيم الحزب الليبرالي الدستوري ، وهو حزب الأرستقراطية المصرية ، ليعرف ما إذا كان أحد الوزراء الوفديين سيأتي لزيارته . وذلك لأنه كان يشك بأن هذا الوزير يسرّب للمعارضة معلومات عن حزب الوفد الحاكم آنذاك"[2] .

لقد أتاحت مجلة آخر ساعة دخول هيكل الى كواليس السلطة السياسية ، ويبدو انه حافظ طوال حياته على انطباع جيد عن رئيسه محمد التابعي :

" أعتقد أنني كنت آخر تلاميذه ، وأنني ظللت الأكثر قرباً منه . كان يقدر عملي ، ويعتبرني واحداً من (اكتشافاته) . كانت علاقتي الودية به ، إضافة إلى صفاته الإيجابية ، تسمح لي بالتحدث إليه دون حواجز "[3] .

ويمكن أن نقول دون مبالغة ، إن هيكل استطاع في هذه الصحيفة أن يعبر عن آرائه الشخصية ، عابراً من صحافة الخبر التي كان يمارسها في الايجبشيان جازيت إلى صحافة الرأي . والأصح أن نقول إن الثانية قد أضيفت إلى الأولى ، وتعايشتا معاً بطريقة جدلية .

وبما أن آخر ساعة كانت وفدية ، أي أنها ضد الملك والإنكليز ، فإنها لم تستطع الصمود مالياً بعد سقوط الوفد عام 1944 [4] وأمام صعود صحيفة أخبار اليوم التي دعمها الملك ،

1- هو كاتب أول رواية قصيرة باللغة العربية وعنوانها : "زينب" عام 1914 .

2- همام ، طلعت ، مرجع سابق ، ص13 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص31 .

4- خرج الوفد من الحكم باستقالة 8 تشرين الأول/ اكتوبر عام 1944 بضغط من الانكليز ، فانتقل مع مجلة " آخر ساعة" إلى صفوف المعارضة في مواجهة حكومة أحمد ماهر زعيم حزب السعديين المقرب من القصر .

وأصبحت بسرعة صحيفة شعبية .

وعلى الرغم من انتقال هيكل للعمل في هذه الصحفية الجديدة ، إلاّ أنها اعتبارات مالية ، تلك التي دفعته للانتقال إلى الصحيفة الجديدة أخبار اليوم ، وليست اعتبارات أيديولوجية أو وصولية ، كما يؤكد البعض مثل محمد جلال كشك في كتابه : ***ثورة يوليو الأميركية***[1] أو فؤاد زكريا ولكن بطريقة أقل هجومية في كتابه : ***كم عمر الغضب : هيكل وأزمة العقل العربي*** [2] . وقد شجعه التابعي نفسه على ذلك . إضافة إلى أنه لم يتردد ، في هذه الصحيفة الثالثة ، وفي مناسبات كثيرة على أن يؤكد على آراء معارضة للمبادئ الأيديولوجية التي تتبناها هذه الصحيفة .

3 – في الصحيفة الملكية " أخبار اليوم " (1946 - 1957)

إزاء الوضع الدقيق ، لم يعد بإمكان مجلة آخر ساعة أن تستمر ، مما اضطر التابعي لأن يبيعها لأصحاب صحيفة أخبار اليوم الأخوين مصطفى وعلي أمين[3] ، اللذين طلبا من هيكل أن يشغل سكرتارية تحرير الصحيفة القديمة ، ومساعد رئيس تحرير صحيفة أخبار اليوم فقبل ، لكن علاقاته مع الأخوين أمين لم تكن أبداً واضحة . فعلى سبيل المثال :

خلال محاكمة حسين توفيق ، الذي اغتال رئيس الوزراء عثمان باشا ، أراد صاحبا الصحيفة الأخوان أمين أن يقدما القاتل بشكل إيجابي بسبب تأييدهما للملك . في حين أصرّ هيكل على التعامل مع القضية كجريمة ، والخروج بالاستنتاجات الضرورية .

ولم تتوانَ الخلافات عن البروز في مناسبات أخرى . فحين توقيع اتفاقية صدقي–بيفن[4] بين مصر وبريطانيا ، التي تتعلق بإخلاء القوات الإنكليزية لقناة السويس ، كتب

1- كشك ، محمد جلال ، " ثورة يوليو الاميركية : علاقات عبدالناصر بالمخابرات الأمريكية" ، منشورات الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1988 ، ط 2 ، ص 237 - 238 .

2- زكريا ، فؤاد ، "كم عُمر الغضب : هيكل وأزمة العقل العربي" ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، 1983 ، ط1 ، ص 79 .

3- مصطفى وعلي أمين : ينتميان إلى أسرة معروفة ، خالهما سعد زغلول ، مؤسس الوفد ، وقد تخرج مصطفى من جامعة جورج واشنطن ، قسم العلوم السياسية . ومع مجيء عبد الناصر أتهم في أعمال تجسس لصالح الاميركيين فسجن الى أن أطلق سراحه أنور السادات .

4- معاهدة وقعها عام 1950 وزير الخارجية المصري صدقي باشا ، ووزير الخارجية البريطاني بيفن . وتنص على أن يخلي الجيش الانكليزي المدن المصرية الكبرى ويتجمع في قطاع قناة السويس .

مصطفى أمين مقالاً في أخبار اليوم بعنوان : " نوقعها ونلعنها" في حين نشرت مجلة آخر ساعة بتأثير من هيكل مقالاً بعنوان : " إذا كنا سنلعنها فلماذا نوقعها ؟ "[1] .

هذه الاختلافات في وجهات النظر ، التي تعكس خلافات سياسية عميقة ، كانت سبب تغير طبيعة النشاط الصحفي الذي كان يمارسه هيكل في تلك الفترة . ففي حين كان اهتمامه يتركز سابقاً على القضايا السياسية ، نراه يغير لفترة بؤرة اهتمامه ويكتب عدة مقالات عن الوضع الصحي في شرقي مصر حيث ينتشر داء الكوليرا . لكن هذا التحول عاد عليه بجائزة صحفية هامة هي " جائزة الملك فاروق" . وهو يقول في هذا الصدد :

" أعتقد أن التقارير التي كتبتها عن الكوليرا استرعت انتباه الكثيرين في مصر ، لأنني كوفئت بعدها بجائزة الملك فاروق المخصصة للصحفيين العرب . وكان لهذه الجائزة قيمة كبرى في حينها ، خاصة في أوساط الصحفيين الشباب "[2] .

وقد شجّع هذا النجاح هيكل على أن يطلب من الأخوين أمين ، إرساله إلى الخارج ، ليصف الأحداث العالمية . وينطوي هذا الطلب على عدة معانٍ :

– أولاً : أنها ترمز إلى الطموح الشخصي لهيكل ، الذي كان يريد أن يبلغ أعلى درجات السلم الاجتماعي والمهني . وهو الصاعد من أصل اجتماعي متواضع إلى حد ما ، فقد كان أبوه تاجراً صغيراً يسكن أحد الأحياء الأكثر ازدحاماً وفقراً في القاهرة . وربما كان يريد أن يغير جذرياً ظروف حياته . ولدى لقائنا به رفض كلياً هذا التحليل قائلاً : " صحيح أننا لم نكن أغنياء لكننا لم نكن فقراء"[3] . غير أن مصطفى أمين يعتقد بأنه كانت لدى هيكل عقدة نقص تربوية واجتماعية[4] .

– ثانياً : وبما أنه كان قد حقق ما يريد من الشهرة الصحفية على المستوى المحلي . فقد أراد أن يجرب حظه على المستوى الدولي . وعلى أية حال قُبِل طلبه ، وأصبح مراسلاً لمنطقة الشرق الأوسط . فغطى حرب اليونان ، وحرب فلسطين عام 1948 ، ومقتل الملك عبدالله

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة " ، مرجع سابق ، ص40 .

2- المرجع نفسه .

3- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

4- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 123.

في القدس عام 1951 ، ومقتل رياض الصلح في عمّان . كما اهتم عن قرب بثورة محمد مصدق في إيران عام 1951 ، وأخيراً حرب كوريا والهند الصينية . وقد أغنت هذه التجربة معرفته بواقع هذه الدول ، وباللعبة السياسية الدولية .

خلال السنوات الخمس التي أمضاها مراسلاً من عام 1946 إلى عام 1951 ، حصل هيكل ثلاث مرات على جائزة الملك فاروق ، مما قوى علاقاته مع الأوساط السياسية والإعلامية . وفي ذلك يكتب :

" اكتشفت أن كثيرين من الناس يهتمون بما كنت أكتب ، ثم أصبحت على اطلاع بما يحدث في دول أخرى . ثم أقمت اتصالات مع رجال سياسة ، ومع جيل كامل من الصحفيين في كل أنحاء العالم . لكن الأمر الأكثر حسماً هو أن أبواب السياسة المصرية قد فتحت على مصراعيها أمامي"[1] .

هكذا ، تم استدعاؤه إلى مكتب رئيس الوزراء محمود باشا النقراشي ، للاستفسار عن عدة أمور تخص الوضع في فلسطين ، وذلك قبل أن تدخل مصر حرب عام 1948 ضد إسرائيل . حيث أن هيكل كان قد نشر سلسلة من المقالات بعنوان : "النار فوق الأرض المقدسة" سرعان ما لفتت أنظار الرأي العام والسياسيين إليه ، لأنها تؤكد على حقيقة الظروف الحرجة التي يمثلها الوضع في فلسطين . ويدعو فيها إلى تدخل مصري محسوب لنصرة الأخوة العرب هناك ، في حين كانت الدولة تقلل من شأن الحرب في فلسطين . وفي هذه المقالات يظهر بوضوح تأثير التابعي من الناحية القومية ، وتأثير واطسون من ناحية البعد المغامراتي .

في كتاب ***أيتها القدس*** يعلّق الكاتبان لابيير دومينيك ولاري كولين على المساهمة الفكرية لهيكل في النقاش الفكري والسياسي الدائر حول الوضع في فلسطين في تلك الفترة ، مدللين على واقعيته وبراغماتيته في الوصف والتحليل فيقولان[2] :

" هذه المرة ، استطاع رئيس الوزراء محمود النقراشي أن يمضي على طريق الحرب دون

1- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص41 .

2- Lapierre, Dominique. Collins, Larry, *ô Jérusalem*, Robert Laffont, Paris, 1971, p. 314.

أفكار مسبقة ، فقد أمر بأن تتصدر قضية فلسطين الصفحات الأولى في جميع الصحف لتحريك بلادة الشعور السائدة ، ولإيقاظ غرائز الحرب . ثم انتشرت على جميع الجدران ملصقات تمثّل خنجراً يقطر منه الدم على حارس يحمل نجمة داوود . لكن بعض الأصوات كانت تحاول أن تمنع رئيس الوزراء من هذا الاسلوب ، خاصة محمد هيكل ، فقد كان هذا الصحفي الشاب عائداً لتوه من فلسطين ، وكانت تقاريره تصف اليهود كأعداء شجعان ومنظمين . فطلبه النقراشي باشا وطلب إليه أن يعدل لهجة تقاريره التي تقوض معنويات الأمة" .

وفي عام 1952 استشير هيكل في تشكيل الوزارة الجديدة :

" عندما كُلف نجيب الهلالي بتشكيل الوزارة ، في آذار/ مارس عام 1952 ، سألني - من ضمن من سألهم - عمن أراهم مناسبين لشغل بعض الوزارات . كانت تلك هي المرة الأولى التي أجدني فيها في قلب لعبة سياسية كبيرة . وأذكر أنني نصحته بمحمد نجيب لوزارة الحرب ، ولكنه عندما اقترحه على الملك ، رفضه هذا الأخير"[1] .

والخلاصة ، أن العمل الصحفي وضع هيكل تدريجياً على الطريق المؤدي إلى قلب دوائر السلطة السياسية ، وكون لديه فكراً واقعياً وبراغماتياً ، ومنحه معرفة قوية بالواقع السياسي وباللعبة الاستراتيجية الدولية . وقد برهن في هذا المجال على استقلالية حقيقية في الرأي ، ضمن حدود الخيارات المتاحة له حينها .

كصحفي كان العمل هو ما يهمه ، إنه صحفي ميداني يمضي إلى الحدث . هذا الانجذاب القوي للفعل ، يبرر قطعاً إصراره كمراقب على المضي إلى ما هو أبعد ، أي إلى تجاوز الصحافة والمشاركة في صناعة الحدث . وهكذا فإن مسيرته ستؤدي به لا محالة إلى المشاركة ، بطريقة أو بأخرى ، في ثورة عام 1952 إلى جانب عبد الناصر كما سنرى .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص43 .

الباب الثاني: دور هيكل في ثورة عبد الناصر

ثمة طرحان بخصوص لقاء عبد الناصر بهيكل ؛ الأول يعيد لقاءهما الأول إلى أسبوع واحد قبل ثورة عام 1952 ، أي إلى 18 تموز/يوليو عام 1952 . والثاني ، وهو الاحتمال الأقرب ، يشير إلى عدة لقاءات بينهما منذعام 1948 ، ففي ذلك الوقت كان هيكل يعمل مراسلاً لصحيفته في فلسطين يغطي أحداث غزة .

وكان عبد الناصر الذي يُعد مشروعاً سياسياً سرياً داخل الجيش على علاقة بالعديد من الصحفيين ، ومنهم هيكل ، الذي أصبح صحفياً مشهوراً ومعترفاً به ، والذي كان أسلوبه يعجبه . وكان عبدالناصر يعرف أيضاً أن هيكل يملك الكثير من المعلومات ، بل انه منزرع في شبكات المعلومات ، سواء داخل البلاد أو في خارجها .

وهكذا ولدت علاقة دامت ثمانية عشر عاماً ، وكانت المرحلة الأولى فيها ، أي مرحلة تحضير الانقلاب ، هي الأكثر أهمية . وإذا كان دور هيكل أمراً مؤكداً ، فإن تحديد مداه وقيمته أمر غامض :

هل كان عبد الناصر يستغله ويحركه كيفما شاء؟ هل استغلته القوى الثورية؟ أم انه كان واعياً تماماً للدور الذي يريد عبد الناصر منه أن يلعبه في المستقبل؟

تساؤلات سيكون للصفحات التالية مجالٌ لتعميقها .

1- هل مصر بحاجة لثورة؟

عشية الثورة ، كان الشارع المصري في حالة غليان . فمن جهة كان الوجود الإنكليزي ناشراً سلطته المهيمنة والقامعة . ومن جهة أخرى ، كانت الحكومات تتعاقب ، ولكن دون تغيير حقيقي في تكوينها . وجاء حريق القاهرة في كانون الثاني/يناير عام 1952 ، ليترجم استياءً شعبياً عاماً ، ونشاطاً سياسياً محموماً .

هكذا وجد الضباط الأحرار ، وهم تجمع عسكري يقوده عبد الناصر ، ويهدف إلى تغيير النظام السياسي ، ويضم شباباً نشيطين ، مشبعين بالطموحات السياسية ، وجد في حريق

القاهرة نبوءة تبشر بسقوط نظام الملك .

في البداية ، لـم تكن حدود البرنامج الذي يطرحه الضباط الأحرار دقيقة وواضحة ، رغم أنه "برنامج يساري" بمعنى اجتماعي أكثر منه سياسي . ولكن عبد الناصر شكّل بنيته فيما بعد ، ليصبح عقيدة محددة هي "الناصرية" .

في هذا السياق حصل التغير النوعي في حياة هيكل . فبسبب الاتصالات التي نمّاها كصحفي مع دوائر السلطة ، وجد نفسه فجأة في قلب انقلاب عام 1952 . وهنا لـم يتردد في الإفادة من تجربته الصحفية في تقديم النصائح الثمينة لعبد الناصر ، حول الخيارات الاستراتيجية الضرورية لنجاح الثورة .

صحيح أنه من الممكن أن تطرح بعض التساؤلات حول وعي أو عدم وعي هيكل لنتائج المعلومات والتحليلات التي أعطاها لعبد الناصر . إلاّ أنه من المؤكد أن هذا الموقف ، المقصود أو غير المقصود ، يمثل تحولاً والتزاماً سياسياً بالخط الناصري . على الرغم منه أنه لـم يكن ملموساً بشكل واضح في البداية لكنه لـم يلبث أن تحدد تدريجياً فيما بعد .

فخلال عام 1952 ، انقسم الرأي العام المصري إلى ثلاث جبهات : أقلية مؤيدة للملك ، وحزب الوفد الوطني ذو الشعبية الكبيرة ، ولكن غير القادر على طرح مبادرة حقيقية ، وأخيراً جماهير شعبية غارقة في أزمة متعددة الأبعاد . ففي خلال الأشهر الخمسة الأولى فقط من عام 1952 ، تعاقبت على مصر خمس حكومات ، دون أن يحصل أي إصلاح في بنية السلطة وآليات عملها[1] . لذا كان حريق القاهرة النتيجة الطبيعية لحالة الاستياء الشعبي التي بلغت حدّها الأقصى .

" ففي 25 كانون الثاني/ ينايرعام 1952 ، حوصـــرت ثلة من شرطة الدرك المصرية في الإسماعيلية وأنذرت بتركها . وعندما رفضت الانصياع ، ضربت بالمدفعية الخفيفة والدبابات ، لكنها قاومت وصمدت ببسالة . مما أوقع أكثر من سبعين قتيلاً وتضحيات كبيرة وغير عادلة ، والآم فرضت على أناس شجعان باسم إنكلترا . وقد أثرت أنباء هذه الجزرة كثيراً في الرأي العام ، وفي اليوم التالي شهدت شوارع القاهرة مظاهرات تحولت إلى جنون عنف .

1- عام 1952 ، تغيرت خمس حكومات في مصر : الأولى حكومة النحاس ، ثم علي ماهر ، ثم نجيب الهلالي ، فحسن سري ، وأخيراً حكومة نجيب الهلالي . من أجل فهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مصر قبل الثورة انظر :
La couture, Jean et Simon, *l'Egypt en mouvement*, Seuil, Paris, 1956.

وقد كان يوم 26 كانون الثاني/ يناير، المشهور بالسبت الأحمر le Samedi rouge يوماً حزيناً"[1].

من جهته، يعلق المستشرق جاك بيرك على حريق القاهرة بالقول:

" لقد عاشت القاهرة يوماً مظلماً. ارتفعت ألسنة النيران فوق مبانٍ مشهورة، مثل فندق شبرد المعروف وفوق المتاجر الكبيرة وفوق النوادي التي كانت مكان الإجازة المفضل للإنكليز. فقتل الكثير من الأبرياء في هذه الفوضى. كان الشعب يندفع أمواجاً غاضبة، والشرطة لا تحرك ساكناً ومثلها عمال المطافئ. ولم يعد النظام إلا في نهاية النهار، عندما تدخّل الجيش أخيراً بعد أن أصاب الحريق أكثر من 700 عمارة ومتجر"[2].

في تحليله للظروف التاريخية المحيطة بهذا الحدث يقلل هيكل من دور الجيش (خاصة لدور الضباط الأحرار) لينفي مساهمته في مذبحة السبت الأحمر. لكن كتّاباً آخرين مثل ندى توميش، تعطي لهذا الدور أهمية كبرى. وتقول في كتابها ***مصر الحديثة***:

"عندها وعى الجيش تماماً، وربما للمرة الأولى، مدى قوته، وتصميمه على التحرك في أقل مهلة ممكنة"[3].

وعلى العكس من ذلك، يرى هيكل أن هذا الحادث كان أحد الأسباب التي بررت تدخل الضباط الأحرار لتطبيق خطة سلام وطني، لمنع تدهور البلاد وغرقها في الفوضى، ولمباشرة عملية التغيير الاجتماعي – الاقتصادي، والسياسي، الذي بات يفرض نفسه:

" بعد حريق القاهرة عام 1952، أضحى من المسلم به أن مصر تعيش وضعاً ثورياً وشيكاً. كانت جميع الظروف تشير بوضوح الى أنها ستفضي حتماً إلى نظام جديد. ولم يعد السؤال حول التغيير هو: هل نقوم به أم لا ؟ وإنما متى نقوم به؟ ومن يقوم به؟ وكيف؟"[4].

1- El-Sadat, Anwar, *Révolte sur le Nil*, préfacé par le Président Nasser, Pierre Amiot, Paris 1957, p. 184.

2- Berque, Jacques, *L'Egypte : impérialism et révolution*, Seuil, Paris, 1967, p. 705.

3- Tomich, Nada, *L'Egypte Moderne*, P.U.F., Paris, 1966, p. 70.

4- هيكل، محمد حسنين، " ملفات السويس: حرب الثلاثين سنة "، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1986، ط1، ص139.

ويبدي جاك بيرك الرأي نفسه في كتابه ***مصر : إمبريالية وثورة*** حيث يكتب انه كان على مصر أن تبدأ مرحلة أخرى من تاريخها . طالما أن الظروف التي أحاطت بحريق القاهرة قد دلّت على أن الشعب يحس ، بل ويعرف ، بأن المستقبل مفتوح على الأمل . وأنه أمام مصر أن تعيد صياغة العالم أيضاً [1] . وقد رأى أن الحريق هو مؤشر انقلاب كامل في الحياة السياسية المصرية :

" لقد طال الشك كل الجهات السياسية ؛ الوفد اتهم بأنه يريد إزالة الملكية ، وإحراج الخصوم . الملك إتهم بأنه أراد سحق الوفد تحت وطأة الفضيحة أو بأنه أراد بأسلوب مكيافيلي إثارة هذا الفريق أو ذاك ، ممن يريد دفنهم تحت حجب العار . كذلك اتهم المتطرفون أيضاً ؛ الإخوان المسلمون والشيوعيون ، وأكثر منهم أنصار أحمد حسين [2] الذين جعلوا كبش فداء ، وبالطبع الإنكليز وحتى الفرنسيون . باختصار لم ينج أي من الفرقاء الموجودين في تلك المرحلة من أصابع الاتهام"[3] .

ويشكل هذا الحادث دليلاً على مدى البلبلة والاضطراب التي كانت تسود الحياة السياسية المصرية ، إضافة إلى انه ينقض ما يعتقده البعض امثال المفكر فؤاد زكريا ، من أن الوفد كان قادراً على طرح بديل ديمقراطي حقيقي ، قطعت الثورة الطريق عليه[4] .

بعد حريق القاهرة المشهور ، وتلاحق تغيير الحكومات ، كان الجيش أيضاً غير مستقر ، ومنشغلاً بالوضع العام . هذا الانشغال ، وعدم الاستقرار ، هما ما ترجم حرباً مفتوحة بين القصر والضباط الأحرار خلال انتخابات مجلس إدارة الجيش . حيث بذل الملك كل جهده ليوصل أحد رجاله إلى هذا المجلس ، بينما رشح الضباط الأحرار محمد نجيب ، الذي فاز على منافسه ، عندها أمر الملك بحل المجلس وعيّن رجله ، مما عرض هذا الأخير لمحاولة اغتيال[5] .

1- Berque, Jacques, *op. cit.*, p. 709 .

2- زعيم حزب مصر الفتاة . كان مؤيداً للنازية ، وبعد الثورة غير اسم حزبه إلى " الحزب الاشتراكي المصري" .

3- Berque, Jacques, *op. cit.*, p. 708.

4- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص71 .

5- مطر ، فؤاد ، "بصراحة عن عبد الناصر : حوار على مدى 20 ساعة مع محمد حسنين هيكل" ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1989 ، ط6 ، ص17 .

2- هيكل مستشار الثورة

في كتابه المعنون : ***ثورة يوليو وعقل مصر*** يسلّط أحمد حمروش الضوء على دور هيكل في الثورة ، وعلى علاقاته بعبد الناصر في مرحلة تفتحه . وعند سؤاله لهيكل عن هذه النقطة ، وصف هيكل ما اعتبره تجربة صحفية بالقول "لقد كان دوري هو دور الحوار الصريح مع زعيم الثورة"[1] (مساهمة في منطق سير العملية الانقلابية ، قد لا تكون واعية تماماً ، لكنها تلامس حدود الوعي) . ويقول هيكل حول نفس الفكرة :

" يوم 18 تموز/يوليو ، عندما التقيت عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في منزل محمد نجيب ، يومها قلت لنجيب إن الجيش لـم يكن عام 1948 مؤهلاً (للدفاع عن بلاده) ، وهو اليوم غير مؤهل (للدفاع عن شرفه) وعندئذٍ سألني عبد الناصر إذا كـان علينـا أن نكرر مأساة أحمد عرابي[2] . وعند الخروج من منزل نجيب التقيت عبد الناصر وعامر للمرة الثانية ، فدعوتهما للركوب في سيارتي وكان عبد الناصر يتحدث عن إمكانية حصول تدخل إنكليزي . فأجبته : (لا أعتقد بأنهم يستطيعون التدخل) ورحت أعدد له الأسباب . فبدا مهتماً بما كنت أقول"[3] .

لاشك في أن الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر كانوا قد وضعوا في ذهنهم مشروع القيام بانقلاب[4] ، عندما حصل هذا اللقاء في 20 تموز/يوليو بين هيكل وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، أي قبل بضعة أيام من حصول الثورة . ولم يكن من المحتمل أن تغيب أبعاد الأسئلة المذكورة عن فهم هيكل . لأنها كانت أسئلة لا فائدة منها إلا لمشروع عمل سياسي واسع النطاق . وكانت إجابات هيكل بليغة . فهو إذ راح يعدد لعبد الناصر وعامر الأسباب الاستراتيجية لاستحالة تدخل الإنكليز في حال قيام العسكريين المصريين بعمل ما ، لخّصها بالنقاط التالية[5] :

1- حمروش ، احمد ، "ثورة يوليو وعقل مصر " ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1985 ، ص269 .

2- أحمد عرابي باشا ، ضابط مصري ورمز للمقاومة الوطنية ، فرضه الخديوي توفيق وزيراً للحرب عام 1881 هزمه الانكليز في أيلول/سبتمبر عام 1882 ونفوه .

3- حمروش ، احمد ، مرجع سابق ، ص270 .

4- El-Sadat, Anwar, (1957), *op. cit.*, p. 193.

5- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة" ، مصدر سابق ، ص49 - 50 .

1- لا يملك الإنكليز إلا وحدة عسكرية واحدة في منطقة القناة ، وستكون غير كافية للتدخل في مصر كلّها ، في حال حصول حالة تمرد .

2- ان ونستون تشرشل عاد الى الحكم البريطاني بعد وزارة العمال التي رأسها آتلي ، وهو يدرك أن الرأي العام البريطاني يريد سلماً ولا يريد حرباً .

3- تواجه الحكومة البريطانية مشاكل كبرى مع الدكتور محمد مصدق الذي يريد تأميم نفط إيران . ولذا فهي لا تستطيع فتح جبهة أخرى في الشرق الأوسط .

4- خلال حفل عشاء في منزل اللواء المصري أحمد شوقي ، عرف هيكل أن السفير البريطاني في إجازة ، وأن الملحق العسكري يتهيأ أيضاً لأخذ إجازة والسفر إلى لندن[1] .

وفي كتابه الصادر مؤخراً باللغة العربية ***ملفات السويس*** يؤكد هيكل على دوره الحاسم في الخيارات الحاسمة للضباط الأحرار :

" المسألة الكبرى كانت معرفة ما إذا كان الإنكليز سيتدخلون لحماية النظام . وقد انضم عبد الناصر إلى الرأي القائل بأنهم لن يفعلوا . واعتقد أنني لا أخون الحقيقة إذا قلت إنني كنت صاحب هذا الرأي . وكان هذا أول دور لعبته إلى جانب عبد الناصر"[2] .

إن كون هذا القول صادراً عن هيكل نفسه ، يبقيه موضع حذر . ولا شيء ينفي أو يؤكد أنه لم يستشره في هذه المسألة بالتحديد . ولكن يبقى أن هيكل أصبح منذ هذه اللحظة المستشار الرئيسي لعبد الناصر .

3- هيكل الوسيط

بعد أن انتهى التحضير بدقة متناهية . بدأ تنفيذ العملية الانقلابية في الساعة الحادية عشرة ليلاً من يوم 22 تموز/يوليو عام 1952 ، باحتلال مقر القيادة العامة للجيش . وأعلن اللواء محمد نجيب قائداً عاماً رغم انه لم يكن من الضباط الأحرار .

1- هذا يعني عدم وجود اتصال بين لندن والقاهرة ، وبالتالي ، فإن حكومة جلالتها لم يكن لديها معلومات بما يحضره الجيش .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة " ، مصدر سابق ، ص145 .

وفي ليلة 23 تموز/يوليو عام 1952 ، أرسل عبد الناصر في طلب هيكل للحضور إلى مقر إدارة الجيش ، حيث يتواجد الضباط الأحرار . فجاء إليه وكان يعرف أن العاصمة أصبحت في يدهم . دون أن ينسى كما يقول في كتابه ***بين الصحافة والسياسية*** دوره كصحفي .

وفي الساعة الثانية والنصف صباحاً من يوم 23 تموز/ يوليو ، كان هيكل في مقر هيئة أركان حرب الجيش ، ورأى بأم عينيه تغيير تاريخ مصر ومستقبله ، ومع ذلك ، لم ينسَ مهنته كما يقول ، فاتصل هاتفياً بصحيفته ليطلع رئيس التحرير مصطفى أمين على ما حصل ، فطلب منه هذا الأخير رقم الهاتف ليجعل هلالي باشا ، (آخر رئيس وزراء في ظل النظام الملكي) ، على اتصال به وبالعسكريين ، وبعد موافقة عبد الناصر ، أعطاه هيكل رقم الهاتف ، وبما أن هلالي باشا كان يعرف بأن هيكل يعرف الضباط الأحرار جيداً ، كما يعرفُه شخصياً ، فلقد أراد منه أن يلعب دور الوسيط ، ولذلك اتصل بهيكل وسأله عن أهداف التحرك العسكري ، فنقل هيكل السؤال إلى عبد الناصر ، الذي قال له بأنه سيعرف الإجابة عبر الإذاعة في الساعة السابعة . فعرض عليهم هلالي الذهاب إلى القصر الملكي لمطالبة الملك إصدار مرسوم ملكي يُعيّن بموجبه ضابطاً كبيراً يتمتع بثقة الجيش على رأس الإدارة العامة للجيش ، وذلك لتجنيب البلاد الانقسام الذي قد ينتج عن تغيير يتم خارج الإطار الدستوري . بعد ذلك أعلن لهم هلالي باشا بأنه مستعدٌ للاستقالة من منصبه إذا كان الجيش يريد ذلك . وافق عبد الناصر على هذا الاقتراح الأخير وقدم رئيس الوزراء استقالته ، بعد أن طلب من الملك نفسه ألاّ يستنجد بالإنكليز كما فعل عمه توفيق باشا مع أحمد عرابي[1] ، لأن ذلك سيقود البلاد إلى كارثة محتومة وبحسب رأي هيكل ، " فإن الملك فاروق تظاهر بقبول هذه النصيحة لكنه حاول في الواقع أن يتصل بالسفارة الإنكليزية ، ولكن عبثاً"[2] .

تعتبر هذه المرحلة رمزاً للثنائية في دور هيكل إلى جانب عبد الناصر ؛ فهو إضافة إلى دوره كصحافي ، يفرض نفسه في الواقع "كمستشار حقيقي للأمير" ، وهكذا لم يتردد في التدخل مباشرة في الأعمال السياسية التي كان يقوم بها عبد الناصر . وبدون أن يكون صاحب دور سياسي بالمعنى الدقيق ، فإن هيكل قد كان غالبا "مراقباً

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة " ، مرجع سابق ، ص52 وما يليها .
2- المرجع نفسه ، ص 57 .

ملتزماً" spectateur engagé بحسب تعبير ريمون آرون ، على الأقل في بداية مرحلة الانقلاب .

وفي كل الأحوال ، فإن الانقلاب قد نجح . واضطر الملك فاروق إلى ترك مصر إلى إيطاليا . وفي 26 تموز/يوليو عام 1952 انتقل الشعب المصري ، تدريجياً ، من النظام الملكي إلى نظام جديد هو النظام " الجمهوري الديمقراطي " .

انها الثورة البيضاء التي تحققت بدون إسالة دماء . ثورة الضباط الأحرار التي تعتبر بدون شك الحدث الأكثر أهمية في تاريخ الشرق الأوسط منذ الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية عام 1916 [1] .

وانطلاقاً من هذه المساهمة الأولى المباشرة إلى حد ما إلى جانب عبد الناصر ، سنرى هيكل يؤكد تدريجياً دعمه لعبد الناصر ولنظامه مغذياً بذلك "وفاءً سياسياً - عاطفياً " Politico-affective سيميز علاقة الرجلين بحسب تعبير جان لاكوتور[2] .

1- Encyclopédie du Monde Actuel, *les Arabes*, Livre de poche, Sans date, Paris, p. 260.
2- Lacouture, Jean, *Nasser*, Seuil, Paris, 1971, p. 316.

بعد العملية الانقلابية ، قبل هيكل أن يصبح منظّر عبد الناصر ، الذي كان بحاجة إلى من يصوغ له فكرهُ ويكسبه بذلك شرعية سياسية لدى الشعب المصري .

أما بالنسبة لهيكل ، فكان قبوله لهذا الدور وسيلة تجعله يرى أفكاره توضع موضع التطبيق على الأرض . وهي أيضاً تمثل علاقة ثقة إزاء هيكل الذي أصبح "ريشة" الرئيس عبدالناصر .

ثمة تلاقٍ في الاهتمامات بين الرجلين جعلتهما يتعاونان في تفعيل وتنشيط الثورة . على هذا المستوى ثمة عملان قام بهما هيكل منذ بداية الثورة كانا حاسمين في التزامه السياسي إزاء عبد الناصر . الأول : مشاركته في تحرير كتاب بتوقيع عبد الناصر يحمل عنوان ***فلسفة الثورة*** ظهر عام 1954 ، تتمازج فيه أفكار هيكل وعبد الناصر بشكل يجعل من الصعب تمييزهما . والثاني : موقفه المؤيد لعبد الناصر في الخلافات التي نشبت بينه وبين محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر المعاصرة .

هذه الأعمال تبرهن على انحياز هيكل الكامل والتام إلى جانب عبد الناصر . وربما يعود إليها الفضل في أنه استطاع أن يشق طريقه وان يرسم ملامحَ مهنة سياسية من الدرجة الأولى في مصر محولاً في آن واحد ، ظواهر المشهد الصحفي الذي كان يتطور ضمنُه .

1- " فلسفة الثورة "

كانت السلطة الجديدة بحاجة إلى منظّر ، وإلى إيديولوجي ، قادر على أن يعبر عن أفكارها وعلى أن يدافع عن آرائها ويعرض فكرها السياسي . لهذا السبب استدعى عبد الناصر هيكل ليحرر كتابه عن الثورة ، وفي هذا الكتاب من السهل جداً اكتشاف أسلوب هيكل ولغته ، ويرى الكاتب الأردني طلعت هَمام أن القارئ العربي لا يحتاج كثيراً لكي يعرف من الذي يختبئ وراء تحرير كتاب ***فلسفة الثورة*** عام 1954 ، أو "الميثاق الوطني" عام 1962 أو "بيان 30 مارس" عام 1968 . وهي عناوين تكفي للتعرف إلى شخصية هيكل [1] . وفي لقائنا مع

1- همام ، طلعت ، مصدر سابق ، ص53 .

هيكل قال لنا إن كتاب ***فلسفة الثورة*** لم يكنْ إلاّ ثمرة حوار ونقاش طويلين مع عبد الناصر وانه هو نفسه ، أي هيكل ، الذي حرر الكتاب[1] .

ويدرس الكاتب جان لاكوتور طبيعة العلاقة الفكرية بين الرئيس عبد الناصر وهيكل مشيرا إلى مساهمة هيكل في هذا العمل الفلسفي ومتسائلاً عن دوره الحقيقي فيه ، مذكراً بحكاية صغيرة حصلت مع هيكل ، وهي أن صحافياً سأله عام 1957 إذا كان قد قرأ كتاب ***فلسفة الثورة*** فابتسم ابتسامة سريعة وأجاب : الواقع يا صديقي إنني كتبته . . .[2]

ومنذ ذلك الحين ، أصبح هيكل شيئاً فشيئاً ، كما يقول جان لاكوتور ، "الشخص المقرب والمستشار ورجل المهمات الدقيقة والنصوص الصعبة على الكتابة ، محمد حسنين هيكل المدير المرح والمرن ، ذو الأسلوب الأمريكي قليلاً ، لكنه في نفس الوقت مصري جداً ونموذجي جداً في كونه نمطاً جديداً من الرجال الأقوياء في مجال العمل ، الواثقين من أنفسهم ، الذين يَهْوون الحياة الجيدة ، والقساوة أحياناً في العمل ، هذا النمط الذي ولّده النظام الجديد"[3] .

ففي هذا الكتاب الذي يشكل عملية الاندماج والتكامل الفكري العميق بين عبد الناصر – وهيكل ، اندرجت الثورة المصرية في سياق التاريخ كعملية تغيير نوعية تندرج بدروها في سياق استمرارية تاريخية هي استمرارية الصراعات الجماعية :

" إن تاريخ صراع الشعوب في سبيل حريتها واستقلالها بعيد عن الصفة العفوية . إنه يشبه ، عبر العصور ، البناء الذي يرتفع حجراً حجراً . وكما أن كل حجر يستند إلى الحجر الذي سبقه فهكذا هو حال الأحداث السياسية . كل منها يأتي ليشكل قاعدة للحادث الذي يليه في الصيرورة طويلاً التي تقود إلى الثورة"[4] .

هكذا عاش الشعب المصري أربع ثورات متتالية في تاريخه المعاصر :

– الثورة الأولى : هي ثورة محمد علي باشا الذي أراد أن يبني دولة قوية مستقلة تتمتع

1- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

2- Lacouture, Jean, *op. cit.*, p. 317.

3- Ibid.

4- Abd El-Nasser, Gamal, *la Philosophie de la Révolution*, Dar Al-Maaref, le Caire, Sans date, p. 9. (en français).

ببنية تقنية ، علمية ، إدارية ، عسكرية ، اقتصادية واجتماعية حديثة[1] .

– الثورة الثانية : هي ثورة أحمد عرابي (1882) الذي أراد أن يحقق الحلم الوطني بالاستقلال والحرية .

– الثورة الثالثة : هي ثورة (1919) التي خلقت نظاماً نصف ليبرالي إذ أصدرت دستور 1923 الذي أُنتهك عدة مرات متتالية [2] .

وأخيراً توجت كل هذه الثورات الثورة الرابعة(1952)[3] . هذه الثورة برأي عبد الناصر – هيكل هي نهاية صيرورة تاريخية ، بناء يُبنى حجراً حجراً .

من هنا هذه المقارنة الرمزية جداً التي يقيمها هيكل بين الثورة المصرية وثورات أخرى في العالم في كتابه الحديث ***ملفات السويس*** الصادر باللغة العربية :

" إن ولادة وضعية ثورية ، في أية أمة من أمم العالم ، هو شيء لا يمكن أن يخلقه حزبٌ واحد أو تنظيم محدد أياً تكن امكانياته . وإنما هي نتيجة تراكم الكثير من العوامل التي تخلق جواً متفجراً بحيث يكفي حصول حدثٍ أو عدّة أحداث تفجيرية لحصول التحول الكامل للأوضاع في بلدٍ من البلدان .

هكذا تظهر الوضعية الثورية أمام تجمعات تدرس مكوناتها وتحلل العلاقات القائمة داخلها وصولاً لأخذ موقع القيادة . وهكذا حصلت الأمور خلال الثورة الفرنسية ، خلال الثورة البلشفية ، وأخيراً خلال ثورة 1952 وكذلك أيضاً في الثورة الإيرانية"[4] .

وبطريقة أكثر وضوحاً ، ينقل هيكل في الكتاب نفسه ، هذا المخطط البياني الوصفي المجرد ليطبقه على الأحداث الملموسة التي سبقت عملية الانقلاب عام 1952 . ويعلن بهذا

1- محمد علي باشا ينتمي إلى أصل الباني كان ولي عهد مصر 1821-1848 ذبح المماليك وقدم دعمه للعثمانيين في الجزيرة العربية وفي اليونان وضم السودان ، ثم حاول أن يحل محل السلطان ، فأرسل ابنه ابراهيم باشا في حملة الى سوريا (1831-1839) حيث هزم . حكمت اسرته حتى عام 1952 .

2- ثورة سعد زغلول ضد الانكليز عام 1919 ، حيث رفض هؤلاء السماح لوفد مصري بالذهاب إلى مؤتمر فرساي في فرنسا لطرح موضوع الاستقلال ، ومن هنا جاء اسم "حزب الوفد" الذي تأسس إثر هذا الحدث .

3- Abd El-Nasser, Gamal. *op. cit.*, p. 10.

4- هيكل ، محمد حسنين ، " ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة" ، مرجع سابق ، ص142 .

الخصوص أن نظرية عبد الناصر بخصوص الثورة تتلخص في النقاط التالية[1] :

1- كانت مصر جاهزة للثورة ، خاصة بعد حريق القاهرة وانتخابات نادي الضباط .

2- كانت السلطة الملكية قد جهّزت الجيش تجهيزاً جيداً بُغية السيطرة على الشعب .

3- يجب أن يوضع الجيش في خدمة الشعب وأن يتحالف الاثنان معاً ضد النظام الملكي لقلبه .

إذن ، كان هناك عملان لابد من القيام بهما :

- السيطرة على الجيش .
- تحضير عملية انقلابية وتحقيق الثورة .

من الواضح أن دور الجيش هو دورٌ مركزيٌ في النظرية الناصرية للثورة ، ولكن الجيش هو في كل الأحوال منبثق عن الشعب وتابع له ، ومن هنا فإن ثورة يوليو تندرج في جدلية التاريخ . لكن هيكل يرى أنه حتى لو كان منفذو الثورة ذوي ميول يسارية بالمعنى الاجتماعي للكلمة ، فإن برنامجهم لم يكن محدداً بشكل دقيق منذ البداية . ويقول إنه لم يكن لديهم برنامج إلا جملة عبد الناصر "العزة والكرامة" إلا ان هذه الجملة برأي هيكل تتضمن برنامج عملٍ كامل على المستوى الوطني والدولي . إنها تعني أولاً أن السلطة ستُعطى للشعب ، وثانياً ستكون موجهة ضد الملك وحلفائه الإقطاعيين من جهة ، وضد الإنكليز من جهة أخرى[2] .

ويتجسد هذا الشعار بشكل ملموس في المبادئ الستة المشهورة للثورة :

1- التخلص من الإمبريالية والمتعاونين معها .

2- تدمير النظام الإقطاعي .

3- تدمير نظام القطب الواحد .

4- إرساء العدالة الاجتماعية .

5- إنشاء جيش وطني قوي .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة" ، ص144 .

2- المرجع نفسه ، ص 145 .

6- إرساء نظام ديمقراطي[1] .

وبتعبير آخر ، فإن أهداف الثورة تتلخص بنقطتين :

1- الاستقلال الوطني بكل أشكاله السياسية والاقتصادية .

2- وتحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية .

هاتان النقطتان نجدهما في ***فلسفة الثورة*** الذي حرره هيكل :

" لقد عرفت كل شعوب الأرض ثورتين : ثورة سياسية سمحت لها بأخذ حقها في حكم نفسها ، وثورة اجتماعية ترافق صراع الطبقات أدت في النهاية إلى إرساء نظام المساواة . أما بالنسبة لنا فقد قُيِّضَ لنا بعد تقلبات وصروفٍ متعددة أن نعيش بنفس الوقت هاتين الثورتين معاً "[2] .

إننا نجد ، إذن ، في ***فلسفة الثورة*** انصهاراً كاملاً بين فكر هيكل وفكر عبد الناصر انصهاراً يتأكدُ في أعمال أخرى لهيكل حيث نجد المنطق ذاته . وحتى لو كان الكاتب الأمريكي مايلز كوبلاند ، يؤكد في كتابه ***لعبة الأمم*** "على أن هيكل قد أبدع في التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة ، وما يجب أن يظل نتاجاً للاستهلاك المحلي ، وللتنفيس عن الشعب داخل حدود البلاد"[3] ، فإنه يمكن القول ، بأن هيكل قد ربط منذ عام 1952 قدره بقدر عبد الناصر فكرياً وسياسياً .

2- الصراع بين عبد الناصر ونجيب

بعد حصول الانقلاب في مصر أرادت السلطة الجديدة " ترتيب البيت" من الداخل ، بحسب تعبير الكاتب اللبناني فؤاد مطر[4] . ولكن مثله مثل كل الثورات السابقة وجد النظام الجديد نفسه في وضع دقيق مواكب لتناقضاتٍ كثيرة داخل الحركة الثورية .

1- Botman, Selma, *The Rise of Egyptian Communism: 1939-1970*, Syracuse university press, New-York, 1988, p. 116.

2- Abd El-Nasser, Gamal, *op, cit.*, p. 23 .

3- مايلز ، كوبلاند ، "لعبة الأمم : اللا أخلاقية في سياسة القوة الأمريكية" ، ترجمة (مروان خير) ، انترناشنال سنتر ، بيروت ، 1970 ، ط1 ، ص106 .

4- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص37 .

واحدة من المواجهات الأساسية داخل الحركة كانت بين عبد الناصر زعيم الضباط الأحرار ومحمد نجيب أول رئيس لمصر الجديدة وللمجلس الثوري . في هذا الصراع ، أخذ هيكل بوضوح وبشكل حاسم جانب عبدالناصر ، غير متردد في نشر مقالات متعددة بل وكتب متعددة لدعمهِ حتى بعد موتهِ . ولفهم موقفهِ وارائه سنحاول أن نركز تحليلنا على هذه المرحلة الدقيقة من التاريخ السياسي المصري .

لقد بدأت العملية الانقلابية يوم 23 تموز/يوليو عام 1952 بمبادرة من عبد الناصر ، وعين محمد نجيب لرئاسة المجلس الثوري أو مجلس قيادة الثورة الذي دعى الملك فاروق إلى تكليف علي ماهر باشا بتشكيل حكومة جديدة . وفي 24 تموز/يوليو ، شكّلت الحكومة . ويوم 25 تموز/يوليو أعلن علي ماهر أن الملك قد قبل بالمطالب الأولى التي أعلنها الجيش ، وتم تعيين محمد نجيب قائداً للقوات المسلحة مكان حيدر باشا . وفي يوم 26 تموز/يوليو كلّف علي ماهر بالاتصال لابلاغ الملك إنذاراً بمغادرته البلاد ضمن مهلة محددة وكان هذا الإنذار بتوقيع محمد نجيب[1] .

هكذا ظهر محمد نجيب من البداية كرجل الثورة القوي الاول . وانطلاقاً من هنا بدأت التساؤلات والشكوك . ويعتبر بعض الكتاب المصريين والعرب ، ومنهم الكاتب اللبناني فؤاد مطر بأن عبد الناصر خاف بأن تكون الثورة عملية فاشلة ولذلك قبل بأن يكون نجيب على رأسها ، وبرأي هؤلاء فإن هذا الأمر هو ما يفسر الظهور المفاجئ لنجيب كرجل الثورة الاول . وهذا أيضاً ما يفسر برأيهم سبب كون أول إعلان للثورة كان بتوقيع نجيب وبصوت أنور السادات[2] .

لكن هيكل يعطي تفسيراً آخر يناقض كل هذه التأكيدات وهذه التعليقات فيقول :

" لماذا طرح محمد نجيب؟ عندما نطرح المشكلة فإننا نفعل ضمن سياق أصبح فيه مفهوم الشباب محملاً بالمعاني الجديدة التي لم يكن يحملها سابقاً . ففي فترة الثورة كان العمر موضوعاً حاسماً للوصول إلى مركز مسؤولية هام . كان جميع الزعماء السياسيين والقادة في ذلك الحين متقدمين في السن ، وكان باشوات مصر رؤوساء حزب الوفد كلهم مسنين .

1- Vaucher, George, *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, Seuil, T1, 1959, p. 288.

2- مطر ، فؤاد . مرجع سابق ، ص31 .

النحاس باشا ، فؤاد سراج الدين ، إبراهيم عبدالهادي باشا لم يكونوا من الشباب ، وباختصار ، كانوا كلهم فوق الخمسين وبعضهم فوق الستين . كان العمر علامة على النضج . وفي هذه المرحلة كان من غير المقبول أو على الأقل من غير المرحب به أن يكون رئيس الجمهورية بعمر عبد الناصر أي بعمر 32 سنة . بعد عبد الناصر أصبحت المسألة طبيعية ، وفي معمر القذافي مثالاً على ذلك ، لقد قام القذافي بالثورة وعمره 27 عاماً [1] .

يبدو لنا هذا التفسير مقبولاً على الأقل جزئياً ، فحتى في زمننا المعاصر يمكن أن يكون العمر عاملاً حاسماً . وفي مصر يظل العمر عاملاً هاماً حيث أن المجتمع ما يزال متعلقاً بالتقاليد والأعراف ، وحيث أن النمط الأسري المسيطر هو نمط الأسرة البطريركية ، ويمكن أن يكون للعمر ، لما يحمله من مضامين رمزية ، تأثير على الشعب .

نلاحظ ، إذن ، انه إذا كان نجيب قد ظهر وكأنه الرجل القوي في النظام الجديد ، فإن ذلك يعود إلى عدم ثقة عبد الناصر بفرص نجاح عملية 23 تموز/يوليو 1952 . وهذا افتراض يقبله هيكل ولكنه يفسره لصالح عبد الناصر :

"كان عبد الناصر يفكر كثيراً بإمكانيات الفشل . بل إنه كان يفكر بها أكثر مما يفكر بإمكانيات النجاح . وقبل تحقيق العملية الانقلابية أخذ على نفسه واجب تبليغ أعضاء اللجنة المكونة للضباط الأحرار بالنتائج المحتملة للأعمال التي سيقومون بها ، قائلاً لهم ببساطة : سنقوم بمغامرة . فإما أن ننجح وإما ستعلّق جثثنا على أعمدة الكهرباء . وأضاف عبد الناصر كما روى له جمال سالم أحد الضباط الأحرار ، قائلاً : القضية بسيطة ، فبدلاً من أن تعلق ربطة العنق في رقبة أحدنا ، ستكون رقبتهُ هي المعلقة بربطة عنقه"[2] .

وعلى أية حال ، يرى هيكل أن عبد الناصر قد عرّض حياته للخطر ليحقق هدف الثورة الوطنية ، في حين أن نجيب لم يواجه هذا الخطر بذات الكثافة ذلك أن القصر الملكي وحكومته كانا قد قدّما اسمه عام 1951 لوظيفة وزير الحرب إذا ما حل مشاكل الجيش ، إضافة إلى أنه كان لنجيب علاقات جيدة مع الضباط الأحرار ، وبالتالي كان أيضاً في موقع أمان مع الفئة المقابلة .

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص31 .

2- المرجع نفسه ، ص32 .

هنا يقع هيكل بالتناقض ، لأنه يقول في كتابه بين ***الصحافة والسياسة*** إنه هو نفسه قد أوصى بتعيين محمد نجيب وزيراً للحرب عام 1952 في حين يتهم نجيب فيما بعد بأنه أراد أن يكون وزيراً في حكومة الملك[1] .

وفي كل الأحوال ، فإن عبد الناصر بدأ "عملية الترتيب الداخلي" ، بسلسلة من الأعمال السياسية والإعلامية المحسوبة جيداً ، وهكذا شكّل يوم 23 كانون الثاني/يناير عام 1953 هيئة التحرير[2] وظهر يوم 30 كانون الثاني/يناير في نفس العام ولأول مرة على المشهد السياسي كزعيم وطني معلناً أن مصر تريد الجلاء الكامل للقوات الإنكليزية . وفي يوم 10 شباط/فبراير عام 1953 أعلن مجلس قيادة الثورة الذي يرأسه نجيب ويسيطر عليه عبد الناصر دستوراً انتقالياً جديداً ، أعطى المسؤولية العليا في الدولة وفي القوات المسلحة للمجلس الثوري . وفي شباط/فبراير تم توقيع الاتفاق السوداني- المصري الذي ضمن للشعب السوداني حق تقرير مصيره (الاتحاد مع مصر أو الاستقلال) . ثم أطلق عبد الناصر شعاره المشهور ضد الإنكليز " فليحمل المستعمر عصاه ويرحل ، وإلا فإن عليه أن يقاتل حتى الموت من أجل بقائه"[3] . تبرهن هذه المواقف المختلفة على أن عبد الناصر كان يفرض نفسه تدريجياً ، ولكن بقوة ، داخل صفوف السلطة . وبحسب هيكل فإن المحرك العميق لعبد الناصر لم يكن طموحه الشخصي بقدر ما كان إحساسه بأن عليه أن يتحمل مسؤوليته إزاء الأمة المصرية :

" لقد قامت الثورة دون أن يكون في ذهن عبد الناصر رغبة في الحكم . ثم فرض تطور الأحداث وضعاً وجدت الثورة نفسها فيه فجأة مضطرة لممارسة السلطة . فالسلطة الملكية قد اختفت ومن الطبيعي أن تنتقل السلطة . خاصة وأن الثورة تركت تأثيرها على الأحزاب ولم يعد هناك لا برلمان ولا دستور . إضافة إلى ذلك وجدت الثورة نفسها مع بداية الإصلاح الزراعي في مواجهة الطبقة البورجوازية ، وأكثر من ذلك في مواجهة الإنكليز .

1- انظر كتابنا ، ص33 .

2- تشبه الحزب الواحد كونها حزب الدولة وتحاول أن تصهر جميع الأحزاب الأخرى في بوتقة واحدة . لكنها لم تعش طويلاً لأن الأحزاب رفضت الانصياع لهذا المنطق .

3- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص37 .

إذن ، وفي هذا السياق لابد من سن قوانين تجعل السلطة الوطنية صلبة وترسم التوجهات الممكنة للثورة"[1] .

نحن نرى انه من الصعب قبول آراء هيكل التي ينفي فيها رغبة عبد الناصر وفريقه في السلطة منذ بداية الثورة ، ونورد مثالاً واحداً من الأمثلة التي تعتبر حججاً ممكنة ضدّها ، ففي إحدى مقالات أخبار اليوم الصادرة عام 1952 بعنوان "سر الضباط التسعة[2]" ، وهو مقال يحمل صورة عبد الناصر وحده على الصفحة الأولى وبدون أي صورة أو إشارة لنجيب . كما يلح بوضوح على كون عبد الناصر الزعيم الحقيقي للثورة . وهذا مقطع مقتطف من ذاك المقال الطويل :

" من هم التسعة؟ [3] . لـم تستطع وسائل الإعلام أن تكتشف أسماءهم . والناس يتساءلون من هم؟ إنهم يجتمعون ليقرروا مصير الملكية . إنهم يفاجئون فاروق بطلب إقالة الحكومة وما أن تسقط الحكومة حتى يبتسم التسعة ويقولون للصحفيين انه لـم يعد أمامهم إلا مطلب واحد ، تسمية علي ماهر لرئاسة الوزارة ، ويحصل ذلك . لكن عبد الناصر يبتسم ويكتب فور اتخاذ القرار من قبل التسعة بطرد الملك وبلاطه فوراً . في هذا الوقت كان فاروق يقول : (أنا الملك) .

لكنه لـم يكن يعرف أن مصيره قد تقرر يوم حصول الانقلاب . يعرض عبد الناصر خطة إلغاء الملكية على الثمانية ، ويناقش ذلك بأعصاب فولاذية ووجه هادئ وحاسم . يعرض عبد الناصر مصير الملك ببساطة ، وكأنه يعرض مصير جندي يجب إبعاده من الخدمة العسكرية بسبب سلوكه المخالف للأعراف"[4] .

أما على الأرض فقد كان التنافس بين عبد الناصر ونجيب يتنامى مع الوقت ، إلى أن

1- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص37-38 .

2- ظهر هذا المقال دون توقيع ، لكن مصطفى أمين يقول : أنه هو الذي كتبه بإيحاء من عبدالناصر : انظر حمودة ، عادل ، "نهاية ثورة يوليو" ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1983 ، ص249 .

3- الأسماء التي ظهرت هي : جمال عبدالناصر ، صلاح سالم ، عبد الحكيم عامر ، جمال سالم ، عبد اللطيف بغدادي ، خالد محي الدين ، أنور السادات ، حسن إبراهيم ، كمال الدين حسين .

4- صحيفة الأخبار ، القاهرة ، 14 تشرين الأول 1952 .

استقال هذا الأخير يوم 25 شباط/فبراير عام 1954 من منصبه كرئيس للجمهورية . وبعث في هذا السياق رسالة عبّر فيها عن حزنه لعدم تمكنه من خدمة وطنه . وأنه غير قادر على التعاون مع مجلس الثورة ، وغير موافق على كثير من قراراته وفي كتابه الذي يحمل عنوان ***كلمتي للتاريخ*** ، يلقي الضوء على الصراع الذي كان قائماً بينه وبين عبد الناصر[1] .

وقد استفسر الكاتب المصري عادل حمودة من محمد نجيب عن الاسباب التي دعته لتقديم استقالته وترك الساحة السياسية فقال :

" لقد كان عبد الناصر الذي كنت احترمه شاباً صغيراً ولكنه يتمتع بكفاءات استثنائية . عرضت عليه أن أدير البلاد لعدة سنوات ، إلى أن يمتلك الخبرة الضرورية كي يعقبني في الحكم . ألححت عليه في حينها قائلاً بأنه يسعدني أن أعمل لصالحه . وعرضت عليه أن يختار بين استقالتي أو فتح صفحة جديدة في علاقاتنا . لم يجب على عرضي فقلت له انه من الأفضل إذن أن يقود البلاد دوني"[2] .

ورغم محاولة نجيب تفسير أسباب صراعه مع عبد الناصر باعتبارات شخصية وفردية ، فإنه يبدو انه كان لهذا الصراع طابع سياسي ، ذاك أن صراعاً على السلطة كان يدور بينهما .

وبحسب هيكل ، فإن نجيب لم يستقل بإرادة شخصية ، بل إن المجلس الثوري قد دفعه للاستقالة لأنه لم يحترم مبادئ الثورة . إضافة إلى أن نجيب – وبحسب هيكل أيضاً – لم يكن يتمتع بشرعية سياسية داخل مجلس الثورة الذي يقوده ، ودعماً لهذه الفكرة يكتب هيكل " منذ 23 تموز/يوليو عام 1952 وحتى استقالته ، لم يشارك نجيب في أكثر من اجتماع أو اثنين من اجتماعات مجلس قيادة الثورة . وأذكر أنني في اليوم الثاني أو الثالث ، كنت عند محمد نجيب وكان معنا سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة ، وقال لنا بأن الناس قد صفّقوا له وهو لا يستحق هذا التصفيق لأنه لم يكن له صلة بما حدث . هذا بالضبط ما دار بيننا وقد خرجت مرتاحاً لما قاله محمد نجيب . ومن ثم تحدثت إلى عبد الناصر وقلت له إن اختيار نجيب كان عملاً موفّقاً ، لأنه رجل يعرف حدوده . لكن ، عندما مضى على نجيب

1- نجيب ، محمد ، " كلمتي للتاريخ" ، دار الكتاب النموذجي ، القاهرة ، 1975 ، ص 116 .

2- حمودة ، عادل ، "أزمة المثقفين وثورة يوليو" ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1984 ، ص193 .

فترة قليلة في السلطة ، أصبح مبهوراً بالأضواء التي كانت تسلّط عليه . وأخذت القوى القديمة تتشكل من جديد حوله . وذاك ما كان طبيعياً لأنه ينتمي إلى هذه القوى بحكم السن ، وعوامل أخرى كثيرة . وهو الذي كان يريد في السابق أن يكون وزيراً في حكومة الملك"[1] .

يبرهن هذا التحليل لهيكل بوضوح على انه قرر الانحياز نهائياً إلى عبد الناصر منذ بدء صراع هذا الأخير مع نجيب عام 1954 . ويكشف أيضاً عن وفاء هيكل لعبد الناصر الذي كان ينقل له كل ما يطلع عليه . ومع ذلك نتساءل : لماذا أيّد وبارك هيكل اختيار عبد الناصر لنجيب؟ ويبدو لنا أن في ذلك غموضاً يعكس جانباً مكيافيليا في شخصية هيكل ، ويدل دون شك على نوع من الواقعية السياسية المبكرة ، فهو مستعد للقبول بكل الوسائل في سبيل الوصول إلى هدفه .

وفي كل الأحوال ، فإن الرئيس أنور السادات يعبر عن نفس فكرة هيكل ، مظهراً أن محمد نجيب لم يكن إلا واجهة للثورة وذلك في كتابه ***ثورة على النيل*** ، إذ يقول " اتصل بنا هاتفياً رئيس الوزراء نجيب الهلالي يوم 23 تموز/يوليو في الساعة التاسعة صباحاً ، ردّ عليه اللواء نجيب ، ولكنه كان يردد له ما كنا نحن (الضباط الأحرار) نهمس به في أذنه"[2] .

ولكي يقيم التمييز بين عبد الناصر ونجيب يضع هيكل " الرجل التقدمي" مقابل "الرجل التقليدي" وقد ظهر هذا التقابل بوضوح ، مثلاً ، عندما أريد إعطاء اسم لحركة الضباط الأحرار التي ألغت الملكية . ففي حين كان نجيب يريد أن يسميها " حركة الجيش" mouvement de l'armée لم يكن عبد الناصر يفهم الخوف والتردد من تسميتها "ثورة" Révolution [3] .

باختصار ، يرى هيكل أن الأشياء ربما تكون قد تراكمت بالطريقة التالية :

" كانت الاختلافات بين نجيب وعبد الناصر أشبه بالاختلافات التي تفصل جيلين . اختلافات بين "السلطة الحقيقية والسلطة الظاهرة " ، وبين " التقدمية والتقليد" . وأمام كل هذه

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص39 .

2 - El-Sadat, Anwar, (1957), *op, cit.*, p. 204.

3- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص39 .

المشاكل كان اجتماع مجلس قيادة الثورة واستقالة محمد نجيب التي تلته ضرورية لأنه كان ينحرف عن مبادىء الثورة"[1] .

الحقيقة ، كان من الممكن أن يؤدي قرار الإقالة إلى عواقب خطيرة ، لأن نجيب كسب كثيراً في صفوف الرأي العام ، وفي صفوف الطبقة البورجوازية وفي الجيش ، مما كان يمكن أن يُسهل عملاً مضاداً للثورة . ولذا حذّر هيكل عبد الناصر من المخاطر التي قد تنجم عن هذا الوضع الحرج .

وقد حصل في الواقع انشقاق داخل مصر غداة قرار إقالة محمد نجيب ، حيث انحاز جزء من الشعب وحاول جزء من الجيش إثارة الاضطرابات[2] كما حاول الإخوان المسلمون الإفادة من الوضع . والوقوف مع محمد نجيب ضد عبد الناصر من منطلق لماذا يحدث ذلك للرجل الذي أخرج الملك[3] .

في ظروف المواجهة هذه ، عاد المجلس الثوري عن قبول الاستقالة ، وعاد نجيب إلى موقعه كرئيس للجمهورية ولمجلس الثورة ، لكن انعطافاً حصل يوم 25 آذار/مارس عام 1954 إذ أعلن مجلس الثورة أن الثورة قد انتهت ، وإن الحياة البرلمانية وحرية الصحافة والأحزاب السياسية يجب أن تأخذ موقعها في المجتمع السياسي المصري . ولم يكن من شأن ذلك إلا إظهار النوايا الحقيقية لنجيب . وبحسب هيكل ، فإن الفئات السياسية التي دافعت عن نجيب مثل (الشيوعيين ، والإخوان المسلمين ، وكبار مالكي الأراضي) ، كانت سعيدة لعودته لأنها ترى في عبد الناصر رجلاً غامضاً ، يصعب التأثير عليه في حين أن نجيب رجلٌ متسامح ومرن ، ويضيف أن مؤيدي نجيب كانوا كثيرين ومنظمين جيداً . ثم يعرض سلوك مجلس الثورة بقيادة عبد الناصر كما يلي :

" إزاء هذا الوضع كان لابد من أن تكون (استراتيجياً وتكتيكياً) . ولذا قرر عبد الناصر فجأة إلغاء مجلس قيادة الثورة . وكان يريد ، بهذا العمل ، أن يقول للقوى الجديدة التي تجد

1- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص39 - 40 .

2- حاولت إحدى وحدات سلاح الفرسان (المدرعات حالياً) ، التحرك لصالح نجيب ضد عبدالناصر ، انظر كتاب محيي الدين ، خالد ، "والآن أتكلم " ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1992 ، ط 1 ، ص266 .

3- مطر ، فؤاد ، المصدر السابق ، ص40 .

أملها في الثورة إنه ليس أمامها إلا الاختيار بين نجيب وأحزابه وبين المتغيرات الحقيقية التي تطالب بها الثورة . لكن عبد الناصر كان مطمئناً تماماً إلى تطور الأحداث لأنه كان قد حصل على دعم الجيش"[1] .

كانت تلك معطيات الوضع على الصعيد الوطني كما رآها وتصورها هيكل . فهل كان لهذه المعطيات أهمية على الصعيد الدولي؟

في كتاب مخصص لأزمة السويس يسلط هيكل الضوء على هذا البعد في فصلٍ بعنوان " البحث عن الرجل القوي"[2] ، حيث يقول إن كل القوى التي كانت لها مصالح في المنطقة ، في ذلك الوقت ، الإنكليز ، الفرنسيون ، الأمريكيون ، والإسرائيليون ، كانت تحاول أن تعرف أعضاء السلطة الجديدة كل بحسب مصالحه .

الإنكليز حملوا على الاعتقاد بأن نجيب هو الرجل القوي في النظام ، وذلك عبر التحليلات السياسية لجنودهم ، المتمركزين في مصر ، ثم لم يلبثوا أن اكتشفوا بأن السلطة في مكان آخر .

صحيح أنهم ، بحسب هيكل ، كانوا يرون في نجيب رجلاً وطنياً معتدلاً طيب السمعة ومليئاً بالحيوية . إلاّ أنهم كانوا يؤكدون بأن طبيعته وصفاته لا تجعلان منه رجل ثورة وعمليات انقلابية . وعلى قاعدة هذه المعطيات ، أصبحت السلطات الإنكليزية في مصر مقتنعة بأن السلطة الحقيقية التي كانت مصدر ما حصل في مصر هي بين يدي الضباط الشباب الذين يقفون وراء نجيب[3] .

في هذا المناخ ذاته من عدم التأكد من هوية "الرجل القوي" في النظام الجديد فكّر المراقبون الغربيون بأحمد شوقي ، الذي ظهر إلى جانب نجيب خلال لقاء مع الملك فاروق يوم 23 تموز/يوليو عام 1952 . ولكنه في الحقيقة لم يكن إلاّ رئيس المنطقة المركزية الوسطى في القاهرة . فيما بعد اتجهت أفكارهم إلى أنور السادات ، لأنه قرأ الإعلان الأول للثورة وكان يشارك في أنشطتها السياسية . ومرة أخرى أخطأ الغربيون ، بحسب

1- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص41 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة" ، مرجع سابق ، ص152 .

3- المرجع نفسه .

هيكل ، في تحديد الرجل القوي في مصر تحديداً صحيحاً ، لكن عدم الوضوح لـم يلبث أن انجلى تدريجياً . واصبح من الواضح قطعاً للجميع أن الزعيم الحقيقي للثورة ماهو إلا ذلك الشاب ذو الوجه المتمرد الذي يظهر على صورة البكباشي[1] ، وكان هذا الشاب جمال عبدالناصر[2] .

وتدريجياً تحول وفاء هيكل المعلن لعبد الناصر إلى وفاء لنظامه . وأصبح هيكل يدعم بقوة فكرة الثورة ويدافع عن النظام القائم في وجه المعارضين وانتقاداتهم ، هذه القضية تجسدها لنا "أزمة المثقفين" .

1- رتبة عسكرية في الجيش المصري آنذاك .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة" ، مرجع سابق ، ص157 .

الباب الرابع: أزمة المثقفين

لم يكن تطور "ثورة يوليو" ليمر دون أن يثير جدالاً واسعاً في أوساط المثقفين المصريين. فقد طرحت قضية دور المثقفين في المجتمع المصري نفسها بطريقة جدلية. ونشر هيكل بهذا الخصوص كتاباً بعنوان ***أزمة المثقفين*** [1] عام 1961 يعرض فيه وجهة نظر السلطة في وضع المثقفين، والعكس وبالعكس، وكذلك علاقتهما المتبادلة.

وبالنسبة لما يمثله الدور الاجتماعي والسياسي للمثقفين، فان هذا الجدال لم يمر بدون مؤثرات، خاصة على مستوى التوجه الأيديولوجي للنظام. وسنحاول أن نبين هنا مساهمة هيكل في هذا الجدل والنقاش، خاصة تحليله لدور وموقف المثقف المصري في ثورة يوليو.

1- طبيعة الأزمة : اشكالية التعريف

من 12 آذار/مارس إلى 14 تموز/يوليو عام1961 دار نقاش طويل في أوساط المثقفين المصريين حول تعريف ودور وموقف المثقف في حكم عبد الناصر. وقد بدأ هذا النقاش بسلسلة من المقالات كتبها لطفي الخولي، وهو أحد منظري النظام الجديد، وصحفي ماركسي منفتح على الثورة. فبعد أن أعطى تحديداً للمثقف أدان الاتجاه الخاطىء الذي يقود إلى سجن الثقافة العربية داخل القانون الإسلامي القديم، برهن على تعددية وتنوع تيارات الأنتلنجنسيا المصرية l' Intelligentsia بين الحربين العالميتين مثيراً تناقضاتها، ومتهماً إياها بالدفاع عن طبقة محددة " البورجوازية " دون أخذ مصالح الشعب بعين الاعتبار[2]. في هذا الوقت عبّر هيكل الذي كان يرئس تحرير صحيفة الأهرام " وهي صحيفة النظام الحاكم"، عن موقف ورؤيا الدولة المصرية منذعام 1955 تجاه المثقفين ودورهم، وبذلك فتح باب نقاش كبير. مجموع هذه المقالات أصدرها هيكل فيما بعد في كتاب حمل عنوان ***أزمة المثقفين***عام (1961).

1- هيكل، محمد حسنين، "أزمة المثقفين"، دار المعارف، القاهرة، 1961. وبسبب عدم القدرة على الحصول على هذا الكتاب تم الاعتماد على كتب أنور عبدالمالك باللغة الفرنسية، ***مصر: مجتمع عسكري***، 1962. و ***الفكر السياسي العربي المعاصر***، 1970، والذي يتطرق فيها بالتفصيل لمعظم قضايا ومجريات هذه الأزمة.

2- Abdel Malek, Anouar, *l'Egypt: Société militaire*, Seuil, Paris, 1962, p. 192.

ويمكن القول بأنه لـم يكن من الممكن واقعياً تجنب المواجهة الايديولوجية بين المثقفين والسلطة . فمن جهة كان المثقفون يشعرون بانهم أُبعدوا عن الحياة السياسية والاجتماعية بسبب رفضهم لعبة *فلسفة الثورة* التي صاغها عبد الناصر وهيكل معاً .

ومن جهة أخرى ، كانت السلطة الجديدة ، وبصوت هيكل ، تعتقد أن مثقفيها ليسوا على مستوى السياق الثوري الجديد كونهم لا يعرفون أدوارهم الجديدة ، " ان القول بأن المثقفين يتعاونون مع القوى الثورية الدافعة ، بعد 23 تموز/يوليو عام 1952 ، ليس بالهدف المقصود ، بل إن المقصود هنا في الواقع نوع من الولاء السياسي . فليس الدور الطبيعي والالزامي للمثقفين التعاون مع السلطة فقط ، بل انه الدخول في علاقة تفاعل معها ، ورعاية مسيرتها وتأمين فكر نظريتها الثورية "[1] .

بهذه الرؤيا يعبر هيكل عما كانت تنتظره السلطة من المثقفين ، في سياق كانت فيه عدة أحداث تترك بصماتها على الحياة الوطنية : "الإصلاح الزراعي" عام 1953 ، "أزمة السويس" عام 1956 ، "الوحدة مع سوريا" عام 1958 . اضافة الى الصراعات القائمة مع إسرائيل . لكن هذه الرؤيا تترجم أيضاً التزاماً أيديولوجياً حقيقياً لدى هيكل بالثورة ، ذاك أنه ، فيما يقول يُنصِّبُ نفسه حكماً يحدد بشكل قاطع قواعد السلوك للذين لا تؤهلهم طبيعتهم للخضوع للنظام الناصري وربما يريدون أن يكونوا ناقدين وأحرار التفكير .

والحقيقة ، أن الأزمة التي كانت تمس الدوائر الثقافية المصرية لـم تكن مجرد أزمة أدوار ، بل انها كانت أيضاً أزمة تحديد بعض المفاهيم الأساسية مثل : مثقف ، ديمقراطية ، حرية ، حداثة ، علمانية . . . الخ ، لذلك ولكي نفهم وجهة نظر هيكل حول عناصر هذه الازمة ، فاننا سندرجها في إطار النقاشات الأوسع التي كان يبدي رأيه عبرها .

يعرف هيكل المثقفين كما يلي :

" إنهم أولئك الذين أوتوا فرص التعلّم والحصول على الشهادات ليضطلعوا بالمسؤولية الفكرية في مجالات متعددة : سياسية ، واجتماعية واقتصادية "[2] .

1- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 191.

2- Abdel Malek, Anouar, *la Pensée politique arabe contemporaine*, Seuil, Paris, 1970, p. 190.

ولا بد من القول بأن هذا التحديد يبدو في الظاهر واسعاً لكنه في الواقع يضع في حسابه خصوصيات المجتمع المصري في تلك المرحلة ، مجتمع كانت فيه أكثرية الشعب المصري من الأميين بنسبة 75٪ .

وفي 8 حزيران/يونيو عام 1961 بدأ الدكتور لويس عوض[1] تدخله في الموضوع بطرح التعريف التالي للمثقفين قائلا : " يشكل المثقفون فصيلة من الناس النشيطين الذين لعبوا دوراً قيادياً ، عن طريق نشر مقالات في الصحف وعن طريق التدريس في الجامعة . لكن ، يجب أن يضم هذا التعريف أيضاً القراء والطلاب ، وكل المواطنين الذين ينشرون أفكار المثقفين الذين يلعبون دوراً أيديولوجياً قيادياً . باختصار ، يجب أن تضم فصيلة المثقفين كل الأشخاص ذوي الاهتمامات الجادة"[2] .

نلاحظ هنا اختلافاً كبيراً بين التعريفين المذكورين " تعريف لويس عوض وهيكل " . فالأول يعكس رؤيا كلاسيكية ، عندما يتحدث عن المثقفين كطبقة اجتماعية متشكلة ومتناغمة ، في حين أن الثاني يعتمد معايير تتعلق أكثر بالفرد وحياته في المجتمع (الفرص ، الشهادات ، المسؤولية) . وكذلك تنظر إلى النجاح السياسي ، الاجتماعي والمهني ، باعتباره قضية إرادة وكفاءة شخصية . وترتبط هذه الرؤيا ارتباطاً وثيقاً بالمفهوم الهيكلي (نسبة لهيكل) لثورة عبد الناصر ، التي يعتبرها مفتوحة لكل الناس بصرف النظر عن أصولهم الاجتماعية والاقتصادية .

حول الموضوع نفسه يقول كاتب آخر هو الأستاذ الجامعي مجدي وهبه :

" المثقف هو أولاً الكائن المتعلّم ، وثانياً هو ذاك الذي يستعمل ثقافته أداة في نشاطه وفي علاقاته الاجتماعية ، وهو ثالثاً ذاك الذي تعلّم ثقافة الآخرين بطريقة واعية "[3] .

والواقع أن الأزمة التي كان يمر بها هؤلاء المثقفون تعرضت لوجوه عديدة من التقييم .

1- أستاذ الأدب الانجليزي في جامعة القاهرة ، عمل كملحق بالأمم المتحدة حتى عام 1954 . مؤلف للعديد من الأعمال الأدبية والفلسفية ، كتب في صحيفتي الجمهورية والأهرام ، أصبح مدير مشارك لمشروع الموسوعة العربية .

2- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 194.

3- *ibid.*

فهي بالنسبة للصحفي لطفي الخولي[1] ، وقبل كل شيء ، " أزمة منهج " في تحقيق الوحدة العربية ، وفي النضال القومي ، وفي التخطيط الذي يحب اتباعه لبناء الاقتصاد الاشتراكي ولتعميق الديمقراطية[2] . أما بالنسبة للكاتب عبد الرزاق حسين[3] فهي "أزمة ثقة" ، ثقة المثقفين بأنفسهم ، وثقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه[4] . وحدهُ الكاتب حسين فوزي[5] ، وكما يرى أنور عبد المالك[6] ، وضع أصبعه بشكل سريع وعميق على لب القضية ، إذ حدد الثقافة قائلاً :

"حتى الآن ، سادت الأشكال المادية للحضارة ، متقدمة على مرحلة الحالة الفكرية أو العاطفية في دول وادي النيل . ونحن أعجز من أن نبذل الجهد اللازم للإفادة الكبيرة من هذه الحضارة ، في حين أن الرجعيين هم عاجزون عن التخلص من الأدوات والأجهزة المادية لهذه الحضارة "[7] .

وكان عباس محمود العقاد ، عميد مفكري اليمين التقليدي والإسلامي ، يتهم المثقف المعاصر بانه يفكر دائماً بما يحق له ولا يفكر أبداً بما يتوجب عليه[8] .

أما لويس عوض فكان يركز على وجود أزمتين : أزمة بعيدة المدى وهي أزمة مفهوم الحضارة ، وعلاقة الإنسان المصري بماضيه وبأهدافه ، وأزمة مباشرة وهي أزمة وجود أو عدم وجود التفاعل بين المثقفين والثورة[9] .

1- محامي ماركسي تم اعتقاله في عام 1959 ، وقد انضم إلى النظام الناصري وأصبح مسؤولاً عن الصفحة الفكرية والثقافية في الأهرام .

2- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 192.

3- رئيس مركز الأبحاث في المصرف الصناعي ، له عدة كتب أهمها ***أزمتنا الاقتصادية*** (1956) .

4- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 93.

5- اقتصادي ماركس له عدة مؤلفات .

6- ماركسي دعم الثورة منذ البداية ، لكنه سجن بعد ثلاث سنوات ، عام 1968 جاء إلى فرنسا لتحضير رسالة دكتوراه في الفلسفة بعنوان ***أيديولوجية النهضة في مصر الحديثة*** ، في جامعة السوربون ، هذه الرسالة فازت بمسابقة المركز الوطني للأبحاث العلمية (C.N.R.S)عام 1969 ، ولذلك تم نشرها . له عدة مؤلفات مهمة منها ***الفكر السياسي العربي المعاصر*** ، عام 1970 (باللغة الفرنسية) ، وكتاب ***المثقفين والثورة*** عام 1965 ، وفي هذا العمل يميز عبد المالك أنور بشكل ممتع وعميق بين المثقفين (كمنتجي ثقافة) fournisseurs de la culture ، والمثقفين المستخدمين (المستهلكين) usagers de la culture لهذه الثقافة .

7- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 193.

8- *Ibid.*

9- *Ibid.* p.195.

2- **ماذا يقول هيكل ؟**

الحق يقال إن أزمة المثقفين قد طالت عمق العمل السياسي للنظام الثوري ، ولذا اعتقد هيكل أنه من الضروري أن يكتب ، بصفته منظّراً للنظام ، عدداً من المقالات "ستة" بين 22 حزيران و 30 آب/ أغسطس من عام 1961 مبرراً المواقف المختلفة للضباط الأحرار إزاء المثقفين وداعياً في الوقت نفسه إلى الهدوء والنظام . وقد اعترف بوجود ثلاث أزمات :

- الأولى : هي تلك التي جاءت نتيجة الطلب من الجيش بالعودة إلى ثكناته بعد ثورة 23 تموز/يوليو عام 1952 .
- والثانية : جاءت عندما طلب العودة إلى الحياة البرلمانية وإلى التعددية السياسية (أزمة مارس 1954) .
- الثالثة : حصلت أثناء عملية الخيار الصعب بين من كان يسمى بـ "رجال الثقة" و"الخبراء" [1].

ولفهم آراء هيكل في هذه الأزمات المختلفة سنحاول أن نتناولها كلاً على حدة .

فقد نجمت الأزمة الأولى عن السؤال حول ما إذا كان على الجيش أن يعود إلى ثكناته بعد انتهاء العملية الانقلابية أم لا؟ وفي هذا الإطار كانت هذه هي المشكلة الأولى التي سببت الصراع بين المثقفين والضباط الأحرار ، بحسب تصنيف هيكل . حيث أن البعض كان يطالب ببقاء الضباط الأحرار في السلطة ، ومن بين هؤلاء هيكل " فيلسوف الأمير " ، لأنهم كانوا يدّعون بأن الضباط الأحرار قد غيّروا النظام بنقلهم إياه من الملكية إلى الجمهورية ، كما كانوا يعتبرون بان الحكام الجدد قادرون على تحقيق ما عجز عنه السابقون ، حتى ولو لم تكن لدى هؤلاء الجدد أي معرفة بادارة الدولة . وكانوا يقدمون الحجة على موقفهم بأن " يوماً في السلطة هو كتجربة 20 عاماً خارجها" كما قال لينين .

بينما كان غيرهم يطالب بأن يعود الضباط الأحرار إلى ثكناتهم بعد نجاح العملية الانقلابية . ومن بين أنصار هذا الرأي ، الإخوان المسلمون والشيوعيون ، وبعض الليبراليين .

1- Abdel Malek, Anouar, (1970), *op. cit.*, p. 191.

وكان هؤلاء يستندون في مطلبهم إلى فكرة أن الجيش ليس سلطة مدنية ، وأن عليه بالتالي أن يترك أمور الحكم لمن هم مهيئون لإدارتها ، ويضيفون بأن الثورة تعود لتنظير المثقفين لا للعمل العسكري والعسكريين .

يقول الكاتب عادل حمودة في كتابه ***أزمة المثقفين وثورة يوليو*** "كثيراً من المثقفين صفقوا للثورة (للعسكريين) ، ذاك أنها حققت ما كان الآخرون عاجزين عنه ، وكان شعار هؤلاء في بداية الثورة : نحن نفكر والثورة تنفذ"[1] . هذا الرأي ما عبّر عنه إحسان عبد القدوس في مقالة نشرت عام 1954 بعنوان (إننا نسير في الطريق الطبيعي على الثورة : إنها ثورة تنفيذية ، لا ثورة تشريعية) :

" لـم تتحقـق هذه الثـورة ، ثورة الجيش ، من تلقـاء نفسها ولا لتعبر عــن نفسها ، بل لتكمل سلسلة من الثورات الصغيرة المتلاحقة التي قام بها الشعب . لقد كان دور ثورة الجيش بالنسبة لثورة الشعب دوراً تنفيذياً "[2] .

والحقيقة أن إحسان عبد القدوس يريد بإعلانه هذا الرأي ، أن يعطي الانطباع بأن الثورة لـم تكن ممكنة بدون المثقفين . لهذا استعمل مصطلح "الشعب" ، كي يعطي نوعاً من الموضوعية والمصداقية لكلامه . وهدفه أيضاً إعطاء مشروعية لدور المثقفين في الثورة ، وانتقاد الضباط الأحرار في الوقت ذاته . ولذلك فهو يكتب عام 1954 أيضاً قائلاً :

إن مبادىء الثورة تعود كلها إلى مبدأ واحد ، إلى مفهوم مجرد : الإصلاح . وإذا كان لقادة الثورة مثل أو ايديولوجية فإنها تعود كلها إلى مثال واحد : الجيـش للشعــب ، لا مثال آخر لا يديولوجية أخرى" [3] .

في حين يرى هيكل أن المطلب (موضوع النقاش) لـم يكن سبب اندلاع الأزمات المتعددة الاخرى . فالأزمة ، كما يقول ، كانت موجودة قبل حركة الجيش . ولو أنها لـم تكن موجودة لما حصلت هذه الحركة ، ذاك أن الوظيفة التقليدية للجيش هي الحفاظ على الوضع القائم .

وينطلق هيكل في مداخلاته من تحديد طبيعة الأدوار المتبادلة للجيش والمثقفين في ثورة 23 تموز/يوليو عام 1952 . فبرأيه أن نواة الضباط الأحرار قد تشكّلت بين الكوادر الشابة في

1- حمودة ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو " ، مصدر سابق ، ص91 .

2- روز اليوسف ، القاهرة ، 15آذار 1954 .

3- Abdel Malek, Anouar, (1962), *op. cit.*, p. 199 .

الجيش المصري التي كانت تتعاطف مع مطالب الطبقات الشعبية . لقد أنشأ هؤلاء الضباط الشباب صلات شخصية في قلب هذه الطبقات الشعبية وتوصلوا إلى ترجمة تطلعات جزء كبير من الشعب ، بالرغم من الأصل البورجوازي لبعضهم . لقد كان تدخل الضباط الأحرار في الواقع علامة على فشل المثقفين ، الذين لـم يعرفوا ، برأي هيكل ، أن يؤمّنوا لنفسهم قاعدة شعبية[1] .

هنا ، نجد مفهوم هيكل الذي يقول بوجوب انخراط المثقف في السياسة وعدم اكتفائه بدور المراقب السلبيspectateur passif . ومن الواضح ، انه كان من الصعب على جميع الذين ينادون باستقلالية المثقف عن السلطة السياسية قبول هذا المفهوم القائم على النشاط السياسي .

في هذا الجو من المواجهة بين المثقفين والجيش ، يقول هيكل[2] ، "كان من المستحيل إيجاد فريق يحقق الثورة بدون مساعدة الجيش ، مما يعني أن الجيش ، سيبقى بالضرورة في السلطة ، وهذا الأمر سينجم عنه نتائج خطيرة لأن كل خلاف مع الجيش يؤدي إلى استعمال القوة ، مثل هكذا سيناريو تحقق في أمريكا الجنوبية . هذه هي النتيجة الأولى ، أما الثانية فتتمثل في رفض الجيش في العودة إلى ثكناته والإصرار على ممارسة جميع السلطات على الإطلاق . أي بتعبير آخر ، من شأن السيناريو الثاني أن يفضي بالضرورة إلى نظام عسكري فاشي . في حين انه من الأفضل أن يكون الجيش جيشاً وطنياً بيد السلطة المدنية من أن تكون هذه الأخيرة سلاحاً بيد الجيش"[3] .

إن ما يفسر موقف هيكل هنا هو تجربته الصحفية الشخصية ، التي قادته إلى الانخراط في خدمة عبد الناصر واهدافه السياسية . ونتيجة لذلك نجده لا يرى دور المثقفين المصريين إلا بالالتزام السياسي غير المشروط في خدمة الثورة الناصرية .

وفي نهاية مداخلته يطرح هيكل السؤال التالي : ماذا فعلت أغلبية المثقفين؟[4] ويجيب على ذلك بقوله ، "إن بعضهم تبنّى موقفاً سلبياً في حين وقف البعض الآخر

1- Abdel Malek, Anouar, (1970), *op. cit.*, p. 193.

2- *Ibid.*

3- *Ibid*, p. 194

4- *Ibid.*

في صف النظام الجديد معتبراً إياه واقعاً قائماً لا يمكن تجاهله . لكن تأييد هؤلاء المثقفين ظل يتأرجح بين الدعم الواضح والشك . بل إن أكثرهم قد لجأ بشكل أو بآخر إلى نوع من الانتظار ، آملاً في أن يحمل له الوقت أخباراً جديدة" .

هذا الهجوم الذي يشنّه هيكل ، في مرحلة كانت فيها الثورة في قمّتها ، يعكس في الواقع دوره الكبير في التعبير عن الخطوط الأيديولوجية للثورة ولعبد الناصر . كما يعكس الالحاح الذي يمارسه هيكل لتأكيد وفائه للنظام . كذلك يشير إلى الأسلوب الهجومي الذي يستعمله في انتقاده لاعداء الثورة ، ولحجم وعمق التزامه بعبد الناصر ، على الأقل في تلك الفترة .

لقد كان المثقفون يعرفون جيداً أن الضباط الأحرار لن يعودوا إلى ثكناتهم ، كما كانوا يعرفون تماماً أن العسكريين خلعوا الزي العسكري ليرتدوا الزي السياسي . كذلك كانوا يعترفون بالتغير الذي حصل وبشرعية تدخل الضباط الأحرار وعملهم السياسي . لكنهم في الوقت ذاته ، لم يكونوا ليقبلوا بأن يشغل الضباط الأحرار جميع مواقع السلطة السياسية وأن يسيطروا على المجتمع المدني . أو ليقبلوا بأن تعطى الأولوية للعسكريين ، وبصورة مستمرة ، في تعيينات الوظائف العامة العليا . نتيجة لذلك كله كان المثقفون يطالبون فقط بالمشاركة وتحمل مسؤولية الهم العام[1] .

أما الأزمة الثانية ، وحسب تصنيف هيكل ، فهي "أزمة مارس" عام 1954 أو أزمة الديمقراطية . وهي الأزمة التي ترجمت على مستوى قمة السلطة بالصراع بين نجيب وعبد الناصر . حيث كان الأول يمثل الخط الديمقراطي بالنسبة للمثقفين والأحزاب السياسية ، في حين يجسد الثاني الرجل الثوري الراديكالي .

يقول هيكل في تحليله لهذه الأزمة أن أزمة آذار/مارس عام 1954 ، التي وضعت المثقفين في مواجهة الجيش قد بدأت قبل أن تبدأ الثورة فعلياً . مما يعني ، برأيه ، أن القول بأن يوم 23 تموز/يوليو 1952 هو يوم ثورة ، ناتج عن خلط بين الثورة la Révolution والانقلاب العسكري البحت le coup d'Etat . لأن الثورة ، كما يرى ، هي تحول جذري في الواقع القائم ، بخلاف الانقلاب العسكري الذي لا يشكل إلا بداية الثورة .

وهنا يطرح السؤال التالي : هل الأحزاب السياسية التي كان تطالب بعودة الجيش ،

1- حمودة ، عادل ، "أزمة المثقفين وثورة يوليو" ، مرجع سابق ، ص 108 .

كانت بمستوى استكمال عمل الثورة؟ ويجيب بأن "الأحزاب السياسية لـم تكن في الواقع إلا التعبير عن مصالح فئات محددة : البورجوازية وكبار مالكي الأراضي ، بل أن أحزاب ما قبل عام 1952 تمثل في الغالب هؤلاء المالكين . وبما أن هدف الثورة كان إجراء تغيير جذري فكيف يمكن لهؤلاء أن يقوموا به؟" . ويخلص إلى الاستنتاج "بأن الدعوة إلى عودة الأحزاب لـم تكن إلا محاولة تجميد الثورة . الحل - برأيه - هو ترك السلطات العامة تحدد ايقاع ومستوى التنمية الاقتصادية وأن تعمل بالتالي على توزيع عـادل للثروات لكل الطبقـات الاجتماعية . مع ذلك يجب أخذ خصوصية كل مجتمع وكل بلد بعين الاعتبار ، ورفض النمط الاقتصادي الغربي وكذلك النمط الشرقي في آن معاً" [1] .

وبحسب هيكل ، فإن الديمقراطية قد تحققت جزئياً بتحقق الثورة الناصرية ، أي بعملية إعادة توزيع الثروة التي قامت بها . أما ما تبقى لاستكمال الديمقراطية فإنه قضية مناهج عمل ، وأهداف وطنية ، وظروف سياسية دولية . ونتيجة لذلك فإن العودة إلى نظام الأحزاب غير مرحب بها ، بل إنه من الأفضل تطبيق سياسة الوحدة الوطنية من خلال الاتحاد القومي[2] . إن المفهوم السياسي الأُحادي الذي عبر عنه هيكل يقترب من الرؤيا الاشتراكية ، بمعنى الاشتراكية الواقعية التي تلعب فيها الدولة دوراً محورياً هاماً ، وفي رفض الديمقراطية التعددية .

والواقع أن رؤيا هيكل هذه تعكس كل القرارات التي اتخذها الضباط الأحرار إزاء الأحزاب وازاء المثقفين . وكما قلنا سابقاً فإن المجلس الثوري ، الذي كان يرأسه ويسيطر عليه أنصار عبد الناصر ، قد بدأ عام 1954 بتطبيق برنامجه ، مثل الاصلاح الزراعي الذي يحد من امتيازات كبار المالكين ويتعارض بالتالي مع مصالحهم . إضافة إلى ذلك فإن المجلس الثوري قد وضع نهاية لوجود التعددية الحزبية ، وذلك بإلغائه دستور 1923 ، غير متردد في وضع جميع رؤساء الأحزاب السياسية في السجن لبلوغ أهدافه . لهذا السبب وغيره ، وقف بعض المثقفين إلى جانب نجيب ضد عبد الناصر . وكان هذا الأخير قد حاول عدة مرات

1- حمودة ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو" ، مرجع سابق ، ص226 وما يليها .

2- المرجع نفسه ، ص229 .

إبعاد نجيب عن دوائر السلطة لكنه لم يتوصل إلى ذلك نهائياً إلا في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1954 .

ويقول المؤرخ المصري عبد العظيم رمضان في كتابه ***عبد الناصر وأزمة مارس*** ، محللاً استراتيجية عبد الناصر ازاء هذا الوضع الذي كاد أن يجر البلاد إلى حرب أهلية ، بسبب الانقسام الذي حصل في صفوف الرأي العام المصري" كانت سياسة عبد الناصر تستند إلى منطق البديلين المتناقضين : إما الاستمرار في الثورة وإما الطلب إلى الجيش أن يترك السلطة . لكن كثيرين من مؤيدي الثورة ، لم يكونوا يريدون لها أن تتحول إلى ديكتاتورية . وكثيرون من مؤيدي الديمقراطية لم يكونوا يريدون التضحية بالثورة . وبما أنه كان لكل معسكر معارضوه فانه لم يعد أمام عبد الناصر خيار آخر غير ترك الثورة تتابع طريقها"[1] .

ويقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعي "لو أن ثورة 23 يوليو تراجعت أمام أحداث عام 1954 لعادت مصر إلى مرحلة الاضطرابات والصراعات بين الأحزاب والتجمعات ، مما كان سيضعف الجبهة الداخلية في مقاومة المستعمر"[2] .

وخلافاً لهؤلاء الكتّاب ، يرى وليد رأفت في "أزمة مارس" تجلياً لأزمة الديمقراطية ، مما سبب في سلسلة من الكوارث من بينها فقدان الحريات العامة عموماً ، وانتشار الخوف بين المواطنين ، وفتح أبواب السجون كاستعمال أساليب التعذيب بكثافة ، وأخيراً هزيمة عام 1967[3] .

تؤكد هذه الأزمة بما لا يقبل الشك الفارق الكبير في التقييم بين المثقفين من جهة ، والنظام ومنظره هيكل من جهة ثانية . إذ يؤيد الفريق الأول الديمقراطية وحكم الشعب عبر انتخابات حرة تفرز نواباً يشكلون برلماناً . في حين يعتبر الجيش أن الديمقراطية هي بنية فوقية سياسية تعكس حقائق اجتماعية واقتصادية ، ولذلك فإن ممارسة الديمقراطية في ظل هكذا اوضاع ، من شأنها أن تؤدي الى إعادة سيطرة الاقطاعيين على البرلمان . فلا يمكن

1- رمضان ، عبد العظيم ، " عبد الناصر وأزمة مارس 1954" ، روز اليوسف ، القاهرة ، 1976 ، ص43 .

2- حمودة ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو " ، مرجع سابق ، ص222 .

3- المرجع نفسه ، ص223 .

للديمقراطية من منظورهم أن تتحقق إلا بعد حصول تحول اجتماعي واقتصادي في المجتمع ، وعندما تصبح موازين القوى في وضع يعكس ارادة الأغلبية . كان المثقفون يريدون ديمقراطية واقامة انتخابات فورية ، ولم يكن الجيش متحمساً لهذه القفزة .

الأزمة الثالثة ، والأخيرة ، بحسب تصنيف هيكل ، التي هزت أوساط المثقفين هي تلك المتعلقة بالخيار بين ما كان يسمى "رجال الثقة" و "الخبراء".

وهنا يأخذ بعض المفكرين على عبد الناصر أنه وضع رجاله المخلصين في مواقع الوظائف الكبرى ، بدلاً من أن يضع فيها الذين يتمتعون بالكفاءات والقدرات الملائمة . وبحسب ما جاء في كتاب ***فلسفة الثورة*** فإن عبد الناصر قد تعامل مع قضية رجال الثقة ورجال الكفاءة معتبراً أن رجال الفريق الثاني لم يكونوا على المستوى المطلوب . فيقول بهذا الصدد :

" كنا نحتاج إلى نظام ولم يكن هناك إلا الفوضى . وكنا نحتاج إلى الوحدة ولم يكن هناك إلا الانقسام . لذا ذهبنا نطلب أصحاب الخبرة ، ولكننا للأسف لم نجد شيئاً يذكر"[1] .

ثم يضيف : " غالباً ما كنت التقي الكبار – كما تسميهم الصحف – من كل التيارات ومن كل المتعاونين . كنت أسألهم عن كل قضية أبحث لها عن حل ، لكنني لم أكن أجد في أفواههم إلا كلمة (أنا)"[2] . بهذا يفسر عبد الناصر الثقة التي كان مضطراً للبحث عنها لدى الضباط .

يحلل د . لويس عوض هذا الوضع بدقة كبيرة إذ يقول "بأن الثورة ، وبسبب ظروف حصولها على يد العسكريين ، لم تكن تملك كوادر مدنية موثوقاً بها ، وقادرة على تحقيق أهدافها . كانت الكوادر المدنية في تلك المرحلة في وضع أحادية الخبرة في كل المجالات . إضافة إلى أنها لم تكن على اتفاق كامل مع مناهج الثورة ، حتى لو كانت تتعاطف معها . ويضيف لويس عوض ، أن عبد الناصر كان يشعر ، بالاضافة إلى ما سبق ، بأنه مضطر إلى مكافأة الذين قاموا

1- Abd El-Nasser, Gamal, *op. cit.*, p. 19.
2- *Ibid*, p. 21.

معه بالثورة معرضين حياتهم وأملاكهم للخطر[1] . يشارك هيكل لويس عوض هذه الأفكار ، مضيفاً بأنه بالرغم من إعطاء مسؤوليات كبيرة لرجال الثقة على مستوى التنظيم السياسي ، فقد كان الخبراء يضطلعون بمسؤوليات كبيرة ، ويمتلكون استقلالاً ذاتياً كاملاً على صعيد تطبيق التدابير التقنية التي تؤمن تنفيذ وتحقيق المشاريع التي حددتها القيادة السياسية بناءً على أهدافها المحددة[2] .

بعد 10 سنوات ، أي عام 1972 ، استعمل الكاتب المغربي عبدالله العروي[3] تعبير أزمة المثقفين ليعنون كتابه ***أزمة المثقفين العرب*** قائلاً " كلما كان المجتمع متخلفاً بالنسبة إلى مجتمع آخر ، كلما تعددت أهداف الثورة وتعمقت ، وكلما وعى المثقف هذا التخلف كلما أصبحت مسؤولياته أثقل وتضاعفت فرص الهرب إلى الأوهام والأساطير"[4] .

ورغم هذا التأكيد ، الذي يريد للمثقف الحساس ازاء القضايا الاقتصادية والسياسية أن يلعب دوراً في الثورة والتغيير وأن يتحمل مسؤولياته إزاء المجتمع (في حين يجد هيكل أن الالتزام بثورة مصر ينقص المثقفين) يعترف عبدالله العروي" بأن المثقف الثوري العربي يعيش الآن حياة بائسة ، لأن مجتمعه يعيش بنيته التحتية التاريخية على ايقاع بطيء"[5] .

نلاحظ من مداخلات هيكل المختلفة ، من التزام واضح وصريح بعبد الناصر ونظامه ، في حين كانت أكثرية المثقفين حذرة إزاء نظام لم يأخذ بعد شكله النهائي .

في هذا السياق ، تتلاشى الشكوك من إخلاص هيكل تجاه عبد الناصر ونظامه ، الذي يتخذ موقفاً واضحاً وصريحاً في مجمل القضايا المعروضة والتي تعرضنا لجزء منها . بحيث يدخل هيكل كلياً في اللعبة السياسية بين مختلف القوى الموجودة في مصر ، خاصة الإخوان المسلمين والشيوعيين كما سنرى .

1- عوض ، لويس ، "اقنعة الناصرية السبعة : مناقشة توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل" ، دار الرقي ، بيروت ، 1987 ، ط1 ، ص115 .

2- حمودة ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو " ، مرجع سابق ، ص252 .

3- مفكر ومؤرخ مغربي ، يدرّس التاريخ في جامعة محمد الخامس في الرباط .

4- Laroui, Abdallah, *La Crise des intellectuels arabes*, Seuil, Paris, 1972, p. 218.

5- *Ibid*, p. 219.

الفصل الثاني

هيكل المدافع عن ثورة عبد الناصر

إن موقف هيكل ، كناطق رسمي باسم النظام الناصري ، يفسح المجال لإلقاء الضوء على العلاقات السياسية والأيديولوجية بين الناصرية والقوى الرئيسية المعارضة لها ، خاصة الإسلاميين والشيوعيين .

وسنحاول أن نستخلص نقاط القطيعة ، والتقارب ، إذا وجدت ، بين هذه التيارات السياسية المختلفة ، ولذلك سنتناول على التوالي علاقة الناصرية بالإسلاميين وذلك في الباب الأول . وعلاقتها مع الشيوعيين وذلك في الباب الثاني ،لندرس أخيراً خصوصية الاشتراكية العربية كما طبقها عبد الناصر وكما نظر لها هيكل في الباب الثالث .

لاشك ، أنه لا يمكننا فهم الرؤيا السياسية والفلسفية لهيكل دون أن نضعها في سياقها التاريخي وذلك بمقارنة الصيغ المختلفة للفئات المعنية ، ولن يسمح ذلك لنا فقط بفهم هيكل ، رجل السياسة – الصحفي ، ومن ثم ، المحلل السياسي ، الذي يعبر ويدافع عن وجهة نظر الثورة الناصرية ، ليس فقط في حياة عبد الناصر وإنما أيضاً بعد مماته . بل إن من شأن هذا السلوك ، كما نعتقد ، أن يساعدنا على الإحاطة بالعلاقات بين نمطين متناقضين من التفكير ، الأول علماني يدافع عنه هيكل ، والثاني ديني يدافع عنه الإخوان المسلمون . وبهذا نستطيع أن نفهم الاختلاف الحاصل ليس فقط على مستوى المفاهيم والقيم ، وإنما أيضاً على مستوى الأساليب ووسائل العمل المختلفة . أخيراً ، وانطلاقاً من هذا ، سنستطيع أن نلم بشكل افضل بحدود الصراع الحالي بين السلطات الحاكمة والحركات الإسلامية في العالم العربي .

من المُسَلّم به أن الإخوان المسلمين قدّموا دعماً معتبراً للثورة . فلقد رحبوا بمجيئها وساهموا في دعواتهم المحمومة لها لدى الشعب باعطائها شرعية شعبية[1] . لكن الاختلافات العائدة إلى طبيعة الأيديولوجية المطروحة بين التيارين قادت المعسكرين إلى الدخول في صراع مفتوح ، ومن ثم ، الانتهاء بطريقة فجّة من العنف والصدام .

وما يزال الإخوان المسلمون حتى اليوم ، وكلّما عادوا إلى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ حركتهم ، يشعرون بالاستياء الكبير إزاء كل ما هو ناصري[2] . لقد كان عبد الناصر ومؤيدوه الشيوعيون – في الخطاب السياسي للإخوان المسلمين – يدافعون عن مصالح الاتحاد السوفييتي ويسخرون من الإسلام ويوظفون المسلمين لبلوغ أهدافهم الخاصة . والإخوان المسلمون كانوا يجدون تعارضاً بين نظام يعتبرونه ملحداً ، وعقيدتهم التي تدعوهم إلى تطبيق

1- Carrée, Olivier, Michaud, Gérard, *Les frères musulmans en Egypte et en Syrie: 1928-1982*, Gallimeard, Paris, 1983, p. 49.

2- انظر : التلمساني ، عمر ، " قالوا ولم أقل عن عبد الناصر" ، دار الاعتصام ، القاهرة ، 1985 .

الشريعة (الدستور الإلهي) كما نزلت في القرآن الكريم . هكذا يعتبر الشيخ عمر التلسماني ، المرشد العام للاخوان المسلمين إن " عبد الناصر قد أعلن الحرب على الله عندما اتخذ الشيوعية عقيدته ، دون أي وعي ، لأنه كأنه كان متعلقاً كثيراً بالسلطة"[1] ، ولأن هيكل كان صوتاً للناصرية ، فلقد أصبح الهدف المفضل للإسلاميين . وذاك ما أعطاه فرصة تحديد علاقات الناصرية بالإسلامية من خلال ثلاث محاور مختلفة سنحاول أن نبينها ونحللها هنا :

أولاً : وبحسب هيكل ، لا تستطيع الناصرية أن تتأقلم مع أيديولوجية الإخوان المسلمين ، لأنه ليس لهذه الأيديولوجية أي محتوىً دقيق ، كونها ليست إلا مجموعة مبادئ متناقضة هدفها التجاوب مع الفوضى الأيديولوجية السائدة في المجتمع المصري وقادرة بمهارة على أن تلبي نداء الوجدان الديني لدى الشعب . أما الناصرية فهي لا تتنكر للإسلام ، لأن الإسلام بحسب هيكل ، هو أحد المكونات الأساسية والتي لا يمكن تجاوزها في الثقافة العربية . لكنه يعتبر أن الانتماء الديني ثانوي بالنسبة للانتماء للأمة العربية .

ثانياً : إذا كانت الأيديولوجية الناصرية تبشر " بأحادية " unanimism هي ميزة الأنظمة الشمولية ، فإن اعتراضات الإخوان المسلمين على المظاهر الديكتاتورية الناصرية كانت مشوبة بالخبث وبسوء النية بنظر هيكل ، كون الفكر الإسلامي غير مهيأ إلا قليلاً لأن يقبل ممارسة التعددية السياسية في الواقع . إضافة إلى ذلك ، ودائماً بحسب هيكل ، في حين أن الناصرية كانت تطبيق سلطة علمانية ، فإن الأصولية الإسلامية كانت (وما تزال) تعتبر نفسها التعبير عن إرادة إلهية ، خالطة بذلك بين السلطة الروحية والزمنية .

ثالثاً : وأخيراً ، لم يكن من شأن التباين القائم داخل الناصرية ، التي كانت تستوحي الاشتراكية والقومية ، والإسلام معاً ، إلا أن يؤدي ذلك إلى مواجهة عنيفة مع الإسلاميين الذين سيقفون في مواجهة نظام عبد الناصر والأيديولوجية الاشتراكية

1- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص146 .

بصيغتها العربية . اقتناعاً منهم بأنهم يحملون عقيدة نقية كونها تنبثق من الوحي الإلهي ، لـم يكن بإمكان الإخوان المسلمين إلا أن يرفضوا العلمانية الأيديولوجية التي نادى بها عبـد الناصر . وكان من شأن الأحادية التي مارسـها النظـام أن تؤدي ، بالتالي ، إلى إضفاء طابع العنف والفجاجة على هذه العلاقة .

من أجل شرح هذه الأفكار وتفسيرها ، كما يراها هيكل ، سنتناول ثلاث قضايا : الأولى متعلقة برفض الأيديولوجية "الظرفية" conjoncturelles ، والثانية فتهدف إلى معرفة إذا كان الصراع السياسي بين التيارين كانت من أجل السلطة الدينية أم السلطة الزمنية؟ وأخيراً ، سيتم التطرق إلى حجم الخلافات بين الدولة الناصرية والحركة الإسلامية ممثلة بشكل خاص بجماعة الإخوان المسلمين .

1- رفض الأيديولوجيات "الظرفية"

من المؤكد أن هيكل لـم يكن مؤيداً ولا متعاطفاً مع الإخوان المسلمين . ولا يعود ذلك إلى أية توجهات مضادة للدين ، بل إلى فهم خاص للنظام السياسي وللأسس الأيديولوجية في المجتمع المصري والعربي .

أول المواقف التي أعلنت القطيعة بين هيكل والاخوان المسلمين هي رفضه في عام 1940 أن يكون سكرتير تحرير إحدى صحفهم ، في حين أن الذي عرض عليه هذه الوظيفة لـم يكن إلا (الزعيم التاريخي) للإسلاميين وهو حسن البنا .

ويقول هيكل ، إن رفضه كان النتيجة المنطقية للتحليل العقائدي والعملي والمساوم الذي قدمه له زعيم الإخوان المسلمين ، إجابة على سؤاله ، حول طبيعة العمل والقراء الذين سوف يتوجه إليهم :

" إذا كنت تريد أن تتحدث عن التوزيع ، فلا تقلق ، ذاك أن هناك 4000 قرية ، ولدينا في كل منها مكتب دعاية يضم 12 شخصاً . فإذا اشترى هؤلاء فقط الصحيفة ، فإننا سنوزع 48000 عدد ، قبل أن توضع لدى الباعة"[1] .

1- الدستور الأردنية ، عمّان ، 17 شباط1993 .

هذا التحليل لم يعجب هيكل الذي لم يكن متعوداً على الطرق الحسابية لدى الإخوان المسلمين . وكان طموحه أن يعمل في صحيفة ذات توجه وطني واسع قدر الإمكان ، وتتوجه إلى جمهور عريض من المسلمين والمسيحيين والتجار ، والعمال . . الخ .

إذن ، وقبل انضمامه إلى الناصرية بكثير كان لدى هيكل رفض طبيعي لدوغماتية الإخوان المسلمين ، وهو الذي تشكل في مدرسة الغائية والبرغماتية . بعد ذلك ، ومع وصول عبد الناصر إلى السلطة كانت ردة فعل هيكل أكثر حزماً ضد الإخوان المسلمين الذين كانوا يمثلون بنظره تهديداً للنظام الثوري ، لذلك هاجم أسسهم الأيديولوجية باحثاً عن إبراز ما كان يعتبره تشويشاً في سلوكهم خلال حكم عبد الناصر وفي السنوات الأولى من حكم السادات . وتستند معارضته للحركات الإسلامية ، في النهاية ، إلى ما كان يعتبره أن لا عقلانية ولا واقعية لديهم .

ليس هدفنا هنا دراسة هيكل الصحفي بل هيكل المحلل السياسي ، منظر الناصرية ، ومعارض الأيديولوجية الإسلامية التي كان يحملها ويدافع عنها الإخوان المسلمون .

عندما يُعرف هيكل من جهته (الحركة الإسلامية)[1] ، فإنه يعتبرها "حركة أصولية أولاً تدعو إلى الأفكار والممارسات التي كانت تسود في عصور الإسلام الأولى ، حيث لم يكن الرسول يعلم معتقدات وممارسات دينية فقط ، بل نظاماً سلوكياً كاملاً ، على المجتمع أن ينتظم حوله"[2] .

وقبل أن نقدم التحليل التاريخي والسياسي لفكر هيكل سنحاول أن نوضح مصدر هذه الكلمة التي شرحها الكاتب المصري محمد العشماوي في كتابه ***الأصولية الإسلامية ضد الإسلام*** :

" في الولايات المتحدة الامريكية تطلق صفة الأصوليين Fondamentalistes على مجموعة المسيحيين الذين يقررون أن ينسحبوا من المجتمع ليعيشوا الحياة الجماعية والبدائية

1- نفضل استعمال المصطلح "اسلامي" l'Islamism أكثر من المصطلح " أصولي" Intégrisme لنعت الالتزام الاسلامي المعاصر ، وبذلك نشارك أوليفيه كاريه هذا التمييز وهذا التفضيل .

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère: l'assassinat de Sadate*, Ramsay, Paris, 1983, p. 137.

التي كـان يعيشهـا المسيحيون الأوائـل وبهذا المعنى يعودون إلى أســس المسيحيـة الأولى .
تحت تأثير هذا المصطلح الانكلوسكسوني ، يطلق بعض الكتاب العرب صفة الأصولية الإسلامية على التيار الفكري المتطرف الذي يتعلق ببعض المظاهر الشكلية والهامشية للإسلام ، ويحاول فرضها عن طريق العنف . إن هذا النقل الحرفي والبسيط لتعبير مأخوذ من السياق الفكري والاجتماعي الأمريكي الشمالي إلى السياق العربي الإسلامي يتجاهل الفوارق الهامة بين المسيحية الأولى والإسلام كما عاشه المسلمون الأوائل"[1] .

إذن ، لكي نعود إلى تحليل هيكل ، فإن التيار الأصولي قد ولد في سياق تاريخي خاص ، ليكون رداً على ظرفٍ محدد . ذلك أنه يجد جذوره الأولى في مرحلة العظمة العباسية ، كما يوضح هيكل ، حيث كان المؤسس الإمام أحمد ابن حنبل (780-850) ، الفقيه الذي أدانَ ترفَ قصور بغداد داعياً العودة إلى النقاء الإسلامي الأول ، نقاء الجيل الذي رافق الرسول وصحابته . كان ابن حنبل يؤكد أن عظمة الفترة الأولى من الإسلام لم تكن إلا نتيجة التزامه ببعض المبادئ الأساسية ، مبادئ تظل صالحة للحاضر والمستقبل كما كانت صالحة للماضي[2] .

في كتابه ***خريف الغضب*** ، يحلل هيكل بعمق أساس وتطور الفكر الإسلامي الأصولي . فيقول بان إنهيار وتقلص الإمبراطورية العباسية الذي بدأ في القرن التاسع على يد المغول الذين نهبوا بغداد وأمروا بإعدام آخر خليفة عباسي ، خلق وضعاً جديداً ليس بالنسبة للشعب فقط ، وإنما بالنسبة لمفسري العقيدة . واصبح أحد اللاجئين الذين هربوا من الاضطهاد المغولي في بغداد ، أستاذاً للقانون الإسلامي الحنبلي في دمشق . وعند وفاته ، خلفه ابنه أحمد بن تيمية (1263-1328) في منصبه . ومن هناك أطلق دعوة للجهاد ضد المعتدين ، معلناً انه لا يمكن اعتبار المغول مسلمين حتى ولو أنهم كانوا يقولون عن أنفسهم ذلك لأنهم ليسوا إلا طغاة يشوهون الطبيعة الحقيقية للإسلام[3] .

1- Al-Ashamaway, Mohammed, *l'Islamisme contre l'islam*, La découverte, Paris, 1989, p. 75.

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 137.

3- *Ibid*, p. 138.

وهكذا أثر ابن تيمية مثله مثل ابن حنبل ، بالفكر الأصولي . ويرى هيكل أن الوضع نفسه الذي كان وراء ولادة الأصولية الإسلامية في العصور الإسلامية القديمة ، عاد فتكرر في القرنين التاسع عشر والعشرين .

إذ أنه في ظل الحماية الإنكليزية أُطلقت دعوات العودة للأصول الأولى للاسلام من قبل جمال الدين الأفغاني (1838-1897) ومحمد عبده (1849-1905) وهما رمزان حديثان من رموز الاصولية[1] . ثم جاء رشيد رضا وهو تلميذ محمد عبده ليحيّ احتلال الوهابيين للمدن المقدسة في الجزيرة العربية ، وليعيد في صحيفته "المنار" نشر الكتابات الفلسفية والسياسية لابن تيمية ، وذاك ما تأثر به الزعيم التاريخي للإخوان المسلمين حسن البنا .

وكما يرى هيكل أيضاً ، "فإن ظهور حركة حسن البنا الأصولية في الإسماعيلية لم يكن مجرد صدفة ، إنها المدينة المصرية الأكثر تعرضاً للتأثير الأوروبي كونها مقر شركة قناة السويس مع كل ما يحيط بها من معسكرات ومنشآت الجيش البريطاني المحتل . إذن فقد كانت ردة الفعل إزاء هذا المحيط طبيعية وتخضع لنفس المنطق الذي ظهر في عصر ابن تيمية ضد المغول في القرن الثاني عشر"[2] . ففي الحالين كان الأمر ، بنظر هيكل ، عبارة عن ردة فعل آنية على وضع تاريخي محدد ، ردة فعل لا تتضمن أي مشروع وأي فكر سياسيين قابلين للنقل إلى مصر المعاصرة .

إن لأصولية الإخوان المسلمين ، رغم ذلك ، طابعاً خاصاً يميزها عن أصولية جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، طابعاً يتمثل في أنها وقبل كل شيء أصولية مقاتلة وثورية شعارها تلك الجملة التأسيسية التي أطلقها حسن البنا عام 1928 ، عندما كان مدرساً في الإسماعيلية : " الإسلام هو أيديولوجية ، هو عقيدة وإيمان ، حزب وأمة ، دين ودولة ، فكر وعمل ، كتاب وحرب"[3] . وهكذا حدد البنا فكر حركته ، باعتبارها ديالكتيكياً بين الفكر والعمل السياسي عبَّر عن نفسه فيما بعد بمفهومين كبيرين سيطرا على كل خطاباته ورسائله :

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 138 - 139.

2- *Ibid*, p. 140.

3- Chartouni - Dubarry May, "*Egypte : la montée de l' islamisme (révolutionnair)* ", Etudes ,n 367, Paris, November 1987, p. 452.

" مفهوم الدولة" و "مفهوم العدالة الاجتماعية" .

لكـــن قمـــة هـــذه البنيـــة الأيديولوجيـــة هـــي القناعـة بأن الإسـلام يشكل منهجاً مثاليـــاً . منهجـــاً "شـــامـــلاً للحياة"[1] . قناعة تكـشـف عــن إرادة إدراج كامـــل الحيـــاة الدنيوية فـــي البنى العقديـــة للدين بكل الوسائل الممكنة ، بما فيها اللجوء إلى العنف والإرهاب .

هذا المفهوم الراديكالي النضالي للعمل السياسي يظهر بشكل خاص اعتباراً من عام 1948 ، حيث أن الإخوان المسلمين لعبوا ذلك العام دوراً أساسياً في تحريك المتطوعين المصريين لحرب فلسطين . كذلك حصلت في ذلك العام عدة محاولات اغتيال ضد شخصيات نظام الملك فاروق ، مثل رئيس الوزراء محمود النقراشي وغيره[2] .

وكان الإخوان المسلمون الذين يقفون في معارضة النظام الملكي (رغم أن ذلك كان غامضاً بعض الشيء) ، وفي معارضة الوجود البريطاني أيضاً ، كانوا يتميزون عن القوميين في انهم يرفضون كل نمط سياسي أجنبي . في هذا الصدد يقول الكاتب جيل كيبل في كتابه ***النبي والفرعون*** المخصص لدراسة جذور الحركات الإسلامية في هذا الصدد :

" في الإسلام السني كان تنظيم أو تجمع الإخوان المسلمين ، الذي تأسس عام 1928 والمنتشر في أكثر الدول العربية ، معارضاً للحركات الأخرى المضادة للاستعمـار ، أو القـومية التي تريد أن تبنـي دولـــة مستقلة على نمط الديمقـــراطيـة الغربيـة" [3] .

أما بالنسبة لهيكل فإنه يؤكد انه بالرغم من أن الإخوان المسلمين كانوا قريبين من العمل الشعبي المصري من أجل الاستقلال الوطني ، غير انهم قبلوا أن يقتربوا من القصر ومن الإنكليز ، متعارضين في ذلك مع الديناميكية الوطنيـــة والشعبيـة التـــي كـان يجسدها حزب الوفد :

" صحيح أن حسن البنا قد اقترب بجهد ديني شخصي ، من العمل الجماهيري ، يقول هيكل ، ولكن فكرة تشجيع الإخوان المسلمين (من قبل القصـر والإنكليز) لـم تكن غريبة

1- Chartouni - Dubarry May, *op cit.*, p. 453.

2- El-Sadate, Anwar, (1957), *op. cit.*, p. 168.

3- Képel, Gilles, *Le prophète et le pharaon*, Seuil, Paris, 1993, p. 12.

عن فكرة محاربة الوفد ، الذي كـان يضـم جميع شرائح المجتمع ، ويشكل بذلك القوة السياسية الكبرى التي يخافها الإنكليز والقصر"[1] .

وإذا كانت هذه الرؤيا المتحيزة لهيكل تجد تفسيرها في التزامه المتحزب بعبد الناصر ، فإنه من المعروف أن الإخوان المسلمين قد قدّموا دليلاً في ذلك الوقت على شيء من الدعائية publicité إزاء النظام الملكي . إذ لـم يتردد حسـن البنـا في أن يطلـب إلـى الملك فاروق عام 1940 ، إلغـاء جميـع الأحـزاب السياسيـة وتأسيـس (اتحاد شعبي) يعمل لخير مصر بشكل متوافق مع الإسلام[2] .

إن نمط السلوك الملتبس والغامض الذي اتبعه الإخوان المسلمون هذا ، قد سمح لهيكل بأن يصفهم بالمتواطئين مع ملكية فاروق الفاسدة وبحلفاء موضوعيين للإنكليز . وتأتي هذه الاتهامات المركزية لطرح هيكل المضاد للإسلاميين ، لتضاف إلى تلك التي تصفهم بالغوغائية الشعبية ، وبالإرهاب والسلطوية . هذا الاتهام الأخير يستند على رفضهم الدستور المصري عام 1923 ، ذلك الدستور الذي جاء نتيجة ثورة عام 1919 الوطنية والتي دافع عنها حزب الوفد .

وبتكرار شعار : " اللّه غايتنا ، والرسول قدوتنا ، والقرآن دستورنا " ، ساهم الإسلاميون ، كما يرى هيكل ، ضمنياً في فشل دستور 1923 [3] .

لا شيء ، إذن ، يمكن أن يقرب هيكل من الإسلاميين : لقد كان هو مؤيداً للدستورية الإيجابية والعلمانية ، في حين كانوا هم مؤيدين لدستورية دينية وخطابية . إضافة إلى ذلك ، فإن الخلافات التكتيكية ووضع المنافسة على السلطة الذي كان قائماً بين الإخوان المسلمين والناصريين قد ساهما في تقوية هذا الخلاف العقائدي .

لكن ، وأياً تكـن التناقضـات التـي وجدت بين الناصرية بصيغتها الهيكلية (نسبة إلى هيكـل) وبين الإسلاميـة ، فـإن الأعمـال الإرهابية التي قام بها الجـناح الخـاص

1- الدستور الأردنية ، عمّان ، 17 شباط ، 1993 .

2- Képel, Gilles, *Le prophète et le pharaon*, *op. cit.*, p. 112.

3- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 140.

la branche spéciale لتنظيم الإخوان المسلمين[1] في الأربعينات (سنوات العبور المفْصلي من الدعاية الكلامية إلى الفعل) ضد المصالح البريطانية أو ضد النظام الملكي ، كانت تستأثر تأييد الشعب بل وبعض الضباط الأحرار أيضاً . ولذلك لم يكن سراً أن عبد الناصر قد درّب سراً بضع فرق من الإخوان المسلمين الذين ذهبوا للقتال في فلسطين عام 1948 [2] وأن السادات كان معجباً بحسن البنا ومتأثراً بخطبه ، كما يقول في كتابه ***ثورة على النيل***[3] .

وفي كل الأحوال ، فإن الأعمال (الإرهابية) التي قام بها الإخوان المسلمون بقيادة حسن البنّا ، خاصة ضد شخصيات قيادية في الدولة ، قادت إلى اغتيال هذا الأخير في 12 شباط/فبراير عام 1949 [4] . فخلفه أحد المقربين منه ، حسن الهضيبي ، على رأس التنظيم . وحصل ذلك في مرحلة تولى السلطة فيهاحزب الوفد الذي كان على صراع مع الملك وعلى عداءٍ مع الإخوان المسلمين .

ولذلك أراد القصر ، في ظل هذه الظروف ، إعادة المياه إلى مجاريها في علاقاته الغامضة مع الإخوان المسلمين ، ليجعل منهم حجراً إضافياً في لعبة الشطرنج التكتيكية التي كانت تقرّبُه من بعض الأحزاب السياسية حيناً وتبعده عنه أحياناً . وعندها قرر الهضيبي أن يزور الملك وعند خروجه أعلن ما يلي :

" لقد قمت بزيارة كريمة إلى ملك كريم"[5] .

يعبر هذا التصريح على التوترات والتناقضات التي كان يمر بها تنظيم الإخوان المسلمين ، بين كونه تياراً سياسياً راديكالياً (يجسدّه حسن البنا) وتياراً محافظاً ، (يجسّده خليفته

1- الجناح الخاص : هو الجناح العسكري للتنظيم الأصولي ، أسسه حسن البنا ليس فقط للقيام بأعمال إرهابية ضد الإنكليز ، ولكن أيضاً ضد المعارضين السياسيين الذين يثبت تورطهم بأعمال مناهضة للجماعة . ويمارس أعضاء هذا الجناح بعض الطقوس الغريبة بعض الشيء ، فهم يدخلون إلى غرفة مظلمة ، ثم يضعون أيديهم على القرآن ويقسموا اليمين بأن يكون مخلصين ومحافظين على مبادىء الاسلام ، وأن يكونوا تحت إمرة وطاعة المرشد الأعلى للإخوان المسلمين ، انظر محمد حسنين هيكل ، ***خريف الغضب*** (باللغة الفرنسية) ، ص141 .

2- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص57 . انظر ايضاً : El-Sadate, Anwar,(1957), *Op. cit*, p., 160

3- El-Sadate, Anwar, (1957), *op. cit.*, p. 113.

4- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère op. cit.*, p. 142.

5- *ibid*, p. 143.

حسن الهضيبي) . ولذلك فإن الإخوان المسلمين الذين قاموا بعمليات اغتيال ضد شخصيات النظام الملكي قبلوا أن يتحاوروا مع الملك . إن هذا التناقض بين أصحاب توجه إسلامي راديكالي وأصحاب توجه إسلامي محافظ ، سيظهر بطريقة أكثر مأساوية بعد عدة سنوات ، في ظل حكم السادات [1] .

2- نضال في سبيل السلطة الزمنية أم الروحية؟

يقول روجيه جارودي في كتابه ***الأصولية*** إن استيلاء عبد الناصر على السلطة في 23 تموز/يوليو عام 1952 لم يكن ممكناً لولا دعم الإخوان المسلمين ، الذين استطاعوا وبأشكال العمل المختلفة التي كانوا يمارسونها في مصر ، أن يحولوا الثورة إلى حركة شعبية[2] .

أفلا يعتبرون بعد ذلك أن هذا العمل يخصهم؟ ويبدو أن هذه القناعة هي السبب الذي جعل مرشد الإخوان المسلمين ، حسن الهضيبي يعلن بعد الانقلاب :

" لقد كلل اللّه بالنجاح الجيش المصري في هذا الانقلاب المبارك الذي يفتح الأبواب أمام الأمل ، أمام انبعاث أمتنا المصرية ، وأمام نهضة مجدها ، بإزالة الحواجز عن طريق الجهاد في سبيل اللّه وفي سبيل الحقيقة"[3] .

ولا ينكر هيكل نفسه هذه العلاقة الوثيقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين ، إذ يقول بهذا الخصوص بأنه غداة الحرب ، ومع انتشار الحركات القومية من كل الاتجاهات ، ورغم عدم امتلاك الإخوان المسلمين لبرنامج متناغم ، فإن الشعب كان معجباً بهم وأنه كان يرضي الأجيال الجديدة أن يقوم حسن البنا بتعميد " رهبان الليل وفرسان النهار "[4] ، خاصة وأن الفرق التي أرسلها للقتال في فلسطين قد تميزت بشكل كبير وواضح . ويضيف أنه في بعض اللحظات كان كثير من الضباط الأحرار ، بمن فيهم عبد الناصر ، يشعرون بأنهم

1- انظر الفصل الثاني من الجزء الثاني من هذا الكتاب والمتعلق باستراتيجية السادات في ضرب اليسار عن طريق اليمين الاسلامي .

2- Garaudy, Roger, *l'Intégrisme*, Belfond, Paris, 1990, p. 104.

3- Carrée, Olivier, Michaud, Gérard, *op. cit.*, p. 51.

4- وصف كان يطلق على المتطوعين للقتال في فلسطين .

منجذبون إلى الإخوان المسلمين بل ويفكرون بالالتحاق بهم ، وإذا كان هذا لـم يتحقق فعلياً ، فلأن الإخوان المسلمين لـم يكونوا بنظر الضباط الأحرار يمتلكون برنامجاً ملموساً خارج المبادئ العامة العائدة إلى الفقه والدين[1] . والواقع أن هذا المنطق واضح في تصريحات الإخوان المسلمين . فعندما كان حسن البنا يسأل عن برنامجه السياسي ، كان يجيب : " هو الدولة الإسلامية دون أن يعطي أي تفصيلات دقيقة"[2] .

ورغم الاختلافات الأيديولوجية بين الطرفين ، فعندما بلور عبد الناصر برنامجه السياسي والاجتماعي اتخذ قراراً بحل جميع الأحزاب السياسية وذلك بمرسوم 16 كانون الثاني/ يناير عام 1953 ، دون أن يحل تنظيم الإخوان المسلمين . من جهته يرى جيل كيبل ، أن الإخوان المسلمين كانوا يشكلون (جمعية) une association لا حزباً سياسياً ، ولذلك لـم يمنعوا على الرغم من كونهم يمثلون قوة شعبية كبيرة كانت الحكومة ما تزال غير قادرة على مواجهتها[3] .

لكن هيكل يرى بأنه لا يمكن تفسير موقف الضباط الأحرار المتسامح بالوضع القانوني للتنظيم الأصولي أو بضعف السلطة ، بل بواقع أن الضباط لـم يكونوا يريدون قطع صلاتهم القديمة مع الإخوان المسلمين وبالتضحيات التي قدمها هؤلاء في صفوف المقاومة في ظل نظام الملك فاروق[4] .

ويوافق الكاتب عبدالله أمام ، هيكل ، على هذا الرأي ، إذ يقول :

" بأن الثورة كانت في البداية تحكم بواسطة مجلسها ، وكانت بذلك قوية بحيث أنها كانت قادرة على حل تنظيم الإخوان المسلمين عندما حلت الأحزاب السياسية ، دون أي حاجة موضوعية لاختراع مؤامرة وهمية (مؤامرة 1954) للتخلص من الإخوان المسلمين . علماً بأن هؤلاء لـم ينجحوا أبداً قبل الثورة في إيصال نائبٍ واحدٍ إلى البرلمان"[5] . ويمكن

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 141.

2- *Ibid.*

3- Képel, Gilles, *op. cit.*, p. 29.

4- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص107 .

5- إمام ، عبد الله ، "ناصر والحملة الظالمة" ، دون ذكر لدار النشر ، القاهرة ، 1986 ، ص7 .

أخذ وجهة النظر هذه بشكل نسبي مذكرين بالقمع الشديد والعنيف الذي تعرض له الإخوان المسلمون عامي 1954 و 1965 .

وفي كل الأحوال ، فإن "شهر العسل" بين التنظيم الأصولي والسلطة لم يتأخر في الوصول إلى قطيعة نهائية وقاسية . فقد كان الإخوان المسلمون يشعرون بأنهم قد استغلوا ، في حين كان الضباط الأحرار يخشون من النفوذ المتنامي ومن الأهداف السلطوية للإخوان . إضافة إلى ذلك يقول هيكل ، بأن (الجناح الخاص) كان ما يزال موجوداً دون أن يكون المرشد العام قادراً على ضبطه . كما يضيف هيكل بأن عبد الناصر أيضاً كان على علم كامل بأنشطة الجناح الخاص كما كان يعرف بعض أعضائه ، ولكنه لم يكن يستطيع رغم ذلك أن يسمح بوجوده واستمراريته[1] .

ورغم كل ما يمكن أن يقال حول العلاقات بين الإخوان المسلمين والنظام الناصري ، فإن الصراع بينهم وبين الضباط الأحرار كان في الواقع صراعاً على السلطة سواء باسم اللّه au nom d'Allah ، أو باسم الشرعية الثورية légitimité révolutionnaire . ويبدو ذلك بوضوح عند تفحص البرنامج السياسي الذي طرحه الإخوان المسلمون في أول آب/اغسطس عام 1952 متضمناً النقاط الثماني التالية :

1- التضامن .

2- تحرير الملكية الزراعية .

3- إنشاء محكمة محاسبة .

4- إلغاء الألقاب المميزة للأشراف .

5- تمصير البنك المصرفي الشعبي .

6- حل البورصة .

7- تصنيع البلاد .

8- حل الشرطة السرية[2] .

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 143.

2- Garaudy, Roger, *op. cit.*, p. 105 .

وكان رحيل الإنكليز عن مصر مطروحاً كشرط أساسي للقيام بهذا الإصلاح . نلاحظ أن هذا البرنامج هو برنامج ذو إيحاء اشتراكي ، وكأن الإخوان المسلمون ، لكي يجدوا موقعهم في النظام الجديد ، كانوا مضطرين إلى تقليده .

ويمكن القول أيضاً ، بأن هذا البرنامج ينبع من الرغبة في إعطاء بعدٍ ديني للنظام الجديد ، وذلك بمشاركة شخصيات إسلامية مشاركة فعلية في شؤون الدولة . وبحسب هيكل فإن المرشد العام للإخوان المسلمون الجديد حسن الهضيبي قد حاول أن يلعب دوراً على الساحة السياسية لكنه بدا غير قادر على تحديد برنامج سياسي ملموس مثله مثل سلفه حسن البنا . لذلك استمر في الإلحاح على " التطبيق الحرفي للمبادئ الإسلامية " دون أن يحدد ما يريد قوله بذلك[1] . وقد رفض الضباط الأحرار هذه المقترحات وتمسكوا ببرنامج حكومة غير إسلامي .

إن التعارض بين المنطق الأصولي للإخوان والمنطق السياسي للثورة بدأ يأخذ شكله الفعلي على أرض الواقع عندما حاول عبد الناصر ، رجل النظام القوي في عام 1952 أن يتقرب من الغرب ، تقرباً تُرْجِمَ عملياً باتفاق وقِّعَ مع الإنكليز عام 1954 ينص على جلاء الإنكليز عن مصر .

وعلى هذا التوقيع يعلق هيكل قائلاً :

"لقد كشف هذا التوقيع النوايا الحقيقية للإخوان ، والمتمثلة في الاستيلاء على السلطة أو السيطرة عليها ، ذلك أنه عندما تلقى الشعب هذا الحدث كخطوة إلى الأمام تندرج في سياق إستراتيجية محددة ، تبنى الإخوان المسلمون موقفاً معارضاً وهاجموا الثورة ، وعندها تحمل السادات مسؤولية المواجهة إذ ردّ بمجموعة من المقالات كان ينشرها دورياً في صحيفة الجمهورية ، وفيها يكشف محاولات الإخوان المسلمين ضد الثورة"[2] .

وبعدها مضى الإخوان المسلمون – كما يرى هيكل – إلى ما هو أبعد من ذلك في معارضتهم للنظام . إذ لجأوا إلى الجناح الخاص في محاولةٍ لاغتيال عبد الناصر في ساحة

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 143 .

2- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص107 .

المنشية في الإسكندرية يوم 26 تشرين الأول/اكتوبر عام 1954 . وفشلت المحاولة واعترف الشاب محمود عبداللطيف الذي قام بها بعد توقيفه بأنه عضو في الجناح الخاص ، مما أفضى إلى محاكمة سمحت بكشف النقاب عن المشاريع السرية للإخوان المسلمين[1] .

ونتيجة للاختلاف والتصادم ، استعمل عبد الناصر القمع الشديد ضد الإخوان ، قمعاً لم يتوقف إلاّ عند وفاة الرئيس عام 1970 . قمعاً حملَ في سلّته كل الوسائل الممكنة : السجن والتعذيب ومعسكرات الاعتقال والاعدامات الدورية ، بحيث أن الإخوان المسلمين تحولوا ، بحسب تعبير أوليفيه كاريه ، إلى جيش من الشهداء armée de martyrs [2] .

يمكن القول ، إذن ، بأن السلطة الجديدة ، وبعد نجاحها في فرض ذاتها على جميع أجهزة الدولة ، لم تعد بحاجة إلى جناحها الأصولي الذي اصبح مزعجاً جداً ، ويعود ذلك إلى عدم توافق جذري بين (فكر الثورة) و (منطق الإسلاميين) . فمن جهةٍ كان هناك منطق علماني ، في حين كانت في الجهة الأخرى رغبة الخلط بين النظام العلماني والنظام الإلهي . وفي الجهتين كانت هناك رغبة تسلطية في تطبيق نظامٍ يكتفي بذاته ولايتسامح مع أي مشروع حوار هادىء وديمقراطي مع الآخر .

3- حجم الخلافات بين الدولة الناصرية والحركة الإسلامية

بعد القمع الذي مارسهُ عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين حمل هيكل قلمهُ ليبرر هذه الأعمال ، مركزاً وبإلحاح ، وبشكل خاص ، على أن النظام الناصري كان في وضع دفاعي .

ولفهم المعنى الحقيقي للمواقف المتعددة التي اتخذها عبد الناصر إزاء الحركات الإسلامية ، لا بد من القول أولاً ، بأنه أعترف بأهمية دور الدين في المجتمع المصري وفي العالم العربي الإسلامي . وهكذا يتحدث عبد الناصر عبر قلم هيكل ، في كتاب ***فلسفة الثورة*** ، وهو بيان الإشتراكية الناصرية le Manifeste الذي نشر عام 1954 ، عن " دوائر

1- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 107 .

2- Briere, Claire , Carré, Olivier, *Islam: guerre a l'occident?*, Autrement à cièl ouvert, Paris, 1983, p. 101.

السياسة الخارجية المصرية " محدداً إياها بثلاث :

(الدائرة العربية) ، (الدائرة الإفريقية) ، (الدائرة الإسلامية) . ويقول إن الدائرة الإسلامية تفرض (علاقات روحية ، تضامنية ، وأخوة)[1] . وبأن هذه الدائرة تتجاوز حدود المجتمع العربي الذي يقوم اساسهُ على قيم الحضارة الإسلامية كونه مجتمعاً يقوم على وحدة اللغة ، والثقافة والتاريخ ، والمصالح والأمن .

لقد كانت فكرة الوحدة الإسلامية لاحقة ، في فكر الفلسفة الاشتراكية الناصرية ، لفكرة الوحدة العربية . وهذا لم يكن يعجب الاسلاميين ، لانهم كانوا يعتبرون " أنه لا وجود إلا لأمة واحدة هي الأمة الإسلامية ، ملغين الدولة – الأمة l'Etat-Nation ، باعتبارها مفهوماً غريباً يفكك دار الاسلام"[2] .

لا شك في أنه لم يكن لهذا الخلاف الاساسي إلا أن يقود إلى مواجهة بين المعسكرين . فبحسب هيكل ، لم يكن الإخوان المسلمون يريدون الاعتراف بإي مظهر إيجابي للثورة . فهم يعارضون المساواة التي تطرحها مستندين إلى النص القرآني الذي يقول : ﴿ ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ﴾ [3] .

وعندما باشر الضباط الاحرار عام 1953 عملية الإصلاح الزراعي عارضها الإخوان المسلمون أيضاً ، لانهم لم يقبلوا بالحد الأعلى للمساحة الزراعية الذي حدد بـ 200 فدان للمالك الواحد بل كانوا يريدون رفعه إلى 500 فدان[4] .

كما عارضوا أيضاً قوانين عام 1961 الاشتراكية ، إذ رأوا فيها (تدابير شيوعية ملحدة) ، في حين كانت هذه التدابير نفسها ضمن متطلبات برنامجهم .

ومن ثم ، باشر الإخوان المسلمون علاقات تعاون مع بعض الدول الثيوقراطية في الخليج العربي ، حيث وجد عدد كبير منهم ملجأ لهم فيها ، ومنها نشروا كتبهم المتضمنة دعاية ضد

1- Abd El-Nasser, Gamal, *op. cit.*, p. 47-48.

2- Chartouni - Dubarry, May, *op. cit.*, p. 453.

3- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère ,op. cit.*, p. 145.

4- فرهود ، أحلام ، "التيار الاسلامي والسياسة المصرية تجاه الصلح مع اسرائيل" ، دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1991 ، ص47 .

الناصرية ، تُركّز على عدم التوافق بين الاسلام والاشتراكية ، مثل نشر كتاب زعيم الإخوان المسلمين العراقي محمد الشوّاف عام 1962 في جدة ***لا إشتراكية في الاسلام***[1] .

ورغم ذلك كان عبد الناصر يحرصُ على تجديد الاسلام الرسمي ، كي ينفتح على العقلانية وكي يُغنيه بمكتسبات العلوم الحديثة . وهنا يعلّق الكاتب جيل كييل ، وهو أحد المختصين بالحركات الاسلامية على رغبة عبد الناصر بهذا الخصوص :

"بعيداً عن مباشرة عملية الغاء العلمنة désécularisation التي حلم بها الكثيرون ، بذلت الدولة الناصرية جهدها لتحديد مؤسسات الاسلام الرسمي ، وخاصة الأزهر ، كي تجعل منها منابر فاعلة لنشر ايديولوجيتها ، ومن هذا الإسلام المتطور كان يسخر سيد قطب أحد مفكري الإخوان المسلمين"[2] .

لقد كان الإخوان المسلمون يرون أن مشروع إدماج المؤسسات الثقافية الإسلامية هذا هو في حد ذاته ، تشويه لرسالة الاسلام ، ، علمنة مغربة للوحي الذي يفرضه الاسلام . وفي فصل بعنوان (أساتذة شيوعيون يدرسون في الأزهر) يقول مرشد الإخوان المسلمين عمر التلمساني :

" في كل مرة كانت تتشكل كليات جديدة داخل جامعة الأزهر ، كانت تُعطى مناصب جديدة لأساتذة ينتمون إلى العقيدة الماركسية الشيوعية ، وباسم اللّه ، يدرس شيوعيون ينفون وجود اللّه ، هؤلاء الطلاب ، في مؤسسة وجدت أصلاً لنشر دين اللّه . . . وفي هذا كارثة لا يمكن أن ينجينا منها إلاّ اللّه ، القادر ، رب الكون . كان عبد الناصر يعرف خطورة ما يفعله بقصدية ، ذاك أن ما بينه وبين أنصار الاسلام عداءٌ كبير "[3] .

هكذا يعتبر الإخوان المسلمون ، الناصريين شيوعيين ملحدين . ففي منطقهم إذ لم تشاركهم عقيدتهم الإسلامية كما يرونها ، كنت ضد الاسلام . وهكذا اعتبر الإخوان الناصريين غير مؤمنين أو ملحدين .

ويعلق الكاتب الناصري عبد اللّه إمام ، في كتابه المخصص للدفاع عن عبد الناصر ،

1- Garaudy, Roger, *op. cit.*, p. 107.

2- Képel, Gilles, *op. cit.*, p. 55.

3- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص72 .

عبد الناصر والحملة الظالمة ، على الإصلاح الديني مجيباً على الاتهامات الموجهة إلى عبد الناصر فيقول :

"لو كان عبد الناصر عدواً للاسلام لما افتتح ولأول مرة في تاريخ مصر ، كليات للبنات في الأزهر . ولو كان ضد الإسلام ، لما كان يهتم بتدريس الدين الاسلامي إلزامياً في المدارس ، ولما كان شَكّل مجلس الشؤون الإسلامية الذي يهدف إلى نشر الاسلام ، وإلى طباعة كتب تراثنا ، وإلى تسهيل شراء الكتاب الاسلامي بسعر لا يتجاوز الخمس قروش ، ولما كان أرسل بعثات ومبشرين لنشر الاسلام في افريقيا . باختصار لقد كان عبد الناصر مدافعاً عن الاسلام ، اتخذ تدابير واقعية لتقوية أسسه ولنشر مفاهيمه الأكثر نقاءاً" [1] .

من الواضح ، أن معظم النقاشات التي طرحناها حتى الآن تعود إلى السياسة الداخلية بشكل رئيسي ، لكن ثمة صراعات بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر في مجال السياسة الخارجية لا بد من الاشارة اليها .

لقد كان الإخوان يؤمنون بالمدى الاسلامي Pan-Islamisme في حين كان الثاني متعلقاً بالمدى العربي Pan-Arabisme . ولعل المثال الأبرز الذي يعكس هذا التعارض هو حلف بغداد عام 1955 ، إذ كان عبد الناصر ومستشاره السياسي هيكل ضد هذا الحلف لأن من شأنه أن يضمْ إطار تضامن متعدد الأشكال ليس فقط ، دولاً عربية ، بل ودولاً إسلامية أيضاً مثل إيران ، وباكستان . بينما كان عبد الناصر يريد أن يشكل نظام تضامن ووحدة قائماً على الدول العربية[2] .

أما الإسلاميون ، وانطلاقاً من علاقات المنفى التي تربطهم ببعض الدول العربية المحافظة ، فقد أدانوا رفض عبد الناصر لهذا الحلف بالرغم من أنه كان نتيجة مبادرة أمريكية بريطانية . ومن منفاه في عمان أعلن سعيد رمضان ، أحد قادة الإخوان المسلمين المصريين (صهر حسن البنا) ، إدانته الشديدة لموقف عبد الناصر من حلف بغداد[3] .

1- إمام ، عبد الله ، مصدر سابق ، ص11 .

2- لقاء شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

3- Képel, Gilles, *op. cit.*, p. 37.

أما المسألة الثانية في مجال السياسة الخارجية التي أضرت بالعلاقات بين الإخوان المسلمين والنظام الناصري كانت تتمثل في التقارب مع الاتحاد السوفييتي عام 1956 ، والذي جاء نتيجة طبيعية لموقف عبد الناصر من حلف بغداد . والذي لم يكن هدفه في الواقع إلاّ عزل الاتحاد السوفييتي وأيديولوجيته عن محيطه . تقارب تجسّد مادياً بصفقة شراء الأسلحة التشيكوسلوفاكية عام 1955 . وهنا انتقد هيكل بقسوة مواقف الإسلاميين من هذين الحدثين ، متهماً إياهم بالافتقار إلى الواقعية :

" انهم يقولون مثلاً إنهم "ملحدون" . ولا أعرف ما إذا كان الإيمان يشعُ أكثر من عيون الامريكيين أو أن نور الحقيقة يلمع على أسلحتهم . إن السلاح الملحد الذي خدمنا في عبور قناة السويس نحو الشرق هو أفضل مئة مرة من السلاح غير الملحد الذي استعملته إسرائيل بعبور القنال نحو الغرب "[1] .

وفي كل الاحوال فإن العلاقات بين الدولة الناصرية والاسلاميين أصبحت عام 1956 أكثر خلافية واتخذت منعطفاً حاسماً بعد (مؤامرة الإخوان المسلمين)[2] . ففي 28 آب/اغسطس عام 1956 سجن عبد الناصر أهم القياديين الإسلاميين وزعيمهم الروحي سيد قطب . ويصرّ بعض عناصر الإخوان على أن هذه الحملة ضد الاخوان المسلمين لم تكن إلا النتيجة المنطقية للضغوط والتعليمات الصادرة عن الاتحاد السوفييتي الذي كان يعتبرهم عدوه الأكبر ، والخطر الأول الذي يهدد علاقاته مع مصر[3] .

وكان قطب قد نشر من معتقلِه ، حيث أمضى فترة 10 سنوات تقريباً ، كتاباً صغيراً بعنوان ***معالم في الطريق*** يحرض فيه بحماس على تدمير المجتمع وبناء "دولة اسلامية" . وتدور الفكرة الأساسية المطروحه في هذا الكتاب بشكل عام حول موضوعين أساسيين يتعارض أحدهما مع الآخر : "الحاكمية" و"الجاهلية "[4] .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "المصر لا لعبد الناصر " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1986 ، ط7 ، ص184-185 .

2- إمام ، عبد الله ، مرجع سابق ، ص7 .

3- فرهود ، أحلام ، مرجع سابق ، ص50 .

4- قطب ، سيد ، "معالم على الطريق" ، دار القرآن ، شتوتغارت ، 1978 ، ص105 و123 .

وبحسب هيكل ، فإن هذين الموضوعين مستوحيان من صحيفة أبي العلاء المودودي ، وهو أخ مسلم باكستاني ، يركز على الحاكمية كسلطة تستمد شرعيتها من الله ودستوره "القرآن" ، لتحكم الناس . أما الجاهلية فتتحدد بكونها حالة الجهل التي كان يعيش فيها المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام لكنها قد تكون موجودةً اليوم . ومهمة الاسلاميين ، إذن ، تدمير الجاهلية لإقامة الحاكمية ، ولبلوغ هذا الهدف يحدد قطب والمودودي مرحلتين : مرحلة الضعف ، حيث يجب على المسلمين أن يبتعدوا عن المجتمع الجاهلي (الهجرة) ليتهيئوا روحياً للعمل والاعداد . ومرحلة الجهاد لتحقيق بناء الدولة الاسلامية بشكل ملموس[1] .

ويرى هيكل أن قطب كان يريدُ أن ينقل إلى مصر اشكالية باكستانية بحتة . فالمودودي قد تأثر بالوضع في الباكستان ، الباحث عن استقلاله عن الهند مع ما يفرضه هذا البحث من صراعات طائفية بين المسلمين والهندوس . إذ لم يكن بعد للباكستان إلا قاعدة واحدة مناسبة لوجوده كدولة أو كأمة : الدين واتباعه ، أما مصر فهي على العكس من ذلك ، فهي في وضع ، يفرض عليها البحث عن الوحدة مع جيرانها العرب ، بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي بين أكثر من قارة . إضافة إلى ذلك فإن المودودي كما يرى هيكل ، لم يكن يعرف اللغة العربية إلاّ معرفة سطحية ولم يكن يفهم القضايا الفقهية المعقدة في الاسلام[2] .

ويمكن أن يضاف إلى هذه الانتقادات التي يوجهها هيكل عدة نقاط أخرى ، من بينها الانتباه إلى مجموعة التجاوزات الدينية في كتاب سيد قطب . فنراه يقول مثلاً : " إن الناس لا يكونون مسلمين بمجرد أن يقولوا ذلك" ، في حين أن الرسول ﷺ يقول بما معناه : " أن من كفّر مسلماً فقد كفر " . وعلى كل حال ، فإن أفكار قطب هي أكثر راديكالية عندما يقول :

" إن الأفراد المسلمين نظرياً يستمرون في تقوية مجتمع الجاهلية الذي يعملون نظرياً على تدميره . وهم خلايا حية في جسدهِ يغذونه بعناصر تؤمن له الاستمرار والبقاء ؟ إنهم يعطونه كفاءاتهم ، معارفهم ، نشاطهم ليعيش منها ويكبر ، بدلاً من أن تستعمل جهودهم

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 144.
2- *Ibid.*

لتدميره ولبناء المجتمع الاسلامي"[1] .

مثله مثل لينين الذي يعتبر (أن من ليسوا معنا فهم ضدنا) يقيم سيد قطب منطق فصل حقيقي ، فصل ثنائي يتضمن من جهة مجتمع (الجاهلية) ، المكون من ظلاميين يقضمون الجسد الاجتماعي ، ومن جهة أخرى ، مجتمع حاكمية الاسلام الذي يضم المستنيرين الذين يمتلكون وحدهم مهارة تفسير اشارات اللّه لبناء مملكة روحية نموذجية على الأرض .

ويضيف قطب في كتابه ايضاً "نحن لا ندعو الناس إلى الاسلام لنكسب من ذلك أجراً . نحن لا نريد رفعةً ولا غنىً في الحياة . نحن لا نريد أبداً شيئاً شخصياً . إن جزاءنا ليس عند الناس . ولكننا ندعو الناس إلى الاسلام لإننا نحبهم ونريد خيرهم "[2] .

ليس هناك ، إذن ، ما يمكن أن يقرب الفكر الناصري من الأيديولوجية الاسلامية ، فلم يكن لرفض الناصريين للدوغماتية الإسلامية إلا أن يؤدي إلى قطيعة كاملة بين عبد الناصر والاخوان المسلمين ، وذاك ما تدل عليه بوضوح كتابات هيكل .

وعليه ، يمكن القول باختصار ، أن تطور العلاقات بين الإخوان المسلمين والنظام المنبثق عن ثورة يوليو قد مرّ بمرحلتين :

- الأولى تمتد من تموز/يوليو عام 1952 إلى كانون الثاني/يناير عام 1954 (علاقة وثيقة) .
- الثانية تبدأ في كانون الثاني/يناير عام 1954 وتنتهي عام 1966 (المواجهة العنيفة) .

أخيراً ، لابد من القول بأن التحليل السياسي - التاريخي الذي يقدمه هيكل لا يسمح لنا فقط بفهم الحركات الإسلامية في ظل عبد الناصر والسادات ، بل وبأن نفهم أيضاً ما يحصل حالياً في العالم العربي والاسلامي ، مع ظهور الإسلام السياسي الراديكالي في إيران ، وأفغانستان ، والجزائر ، ومصر وربما في دول غيرها في المستقبل .

1- قطب ، سيد ، مرجع سابق ، ص50 .

2- المرجع نفسه ، ص159 .

يبدو لنا أنه ليس من الصعب التأكيد على أن هيكل لم يكن ماركسياً ولا شيوعياً ، حتى ولو كان صحيحاً أن في الاشتراكية العربية الناصرية بعض الملامح المشتركة مع الشيوعية ، ومع ذلك فقد كان هيكل ، وكذلك عبد الناصر وحكمُه ، موضع هجوم المعارضين للشيوعية : الاخوان المسلمين والساداتيين .

ولم تكن هذه الهجمات لتركز على انتمائه المزعوم إلى الايديولوجية السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية للشيوعية ، وإنما أيضاً على الحاده المزعوم . حتى إن بعضهم ذهب الى حد وصفه بالملحد ، مستبعداً إياه من الجماعة الاسلامية . لذا بدا لنا من الضروري دراسة علاقات هيكل ، كمنظرٍ للنظام الناصري ، بالشيوعية دراسة دقيقة ومفصلة .

1 - الثورة والشيوعيون

عندما استولى الضباط الأحرار على السلطة في مصر اصطدموا فوراً بمعارضة الشيوعيين ، في حين كان موقف الاخوان المسلمين ايجابياً في البداية . ويعود موقف الشيوعيين هذا ، جزئياً ، إلى ردة الفعل السلبية جداً ، التي أبداها الاتحاد السوفييتي إزاء الانقلاب واصفاً إياه بأنه مشروع فاشي نظمتهُ الاجهزة الامريكية[1] .

وينبع هذا الحكم المتعجل ، بحسب هيكل ، من اعتقاد مسلم به بأن التحرر الوطني لا يمكن أن يأتي من الجيش الذي يعتبر في التحليل الماركسي الرسمي ، أداة قمع في يد " الطبقة البورجوازية " ، أداة مخصصة للحفاظ على الوضع القائم . وكان الاتحاد السوفييتي في تلك المرحلة يعتبر الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار مشابهاً للانقلابات السورية[2] ، والأمريكية اللاتينية . حيث تحدد الموسوعة السوفييتية لعام 1952 ، الثورة بأنها : " نظام ضباط رجعيين مرتبطين بالولايات المتحدة الامريكية يحاولون قمع العمال بطريقة

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire*, Jeune Afrique, Paris, 1980, p. 60.

2- المقصود انقلاب حسني الزعيم في 30 آذار عام 1949 ، ثم انقلاب سامي الحناوي بعد أربعة أشهر ضد الأول .

وحشية [1] .

لقد قوى هذا الموقف السوفييتي القناعات السلبية لدى الشيوعيين المصريين إزاء النظام الثورى الجديد . لذلك استولى فريق من العمال ، وعلى الارجح بتشجيع من الشيوعيين ، على مصنع نسيج في كفر الدوار بالقرب من الاسكندرية ، وذلك في 13 آب/اغسطس 1952 وعلى الفور اعتُقِل اثنان من زعماء الحركة وحوكما لدى محكمة عسكرية وأُعدِما [2] .

منذا البداية ، إذن ، قامت علاقات سيئة بين الشيوعيين والانقلابيين . وقد تبدو هذه العلاقات السيئة وقمع الشيوعيين الذي تبعها مفاجئين للوهلة الأولى ، بناءً على ميول الضباط الأحرار الاشتراكية إلى حد ما .

لقد حاول الكاتب أنور عبد المالك أن يحلل هذا الوضع ، وهو الذي كان عنصراً اشتراكياً تقدمياً ساند الثورة ثم عاد فعارضها وتصدى لها . فرأى أن كل الحركات الوطنية المصرية قد رحبت بحماس بانقلاب الضباط الأحرار ، متفقين مع شعارهم : " ارفع رأسك يا أخي فقد مضت مرحلة الاستعمار" ، وذلك الذي يعلن " الغاء الاقطاعية ورأس المال "[3] .

وفي محاولته لتفسير هذا التعارض بين الشيوعيين والناصريين ، يعمد عبد المالك إلى خطين مختلفين من التحليل : التحليل الطبقي على النمط الماركسي ، والذي يبدو غير ممكن ، إذ أن أكثرية من الناصريين والشيوعيين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها : البورجوازية الصغيرة .

كذلك إذا أخـذنا في اعتبـارنا التحليـل الثـاني المتمثل في المتغيرات السياسية ، وجدنا تلاقياً ايديولوجياً بين الناصريين والشيوعيين ، الذين يتفقون على مواجهة الاستعمار والملكية ، ويؤيدون إقامة نظام جمهوري ، وتبني سياسة اقتصادية اشتراكية .

وهكذا ، يبدو التعارض بين حركتين سياسيتين على هذه الدرجة من التقارب الظاهري ، صعب التفسير[4] .

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire*, *op. cit.*, p. 59-60.

2- Botman, Selma. *The Rise of Egyptian Communism: 1939 - 1970*, Syracuse Univesity Press, New - York, 1988 p. 123.

3- حمودة ، عادل "أزمة المثقفين وثورة يوليو" ، مرجع سابق ، ص29 .

4- المرجع نفسه .

يعتقد هيكل من جهته "أن ثمة عدم فهم ايديولوجي بين الشيوعيين والضباط الأحرار . فكلاهما كان يحاول تحقيق ذات الأهداف ، لكن عملية الإتصال بينهما كانت سيئة . مع أنه لا بد من أن تؤخذ بعين الاعتبار بعض خصوصيات الايديولوجية الثورية الناصرية ، التي لم تدخل إلى الحياة الوطنية المصرية بدافع "منطق ثوري" بالمعنى الدقيق للكلمة بل بدافع "منطقٍ إصلاحي" ، تتقدم فيه مثل العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين المواطنين ، والحرية . والدليل على حقيقة هذه الظاهرة أن الشعار الذي طرحتهُ كان (الاتحاد – النظام – العمل)"[1] .

لا شك أن عبد الناصر قد جاء من هذا الوسط الشعبي الذي ينتمي إليه العمال ومؤيدي الشيوعية ، مما يلغي مبرر المواجهة بينهُ وبينهم ، مما جعل بعضهم يقف إلى جانب النظام الناصري كما يقول هيكل [2] ، برغم أحداث كفر الدوار التي يعترف هيكل بتناقضها مع الشعارات الثورية[3] .

وفي كل الأحوال ، فإن هيكل قد دافع عن النظام الناصري في صراعه السياسي مع الشيوعيين ، وذلك في مقالات نشرها في صحيفة أخبار اليوم ثم في صحيفة الأهرام اعتباراً من عام1957 .

بعدها حظرت التجمعات الشيوعية المختلفة ، وتمت ملاحقة أعضائها الذين تعرضوا للسجن والتعذيب ، ورغم ذلك ظل برنامج الضباط الأحرار يحاول الظهور بمظهر ممثل الاشتراكية العربية .

لماذا إذن هذه الصفة؟ يرى ماكسيم رودينسون " إن التأثير الشيوعي على بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة ليس موضع شك ، لكنه ليس التأثير الوحيد بل إنه متغير بحسب الاشخاص " [4] .

وهكذا ، عندما نشبت أزمة بين جمال عبد الناصر "المحرك الحقيقي للثورة" ، ومحمد

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص50 .

2- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 51 .

3- المرجع نفسه .

4- Rodinson, Maxime, *Marxisme et monde musulman*, Seuil, Paris, 1970, p. 441.

نجيب " أول رئيس جمهورية لمصر المعاصرة ، والذي أراد تثبيت النظام البرلماني والتعددية الحزبية " ، لجأ الأول إلى استثمار حملة صحفية استعمل فيها حججاً وصيغاً مبنية يدحض فيها الصيغ الشكلية للديمقراطية البرلمانية البورجوازية وذلك للانتصار على خصمه[1] .

وبشكل عام ، وعلى ضوء افكار وتحليلات هيكل ، يمكن القول بأن العلاقات بين نظام عبد الناصر والشيوعيين قد مرّت بمراحل متناقضة :

1- انتقل الشيوعيون من رفض كلي للنظام إلى موقف أكثر تصالحاً معه ، وذلك بحسب تحولات سياسة الاتحاد السوفييتي الشرق أوسطية[2] .

2- وهكذا انضم عام 1964 فصيل ، يضم أغلبية الشيوعيين إلى "الاتحاد الاشتراكي العربي" ، الذي خلف "الاتحاد الوطني" 1958 ، وخرج البعض من السجن ليحتلوا مواقع هامة في المراكز العليا للدولة[3] .

وفي 25 نيسان/ابريل عام 1964 أعلنت صحيفة الأهرام ، التي كان يرأسها هيكل أن الحزب الشيوعي قد قرر حلّ نفسه ، وأنه قام بعملية نقد ذاتي auto-critique ، ونقد انشطته القديمة . كما أعلنت أن الشيوعيين أكدوا ، لعبد الناصر على رغبتهم في المساهمة في عملية التغيير الاجتماعي ، وذاك ما يحصل للمرة الأولى في تاريخ الاتحاد الاشتراكي الثوري[4] .

وبحسب هيكل فإن هذا التبدل في مواقف الشيوعيين يعود إلى بعض الاصلاحات التي باشرها النظام الناصري والتي تصب في خط مشروعهم ، ومما يذكر منها :

1- وضع الدولة يدها على الاقتصاد المصري .

2- وضع تشريع هام للعمل .

3 - تغيير اسم الحزب الواحد من "الاتحاد الوطني " إلى " الاتحاد الاشتراكي العربي" 1961 .

4 - تحسن العلاقات مع الاتحاد السوفييتي .

1- Rodinson, Maxime, *op. cit.*, p. 441.

2- رفض حلف بغداد عام 1955 ، وشراء الأسلحة التشيكوسلوفاكية عام 1956 ، أزمة السويس عام 1956 .

3- Carrée, O, et Michaud, G. *op.cit.*, p. 152.

4- Ismael, Tareq, Elsaid, Riffat, *The Communism Movement in Egypt : 1920-1988*, Syracuse University Press, New-York, 1990, p. 125.

حيث أن في هذه التدابير اشارات اشتراكية واضحة تقوي فرص الحوار . علماً أن الاتحاد السوفييتي قد لعب دوراً كبيراً في عملية التقارب هذه .

وإذا كان العملاق الشرقي ، في البداية ، حذراً إزاء النظام الناصري ، فإنه لم يتأخر في ملاحظة أن عبد الناصر زعيمٌ شعبيٌ محبوب صاحب إرادة وطنية مستقلة وتقدمية ، معادٍ للاستعمار ومؤيد لتطورٍ سياسي راديكالي في منطقة ذات قيمة جيو - سياسية Géo-politique هامة ، إضافة إلى أن السوفييت قد تأكدوا من أن تأثير عبد الناصر لا يقتصر على حدود مصر بل أنه يمتد خارجها ، ليشمل العالم العربي ، افريقيا ، والعالم الثالث مما يعني تقاطعاً في مصالح الجهتين . كما أنه مثل السوفييت معادٍ للولايات المتحدة الامريكية . والنتيجة أن عدم إقامة تحالف مع مصر هو عملٌ غير واقعي من الوجهة الاستراتيجية [1] ، تحالفٌ كان من نتائجهِ اعطاء بُعد ومضمون جديد للعلاقات بين الشيوعيين المصريين ونظام عبد الناصر .

والحقيقة ، أن مصر لم تقم اتصالات دبلوماسية مع المسؤولين السوفييت إلا عام 1953 ، بعد محاولة الولايات المتحدة الأمريكية فرض شروطها على السياسة الخارجية المصرية ، وبعد موت ستالين ، الذي كان يرفض بيع أسلحة للدول غير الاشتراكية[2] . كما أن موقف عبد الناصر من حلف بغداد عام 1955 ، قد شجع هذه العلاقات ، وبحسب هيكل فإن موسكو قدّرت ما قاله عبد الناصر لوزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس :

" لم يحتل الاتحاد السوفييتي يوماً بلادنا . وليس له ماض إمبريالي في الشرق الأوسط . لذلك لا أرى سبباً يدعوني إلى أن أحول بلدي إلى قاعدة لتهديده بالأسلحة النووية ، طالما انه لم يهددنا أبداً . صحيح أن الشيوعيين يشكلون خطراً داخلياً بالنسبة لمصر ، ولكنه خطر بإمكاننا احتواؤه بتطبيق اصلاحات اشتراكية"[3] .

وفي عام 1953 ، ونتيجة انكشاف محاولة تخريب اسرائيلية ضد ستالين ، مما أدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، مما شجّع في تحسن العلاقات المصرية السوفييتية

1- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص178 .

2- Gendy, Moustafa, *la Détente internationale et la politque étrangére égyptianne*, Thése de science politique, université d'Aix-En-provence, 1988, p. 177.

3- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire. op. cit.*, p. 61.

التي عبرت مرحلة نوعية تمثلت في تحول البعثة المصرية في موسكو إلى سفارة[1] .

ولم يكن من شأن أزمة السويس في عام 1956 إلا أن تقوي هذا التعاون والتقارب الثنائي . لكن العلاقات بين النظام الناصري والشيوعيين كانت تمر بأزمات دورية ، مثلها مثل العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي ، وذلك بسبب الخصوصيات المتعلقة بالأيديولوجية الناصرية ذاتها . وفي هذا الخصوص يلقي هيكل الضوء على بعض الأحداث الدالة :

الحدث الأول تمثل في الوحدة السورية المصرية عام 1958 . إذ إن عبد الناصر كان قد وضع شرطاً اساسيا لهذه الوحدة هو "حظر جميع الأحزاب السياسية" ، وإذا كان حزب البعث قد قبل هذا الشرط ، فإن الحزب الشيوعي قد رفضه لأنه يحظر عليه عمله المعلن في سوريا . وقبل ثلاث أيام من تصويت البرلمان السوري على انضمام سوريا إلى الجمهورية العربية المتحدة ، هرب خالد بكداش ، مؤسس الحزب الشيوعي السوري اللبناني ، وأول نائب شيوعي ينتخب عربياً عام 1957 ، من البلاد . لذا طُرح موضوع الضغط على الشيوعيين المصريين والسوريين ، في اللقاء بين عبد الناصر وخروتشوف عام 1958 في موسكو . وما أن بدأ خروتشوف يتحدث عن معاناة الشيوعيين المصريين ، حتى أجابه عبد الناصر :

" لن نتسامح مع الأحزاب الشيوعية في الجمهورية العربية المتحدة . نحن لا نعتقد بأن هذه الأحزاب تفهم أو تحلل بشكل صحيح طبيعة الحركة الوطنية في الدول النامية ، نحن لا نريد هذه الأحزاب ولست مستعدا لسماع أي كلام لصالح هذه الأحزاب الشيوعية"[2] .

الحدث الثاني الذي يعلق عليه هيكل ، هو الانقلاب العسكري الذي قاده عبد الكريم قاسم عام 1958 ضد نظام الملك فيصل الثاني في العراق . ولم يكن اللواء قاسم يريد الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة ، بخلاف رئيس وزرائه عبد السلام عارف الذي كان متحمساً لذلك . وقد قام السفير البريطاني في بغداد السير مايكل رايت ، ورجال شركة النفط العراقية (Iraqi Petroleum Company) بتقديم معلومات هامة حول نشاطات عارف ، الرجل المؤيد لعبد الناصر . أما الشيوعيون العراقيون فكانوا يؤيدون خيار قاسم ، ونتيجة لذلك قام عبد الناصر وإذاعة القاهرة بحملات عنيفة ضد قاسم وضد الشيوعيين

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire. op. cit.*, p. 61.

2- Heikal, M.H, *les Documents du Caire*, Flammariorn. Paris, 1972, p. 91.

العراقيين ، حملات أساءت إلى العلاقات المصرية السوفييتية[1] . وعلى سبيل المثال فإن صحيفة البرافدا السوفييتيه ، نشرت عدداً من المقالات حول اتفاق بناء سد أسوان ، تنتقد فيها المصريين ، وتؤكد على أن الاتحاد السوفييتي ليس مجبراً على أن يساعد الذين يعتقلون ويعذبون الشيوعيين . كذلك فإن خروتشوف نفسه هاجم عبد الناصر في المؤتمر الحادي والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي قائلا :

" لا يمكن للذين يهاجمون الشيوعيين أن يكونوا وطنيين حقيقين . إن عبدالناصر رجل انفعالي ، غير قادر على فرض قيادته على العالم العربي . المصريون يتحدثون عن الاشتراكية ، لكن الاشتراكية تشكل خطوة أولى نحو الشيوعية . ان عبد الناصر لا يحلل ، أو أنه لا يفهم الحتمية التاريخية للوضع"[2] . وعلى هذا الهجوم ، ردّ عبد الناصر بهجوم أكثر عنفاً انطلاقاً من دمشق .

ورغم هذه الخلافات والصدامات يعتبر هيكل بأن عبد الناصر قد تعامل مع السوفييت تعامل الند للند ، لأ نه كان يعرف أنه يمثل الدول العربية كلها ، التي تمتلك إرادتها الخاصة والمستقلة ، كما تمتلك ملامحها القومية الخاصه والتي تشكلت عبر التاريخ . ويضيف بأنه بالرغم من الاخطاء التي ارتكبها السوفييت بعد ثورة عام 1952 خاصة في فهم الواقع القومي العربي ، فإن عبد الناصر ، لم يحاول أبداً أن يطردهم من الشرق الاوسط ، بل إنه كان يريد أن يفرض عليهم الاعتراف بالواقع القومي العربي[3] .

لهذه الغاية التقى عبد الناصر خروتشوف في نيويورك عام 1961 ، خلال اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة . ومن ثم زار خروتشوف مصر عام 1964 ليشارك في الاحتفال بانتهاء المرحلة الأولى من بناء سد اسوان وليقلد عبد الناصر وسام الاتحاد السوفييتي عام 1964 .

باختصار ، وبالرغم من التحسن الملحوظ في العلاقات بين مصر الثورية والاتحاد السوفييتي ، فإن الشيوعيين المصريين ظلوا يخضعون للاعتقالات ، وللسجون وللتعذيب بشكل دائم ومستمر في ظل عبد الناصر .

1- Heikal, M.H, *les Documents du Caire, Op. cit.*, p. 100 - 101.

2- *Ibid*, p. 102.

3- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص179 .

لذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هو الفرق بين "الشيوعية" كأيديولوجية وبين "الاشتراكية العربية الناصرية " ؟

2 - الاختلاف بين الشيوعية وإشتراكية عبد الناصر

قبل أن نعرض لرؤية هيكل حول الفارق بين الشيوعية والاشتراكية العربية ، يبدو لنا من الضروري ، القاء نظرة شاملة على نشأة وأصل الحزب الشيوعي المصري . فبين عامي 1936-1952 ، توالت احداث دولية سياسية هامة في العالم منها : وصول الحزب النازي بقيادة ادولف هتلر إلى السلطة واندلاع الحرب العالمية الثانية ، ويعتبر هيكل انه بسبب هذه الاحداث الدولية ، وأحداث أخرى إقليمية ، وجد الحزب الشيوعي نفسه منقسماً إلى ثلاثة تيارات . الأول "حركة التحرر الوطنية " ، بقيادة هنري كوريال (هاديتو) وهي حركة أقل عقائدية ، أكثر مرونة ، وأكثر مصرية من الحركتين الأخريين . وتنتشر في صفوف طبقة العمال أكثر منها في صفوف المثقفين . كما تضم بشكل خاص الطلاب النوبيين والسودانيين .

التيار الثاني ، تيار اسكرا Iskra ، الذي أنشأه هيلل شوارتز ويحمل اسم "صحيفة لينين" ، كان يتوجه إلى الطائفة اليهودية ثم إلى المثقفين والطلاب المصريين .

أخيراً التيار الثالث هو تيار " الفجر الجديد " الذي أنشأه جاكوب ديكومب . وكانت مجلته تحمل نفس الاسم ، "الفجر الجديد" ، وكان يعتبر أن الحزب الشيوعي يجب أن لا ينفصل عن الحزب الرئيسي الوطني ، رغم أن هذا الحزب كان يتبع منذ العشرينات السلوك الذي تمليه عليه موسكو [1] .

وبسبب وجود عدد من التنظيمات والتجمعات الشيوعيية المختلفة ، فإن الحزب الشيوعي المصري قد وجد نفسه أمام فكره راحت تترسخ تدريجياً في ذهن نخبه ، مفادها أن التشكيلات الشيوعية القائمة قد برهنت على فشلها وانقساماتها وافتقارها لعنصر التلاؤم [2] .

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire*, *op. cit.*, p. 52 et s.

2- البشري ، طارق ، " الحركة السياسية في مصر 1945-1952" ، دار الشروق ، القاهرة ، 1983 ، ط 2 ، ص 80 .

لذا ، فإن احدى النقاط التي يلح عليها هيكل في نقده للشيوعيين ، ليس فقط الشيوعيين المصريين بل والشيوعيين العرب أيضاً ، هي أنّ منشأهم مريب ، إذ إن الحزب الشيوعي المصري قد أنشأ في مصر عام 1921 على يد يهودي مصري في الاسكندرية ، كما أنشيء في سوريا ولبنان عام 1925 على يد رجل كردي اسمه خالد بكداش ، وفي العراق عام 1925 على يد اربعة يهود عراقيين . في حين أن الاشتراكية العربية هي ، وعلى العكس من ذلك ، ثمرة نضال طويل في سبيل وحدة وتقدم وحرية واستقلال العالم العربي .

ويرى هيكل في كون الشيوعية العربية تجد أصولها لدى أقليات أتنيه أو دينيه ، إعاقة كبرى un handicap ، وهو يقول بهذا الخصوص ، في كتابه ***أبو الهول والشرطي : صدمات ومآسي السوفييت في الشرق الاوسط :***

" ان الدور الغالب الذي لعبه الأجانب وأعضاء الأقليات العرقية ، وخاصة اليهود قد شكل دائماً إعاقة كبرى لحركات الشيوعية الأولى في العالم العربي"[1] .

وهو يوضح هذه النقطة قائلاً بأن " الدور الحاسم الذي لعبه اليهود في الحركات الشيوعية العربية كان يحرج اليهود غير الشيوعيين كما يحرج الشيوعيين غير اليهود . وهذا ما كان يبرر الاتهام القائل بأن الشيوعية هي عقيدة مستوردة من الخارج"[2] .

ويؤكد الكاتب مكسيم رودينسون بدوره هذه التحليلات ، لكنه يعتقد بأنه "كان من الطبيعي أن يقوم اليهود والأرمن في عام 1922 ، بتقديم خبراتهم ونصائحهم التي اكتسبوها من الثورة الروسية للبنانيين والسوريين المتعاطفين معهم . وكان من الطبيعي أيضاً أن يقبل هؤلاء هذه النصائح ، وعياً منهم بقلة خبرتهم ، ولبعدهم عن مراكز الثورة ، ولجهلهم بأسسها العقائدية"[3] .

وعلى عكس الشيوعية ، يقول هيكل فإن الاشتراكية العربية الناصرية هي الامتداد الطبيعي للاشتراكية العربية التي جسدها حزب البعث عام 1942 بقيادة ميشيل عفلق . لقد استوحى عبد الناصر من هذا الحزب شعاره "وحدة ، حرية ، اشتراكية " ليبلوره في شعار

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire, op. cit.*, p. 44.

2- *Ibid*, p. 51.

3- Rodinson, Maxim, *op. cit.*, p. 424.

"حرية ، اشتراكية ، وحدة "[1] .

كما انه استقى منه مفهوم " التنظيم الموحد " المجسد لـ " تحالف قوى الشعب" ليصبح فيما بعد " تحالف قوى الشعب العاملة "[2] .

ويعتقد هيكل أيضاً ، أن عبد الناصر قد برهن على خصوصيته وجدته بالتدابير المعلنة التي اتخذها لصالح طبقات الشعب المعدمة وذلك بقبوله الاتحاد السوري المصري (1958-1961) :

" لقد جاء عبد الناصر وطرح مفهوماً دقيقاً ومحدداً للاشتراكية ، يتمثل بالقطاع العام وبامتلاك الشعب لوسائل الانتاج عبر الملكية ، والمشاركة بالارباح ، وبالإدارة الذاتية كما يتمثل بمجانية التعليم ، . . . إلخ . وبما أن الشعب قد طرح شعارالحرية ، فإن عبد الناصر جاء يؤم قناة السويس ويواجه الانكليز . وبما أن حزب البعث طرح شعارالوحدة ، فإن عبد الناصر قد قبله ، وأذاب أقدم وأكبر أمة عربية في تجربة وحدوية ، مغيراً اسمها"[3] .

إذن ، وبرأي هيكل ، يجب التمييز بين الشيوعية العربية التي تعتبر غريبة عن مكونات الحضارة العربية الاسلامية كونها عمل أقليات أتنية ، مما يجعلها غير فاعلة بالضرورة ، وبين صيغتها الاشتراكية العربية ، الصيغة الناصرية ، التي تستقي من الإرث الاشتراكي العالمي ، مُلغية منه المكونات غير القابلة للتأقلم مع الواقع العربي الاسلامي ، هذه المكونات التي تنحصر أصلاً بالانتقادات الماركسية للأسرة ، وللملكية الفردية التي يعترف الاسلام بشرعيتها .

إن الاشتراكية العربية الناصرية ، هي أيضاً مكان يتم فيه تميز الأيديولوجية الماركسية ومنهج التحليل الاقتصادي الذي تقيمُه : فإذا كانت تبدو حذرة ازاء بعض المظاهر الأولى ، فإنها تتبنى كلياً المبادىء التي تحدد الثانية[4] .

و يجب أن نضيف ايضاً أن الشيوعية العربية ، برأي هيكل ، قد اتخذت موقفاً خاطئاً إزاء

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص137 .

2- المرجع نفسه .

3- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص 137 .

4- Burlot, Joseph, *la Civilisation islamique*, Hachette, Paris, 1982, p. 240.

الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، معتبرة إياه عنصراً تقدمياً من شأنه تطوير منطقة متخلفة كالشرق الأوسط ، ولذا فإنها (أي الشيوعية) غير قادرة على التأقلم مع التطلعات الحقيقية للعالم العربي [1] .

هذه الاعتبارات المختلفة ، تسمح لنا أن نفهم لماذا تدخل هيكل بصفته رئيس تحرير للأهرام ، لإيضاح مواقف الحكومة إزاء الشيوعيين في مصر . وفي مقال نشر في صحيفة الاهرام عام 1961 بعنوان " **نحن والشيوعية** "[2] يعبر هيكل بطريقة منهجية عن الاختلافات القائمة بين الشيوعية العربية بشكل عام ، والمصرية بشكل خاص وبين الاشتراكية العربية . وليس هدف هذا المقال ، بحسب هيكل ، مهاجمة الشيوعيين ، بل تحليل محتوى الاشتراكية العربية ، ومحتوى الشيوعية العربية لفهم هاتين العقيدتين بإيضاح الاختلافات القائمة بينها . ويبدو أن هذه الاختلافات على مستوى المفاهيم تندرج على صعيدي "النظرية والتطبيق" وتدور بشكل رئيسي حول صراع الطبقات ومصالحها . وعلى هذا المستوى هناك ستة اختلافات أساسية :

1- يكمن الاختلاف الأول بين الايديولوجيتين ، بحسب هيكل ، في الحل الذي تقدمه كل منها للصراع بين الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة :

" فالحل الذي تطرحة الشيوعية هو ديكتاتورية البروليتاريا متمثله بالحزب الشيوعي ، في حين ان الحل الذي تطرحهُ الاشتراكية العربية هو الغاء الفوارق القائمة بين الطبقات .

الشيوعية تطالب المعدمين بالثورة وبتحويل جميع المالكين إلى معدمين . انها تطالبهم ايضاً بالتخلص ، وبكل الوسائل ولو بالمجازر ، من كل المالكين ، كون كل مالك في نظرها مستغلاً . إن الحل الشيوعي ، إذن ، هو التصفية النهائية لكل الطبقات على يد طبقة واحدة . أما الاشتراكية العربية ، يقول هيكل ، فإنها تطالب المعدمين بالثورة للوصول إلى الملكية

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire*, *op. cit.*, p. 55.

2- انظر ترجمة هذا المقال باللغة الفرنسية :

Heikal, M.H, "*Nous et le communisme*", L'Encyclopédie de l'Orient, N 193, Paris, 1964, p. 152.

وإلى تأمين موقع عادل عن طريق المشاركة في الثروات الوطنية ، فالأمر بالنسبة لها إذن ، ليس إلا الغاء التناقض بين الطبقات في اطار الوحدة الوطنية" [1] .

2- الاختلاف الثاني يتعلق بالملكية الفردية :

بالنسبة للشيوعية ، يوضح هيكل ، كل مالك هو قامع بنفس الوقت ، من هنا يكون التخلص منه ضرورياً للتخلص من الاستغلال نفسه . أما بالنسبة للاشتراكية العربية ، التي تختلف تعاليمها فإن الملكية نوعان :

الملكية التي تستغل ، وتلك التي هي جهدٌ وعمل . الشيوعية تؤكد :

" كل من يملك ويستغل يجب أن يختفي" أما الاشتراكية العربية فتقول : "هناك ملكية" . والواقع ، أن هناك ملكية هي نتيجة عمل وهذه الملكية هي حق شرعي (. . .) . أما المالك المستغل ، تضيف الاشتراكية العربية (لا تقتلوه ! بل انزعوا منه الاسلحة التي تجعله مستغلاً ، ثم اسمحوا له أن يعيش في المجتمع الجديد)" [2] .

3- الاختلاف الثالث ، بحسب تصنيف هيكل ، ينبع من الاختلافين السابقين . وهو يؤدي إلى تباعد أساسي على الصعيد التطبيقي :

تقول الشيوعية . " يجب نزع الملكية دون تعويض" في حين تقول الاشتراكية العربية "يجب التعويض " [3] .

4- يعود الاختلاف الرابع إلى تطبيق الايديولوجيتين . إذ ينبغي تحديد دور الأفراد ودور الدولة في المجتمع : في المجتمع الشيوعي تمتلك الدولة كل شيء ، ولا يشكل الفرد إلا اداة عمل تتلقى ما هو ضروري لتلبية حاجاتها الأساسية .

في الاشتراكية العربية ، الفرد هو في أساس البنية الاجتماعية ، والدولة هي أداة شعبية مهمتها إقامة العدالة وضمان تطبيقها [4] .

5- الاختلاف الخامس ينبع من الاختلاف الرابع . فالشيوعية ، خاصة في المرحلة

1- Heikal, M.H, "*Nous et le communism*", *op. cit.*, p. 152.

2- *Ibid*, p. 154.

3- *Ibid*.

4- *Ibid*, p. 155.

الستالينية ، قد أسست تجربتها على فكرة " التضحية بعدة أجيال " للوصول إلى النمو عن طريق الانتاج المكثف . أما الاشتراكية العربية فلها وجهة نظر أخرى حول هذا الموضوع ، حيث انها ترى أن النمو يتطلب تحركاً وطنياً عاماً يشمل جميع المصادر ، لكن للاجيال الحالية الحق في الحياة أيضاً ، وإذا كانت واجباتها تفرض عليها العمل ، فإن حقوقها أيضاً تعطيها الحظ في الحياة[1] .

الاختلاف السادس بين الشيوعية والاشتراكية العربية ، يمس ، كما يقول هيكل ، مستوى المفاهيم الفلسفية . فالشيوعية حتى لو كانت تلتزم باتباع قواعد جدلية ماركسية ، لا تستطيع الابتعاد عن الطرق المحددة ، دون أن توصم بالانحراف . هكذا حصل لتيتو ، عندما حاول ان يغير ويجدد ويتحرر ويؤمن استقلاليته ، أما الاشتراكية العربية ، فهي تدرك أن غنى الفكر العالمي مفتوح أمامها .

هكذا يظل الشيوعي تلميذا أميناً لكل ما وضع في رأسه من اقوال ماركس ، ولينين وستالين وخروتشوف وماوتسي تونغ ، في حين أن الاشتراكي العربي هو التلميذ الأمين للتاريخ وللأمة ، لتراثه الوطني ، ولقضايا شعبه وتطلعاته[2] .

هذه هي ، باختصار مجمل الاختلافات أو الفوارق الأساسية بين الشيوعية والاشتراكية العربية كما يقول هيكل ، مفكر ومنظر النظام الناصري .

لكن بالرغم من كل هذه الخصوصيات التي تميز الاشتراكية العربية بصيغتها الناصرية عن الشيوعية ، كما أوضحها هيكل ، فإن هذا الاخير قد اتهم بالإلحاد والشيوعية من قبل الإسلاميين . فكيف يمكن تفسير هذا الموقف؟

3- قضية الإيمان والإلحاد لدى هيكل

قد يبدو طرح قضية الإيمان والإلحاد لدى هيكل ، في إطار تحليل سياسي ، أمراً غير مناسب وغير منطقي في الغرب ، لكن في عالم عربي اسلامي ، يتداخل فيه المقدس مع الدنيوي ، حتى في مجال التطبيق العملي للسياسة ، تبدو قضية الالحاد والإيمان قضية

1- Heikal, M.H, "*Nous et le communism*", *op. cit.*, p. 155.
2- *Ibid.*

اساسية تصل حد التساؤل حول العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، حد تقييم هذه الأخيرة على قاعدة مرتبطة بالأولى .

ولا يتردد هيكل ، وهو الذي تشكل في مدرسة الغائية empirisme ، في التصريح : "إن علاقة الانسان بربه هي أمر لا يمتلك أحد حق مناقشته "[1] .

ويبدو أن هذا التأكيد يصدم حساسية أكثر من اسلامي . وقد قاله هيكل جواباً عن سؤال طرحة عليه الصحفي مفيد فوزي في إحدى المجلات المصرية حول درجة إيمانه الديني . وإنه لأمر ذو دلالة أن يصدر هذا التصريح في سياق غامض من سياقات الحياة السياسية والاجتماعية المصرية ، فقد طرح السادات للتصويت قانوناً وصفه بأنه "قانون العيب" ، فعارضه هيكل بعنف . وينص هذا القانون على عقوبات جزائية ضد الذين يتعرضون لـ "القيم" . ويقصد السادات بالتعرض للقيم ، "كل كلمة تحمل شكاً في التعاليم الالهية أو تعبر عن خلاف معها"[2] .

وقد اعتبر هيكل ، الوفي لقناعاته الأيديولوجية ، هذا ، بمثابة تدخل سافر للقانون في نفسية الناس وعلاقاتهم بالله .

وثمة ردود فعل مشابهة لهذه أثارت انتقادات حادة لدى الاسلاميين ، انتقادات صدرت بدرجة عالية من العنف الكلامي ضد هيكل . أما مقولاته التي كانت تترجم مفهوماً خاصاً في العلاقات بين الدين والمؤسسات السياسية والقضائية فإنها لا تحمل شيئاً من التقليدية ، ولذلك كلفته اتهام الاسلاميين له بالعلمانية المادية والإلحاد .

لكن السيرة الذاتية والفكرية لهيكل ، خاصة خلال الفترة الناصرية ، لا تسمح بوصفه بالعلماوي scientiste (علماً بأن هذه الصفة ليست مرادفاً للالحاد) بل بوصفه بـ " العلمي المستنير " وقد مضى الإخوان المسلمون ، وهم الأعداء التاريخيون للنظام الناصري ، الذي كان هيكل مدافعاً حاداً عنه ، حدّ التشكيك بإيمانه .

لقد اتهم هيكل بالالحاد والشيوعية منذ وقت طويل . وهكذا فإن السادات قد قال في

1- مجلة صباح الخير ، مقابلة مع هيكل ، " عمق حادث المنصة " ، القاهرة ، 21 كانون الثاني 1982 .

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 128.

خطاب تلفزيوني مشهور ، اذيع يوم 15 ايلول/سبتمبر سنة 1981 أي قبل اغتياله بثلاثة أسابيع ، " إن هيكل هو رجل ملحد " وادعى بأن هذا الاخير قد اعترف له بذلك . لكن هيكل نفى هذا الاتهام بعد خروجه من السجن عام 1981 بأمرٍ من الرئيس حسني مبارك . والحقيقة أن اتهام السادات هذا لم يكن جديداً في شيء لأن الكثيرين من الذين هاجموه على هذا الصعيد كانوا يتذكرون جملة قالها عندما كان رئيساً لصحيفة الاهرام ، يوم نزل الامريكيون على القمر عام 1969 :

" ان التقدم العلمي على وشك تغيير أكثر الوثائق الدينية سمواً "[1]

ولا شك أن في طرح مثل هذه المقولات الجريئة ، سواء على المستوى الديني أم السياسي ، وصاحبها ما يزال في سلم السلطة قد سبب صدمة للبعض . وهي التي كانت من الحجج في الملاحقات القضائية التي تعرض لها عام 1978 ، مع تطبيق " قانون العيب " بأمر و بمبادرة من السادات [2] ، حيث جعل متهموه ، خاصة الاخوان المسلمين ، من هذه المقولات العنصر المركزي في سيرته الذاتية .

وإذا كان السادات غير المعروف عنه الخشوع الديني قد اعتبر هيكل ملحداً ، فما هي وجهة نظر الأصوليين؟

لا يخفي محمد الغزالي ، وهو اسلامي مشهور في مصر ، ومعروف برؤاه الوسطية ، اعجابه بالكثير من أعمال هيكل لأنها برأيه " نتاج فكر رؤيوي ، ولانه وصف عقوداً من تاريخنا بتمكن كامل ، غير مكتفٍ بالتفاصيل ، بل انه يتمتع برؤيا شمولية واعية"[3] .

ومع ذلك ، يكتب المفكر نفسه ، في كتاب صدر عام 1967 بعنوان ***الاسلام في وجه الزحف الأحمر*** بخصوص زيارة الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار إلى القاهرة عام 1968 بدعوة من هيكل أن هذا الاخير قد أعلن :

"اننا سنهاجم الشيوعية إذا هاجمت الدين ، لكنه سمح بالرغم من ذلك لممثلي الالحاد والغاء العادات والتقاليد بالدعاية لفلسفتهم في المجتمع العربي" [4] .

1- الغزالي ، محمد ، " قذائف الحقّ " ، دار السلاسل ، الكويت ، 1984 ص91 .

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère*, *op. cit.*, p. 128.

3- الغزالي ، محمد ، "الاسلام بين ضعف الداخل وكيد الخارج" ، دار الصحوة ، القاهرة ، 1988 ، ص 141 .

4- الغزالي ، محمد ، " الاسلام في وجه الزحف الأحمر " ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1984 ، ط8 ، ص36-38 .

ويمضي كاتب اسلامي آخر هو جابر الحاج إلى حد القول :

" لم يجد هيكل ما هو أفضل لتحويل انتباهه وإشغال فكره ، من ، نفح سمومه على الدين وعلى الذين يبشرون به ."[1]

من الواضح أن الحقيقة مختلفة ، حتى ولو انها لا تبدو لجميع الناس بالطريقة نفسها . فهيكل يعترف بأهمية الدين في المجتمعات العربية الاسلامية . وهو يعتقد كما يقول بنفسه ، أن "الرسول محمد ﷺ لم يرسِ فقط معتقدات ايمانية وممارسات دينية ، بل ، نمط سلوك كامل يجب أن يُنظم المجتمع حوله . فالاسلام يحدد العلاقات بين الانسان وربه كما يحدد العلاقات بين الناس انفسهم" .

إضافة إلى ذلك يضيف هيكل " أن هذه المعتقدات والممارسات صالحة لجميع الازمان وعلى المؤمن أن يقتنع بصلاحيتها العالمية الخالدة"[2] .

لكن ، لا بد من وضع هذه الاقوال في الاطار الشامل لعقلية هيكل ، وذلك للوصول إلى معناها الحقيقي . ذلك انه لم يكن يرى تناقضاً بين " روح الاسلام " و" روح التقدم " . ونتيجة لذلك لا بد من اقامة خط فاصل بين الأصوليه الدينية ، رمز الظلامية والشمولية من جهة ، وبين الايمان المستنير الذي يحترم الحرية الشخصية ، الفكرية والروحية للآخرين من جهة أخرى . ولهذا يقول :

" هل الظروف الحالية تسمح لنا بأن يكون لدينا ذلك الجيل من الرجال الكبار ، الذين جعلوا المسلم في العالم العربي وفي مصر خاصة ، قادراً على النظر إلى العالم كما هو : مثل رفاعة الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ولطفي السيد ، وعبد الرزاق السنهوري في المجال القانوني والتشريعي؟[3]

وتتوافق رؤية هيكل هذه مع الخطوط العريضة لرؤية عبد الناصر الذي يعبر عنها بطريقة نموذجيه في تصريح قاله في مؤتمر صحفي عام1967 :

" ان الأمة العربية فخورة بتراثها الإسلامي وتعتبره واحداً من المصادر الكبيرة لطاقاتها

1- الحاج ، جابر ،" فشل ثورة يوليو بعدائها للتيار الاسلامي" ، دارالاعتصام ، القاهرة ، 1987 ، ص38 .

2- حوار مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " آفاق الثمانينات " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1983 ، ط 3 ، ص208 .

المنظمة ولتطلعها نحو التقدم . والأمة العربية ، يضيف عبدالناصر ، ترفض الذين يريدون اعتبار روح الاسلام سلسلة تقيدنا وتسجننا في الماضي ، وترى أن روح الاسلام تعيننا على غزو المستقبل في جوٍ من احترام الحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية والثقافية ."[1]

ويؤكد المفكر المصري غالي شكري هذه الرؤية الناصرية للدين ويثبتها بقوله :

" من المؤكد أن الدولة لم تكن أبداً دينية في ظل عبد الناصر . لكنهُ من المؤكد أيضاً ان الدين لم يكن أبداً مفصولاً عن الدولة "[2] .

ففي هذا الإطار اتخذ عبد الناصر بعض التدابير الرامية إلى إدارة الحقل الديني بطريقة إيجابية . فقد ألغى التشريعات التي قامت على قاعدة الشريعة وسنّ يوم 23 تموز/يوليو عام 1961 قانوناً لتنظيم الأزهر وتطويره على نمط جامعةٍ حديثة تتفاعل فيها العلوم الحديثة والنظم الفقهية . ورغم أن هدف عبد الناصر كان إعطاء دفعة إيجابية لمؤسسة تاريخية أصبحت جامدة ، فإن مرشد الإخوان المسلمين عمر التلمساني ، اتهمه بالشيوعية والالحاد . وكتب في مقالة بعنوان "الاساتذة الشيوعيون يعلمون في الأزهر " :

" إن أكبر إســاءات عبد الناصر للدين الاسلامي ، هي تحويل الأزهر عن مسؤوليته الكبرى في تدريس العلوم الدينية وإتقانها ، هذهِ الجريمة الخطيرة وصفها عبد الناصر بتطوير الأزهر في حين أن رغبته الجادة هي في الحقيقة تدمير قاعدة الأزهر نفسها وتقويض الدين الإسلامي نفسه " [3] .

ويضيف التلمساني :

" لقد أصبح الوضع أسوأ مع بناء كليات جديدة في الأزهر ، حيث شغل بعض المناصب أساتذة يحملون العقيدة الشيوعية والماركسية . واقسم باسم اللّه أن هذا صحيح! [4]

كذلك يصف الصحفي مصطفى أمين ، رئيس هيكل سابقاً ، والذي سُجن في عهد عبد الناصر لمدة سبع سنوات بتهمة التعامل مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، يصف

1- نصر ، مارلين " القومية والدين في فكر جمال عبد الناصر" . مجلة المستقبل العربي . السنة الثالثة ، عدد 24 شباط/فبراير 1981 ، ص 97-103 .

2- Shoukri,Ghali, *Egypte: contre - révolution*, le Sycomore, Paris, 1979, p. 339.

3- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص71 .

4- المرجع نفسه ، ص72 .

السياسة الناصرية بالالحاد . فيكتب في صحيفة الأخبار عام 1978 قائلاً :

" لا يمكن لهذه السياسة (الناصرية) أن تكون مبنية على احترام أبسط مشاعر المصري ، هذا الرجل الذي يؤمن بالسماء ، ويحب العدل والمساواة"[1] .

هكذا إذا اعتبر الأصوليون الاسلاميون ، الاصلاحات التي قام بها عبد الناصر في مجال التعليم الديني ، لإعادة فتح الأبواب التي أغلقها الاجتهاد ، ولأقلمة المقدس مع متطلبات العصر ، بمثابة التعرض لله والدين .

اما نقد مصطفى أمين ، الذي لم يكن يوماً اسلامياً ، فانه نقد غير موضوعي وغير حيادي ، ولا يستند إلى وقائع حقيقية ومثبتة بقدر استناده إلى فهمه الخاص ورغبته في الانتقام من نظام سجنه بسبب معارضته . كما أنه لا بد من تحليله على ضوء التحول الذي أبداه السادات ، ذاك أن مصطفى أمين قد كتب هذا المقال من منظور انحياز إلى نظام أنور السادات الذي جعل من شقيقه علي أمين رئيساً لتحرير صحيفة الأهرام بدلاً من هيكل .

في مقابل كل هذا يقول هيكل : " إن عبد الناصر لم يكن من النوع الذي يقيم مساومة مع الدين ، فقد كان مشغولاً بتطوير الأزهر والمؤسسات الدينية ، ولا يرى أي تناقض بين التقدم والدين ، مع اعتقاده بأن جوهر الدين الإسلامي وكل الأديان السماوية هو (تقدم الإنسان)" [2] .

ثم يضيف ، "أن العلاقة بين الناصرية والدين تشكل جزءاً أساسياً من الاختلاف بين عبد الناصر والشيوعية . ويقول إن عبد الناصر قد صرح بدون أي تردد ، خلال مناقشة بينه وبين خروتشوف حول الدين ، قائلاً : (أنا رجل مؤمن)"[3] .

وفي النهاية ، لا بد من الاعتراف بأن ماضياً كاملاً من الاعتقالات وعمليات التعذيب كان يقف وراء انتقادات الإسلاميين والشيوعين ، ولكن يجب أن لا ننسى بأن هيكل لم يتردد في نقد الأساليب القمعية التي يستعملها النظام الناصري سواء ضد الإسلاميين أو

1- الأخبار ، القاهرة ، 26 آذار 1978 .

2- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص91 .

3- المرجع نفسه .

ضد الشيوعيين حيث نراه يقول على سبيل المثال :

"عندما أخبرت عبد الناصر عن موت عطية شهدي (تحت التعذيب) وهو أحد زعماء الشيوعيين ، انزعج كثيراً ، وثار قائلاً :

(لماذا وضعنا نهاية للملكية؟ إذا كنا قد فعلنا كي يتكرر هذا النوع من الحوادث بعد الثورة ، فيجب أن نعود إلى بيوتنا) . وبعدها أقـــال مدير السجن"[1] .

وفي كل الأحوال ، وبالرغم من أن الإسلاميين والشيوعيين قد عاشوا جواً من القمع في ظل عبد الناصر ، لكنه كثيراً ما حصل أن بعض الشيوعيين الخارجين من السجن قد انضمّوا إلى الاتحاد العربي الاشتراكي بعد حلّ حزبهم في 25 نيسان/إبريل عام 1964 و انخرطوا في الايديولوجية الناصرية مبررين تغيير مواقفهم ببعض نقاط التلاقي مع أهداف الثورة . غير أن هذا لم يكن أبداً حال الإسلاميين .

لقد سمح لنا الجزء الأول من هذا الكتاب بتحديد موقف هيكل من عبد الناصر وكذلك أيضاً موقفه من سلسلة من النقاط النظرية الأيديولوجية ، ومن القوى السياسية المصرية .

في الجزء الثاني من الكتاب سنطرحُ المواقف النظرية التي اتخذها هيكل إزاء الأحداث الملموسة ، سواء على مستوى السياسة الداخلية المصرية ، أم على مستوى السياسة الخارجية المصرية .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مصدر سابق ، ص84 .

الجزء الثاني

الجزء الثاني

هيكل أمام الأحداث

اختبار وفائه لعبد الناصر وحدود علاقته مع السادات

يهدف هذا الجزء إلى اختبار هيكل وقيمهِ . لقد طرحنا في الجزء الأول قناعاتهِ العميقة ، ودعمهُ الايديولوجي للثورة ، وردود فعلهِ على القوى السياسية المختلفة في البلاد . أما هنا فسنضع الرجل في مواجهة الأحداث وبشكل اوسع في مواجهة تاريخ مصر السياسي المعاصر .

الآن ، وقد استقرت الثورة ومبادؤها ، كيف سيتصرف هيكل إزاء سياسة عبد الناصر الملموسة؟

هذا العبور من النظرية théorie إلى العمل action وإلى السياسة politique سيكشف عن بعض الغموض ، وسيضع الصداقة التي تربط هيكل بعبد الناصر وعلاقتهما السياسية موضع اختبار . وفي هذا السياق تبرز عدة مغالطات ، هل كان هيكل وفيّاً دائماً للايديولوجية الناصرية ولقناعاتها الخاصة؟

لقد اتخذ هذا الجدل أقصى مدى بعد موت عبد الناصر وبعد وصول السادات إلى السلطة . والواقع أن هيكل قد دعم ، منذُ البداية ، ترشيح السادات لرئاسة الجمهورية إلى حد أنه هو من أطلق حملته الانتخابية ، فلماذ اذن شغل هيكل منصب مستشار السادات غير الرسمي ، طوال سنوات عدة؟

سلسلة من الأسئلة تنبثق ، عندما نطرح قضية وفاء محمد حسنين هيكل للإرث

الناصري . وفي محاولة للإجابة عنها سنبلور هذا الجزء الثاني من الكتاب حيث نتطرق على التوالي ، وعلى مدى فصلين منفصلين ، إلى علاقات هيكل بعبد الناصر ثم بالسادات .

إن تحليل هذه المواقف واستراتيجيتها إزاء بعض الأحداث المفصلية سيفيدنا كثيراً خاصة إزاء الأحداث المميزة مثل ، تأميم قناة السويس(1956) والوحدة السورية المصرية (1958) ، وحرب اليمن (1962) ، وحرب حزيران (1967) ، وحرب رمضان (1973) ، . . إلخ

وهنا نفترض أن هيكل قد حافظ دائماً على نوع من الانسجام ، على مستوى الفكر وعلى مستوى التزاماته العملية بحيث أن نظريته وعمله السياسي ومنظوره الفكري تُشكّل كلها منهجاً خاصاً به ، ليس بالناصري ولا بالساداتي ، منهجاً تشكل الواقعية والبراغماتية عموده الفقري .

الفصل الأول

هيكل إزاء سياسة عبد الناصر: مستشار وصديق

على امتداد سنوات الناصرية في مصر ، ظل هيكل صديقاً ومستشاراً ذا حضور مهم وقيمة كبيرة لجمال عبد الناصر . فقد شارك إلى جانبه ، وبحيوية ، في كل الأحداث التي رسمت الحياة السياسية المصرية بطريقة حاسمة وملحوظة ، على الصعيدين الداخلي والخارجي : الإصلاح الزراعي ، المشاريع الاقتصادية الاشتراكية ، والحزب الواحد ، وسياسة عدم الانحياز عام 1955 ، تأميم قناة السويس عام 1956 ، الوحدة السورية المصرية عام 1958 ، حرب اليمن عام 1962 ، وحرب عام 1967 .

كما أنه اطلع بذات الوقت بدور هام كان سبباً في شهرته في كل العالم العربي ، وهو دور رئيس تحرير صحيفة الأهرام . كذلك شغَلَ ايضاً مهام سياسية ، خاصة مثل مهمة وزير الإعلام ، التي تبدو متناقضة مع متطلبات العمل الصحفي من الموضوعية والحيادية ، لذا فإن ما سنحاول تحليله في هذا الفصل هو التزام هيكل السياسي بعبد الناصر .

في هذا الباب ، ستدور أسئلتنا حو ل علاقة هيكل بالسياسة الداخلية المصرية ، حيث نسلط الضوء على الطريقة التي كان يطرح بها آراءه في قضايا الاصلاح الزراعي والاقتصاد المصري بشكل عام ، كما في طرق ممارسة التزامه التقدمي بقضايا الدولة ، خاصة عبر الحزب الواحد . ويبدو لنا أن هذه الأشكال المختلفة للالتزام وللتدخل في الأجهزة المؤسساتيه الناصرية هي تجسيد لأفكار هيكل الاشتراكية ، تلك التي لا تختلف في الواقع عن الأفكار الاشتراكية العامة ، إلا بالغلاف القومي العربي ، الذي تفرضه ضرورة تكييفهما مع المناخ العام في مصر ومع الثقافة العربية الاسلامية .

1- الاصلاح الزراعي : "تأميم صراع الطبقات"

عندما يتناول هيكل موضوع الإصلاح الزراعي ، فإنه لا يفعل ذلك لتبرير ضرورة هذا العمل السياسي الاجتماعي الذى قام به الضباط الأحرار ، بل ، وأكثر من ذلك ، ليرد على مقولات معارضي الناصرية ، وليدافع عن وضع صديقة عبد الناصر إزاء الإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والساداتيين . ولهذا الهدف نشر هيكل عام 1976 كتاباً بعنوان ***لمصر لا لعبد الناصر*** يعبر فيه عن دهشته وحيرته من رؤية نظام السادات يُحوّر ويشوّه ، بطريقة فجة وفضائحية ، الافكار والاعمال السياسية للدولة الناصرية . ورغم اعترافه بأن الدولة الناصرية قد ارتكبت بعض الأخطاء ، غير انه يؤكد بأن كل هذا يجب أن يناقش ويقيّم بموضوعية وبدون أفكار مسبقة .

لقد كان الاصلاح الزراعي رمزاً لوجه الثورة الحقيقي ، ذلك أن الدولة المصرية وكما نعلم ، تعتمد كثيراً على أرضها الخصبة وعلى مياه النيل التي تنبع من إفريقيا . إن نسبة السكان الذين يعيشون من الزراعة هي في مصر نسبة مرتفعة جداً ، ولذا نفهم الأهمية التي يمثلها الاصلاح الزراعي في المواجهة بين أنصار وخصوم عبد الناصر . وتعتبر نقطة الانطلاق الحقيقية لهذا الاصلاح يوم 9 ايلول/سبتمبر عام 1952 ، أي تاريخ تشريع قانون يحدد الملكية الفردية بـ 200

فدان يضاف إليها 100 فدان للأسرة[1]" . وكما حصل في عصر محمد علي باشا ، يقصد من هذا الاجراء تجريد المالكين الأثرياء من ثرواتهم ، ويساهم في وضع حدٍ لسلطة الطبقة المالكة القديمة"[2] .

لكن لا يجب الاعتقاد بأن الاصلاح الزراعي كان ابتكار خاصاً بالثورة . إذ إن جذوره كانت موجودة منذ عام 1945 ، أي منذ أيام حكومة علي ماهر وذاك ما يعترف به هيكل نفسه . فخلال هذه المرحلة السابقة للثورة ، كانت فكرة إعادة بناء قطاع الزراعة حاضرة في الأذهان ، وذاك ما يدل عليه مقال لمصطفى أمين نشر في صحيفة أخبار اليوم عام 1945 ، جاء فيه :

" لقد طالبنا بالاستقلال السياسي ، وطالبنا بأن تجلو القوات الإنكليزية عن أراضينا ، أما الآن فإننا نطالب بالاستقلال الاجتماعي . اليوم نحن نطالب باختفاء الفقر والجوع . نطالب بتحريرنا من هذا الاستعمار الذي يطلق عليه اسم احترام ملكية الآخرين"[3] .

كذلك يوضع هذا الصحفي في المقال نفسه ، آلية وحركة موازين القوى في المجتمع المصري ، تلك الموازين القائمة على سيطرة طبقة على أخرى قائلاً :

" إن الذين يمسكون قدر مصر بأيديهم ، هم زعماء الاحزاب . ذاك أن لجان ومجالس هذه الأحزاب تتكون في غالبيتها من أناس يمتلكون رؤس الأموال والملكيات الكبيرة . مما يعني أن الذين يتحدثون باسم الشعب هم الرأسماليون وكبار المالكين . لكن من هو هذا الشعب؟ انه مؤلف من حوالي مئة أو مئتي شخص أثرياء . يتبادلون فيما بينهم مواقع النواب ، يحكمون ويناقشون ، يذهبون ويأتون ، في حين أن الشعب الحقيقي يظل كما هو ، فقيراً ، محروماً ، مذلولاً"[4] .

إذن ، فقد كانت هناك مشاكل متعلقة بقطاع الزراعة قبل الثورة ، مشاكل تؤرق ضمير السياسيين والمثقفين . وعن هذه المرحلة يطلق ، الصحفي السويسري جورج فوشير الذي عمل

1- الفدان يعادل 4200 م 2 .

2- Tomich, Nada, *op. cit.*, p. 95.

3- أخبار اليوم ، القاهرة ، 30 حزيران 1945 .

4- المرجع نفسه .

مراسلا صحفياً في القاهرة وأصدر كتاباً بعنوان *عبد الناصر وفريقه* الحكم التالي : "يعتقد أن أيام العمل الفعلي للمزارع (الفلاح) لـم تكن تتجاوز 180 يوماً في السنة ، مما يعني أن العامل الزراعي يظل عاطلاً عن العمل حوالي نصف السنة ، سيئ التغذية ، ومصاباً غالباً بالأمراض المعدية"[1] .

لهذا السبب ، اتخذ الضباط الاحرار بسرعة ، تدابير حيوية في مجال الاصلاح الزراعي . " الذي يكاد يكون مساوياً في الأهمية لجلاء القوات الانكليزية عن الاراضي المصرية . وفي سلم الاولويات كان الاصلاح الزراعي يأتي في رأس القائمة ، حتى قبل اقامة نظام ديمقراطي"[2] .

من جهته يطرح هيكل هذا الموضوع ، لا ليفسر أهمية القوانين والاصلاحات المتخذة في هذا المجال فقط ، بل وليعرض ويحلل السياق العام الذي كان يعمل فيه عبد الناصر "السياسي" . من أجل ذلك ، كان هيكل يلفت النظر إلى أن أعداء عبد الناصر يرون فيه مصدر كل المشاكل ، وانه اشعل قضية صراع الطبقات في مصر ، ثم يرد عليهم بطرح سؤالين يساعدان في توضيح موقفه وحجته :

1- هل صراع الطبقات في مصر هو ظاهرة أخترعها عبد الناصر؟ اليست واقعاً ، عاملاً من عوامل " الحركة التاريخية " . "وقانوناً مشكلاً" لهذه الحركة باعتراف الدنيا كلها من مغربها الى مشرقها؟ "

2- هل كانت مصر قبل عبد الناصر ، خالية من أي صراع بين الطبقات؟[3]

إن الاجابة عن هذين السؤالين . تقع برأي هيكل ، في حريق القاهرة في 26 كانون الثاني/ يناير عام 1952 ، إذ ان هذا الحادث يعكس بدون أي غموض صراعاً دموياً ومميتاً بين الطبقات في ظل النظام الملكي الذي كان موجوداً قبل الثورة .

وإلى الحجج التاريخية يلجأ هيكل كي يدعم رأيهُ . فهو يرى أن هناك عدة أسباب لهذا

1- Vaucher, George, *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, Réne Juilliard, Paris, 1960 T2, p. 35.

2- *Ibid*, p. 36.

3- هيكل محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص89 .

الصراع الطبقي :

أ - اغتصاب الأراضي الزراعية الذي مارسته الأسرة المالكة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالتواطؤ مع بعض الأجانب ، وأخيراً مع بعض المالكين المصريين .

ب - إرساء اقتصاد تجاري رأسمالي قائم على البنوك وشركات التأمين الغربية ، (فرنسية وانكليزية ، وبلجيكية) التي كانت تجني كل الأرباح .

جـ - تفاقم الازمة الاجتماعية بسبب الحرب العالمية الثانية .

د - تزايد الاضطرابات الاجتماعية بين عامي 1942 و 1952 سواء في الريف أم في المدن ، وازدياد محاولات الاغتيال السياسي ، ضد رؤساء الوزارت (أحمد ماهر ، محمود النقراشي) ، ووزراء وشخصيات سياسية(أمين عثمان ، حسن البنا) ، اضافة إلى عدة انفجارات . كما ان قصور كبار المالكين في الريف قد أحرقت[1] .

إذن ، يرى هيكل ، أن صراع الطبقات كان عنيفاً قبل الثورة . ولذا فقد كانت مهمة الضباط الاحرار ، وهم يمسكون بالسلطة ، أن يخففوا هذا التوتر الناتج عن ذلك ، تجنباً لمخاطر حرب أهلية :

"يمكنني القول إن عبد الناصر جاء في الوقت الذي كان صراع الطبقات فيه يتجلى عبر الحرائق وإسالة الدماء ، لم يشعل عبد الناصر الحرائق التي كانت خامدة ، ولم يسل الدماء أيضاً . بل على العكس لقد أخمد النار وفعل كل ما بوسعهِ كي لا يُباح الدم ، وجهد بحثاً عن وسائل أكثر عقلانية للوصول إلى التحولات الاجتماعية التي كان يتمناها "[2] .

لقد كان عبد الناصر ، من منظور هيكل ، رجل الوحدةِ الوطنية ، بما يعني حتماً انه خارج صراع الطبقات ، وأن هذا الصراع لم يشكل ابداً هدفاً استراتيجياً لاعطاء الشرعية لسلطته . وبتعبير آخر ، فإن الطريق الذي اختاره الرئيس عبد الناصر كان طريق السلام الاجتماعي ، دون حرائق ودون إسالة دماء . وهذا ما سمح له بأن يكسب ثقة الناس خاصة بعد أزمة السويس عام 1956 . وفي هذا السياق يقول هيكل :

1- هيكل محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص90 وما يليها .

2- المصدر نفسه ، ص93.

" لقد استطاع عبد الناصر أن يحقق شيئاً لم يحقق في أي مكان غير مصر . هذا الشيء سميناه نحن ، ودون مبالغة ، " تأميم صراع الطبقات " . وقد كانت مكونات هذه التجربة الفريدة ، بحسب هيكل ، تكمن فيما يلي :

1- سلطة وطنية تقدمية .

2- سلطة اعادت اولاً إلى الأمة كل الأملاك التي كان الأجانب قد صادروها منها قناة السويس ، شركات التأميم ، التجارة الخارجية ، . .الخ

3- وبفضل هذه السلطة الجديدة ألغيت الكثير من المظالم الاجتماعية على صعيد العالم الزراعي ، والملكيات الصناعية والتجارية .

4- بعد ذلك بلورت السلطة الوطنية التقدمية الجديدة برنامجاً عريضاً للعمل الاقتصادي ، في نفس الوقت الذي كانت عمليات توزيع الأراضي الزراعية تتسع مثلها مثل امكانيات التعليم والعمل .

5- عن هذا التشكيل الاقتصادي والاجتماعي ، الحيوي والديناميكي ، نتجت فكرة "اتحاد القوى العاملة" المؤسسة على : التضامن ، الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، ومراقبة السلطة السياسية ، وذلك كله في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي الهادف إلى اختفاء المظالم الاجتماعية"[1] .

ويعكس الاصلاح الزراعي ، بحسب هيكل ، الذي دعمته تدابير أخرى ، خاصة تبني القوانين الاشتراكية عام 1961 ، والميثاق الوطني عام 1962 ، الافكار الاشتراكية للدولة الناصرية . اذن ، فقد كان من الطبيعي ، كما يرى هيكل ، أن يبحث عبد الناصر عن مصالح الطبقات الفقيرة أو بحسب التعبير السياسي" المصلحة العامة " le bien commun لهم .

من جهته يتناول المؤرخ المصري عبد العظيم رمضان ، قضية الإصلاح الزراعي من زاوية أخرى فيقول :

" إن مشروع الاصلاح الزراعي وتحديد الملكية ، لا يرمي إلى تحييد كبار المالكين اقتصادياً ، بل إلى تحييدهم سياسياً . والواقع أن هدفهم لم يكن استملاك أو مصادرة ثرواتهم

1- هيكل ، محمد حسنين ، "المصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص95 .

بل تجريدهم من أسلحتهم ومن القوة التي تمثلها الأرض والثروة . وذلك لإضعاف تأثيرهم على الحياة السياسية"[1] .

غير أن هيكل يرى أن دوافع عبد الناصر لم تكن الرغبة في تحجيم الوزن السياسي لكبار المالكين . بل في ضرورة تضييق شِقة الفوارق الاجتماعية في مصر . لأنه كان يرى أن الثروة الفاحشة في وسط فقرٍ مدقع هي جريمة لا تغتفر ، ولذلك وضع عبد الناصر أمام عينيه هدفاً لا حياد عنه هو تذويب الفوارق الطبقية بين الطبقات[2] .

وإذا كان هيكل يُخفي جزءاً من الواقع بعدم تعرضه إلا للعوامل الاجتماعية في هذه المسألة . فالواقع يقول أن المشكلة الرئيسية التي واجهها عبد الناصر ، مع وصوله إلى السلطة ، كانت معرفة كيفية تحقيق هدفين في هدف واحد ، متمثلاً في البُعدين الاجتماعي والسياسي . ولتحقيق هذا الهدف المركب كانت هناك ، استراتيجية بسيطة تتمثل برأينا بما يلي :

بما أن هناك توتراً بين الذين يملكــون السلطــة (كبار المالكين) وبين الذين يتحملون ممارسة هذه السلطة (صغار المالكين) والعمال الزراعيين ، والفلاحين . ففي هذه الحالة يكفي الدفاع عن فكرة إعادة توزيع الثروة لاكتساب شرعية لدى أغلبية الناس ، أي لدى الشعب .

إذن ، فإن قيام عبد الناصر بدور المدافع عن هذه الطبقة يكسبه كل الشرعية التي سبق أن اكتسبها لدى الضباط الأحرار . ويذكرنا تجميع الشرعيات هذا بما بحث عنه نابليون بونابرت لدى الجيش l'armée ، والكنيسة l'église والشعب le peuple .

2- هل حقق الاقتصاد الناصري نتائج إيجابية ؟

" ليس هناك اقتصاد بعيد عن الاجتماع . ذاك أن سؤالاً يطرح نفسه دائماً : إذا أردنا أن نبني اقتصاداً فلمن؟ ولصالح من؟ هذا هو السؤال الرئيسي"[3] . انطلاقاً من هذه الفكرة

1- رمضان ، عبد العظيم ، "عبد الناصر وأزمة مارس 1954" ، مرجع سابق ، ص23 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص24 .

3- مجلة صباح الخير : مقابلة مع هيكل ، " هذه أخلاقيات الخلاف السياسي " ، القاهرة ، 25 آذار 1982 . وأنظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، دار الشروق ، القاهرة ، 1987 ، ط 2 ، ص248 .

المسلم بها لدى هيكل يمكننا أن نفهم رؤيته الاقتصادية في ظل المرحلة الناصرية ، أي بين الفترة (1952-1970) . فهو يرى ، أنه لا بد لاي اقتصاد حقيقي من أن يأخذ بعين الاعتبار الواقع الاجتماعي" للشعب في غالبيته العظمى ، للفلاحين ، كما للمدنيين" .

لكن مصر كانت منقسمة حول هذه النقطة ، كما انقسمت سابقاً حول الاصلاح الزراعي . إذ يدافع البعض ، ومنهم هيكل ، عن طرح فاعلية القوانين الاقتصادية الاشتراكية ، والتدابير التي اتخذتها الدولة الناصرية ، في حين يعارض البعض الآخر ذلك . خاصة ، الأخوان المسلمون والشيوعيون ومن بعدهم الساداتيون .

والواقع أن ثلاثة أسئلة تسمح لنا بالاحاطة بالنظرية الاقتصادية الناصرية وخصوصياتها ، وبالصراعات التي نتجت عنها :

1- ما الخصائص الابرز في الاقتصاد الناصري؟

2- ما الطروحات المضادة للناصرية؟

3- ما ردة فعل هيكل على خصومه؟

لقد شكل الاقتصاد المجال الثاني الذي طرقه الضباط الأحرار ، كي يبرهنوا على تصميمهم على تحقيق ثورة اقتصادية واجتماعية ، لا ثورة سياسية فقط :

" ما نفع الاستقلال السياسي إذا كان علينا أن نُتبع اقتصادياً ومالياً للخارج؟ ما نفع الاستقلال السياسي إذا كان على أكثرية الأمة أن تعيش في الفقر؟ "[1]

لهذه الأسباب المتطلعة للاستقلال الكامل كان النظام الناصري يريد ، بحسب الاقتصادي المصري فوزي منصور ، تنمية الاقتصاد المصري :

" كان عبد الناصر يشعر بضرورة وجود شكلٍ من أشكال التخطيط للوصول إلى ذلك . لكن عدة حواجز ستنتصب في طريق مشاريعه : " كانت البورجوازية المصرية ترفض التعاون معه في هذه المشاريع . ولذا وجد عبد الناصر نفسه مضطراً بشكل من الأشكال ، للانخراط في برنامج الاصلاح الزراعي وفي تأميم واسع المدى"[2] .

1- Vaucher, George, (1960), *op. cit.*, p. 36.

2- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 117.

نلاحظ إذن أن هناك تناقضاً ما ، بين ثورة تريد أن تحقق ، على الصعيد الداخلي ونضالاً ضد الاستعمار وحلفائه الإقطاعيين من جهة ، وبين ضرورة تحقيق تنمية اقتصاد مرتبط بالخارج ولا يستطيع أن يستغني ، على الأقل في البداية ، عن دعم الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية من جهة أخرى .

من هنا كان الوضع الذي وجد عبد الناصر نفسه فيه مشابهاً لوضع محمد علي باشا عام 1810 ؛ إذ أراد هذا الاخير زيادة موجودات الدولة بهدف بناء جيشٍ قوي وحديث قادرٍ على لعب دورٍ هام في المنطقة ، مع تخفيف الفقر وتحقيق نوعٍ من العدالة الاجتماعية . لكن لم يكن أمام الدولةِ ، (كي تزيد من الأرباح الوطنية في بلـدٍ لا يمتلك رأس مال ، ولا أملاك) ، من خيار ، إلاّ لعب دور " عاملٍ رأسمالي " يقوم بالاستثمار ، لتحقيق أرباح على قاعدة القوى العاملة من فلاحين وعمال وتجار (. . .) . مما يعني أن الدولة كانت مضطرة لترسيخ الرأسمالية الحكومية ، ومن ثم منع تصدير العملة الوطنية الصعبة ، وكذلك منع الاستيراد ، والتصدير والاتجار بالمنتوجات دون رقابة . ونتيجة لذلك كله ، تم تأميم أكثَر القطاعات الحاسمة ، مثل قطاع القطن[1] .

وبطريقة مشابهة تماماً حقق النظام الناصري الاشتراكي برنامجهُ الاقتصادي على ثلاث مراحل مختلفة :

– المرحلة الأولى : وهي التي سبقت العدوان الثلاثي الفرنسي الانكليزي الاسرائيلي عام 1956 ، وتتميز بتدابير حذرة نسبياً وبالاصلاح الزراعي .

– المرحلة الثانية : وتمتد من عام 1956 إلى عام 1961 ، حيث اتخذت تدابير تمصير هامة في قطاعات الدرجة الثانية والثالثة .

– المرحلة الثالثة : وهي فترة ما بعد عام 1961 ، حيث تنامت الاتجاهات "الموجهة " لكي تسمح بتطبيق ونجاح خطةٍ عشرية طموحة[2] .

لتفصيل هذه المراحل الثلاثة لا بد من عرض نظرية عبد الناصر في هذا المجال ، وهي

1- عوض ، لويس ، " أقنعة الناصرية السبعة " ، مرجع سابق ، ص81 .

2- Tomich, Nada, *op. cit.*, p. 95.

نظرية صاغها وعرضها محمد حسنين هيكل الناطق الرسمي والأيديولوجي باسمه .

يقول هيكل ، ان عبد الناصر قد سلك أربع طرق في مشروع التنمية[1] :

1- من عام 1952 إلى عام 1956 قدم جمال عبد الناصر مشاريع كانت قد درست قبل الثورة ، معتبراً بأن هذه المشاريع قد استوفت الدراسة . ثم شكل مجلساً أعلى للإنتاج ، خارج الإطار الحكومي . وكان هذا المجلس يضم عدة أخصائيين اقتصاديين هامين ، ومع حرب السويس أضاف عبد الناصر إلى وسائل التنمية عنصرين هامين :

- قناة السويس بقيمتها الاقتصادية وبما يمكن أن تحققَه من أرباح .

- مجمل البنوك وشركات التأمين التي كانت بيد الفرنسيين والانكليز والبلجيكيين .

2- وضع عبد الناصر هذه القطاعات المختلفة تحت سلطة الدولة خلال حرب عام 1956 ، ثم أخذ قرار بتمصيرها ومن ثم بتأميمها ، مما شكل النواة الأولى "القطاع العام" القادرعلى المساهمة في التنمية .

3- في عام 1967 جاءت الأزمة الكبرى (نكسة 1967) ، واستطاع الاقتصاد المصري برغم الصعوبات الهامة التي نتجت عن حرب حزيران ، أن يتوصل إلى إعادة بناء القوات المسلحة ، وإكمال سد أسوان ، وكل ذلك دون مشاكل تضخم .

" هذه هي ، بحسب هيكل ، الانجازات المعجزة التي حققها الاقتصاد المصري"[2] وهنا نجد من خلال السعي الدؤوب لبناء اقتصادي مستقل وقوي ، فكرة بناء مصر كبرى على مستوى دولي وعلى مستوى دولة قائدة للعالم العربي .

وهكذا ، لا يمكن إنكار أن نظام عبد الناصر كان يحمل طموحاً اقتصادياً كبيراً توضحهُ طاقتهُ المحركة ، وصولاً بمصر إلى تحقيق اكتفائها الذاتي ، لذا حاول إنتاج كل العناصر الضرورية للمجتمع ، من " الإبرة إلى المدفع " في إطــار تضــامن طبقي ، وفي ظـل حماية جمركية دقيقة ، وتخطيطٍ اقتصادي موجه ومنظم ينفذهُ جيش من العمال ، دون أن تدخل على الخط اعتبارات الربح التي تسود في الديمقراطيات الليبرالية[3] .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص154 وما يليها .

2- المرجع نفسه ، ص 108 .

3- عوض ، لويس ، مصدر سابق ، ص92 .

وعلى الرغم من هيمنة الدولة على معظم قطاعات الدولة والمجتمع في ذلك الحين ، بقيت عملية تحديد طبيعة النظام الناصري في المجال الاقتصادي موضوعاً خلافياً سواء في مصر أو خارجها . إذ يرى فيه البعض ومن بينهم بعض اليساريين ، نظاماً انتقالياً نحو الاشتراكية transition au socialisme ، في حين يجد البعض أنه نظام على النمط السوفييتي ويعطون مثالاً على ذلك التنمية غير الرأسمالية développement non-capitaliste [(1)] .

في ظل هذا الاختلاف ، كيف نظر معارضو النظام الناصري إلى التجربة الاقتصادية الناصرية؟

دون الدخول في جدالٍ لا نهاية لهُ بين مؤيد ومعارض للنظرية الاقتصادية الناصرية ، يبدو لنا من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار بعض المواقف المعبرة والممثلة لتيارات هامة :

فقد خصص المرشد العام للأخوان المسلمين عمر التلمساني ، كتاباً بعنوان ***قالوا ولم أقل عن عبد الناصر*** لإنتقاد تجربة الدولة الناصرية ، حيث أكد على أن الاقتصاد الاشتراكي الناصري لم يكن إلاّ سلسلة من الفشل والاخطاء :

" إن البلد الذي يدّعي عبد الناصر انه أرسى فيه الاشتراكية - لكنه في الحقيقة فرض عليه الشيوعية - من أجل تدمير الفوارق الاجتماعية والغاء الاقطاعية ، هذا البلد الذي عرف مع حكومة عبد الناصر أسوأ حكومة في العالم ، لم يكن إلاّ بلد المليونيرية أثروا عن طريق الفساد والسرقة ، وكان عبد الناصر نفسه يعرف هذا كلهُ لكنهُ لم يكن يقوله لأن الفاسدين واللصوص كانوا يرقصون بين يديه"[(2)] .

إن هذا الحكم الذي يغلب فيه البعد البلاغي على التحليل الواقعي ، يكشف رُغم ذلك عن الطرح الإسلامي ، الذي يدين فساد نظام لم يدخر وُسعاً في القضاء على الحركة الاسلامية .

من جهتة يكتب الكاتب الساداتي جلال الحمامصي في صحيفة الأخبار :

1- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 118.

2- التلمساني ، عمر ، مصدر سابق ، ص47 .

" عندما يقال رسمياً وعلى مستوى المؤسسات العليا ، أن البرنامج الاشتراكي كان فاشلاً – وهذا ما قاله السادات نفسه – يجب التساؤل حول أسباب هذا الفشل . وبرأيي ، إن إحدى مصادر هذا الفشل تكمن في كون الدعوة إلى الاشتراكية قد حصلت على قاعدة الحقد الضيق الممزوج بالطموحات الشخصية في الأثراء الخاص والمباشر . والواقع ان مسؤولي تطبيق البرنامج الاشتراكي قد عملوا لمصالحهم الخاصة وهم يحاولون الظهور بمظهر المدافعين عن الاشتراكية "[1] .

كذلك لـم يتردد السادات نفسه ، صديق عبد الناصر وخليفته ، في توجيه انتقاد حاد ، ليس فقط لنظام عبد الناصر ، وإنما لعبد الناصر نفسه ، إذ يكتب :

" لقد بدأ عام 1957 ونحن نملك تماماً جميع وسائلنا الاقتصادية ، ونملك إضافة إليها 400 مليون جنيه ، هي إحتياطي العملات الصعبة التي افرجت عنها البنوك الإنكليزية .

كان كل شيء في الواقع جاهزاً لانطلاق بناء اقتصاد قوي ، قادر على رفع مستوى مصر بعد عدة سنوات من الانقسام والاستعمار . للأسف لم يحصل شيء من هذا ، لان عبد الناصر كان منشغلاً بالأسطورة التي كانت مقترنة إقتراناً وثيقاً باسمه ، لقد أصبح البطل الذي حقق الانتصار على إمبراطوريتين كبيرتين ، البريطانية والفرنسية"[2] .

وربما أن هيكل كان – وبصفتة منظراً للناصرية – مشتركاً في نجاحاتها وفي فشلها ، فقد أصبح هدف انتقادات عنيفة كانت تستهدف من ورائه عبد الناصر نفسه . وهكذا نرى عمر التلمساني يقول بهذا الخصوص :

" إذا كنت تريد أن تعرف كم كانت السياسة الاقتصادية الناصرية مدمرة للأمة ، مربحة لمؤيديها وأتباعها ، فاقرأ صحيفة أخبار اليوم عدد 10 كانون الأول/ديسمبرعام 1977 حيث نعرف أن هيكل هو أغنى اشتراكي في مصر ، أنه يملك شقة في الهرم ، وشقة على شاطىء النيل تتكون من 16 غرفة ، وشقة في الاسكندرية على شاطىء المعمورة ، ولم يفكر هيكل أبداً في أن يرد أياً من هذه الاتهامات التي تمس الكرامة والشرف ، وهو الذي لم يكن

1- الأخبار ، القاهرة ، 4 حزيران 1977 .

2- الاهرام ، القاهرة ، 10 آذار 1978 .

قبل الثورة وقبل التعرف على عبد الناصر يملك إلا مبالغ بسيطة كان يتلقاها مقابل بعض الاعلانات في الصحيفة . هذا هو الصحفي اللامع كما هو"[1] .

من جهته يقيم الكاتب الماركسي فوزي منصور ، الذي أراد دراسة وتحليل أسباب فشل الاقتصاد الناصري مقارنة بين نظام محمد علي باشا ونظام عبد الناصر ، اللذين تفصل بينهما عشرات السنين . ويُخلص إلى أن كليهما حاول تحقيق اقتصاد قائم على التخطيط المركزي ، والاكتفاء الذاتي ، ولكن كلا الاثنين أصيبا بهزائم عسكرية دمرت بنيتهما الاقتصادية والسياسية . إذ إصيب الأول بهزيمة عسكرية أمام أوروبا التي فرضت عليه العودة إلى سياسه الباب المفتوح politique de la porte ouverte . كما مُنيَ الثاني بهزيمة عام 1967 . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : لماذا إذن الفشل الشامل الذي أصاب النظامين المتشابهين كثيراً؟

يعتقد فوزي أن محمد علي باشا بنى بيروقراطية عسكرية منعت ظهور بورجوازية وطنية كان من شأنها أن تمثل حظاً تاريخياً كبيراً لمصر . كما يرى أن عبد الناصر وعلى العكس من سلفه ، قد أعطى امتيازات للبرجوازية ، طالباً بالمقابل تنازل هذه البرجوازية عن استقلاليتها السياسية ولكنه حطم بذلك اليسار الوطني ولم يستطع أن يقيم ، بعد هزيمة عام 1967 ، اقتصاد حرب[2] .

وعلى العكس من خصومه ، يرى هيكل ، من التجربة الاقتصادية الناصرية مثالاً يحتذى في العالم العربي ، خاصة ، وفي العالم الثالث عامة .

" تدل الأرقام ، بحسب هيكل ، على أن مجموع الديون المصرية كانت عام 1970 ، أربع مليارات دولار منها الدين العسكري والدين المدني . وكانت في معظمها للاتحاد السوفييتي على أقساط ممتدة وبسعر فائدة هو 25٪ . أما الدين الأكثر ثقلاً فهو الدين القصير المدى والذي بلغ 104 مليون جنيه مصري بسعر فائدة يقع بين 10- 14 ٪ .

لم يكن الدين المصري الاّ ربع الدين الاسرائيلي رغم التباين الديمغرافي بين البلدين :

1- التلمساني ، عمر ، مصدر سابق ، ص33 .

2- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 112.

36 مليون في مصر و 3 ملايين في إسرائيل . إضافة إلى أن الدين المصري كان مساوياً لنصف دين تركيا . وإذا قارنا الديون القصيرة المدى نلاحظ أنها بلغت في كانون الثاني/ يناير 1975 1004مليون جنيه مصري ، أي أنها زادت 10 أضعاف بين 1970 و1975 . ورحل عبد الناصر والتضخم قد بلغ عام 1970 (5٪) في حين بلغَ عام 1975 (20٪) .

أما في مجال المساعدة العربية لمصر ، لم يكن هناك عام 1970 أي عام رحيل عبد الناصر إلا اتفاقية الخرطوم بـ 100 مليون دولار ، في حين أن الدول العربية قد زادت مساعدتها لتبلغ 2000 مليون دولار في السنوات التالية" .

وإضافة إلى كل ذلك ، يرى هيكل ، أن مصر استطاعت أن تحقق في ظل عبد الناصر نمواً هاماً في الدخل القومي بلغ 6.6٪ سنوياً "[1] .

والحق يقال ، ان هيكل لم يكن المدافع الوحيد عن الناصرية . فلويس عوض مثلاً ، وهو مؤيد معتدل في تحليلاته للنظام الناصري ، يرفض فكرة اليمين القائلة بأن الاقتصاد الاشتراكي المصري ، كان اقتصاداً اشتراكياً بالمعنى السلبي للكلمة ، أي اقتصاداً ليس للقطاع الخاص فيه أيه أهمية إلا بعد عام 1962 ، عام الميثاق الوطني . ولتبرير طرحه هذا يطرح لويس عوض السؤال التالي :

" هل بدأت الاشتراكية المصرية عام 1962 ، تاريخ الميثاق الوطني ؟

ثم يقول : ان الجواب بالطبع سلبي .

بل على العكس ، بحسب لويس عوض ، لقد بدأت الاشتراكية منذ ثورة عام 1952 ، لكن لا أحد في اليمين أو اليسار وصفها بالاشتراكية ، الثورة بدأت بتأميم المؤسسات الأجنبية وقناة السويس ، لكننا لم نسمع أحداً يهاجمها ، حتى ولو أن عمليات التأميم التي عادت بعدة ملايين من الجنيهات كانت أساس بناء القطاع العام . كذلك فقد تحالفت الولايات المتحدة الامريكية مع السوفييت لإنقاذ مصر من الاستعمار الفرنسي والبريطاني الذي تحرك بسبب عمليات التأميم وإمتلاك الدولة لقطاعات الانتاج .

طالما أن عمليات التأميم كانت تخص الرأسمال الاجنبي ، يقول عوض ، فإن اليمين

1- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر" ، ص109 وما يليها .

الوطني كان مرتاحاً وهو يرى الدولة تضع يدها عليه . أما اليسار فقد ظل ينعت الثورة بالدكتاتورية العسكرية بل والفاشية حتى ميثاق عام 1962"[1] .

والواقع ، أن عوض يرى الاقتصاد الناصري من زاوية ايجابية لأنه يعتبر أن هذا الاقتصاد قد حقق الانجازات التالية :

1- إنشاء قطاع يشكل نواة مصر الصناعية .

2- زيادة النسبة الصالحة للأستعمال من مياه النيل بنسبة 60٪ ، وذلك بعد بناء سد أسوان .

3- زيادة الدخل الوطني المصري بقيمة 127 مليون دولار بين 1952- 1953 ، وبقيمة 376 مليون دولار عام 1962 - 1963 .

4- زيادة إنتاج الطاقة الكهربائية من 355 ألف واط إلى 1.3 مليون واط عام 1963 .

5- توسيع عدد الملكيات الزراعية .

6- توسيع مبدأ الضمان الاجتماعي[2] .

باختصار ، يمكننا أن نختم هذا الموضوع الاشكالي ، بوجهة نظر هيكل المنشورة في إحدى الصحف الاماراتية رداً على تصريح حديث للرئيس حسني مبارك بخصوص نظام عبد الناصر ، وهو ما يشكل دليلاً على أن الجدل ما زال مستمراً الى الآن . يقول هيكل : " إنني واحدٌ من الذين اهتزوا عند سماعهم الرئيس مبارك ينتقد عناصر اليسار ، ربما يكون على حق في ذلك . لكنه ، قال في نقده أن هذه العناصر تريد أن تعيدنا إلى مرحلة الانغلاق والانكفــاء ، أن ترجعنا مئة سنة إلى الوراء . فعن أية مرحلة انغلاق يريد أن يتحدث؟ أهي المرحلة التي بني فيها السد العالي ، وجميع مصانع الصناعات الثقيلة التي يزورها كل يوم؟

على أي حال ، اعتقد ان هذا التصريح ، يشكل جزءاً من هذه المرحلة المضادة للناصرية . فإذا كانت الأمور ، كما تدعي الدعاية ، كلها سيئة في عهد عبد الناصر ، من السد العالي الذي دمر كل شيء إلى الصناعة التي لم تكن ضرورية ، مروراً بالتعليم المجاني الذي تم الالتفاف عليه ، والحرب ضد إسرائيل التي لم يكن لها مبرر ، وبناء الدفاع الذاتي بالاسلحة

1- عوض ، لويس ، مصدر سابق ، ص 71 .

2- المصدر نفسه ، ص127 وما يليها .

السوفييتية ، إذا كانت كل هذه الأمور سيئة ، إذن ، فلنعد إلى مرحلة ما قبل ثورة يوليو"[1] .

الواقع أن هيكل يعتقد ، أن التجربة الناصرية كانت نجاحاً كبيراً ، مع اعترافه بوجود بعض القضايا القابلة للنقاش :

" إذا أردت أن أكون حيادياً ، لا أقول بأن عبد الناصر ترك خراباً ينعق البوم والغربان على أطلاله ، بل أقول إنه ترك اقتصاداً سليماً وقادراً على الاستجابة . ولا شك أن هناك بعض المشاكل ، لكن أكثرها كان من طبيعة تنموية وإدارية . ورغم ذلك كله ، فإن الصورة العامة للمرحلة الناصرية لا تتضمن شيئاً يدعو إلى التشاؤم"[2] .

لا شك ، أن مداخلات هيكل المتعددة للدفاع عن النظام الناصري ، تكشف لنا عن كونه يحسُ بأنه مسؤول عن انجازات الاشتراكية العربية المصرية . في حين يرى أن سياسات السادات ومبارك تشكلان ، مقابل هذا النظام ، وجهين لإستراتيجية الانفتاح المعادية للناصرية والقومية والعروبة .

3- نظام الحزب الواحد

لقد لعب هيكل دوراً حاسماً إلى جانب عبد الناصر ، في تجميع وتأطير الجماهير ، ولعب دوراً في تنظيم الالة السياسية للدولة الناصرية .

فالواقع أن الضباط الأحرار كانوا بحاجة لحزبٍ يؤيد أفكارهم وأعمالهم . ولذا أنشأ مجلس الثورة ، " هيئة التحرير " عام 1953 ، ثم "الاتحاد الوطني" عام 1957 وأخيراً " الاتحاد الاشتراكي العربي " عام 1962 . لكن المتخصصين في التاريخ المصري يرون أن عبد الناصر لم يستطع بالرغم من ذلك كله أن يُنشيء حزباً ناصرياً حقيقياً ، قويّاً وصلب التنظيم في وجه كل هجوم كان من شأنه أن يهدد النظام ويُضعفهُ .

وسنحاول ، عبر الحزب الواحد الذي عرفته مصر طيلة ثمانية عشر عاماً ، أن نوضح رؤية

1- الخليج الاماراتية ، حوار مع هيكل ، "هذه مرحلة "نفي" عبد الناصر" ، دبي ، 19 كانون الثاني 1984 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، "أحاديث في العاصفة" ، مرجع سابق ، ص508 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص111 .

هيكل للديمقراطية ، وللحرية ، ولمراكز السلطة ، مع علمنا بأن هيكل يفسر هذه المصطلحات بحسب مبادىء وعمل عبد الناصر .

يقسم المختصون مرحلة الحزب الواحد إلى مرحلتين رئيسيتين :

الأولى براغماتية ، والثانية إيديولوجيه[1] .

تمتد الأولى من عام 1954 إلى عام 1962 عام صدور الميثاق الوطني ، وهي تتمحور بشكل رئيسي حول ظواهر سياسية واجتماعية . أما الثانية فتبدأ مع الميثاق الوطني وتتميز بسيطرة المكونات الايديولوجية .

يدافع هيكل عن هاتين المرحلتين وعن منجزاتهما . مميزاً بين مظهرين من مظاهر "الديمقراطية الناصرية" ، أحدهما اجتماعي والآخر سياسي ، إذ يعتبر أن مصر كانت تحتاج خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى ديمقراطية اجتماعية démocratie sociale ، تتمحور حول العدالة والمساواة ، أكثر مما تحتاج إلى ديمقراطية سياسية démocratie politique تتجلى عبر الانتخابات وتعدد الأحزاب . ولتبرير وتوضيح هذا الرأي يطرح هيكل السؤالين التاليين :

" ما هو الأقربُ إلى جوهر الديمقراطية؟ أن يكون للفلاح بطاقة تصويت ، يترك لسيده ، قطعاً ، أن يستعملها بدلاً عنه ، أو أن يكون له قطعة أرض يزرعها؟ ما هو الأقربُ إلى الديمقراطية وجوهرها؟ أن يجد العامل كرسياً لابنه في الجامعة أم أن يقف أمام صندوق الاقتراع "[2] .

هكذا يرى هيكل عدالة الديمقراطية الناصرية مفضلاً المساواة الاجتماعية على الحرية السياسية . وتطرح رؤيته منطقاً خاصاً في العمل السياسي اعتبره متجسداً في نظرية عبد الناصر وممارساته ، بطريقة متناغمة ومستمرة .

يقول هيكل :

1- Safouri, Mohammed Ali, *l'Islam: droit et pouvoir en Egypt*, thèse de droit, université de droit, des sciences économique et sociales de Paris, Paris - Assas II, 1986, p. 423.

2- هيكل ، محمد حسنين ، " السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1988 ، ط6 ، ص 257 .

" كان عبد الناصر يعتقد ان التعبير السياسي ليس الا انعكاساً للحقائق الاجتماعية والاقتصادية . فإذا كان يتوجب إرساء ديمقراطية صحيحة ، ديمقراطية تترجم إرادة النضج ، فإنها لا تستطيع أن تكون كذلك إلا إذا اندرجت ضمن منطق الوقائع الاقتصادية والاجتماعية القادرة على أن تعطي لهذه الغالبية وزنها الحقيقي ودورها الصادق . كان عبد الناصر يرى بأن الوقت لم يحن لتحقيق هذه لأنه كان يعتبر أن تنظيم الاقتراع الديمقراطي لا يمكن إلا أن يصب في مصلحة الأقليات المسيطرة ، وأن يعيد مصر بالتالي عدة خطوات إلى الوراء ، نحو ديكتاتورية ما قبل الثورة "[1] . وبهذا تبدو لنا الناصرية الى حد ما نظاماً سلطوياً يقلص تأثير الأقلية السياسية عبرَ أُحادية السلطة .

غير أن هيكل يعتبر ان خيارات عبد الناصر كانت مبررة كلياً . إذ لم يكن من الوارد إقامة نظام ديمقراطي ممكن أن يشكل خطراً على الثورة ، وأن تتحول الديمقراطية الى سلاح تهديد بيد أقلية من المالكين ضد الاكثرية الساحقة من الشعب . ولذلك لم يكن ثمة مجال للسماح بتشكيل تعددية حزبية حقيقية مشابهه لما هو موجود في الغرب :

" لا شك أن مسؤولية العمل الوطني تقع على عاتق الشعب مما يعني انه لا يمكن فصل قضية الثورة عن قضية الديمقراطية . ما الذي يتبقى إذن؟ يتبقى أسلوب العمل ، وأهدافه وظروفه . ولا يتمثل الاسلوب الخاص بالعمل الوطني بعودة الأحزاب ، أو بتشكيل أحزاب جديدة بل ، بوحدة وطنية "[2] . يريد هيكل بهذا الرأي أن يقول إن الوحدة الوطنية لا تتأمن إلا عبر الحزب الواحد . وهذا ما يجب أن تسير مصر السياسية باتجاهه . ولهذا السبب ألغى عبد الناصر الأحزاب ، وأمّ الصحف ، وحاول تصفية معارضيه ، مثل الشيوعيين عام 1953 والإخوان المسلمين عامي 1954 و 1965 . مما أفسح المجال أمام الغرب ومعارضي النظام للحديث عن الديكتاتورية الناصرية .

ما يجدر ملاحظته هنا ، أنه وبعد موت عبد الناصر عام 1970 ، شعرَ المصريون ، حتى بعض معارضيه بفراغ سياسي كبير . لكن هذا الحدث الذي هز العالم العربي كله فتح

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص66 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، نقلاً عن حمودة ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو " ، مصدر سابق ، ص215 .

مرحلة جديدة في التاريخ السياسي المصري . مرحلة يرمز إليها بسياسة الانفتاح التي انتهجها أنور السادات ، حيث بدأ بالسماح للمعارضين بالتعبير عن أنفسهم فيما أعتبر ردة عن الاحادية الناصرية .

وعلى كل حال ، لا يتفق معارضو النظام الناصري ، قطعياً مع رؤية هيكل للأمور بل إنهم يهاجمونه ويرون فيه الموحي ، أو على الأقل المحامي عن الأحادية الناصرية . هكذا يكتب الدكتور محمد عصفور في صحيفة الشعب مقالاً بعنوان (الديمقراطية . .آمين) فيقول :

" رُغم عدمِ تواؤم مؤيدي الحكم الناصري مع مظاهر الحكم الديمقراطي الحقيقي فإنهم ألحوا على القول بأنه نظام ديمقراطي ذو " طبيعة خاصة " ، ولست أنا من وصف النظام الناصري بأنه ديمقراطية القبول ، أو ديمقراطية آمين ، بل الاستاذ هيكل ، أحد كبار منظري هذا النظام ، فهو من أنكر أن نظام عبد الناصر ديكتاتوري وهو من وصفه بديمقراطية خاصة ومبتكرة حتى ولو لم يكن لهذا الوصف أي أساس منطقي ، أو أساس ديمقراطي "[1] .

أما الكاتب لويس عوض فيقيم مقارنة بين وجهتي نظر متناقضتين متمثلتين بوجهة نظر هيكل ووجهة نظر توفيق الحكيم ، وذاك في كتابه ***الأقنعة السبعة للناصرية*** ، حيث يقول :

" إن من يقرأ فكر هيكل يفهم فوراً بأنه يقبل كلياً مبدأ التنظيم السياسي الموحد ، ونظرية اتحاد القوى الشعبية . إضافة إلى أن هيكل يقيم مقارنة خاطئة كليا بين الاتحاد الاشتراكي المصري والحزب الواحد في الصين . كذلك يصف تضامن القوى الشعبية ، بالجبهة الوطنية في حين أن مفهوم الجبهة يتعارض كلياً مع مميزات التنظيم السياسي الناصري ، الذي لا يتسامح ابداً مع لقاء الأقطاب المختلفة " .

ويمضي لويس عوض أبعد من ذلك في نقده لخطاب هيكل ، مستعملاً مصطلحات أكثر نقداً :

" إن تحقيق نظرية التضامن بالقوة بين الطبقات في المجتمع ، تذكرني بأساليب النازية والفاشية . لأن الفلسفة السياسية لهذين الحزبين هي ببساطة الوحدة الوطنية بين

1- جريدة الشعب ، القاهرة ، 23 كانون الأول 1980 . وانظر أيضاً رد هيكل عليه في نفس الجريدة في 30 كانون الأول 1980 . وانظر كذلك هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص82-83 .

التشكيلات الاجتماعية بهدف سحق الصراعات الداخلية بين الطبقات وايقاظ تناقضاتها مع الخارج" [1] .

ويمكن القول ، بأن لويس عوض قد قام هنا ، بمقارنة سياسية خاطئة بين النظام الناصري والنازية ، إذ لم تكن لعبد الناصر نوايا توسعية كما كان حال ادولف هتلر تجاه أوروبا وبقية العالم .

من جهته يطلق المؤرخ المصري طارق البشري ، ثلاث خصائص على الدولة المصرية في ظل عبد الناصر ، وهي خصائص تميز الدولة السلطوية :

1- الدمج بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية .
2- احتكار السلطة التنفيذية وممارستها من قبل رئيس الدولة .
3- الحزب الواحد[2] .

أما نحن ، فنعتقد بأن قضية التعددية الحزبية لم تكن محسومة في ذهن عبد الناصر عند وصوله إلى السلطة ، وأن الأحادية الحزبية قد نتجت بطريقة الممارسة الفعلية ، خلال تجربته الشخصية في السلطة . وربما لهذا السبب أخفق عبد الناصر في بناء تنظيم سياسي قوي وفعال ، وهذا ما يعترف به هيكل نفسه :

" لقد اعتمد عبد الناصر كثيراً على السلطة ، أما فشله الكبير فكان التنظيم الشعبي"[3] .

إلا أنه وكعادته ، يجد هيكل دائماً "أسباباً موضوعية" بالنسبة له لتبرير أعمال عبد الناصر وقراراته فيقول :

" فيما يخص تفرده بالسلطة ، لا بد من الاعتراف بأن عبد الناصر عاش مرحلة الحرب الباردة ، حيث كانت قضايا الأمن الداخلي هي نفسها وسيلة من وسائل الدفاع القومي . أما فيما يخص التنظيم الشعبي ، فلا بد من الاعتراف ، بأن بعض حالات الفشل كانت نتيجة كون المرحلة مرحلة انتقالية ، مما استوجب من بعض القوى الشعبية التي لم تكن متعودة

1- عوض ، لويس ، مصدر سابق ، ص 189 .
2- حموده ، عادل ، " أزمة المثقفين وثورة يوليو " ، مرجع سابق ، ص230 .
3- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص 74 .

على ممارسة السلطة ، العبور من مرحلة العجز إلى مرحلة النضج ، وأذكر يوماً كنت في السيارة مع عبد الناصر ، وتوقف للحديث إلى عمال يمارسون عملهم . وفي العودة ألحّ عليّ بالقول بأن هؤلاء هم قوى التحدي والنمو الحقيقية ، هؤلاء الذين لا يملكون لا جهاز راديو ولا جهاز تلفزيون"[1] .

يدافع هيكل ، إذن ، حتى النهاية عن الرجل الذي كان له حليفاً ، ويأخذ على خصومه أنهم لم يفعلوا شيئاً خلال مرحلة الناصرية ، للتعبير عن آرائهم :

" كانت هناك إساءات في ممارسة السلطة ، لكنني لم أتردد يوماً في رفع الصوت في أوانه ضد ما يجب إدانته ، وهكذا كانت لي فرصة انتقاد المؤسسات الأمنية في سلسلة من المقالات بعنوان " زوار الفجر "[2] . كذلك كنت أول من قال ، في المجلس الشعبي الذي تشكل على قاعدة دستورية برئاسة أنور السادات ، أن القانون يجب أن يكون فوق السلطة"[3] .

ورغم إدانته لهذه التجاوزات ، يحاول هيكل التقليل من شأن سلبيات النظام الناصري وتمجيد الابعاد الانسانية لهذه الحقبة السياسية . " لم تعرف أية تجربة تغيير تاريخية ، عميقة ، مشابهة لتجربة مصر ، غياب استعمال القوة وشيئاً من اساءة استعمال السلطة ، لكنه قدر كل مشروع عظيم" [4] .

بعد كل هذه التناقضات ، بين معارضي ومؤيدي وأعداء متطرفين ومعتدلين يظل ثمة سؤال : هل كان عبد الناصر ديكتاتورياً بنظر هيكل؟

للإجابة عن هذا السؤال نورد ما يقوله هيكل نفسه في كتاب ***بصراحة عن عبدالناصر*** الذي نشره الكاتب اللبناني فؤاد مطر :

" في الحقيقة ، أنا أرفض هذه الرؤيا لأن الفارق كبير بين الديكتاتور le dictateur والديكتاتورية la dictature . الديكتاتور شخص يحكم بإرادته فقط دون أن يأخذ في

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع نفسه ، ص75 .
2- المقصود هنا : المباحث .
3- هيكل ، محمد حسنين ، "أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص86 .
4- المصدر نفسه ، ص87 .

اعتباره رغبات الناس وميولهم . وعلى العكس من ذلك يكـون الوضع مختلفاً جذرياً في الأنظمة الديمقراطية لأن الشعب هو الذي يوجه الحاكم . خاصة مع وجود أحزاب معارضة ، ونقابات ، وصحف حرة ، ومحرّكين للرأي العام . وبين هذين النمطين من الحكم ، يقول هيكل ، هناك نمط ثالث ، هو النمط الذي ينطبق تماماً على عبد الناصر . حيث كان قادراً على الاحساس بالإرادة الشعبية وبهذه القدرة وبكل ما تفرضه من مسؤولية ثقيلة كان يتخذ قرارات تعبر عن إرادة الشعب . فعندما أتخذ عبد الناصر مبادرة الثورة ، لم يتخذها بمفرده بل انه قام بعملٍ يعبر عن إرادة الشعب في الغاء الملكية واعلان الجمهورية" .

وعلى مستوى القضايا الأساسية والحاسمة ، يتابع هيكل ، "كان من الطبيعي أن يتخذ عبد الناصر قرارات أساسية وحاسمة ، لكنه لـم يكن يتخذها لمجرد رغبته أو بمبادرة فردية منه ، وإنما على العكس استجابة لنداء الأمة . هكذا لم يكن تأميم قناة السويس ، أو التغيير الثوري الاشتراكي ، أو النضال ضد الانكليز ، على سبيل المثال ، ثمار إرادته الخاصة ، بل ثمرة آمال وتطلعات الشعب"[1] .

توحي هذه الأقوال لهيكـل ، بـأن سلطـة عبـد الناصـر هي سلطة " زعامة " charismatique ، يلعب فيها عبد الناصر ، حسب تصنيف ماكس ويبر ، بفضل شخصيته ، دور الوسيط المباشر بين السلطة السياسية التي يجسدها ، والإرادة الشعبية التي يمثلها . ويتجلى هذا البعد الشعبي أيضاً على الصعيد الخارجي .

والواقع أن عبد الناصر كان يريد ، بسياسته ، أن يرسخ الاعتراف به كزعيم للعالم العربي . وكانت شرعيته الداخلية تحافظ وترسم سلطته على المستوى الخارجي ، وهذا ما سنلاحظه في دراستنا للسياسة الخارجية للنظام التي سيصبح فيها هيكل الناطق الرسمي أو على الأقل شبه الرسمي .

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص87 .

الباب الثاني : الناطق الرسمي للسياسة الخارجية

يهدف هذا الباب إلى إيضاح دور هيكل في تحديد الاستراتيجية الدولية لجمال عبد الناصر ، ومساهمته الرسمية في جميع الأحداث السياسية الهامة في تلك المرحلة ، كما سيسمح لنا بإيضاح البعد العربي للقيم السياسية التي قادت سياسة عبد الناصر .

هكذا ، سندرس مشاركة هيكل في السياسة الخارجية المصرية ، عبر تجلياتها المميزة : تشكيل سياسة عدم الانحياز (1955) ، أزمة السويس(1956) ، الوحدة السورية المصرية (1958-1961) ، التدخل في اليمن (1962-1967) ، وأخيراً حرب حزيران (1967) تلك الحرب التي غيرت الخريطة الجيوسياسية ، وموازين القوى في الشرق الأوسط .

1- اتجاه عبد الناصر نحو سياسة عدم الانحياز (1955)

لا شك في أن هيكل كان أحد مهندسي السياسة الخارجية المصرية في المرحلة الناصرية ، إلى حد أن بعض المراقبين اطلقوا على مكتبه في صحيفة اخبار اليوم لقب "وزارة خارجية الظل"[1] .

ولتبيان مدى الدور الحاسم الذي لعبه هيكل في هذا المجال ، سنتتبع عن قرب الأحداث التي تلت الثورة والتي رسمت استقلال مصر عن القوى العظمى ، مشيرين إلى ولادة إرادة مصرية تهدف إلى تحديد عملٍ سياسي ومجال خارجي خاص ومستقل .

لذلك سيأخذ التحليل بعين الاعتبار رفض مصر القطعي للاحلاف الاجنبية في الشرق الاوسط ، ومؤتمر باندونغ . وأخيراً قرار شراء الاسلحة التشيكوسلوفاكية عام 1955 .

في كتبه **وثائق القاهرة** ، و **قصة السويس** ، و **ملفات السويس** ، يوضح هيكل بما لا يقبل الشك الملامح المميزة للتنافس الجيوسياسي Géo-politique بين القوى الجديدة والقوى القديمة في الشرق الاوسط ، خاصة بين الولايات المتحدة وانكلترا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien*, Ramsay, Paris, 1987, p. 116.

وعياً منه لهذا الواقع ، سيختار جمال عبد الناصر ، رئيس مصر الجديد ، المعسكر الامريكي على حساب الانكليز ، ولهذا السبب ، يقرر يوم تنفيذ الانقلاب وفي الساعة الثالثة صباحاً ، أن يرسل رسائل للسفير الأمريكي جيفرسون كيفري يشرح له فيها أهداف الثورة [1] . وهكذا فإن مناخ التفاهم ، بل والتعاون الذي قام بينه وبين الامريكيين منذ البداية ، يفسر الزيارة التي قام بها إلى القاهرة جون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكي ، يوم 11 أيار/مايو 1953 للتشاور مع عبد الناصر .

وبحسب هيكل فإن هذه الزيارة لم تكن مجرد صدفة ، بل إن دالاس قد جاء إلى القاهرة لهدفين :

الأول : محاولة إقامة السلام بإيجاد حل للصراع العربي الإسرائيلي بين العرب واليهود .

الثاني : يتمثل في العمل لصالح خطته الهادفة إلى تطويق الاتحاد السوفييتي بواسطة عدد من الاحلاف العسكرية ، والسياسية في العالم العربي [2] .

أما مصر فقد كانت تريد من جهتها ، أن تحقق ، عبر الامريكيين هدفين رئيسين :

1- الحصول على الدعم السيكولوجي من قبل هذه القوة الغربية العظمى في بداية عملية انقلابية من شأنها أن تثير الكثير من الشكوك .

2- الحصول على مساعدة اقتصادية وعسكرية وسياسية .

اقتصادياً : كانت مصر تريد الحصول على مساعدات مالية لمشاريع ومصانع مربحة للدولة . سياسياً : تحقيق استقلالها الكامل ، وعسكرياً : امتلاك سلاح حديث .

هكذا حاول عبد الناصر ، إذن ، أن يخرج بأفضل فائدة ممكنة من علاقاته مع الأمريكيين ، دون أن يعتمد كلياً على حسن نواياهم ، وبهذا الخصوص يشير هيكل إلى أن عبد الناصر كان يسميهم " الذين يأتون والذين يذهبون" . وكان يعتقد بإمكان استعمال القادمين " الأمريكيين " للضغط على الذاهبين " الانكليز" [3] .

1- Heikal, M.H, *les documents du Caire, op. cit.*, p. 11.

2- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien, op, cit.*, pp. 67-68.

3- *Ibid*, p. 72.

نلاحظ أذن أن الموقف الدبلوماسي لعبد الناصر كان يتميز بنوع من الحذر الدائم . ولم يكن يكف عن القول : " آمل أن لا يكون هناك فخ ما "[1] .

ولاختبار علاقاته مع الآخرين أرسل عبد الناصر عام 1952 وفداً برئاسة مدير مكتبه علي صبري إلى الولايات المتحدة بهدف التفاوض على شراء أسلحة امريكية . وفي هذه المرحلة بدأ دور هيكل في مجال العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . حيث ذهب إليها في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1952 لحضور الانتخابات الرئاسية التي كان يتنافس فيها المرشح الجمهوري الجنرال دوايت ايزنهاور مع المرشح الديمقراطي إدلاي ستيفنسون . وقد استقبل عبد الناصر هيكل قبل ذهابه ليقول له :

" عندما تصل إلى واشنطن أريدك أن تدرس البعد السياسي لصفقة الاسلحة التي وعدنا بها ، في حين يأخذ على صبري مسؤولية القضايا العسكرية البحتة . ستكون أمامك فرص للألتقاء بالكثيرين بفضل مهماتك في الاعلام المصري . كذلك فإن الكثيرين سيحاولون اللقاء بك بسبب معرفتهم بعلاقات الصداقة القائمة بيني وبينك"[2] .

ويشير هيكل في كتابه ***ملفات السويس*** إلى أنه التقى في حينه بالجنرال أولمستد المكلف بالمساعدات العسكرية الخارجية الامريكية . مضيفاً أنه ناقـــش معه امكانية انضمام مصر إلى تحالف عسكري إسلامي ، طالما أنها بلد اسلامي هام . وقد استخلص من مجمل اللقاءات بينه وبين هذا الجنرال ، رؤية الامريكيين لمنطقة الشرق الاوسط في تلك المرحلة ، حيث وصف اللقاء بما يلي :

"كان قد مضى علينا بعض الوقت ونحن نتحدث ، عندما ضغط على زرٍ معين ، فنزلت خارطة كبيرة على امتداد الجدار خلفه ، وكان عليها ملاقط وأعلام على غرب وجنوب أوروبا وعلى الشرق الاقصى .

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien*, *op. cit.*, p. 72.

2- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس : آخر المعارك في عصر العمالقة" الشركة العربية للمطبوعات والنشر ، بيروت ، 1985 ، ط5 ، ص71 .

كانت هذه الاشارات تمثل القواعد والحاميات الامريكية ، ولكن الشرق الاقصى كان عارياً ، سألني الجنرال : إلا تعتقد أنه يجب أن يكون هناك اعلام وملاقط في جزئكم من العالم؟ فأجبته معترضاً :

" لكننا نتحدث عن كائنات بشرية يا سيدي الجنرال ، عن آمالهم وتطلعاتهم"[1]

عندها أسر الجنرال لهيكل بأن انضمام مصر للحلف الاسلامي هو الحل الأمثل لتزويدها بالاسلحة ، عدا عن الدعم والمساعدات المالية"[2] . لكن هيكل يقول أن الأمريكيين والانكليز لم ينجحوا رغم كل جهودهم في اقناع مصر بالمشاركة بهذا الحلف العسكري .

وعلى العكس من ذلك فإن دول شرق أوسطية ، مثل تركيا والباكستان عقدت في 19 شباط/فبراير عام 1955 حلفاً مؤيداً للغرب . وفي 20 شباط/فبراير 1955 وصل إلى مصر وزير الخارجية الانكليزي أنتوني إيدن ، لاقناع عبد الناصر بعقد تحالف مع العراق ودول عربية أخرى من بينها المملكة العربية السعودية ولبنان .

وفي 24 شباط/فبراير عام 1955 وقعت تركيا ، الباكستان والعراق ، "حلف بغداد" ، الذي انتقده عبد الناصر بشدة[3] . إذ أنه كان يرى فيه محاولة انكليزية لاحتواء الدول العربية الأخرى وعزل مصر من جهة ، ولتشكيل كتلة معادية للسوفييت من جهة أخرى[4] .

والحق يقال ، أن الأحداث لم تلبث أن تسارعت في الشرق الاوسط ، في حين ظلت مصر متمسكة بشدة بموقف رفضٍ كل حلف أجنبي يفرض تحالفاً غير متوازن ، كما يفرض وجود قوات أجنبية على أرضها .

من جهتها ظلت الولايات المتحدة ترفض تسليم الاسلحة الموعودة إلى مصر ، إلى أن هاجم الاسرئيليون مدينة غزة في 22 شباط/فبراير عام 1955 . ويقول هيكل أن هذا الهجوم

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien, op. cit.*, p. 64.

2- Gendy , Moustafa, *op.cit.*, p. 165.

3- Growley, D.W, *The background to current affairs*, Macmillan Press Ltd, London, 5 edition , 1972, p. 319-320.

4- Heikal, M.H, *les Documents du caire, op. cit.*, p. 22.

جعل البحث عن التسلح ، برأي عبد الناصر ، ضرورة حيوية لمصر مما جعله يلتقي بالسفير الامريكي هنري بايرو في القاهرة في حزيران/يونيو عام 1955 ، لكن وبالرغم من الطلبات الملحة التي قدمت لهذا الأخير والتي نقلها بدورهِ إلى الحكومة الامريكية ، فإن شيئاً جديداً لم يحدث ، رغم استمرار الهجمات الاسرائيلية على غزة[1] . عندها لم يعد هناك إلا حل واحد وهو اللجوء إلى المساعدة السوفييتية[2] .

في هذا الجو المتوتر بين الولايات المتحدة ومصر ، قرر الرئيس جمال عبد الناصر المشاركة في مؤتمر باندونغ يوم 17 نيسان/ابريل عام 1955 ، يرافقه صديقه والناطق الرسمي بإسمه محمد حسنين هيكل .

وكانت مجموعة كولومبيا (الهند ، باكستان ، سيلان ، بورما ، وأندونيسيا) هي التي نظمت هذا المؤتمر بهدف تبادل الافكار حول حدود التنازلات التي يمكن للدول الخارجة من الاستعمار ، أن تقدمها لمستعمريها السابقين ، إضافة إلى إمكانية الوصول إلى حياد عام بخلق كتلة دولية ثالثة[3] .

وهكذا انبثقت عن هذا الاجتماع "حركة عدم الانحياز" بإرادة ورغبة الرؤساء عبد الناصر وتيتو ونهرو .

وكانت هذه الحركة تعني قبل كل شيء ، بمنطق عبد الناصر ، ضرورة امتلاك قوة عسكرية قوية ومستقلة ، دون تقديم تنازلات سياسية لأية دولة عظمى . وكان يلاحظ الاهتمام الذي تبديه القوى العظمى بمصر ، ويعتقد بأن عليه أن يجعلها تلعب دوراً سياسياً مستقلاً على اعتبار أن سياسة العملاقين تقوم على عدم المساواة[4] .

هكذا جعل المؤتمر المذكور ، والذي كان من شأنه ادراج السياسة المصرية داخل الدوائر الدولية ، من المحور المصري – الصيني ، بعداً أساسياً في استراتيجية الدبلوماسية .

1- Heikal, M.H, *les Documents du caire*, *op. cit.*, p. 32.

2- بغدادي ، عبد اللطيف ، "مذكرات بغدادي" ، روز اليوسف ، القاهرة ، 1978 ، ص 169 .

3- Tomich, Nada, *op. cit.*, p. 80.

4- Archer, Calnest R, " *How to make a business decision and analysis of theory and practice*", Mangemnt Review, American Management Association , February, 1980, p. 54-61.

وبعد هذا المؤتمر حصل عبد الناصر ، على وعدٍ من السوفييت بمساعدة عسكرية ، وقد أبلغه ذلك السفير السوفييتي في القاهرة دانييل اسدود خلال حفل استقبال أقيم في السفارة السودانية في القاهرة في 18 أيار/مايو عام 1955 .

وفي 31 آب/اغسطس عام 1955 ذهب وفد مصري إلى تشيكوسلوفاكيا ليتفاوض حول اتفاقيات عسكرية مع الاتحاد السوفييتي . ويعتبر هيكل أن ما يبرّر اختيار هذه الدولة ، هو ضرورة تجنيب الحساسية الغربية من علامات التقارب السوفييتي المصري[1] . " وقد نجحت المفاوضات ، لكن هذا لم يكن يعني لعبد الناصر أغلاق ابواب مصر بوجه الامريكيين"[2]

والحقيقة أن المصريين اتصلوا بالسوفييت في بداية 1953 ، بعد أن حاول الامريكيون فرض شروطهم على مصر في مجال السياسة الخارجية . وقد رفض الاتحاد السوفييتي في البداية ، قبل أن يعود الى القبول ، لأن "مبدأ ستالين" كان يقوم على عدم إعطاء اسلحة إلا للدول الشيوعية[3] .

وقد مثل هذا الاتفاق مع السوفييت حول التسلح منعطفاً سياسياً حاسماً . ذاك أن مصر قد أكدت باعلانه رسمياً كونها بلداً قادراً على رسم استراتيجيته الخاصة على الساحة الدولية وبشكل مستقل عن القوى الغربية الكبرى . وقد احتفظت السياسة المصرية بهامش من الحرية والاستقلالية إزاء الاتحاد السوفييتي ، حتى ولو أن لجوءها إلى سوق السلاح عند هذا الأخير قد فرض نفسه في غياب الولايات المتحدة الامريكية .

وفي كل الأحوال ، فإن جميع الحكومات والشعوب في كل العالم العربي قد أبدت اعجابها بذلك ، حتى أن العراق وبعض الدول المحافظة الأخرى مثل المملكة العربية السعودية واليمن قد أيدته[4] .

ولا شك في أن عبد الناصر قد استطاع أن يعطي ، في تلك المرحلة على الأقل ،

1- هيكل ، محمد حسنين ، "القمة والعرب" ، جريدة الوطن ، الكويت ، 3كانون الأول 1978 .

2- بغدادي ، عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 178-179 .

3- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 177.

4- Tomich, Nada, *op. cit.*, p. 81.

الانطباع ، بأن مصر تستطيع أن تكون زعيمة العالم العربي .

أما الأمريكيون فقد فوجئوا ، وقرر جون فوستر دالاس ، وبدون استشارة الرئيس أيزنهاور الذي كان في المستشفى أن يوقع أمراً بتجميد تنفيذ بنود اتفاق التسلح .

في هذا السياق لعب هيكل دور الوسيط بين مصر والولايات المتحدة الامريكية وفي ذلك يقول :

" كنت قد أصبحت قريبا جداً من عبد الناصر ، خاصة في قضايا السياسة الخارجية ، بحيث بدأ بعض المراقبين يطلقون على مكتبي تسمية "وزارة خارجية الظل" وهذا ما جعلني أصحو على رنين الهاتف في الساعة الواحدة والثلث من صباح الثلاثاء 27 ايلول/سبتمبر . فكان ايكلبرجر المفوض في السفارة الأمريكية بالقاهرة على الطرف الآخر من الخط في حالة من السكر والاضطراب وقال لي : بأن لديه تأكيدات على الاتفاقية بين مصر والاتحاد السوفييتي وأن كيرميت روزفلت استقل طائرته من واشنطن إلى القاهرة ، وأنه يعتبر الوضع خطيراً "[1]

نقل هيكل هذه المكالمة إلى عبد الناصر الذي أعتبر بأنه يتوجب قطعاً اعلان الاتفاقية رسمياً وذلك قبل وصول روزفلت .

لم يكن على برنامج عبد الناصر لذلك اليوم أي ظهورٍ رسمي ، لكنه استغل دعوة معرضٍ فوتوغرافي نظمهُ جهاز العلاقات العامة في الجيش ، لاعلان قرارهِ رسمياً .

وصل كيرميت روزفلت إلى القاهرة في 27 ايلول/سبتمبر عام 1955 . ووجه السفير الامريكي هنري بايرون والوزير المفوض في السفارة الأمريكية بالقاهرة إيكلبرجر دعوة لهيكل للقاء المبعوث الأمريكي روزفلت . التقى الرجلان يوم 28 ايلول/سبتمبرعام 1955 وأبلغه روزفلت أن الامريكين سيردون على ابرام الاتفاق مع السوفييت بأربعة تدابير ضد مصر :

1- وقف كل المساعدات .

2- قطع جميع الصلات الاقتصادية والثقافية .

1- Heikal. M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien*, *op. cit.*, p. 116.

3- ربما قطعت العلاقات الدبلوماسية .

4- حصار جميع المرافىء المصرية لمنع السلاح من الوصول[1] .

حمل هيكل الرسالة إلى عبد الناصر ، الذي لم يهتم لها معتبراً بأنها فرصته المناسبة ليبرهن للسوفييت بأنه قادر على مواجهة الضغوط الامريكية ، خاصة وأن المساعدة الامريكية كانت قليلة ، وأن التبادل الثقافي كان مقصوراً على فرقة من موسيقى الجاز ، وأما التهديد بالحصار فيخص البواخر السوفييتية . لهذا كلهُ لم يأخذ عبد الناصر التهديدات الامريكية على محمل الجد[2] .

طلب روزفلت مقابلة عبد الناصر لكن هذا الاخير رفض . ولذا قرر جون فوستر دالاس إرسال جورج الان وزير الدولة المساعد ، المكلف بشؤون الشرق الاوسط لتوجيه إنذارٍ لمصر ، وفي محاولة من هيكل لمساعدة روزفلت لمقابلة عبد الناصر بطريقة "غير رسمية" تمت دعوته لمنزل هيكل ، حيث أوضح الرئيس عبدالناصر لروزفلت أن مصر سبق وأن طلبت من الامريكيين أسلحة للدفاع عن أرضها ضد اسرائيل لكن واشنطن رفضت . وقد كان هذا اللقاء ، بالرغم من كل شيء ، وديّاً لأن روزفلت لم يثر موضوع التدابير التي تنوي الولايات المتحدة اتخاذها[3] . وهذا ما يعد نجاحاً سياسياً ودبلوماسياً لعبد الناصر بفضل جهود مستشارهِ هيكل .

وفي 30 ايلول/سبتمبر عام 1955 وصل جورج الان مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة ، وفي السفارة الامريكية قرر مع بايرون وروزفلت إرسال رسالة إلى دالاس يصف فيها الجو السائد في القاهرة . وفي المساء تلقى جواباً يقول بأن الان يمتلك جميع الصلاحيات لاتخاذ التصرف المناسب .

يقول هيكل أنه لم يعد في خطابهم أي تهديدات أو إجراءات ضد المصالح المصرية . ويشير إلى أن دالاس نفسه يلخص في مذكراته موقفه في هذه المرحلة بالقول :

1- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، ص88 .

2- Heikal. M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien*, *op. cit.*, p. 118.

3- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، ص94 وما يليها .

" كنت أريد أن أقول لعبد الناصر بأنه إذا كانت موسكو تعطيه اسلحة الدمار ، فإننا نحن نعطيه السلام لبناء سد أسوان"[1] .

هكذا نجد أننا هنا أمام مناورات وإغراء سياسي . فالأمريكيون يدعون بأن أيديولوجيتهم لا تقوم أبداً على الحرب ، والعنف ، والسلاح ، بل على السلام ، والحرية ، والتقدم .

في حين أن الاتحاد السوفييتي ودول المجموعة الاشتراكية تجسد بنظرهم قيماً متناقضةً كليّاً لذلك . وقد كان هذا ، الى حد ما ، شبه صحيح في حينهِ . إذ أن الولايات المتحدة كانت تبدو ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، بطلة الحرية والعدالة والمساواة . غير أن التدخلات الامريكية في فيتنام ، وفي بنما ، وفي غرينادا جاءت فيما بعد تبرهن العكس تماماً .

2- عبد الناصر وهيكل في إدارة أزمة السويس (1956)

في 21 تموز/يوليو عام 1956 ، أستدعى عبد الناصر صديقه محمد حسنين هيكل ، الذي كان يومها رئيساً لتحرير صحيفة أخبار اليوم ، ليبلغة رغبته بتأميم شركة قناة السويس ، وليختبر ردة فعله ، وبعد ذلك بأيام ، أي في 26 تموز/يوليو ، أعلن عبد الناصر ذلك رسمياً في الاسكندرية .

تابع هيكل هذه الأزمة عن قرب ، فقد كان عمله وثقة عبد الناصر به يفرضان عليه ذلك ، وسنحاول عبر تعليقاته وتحليلاته أن نتحسس دوره في هذا المنعطف الحاسم في التاريخ المصري والشرق أوسطي ، والذي يشغل مساحةً واسعة في انتاجه الفكري حيث أنه قد خصص له عملين هامين : ***قصة السويس*** و ***ملفات السويس*** نشرا على التوالي عامي 1976 و 1986 .

في عام 1956 بدأت العلاقات بين مصر الناصرية ومجمل الدول الغربية تتراجع وتتأزم ، بسبب قضايا التسلح وبسبب رغبة مصر في بناء سد اسوان .

وفي 19 تموز/يوليو رفضت الولايات المتحدة تمويل السد ، وأبلغ وزير خارجيتها جون

1- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، مرجع سابق ، ص94 .

فوستر دالاس (1953-1959) ذلك للسفير المصري في واشنطن أحمد حسين :

" سيدي السفير ، سوف نعلن هذا القرار . أنا آسف ، لن نستطيع مساعدتكم بخصوص السد العالي (سد اسوان) لأننا نعتقد أن كل من سيبني السد العالي يجلب على نفسهِ كراهية الشعب المصري له ، إذ أنه سيكون بالنسبة له عبئاً ساحقاً (. . .) نحن لا نريد أن تكرهنا مصر ، وسنترك هذا الامتياز للاتحاد السوفييتي ، إذا كان يعتقد حقاً أن عليه أن يضطلع به "[1] .

يدل هذا الرفض الامريكي على أن الولايات المتحدة لم تكن تتفهم طموحات عبد الناصر في بناء دولة قوية ومستقلة . بل أن السياسة الامريكية كانت تحاول ابقاء مصر في وضع تبعية اقتصادية ، قناعة منها بأن الاتحاد السوفييتي لن يكون قادراً على مساعدة القاهرة .

في ذلك اليوم كان عبد الناصر في زيارةٍ رسمية ليوغوسلافيا تبعها لقاء مع تيتو ونهرو على جزيرة بريوني . ويقول هيكل الذي كان يرافقه أن الرئيس عرف بالقرار قبل الذهاب إلى النوم ، دون أن يتلقى النص كاملاً ، ولكنه لم يكن متفاجئاً بالموقف الامريكي . رغم ذلك ، فإن دهشة كبيرة اعترته عندما اطلع على النص الكامل للتصريح ، لأنه رأى فيه إذلالاً لمصر ودعوة للشعب إلى أعمال عنف ضد " قيادة الثورة "[2]

رغم هذا القرار الامريكي الخطير والنتائج التي تترتب عليه على الصعيد الدبلوماسي ، فقد شارك عبد الناصر ، كما يقول هيكل بأعمال مؤتمر بريوني ، دون أن يطرح هذه القضية على رفيقيه تيتو ونهرو ، إلا بطريقة عابرة وفي مناقشات جانبية .

وتعتبر تأكيدات هيكل على " المحادثات العابرة والجانبية " ذات دلالة على القرب الذي كان يميزُ علاقات عبد الناصر بهيكل إلى حدٍ يجعل هذا الأخير يشارك في لقاءات حميمة مع رؤساء دولٍ مثل نهرو وتيتو ، إذ يروي هيكل أن تيتو سأل عبد الناصر عن ردة فعله على "إعلان دلاس" ، فأجابه الرئيس المصري "بأن القرار الامريكي لم يفاجئني ، ولكن الاسلوب الذي صيغ به قد أثار عجبي ، فأردف تيتو بأن القرار هو تعبير صارخ عن رغبة واشنطن في الغاء النظام الثوري المصري . وعندما رد عبد الناصر موافقاً على هذا الاستنتاج سأله تيتو :

1- Heikal, M.H, *les documents du Caire, op. cit.*, p. 40.

2- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، مرجع سابق ، ص112 .

كيف ينوي أن يتصرف؟

فأجاب بأن على مصر أن تعتمد على نفسها وأن عليها أن تتهيأ لمواجهة طويلة مع السياسة الامريكية[1] . من جهتة عبر نهرو عن غضبه الشديد بعد قراءة النص الامريكي قائلاً : " ليس لاستفزازهم حدود leur arrogance n'a pas de limites "[2] .

إزاء هذا الرفض الامريكي ، سأل عبد الناصر مساعديه المقربين ، ومنهم هيكل عما يعتقدون انه يتوجب القيام به .

هيكل من جهته ، استوحى اقتراحه الذي قدمه لعبد الناصر ، من كلمة سمعها من وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد ، عند مروره بالقاهرة في بداية العام . حيث حدثه عن أهمية قناة السويس ليس للملاحة البحرية فقط بل كجزء من تجمع نفطي أشمل .

التقط عبد الناصر هذه الفكرة وأقام مقارنة بين عائدات النفط المقدرة من القناة والارباح الضخمة التي تجنيها شركة السويس من جهة ، وبين وضع الدول المنتجة للبترول حيث تنص العقود المبرمة مع الشركات النفطية على إعطاء نسبة 50٪ من الأرباح للحكومة .

في هذا السياق من التفكير قرر عبد الناصر تأميم القناة ، ويروي هيكل ، تنفيذ هذا المشروع بالطريقة التالية :

" اتصلتُ به هاتفياً في الساعة التاسعة من صباح السبت 21 تموز/يوليو عام 1956 قائلاً : لقد فكرت بما ناقشناه واعتقد بأن لديَّ فكرة . أنت تذكر ما قاله سلوين لويد بخصوص التجمع النفطي واتفاقيات الـ 50 / 50 ؟ "

وبشكل عام ، يقول هيكل ، كان عبد الناصر يتحدث بحرية على الهاتف ، لكن ما كان يحملهُ في رأسه هذهِ المرة كان يمثل مخاطر أمنية كبرى جعلته يجيب :

" يكفي تعال إلي ، وعند وصولهِ قال له عبد الناصر : أشعر بأننا قد فكرنا في ذات الاتجاه ، ولكن لماذا 50/ 50 ، لماذا لا تكون 100٪؟ "

"فوجئت ، في البداية ، بجرأة فكرتهِ وقلت : هذا كثير . لماذا؟ سألني . وعندها فهمت

1- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، مرجع سابق ، ص113 .

2- المصدر نفسه ، ص114 .

أنه لم يعد ثمة حاجة للجواب"[1] .

لتنفيذ فكرته عيّن عبد الناصر المهندس محمد يونس مسؤولاً عن هذا المشروع . وكان يفترض أن لا يبدأ عملهُ إلا بكلمة سر هي : " ليسبس lesseps "[2] ، يقولها عبد الناصر في خطابه القادم .

كان عبد الناصر واعياً للمخاطر التي يمكن أن تجرها الأعمال التي قرر مباشرتها لتأميم القناة . لكن ، وكما يقول هيكل :

" التحليل السياسي الذي أجراه عبد الناصر للوضع الدولي أقنعه بفائدة المشروع : كان يعتقدُ بأن الأمريكيين لا يستطيعون التدخل ، خوفاً من إدانة الرأي العام الدولي ، وأن السعوديين سيردعونهم . إضافة إلى أن الفرنسيين متورطون في الجزائر ، وإذا لم يتدخل البريطانيون فإن اسرائيل لن تفعل شيئاً لأن بن جوريون كان مايزال يأمل بقبول العالم الأفريقي- الآسيوي له" .

وبمناسبة خطابه في ذكرى نفي الملك فاروق في 26 تموز/ يوليو عام 1956 أعلن عبد الناصر رسمياً قرارهُ بتأميم القناة[3] .

ويقول هيكل الذي كان حاضراً إلى جانبه بأنه لم يحضر خطاباً مكتوباً وإنما اكتفى بوضع بعض الملاحظات ، كما انه يقول بأن عبد الناصر بدا بالتذكير بتاريخ مصر (. .) ومن ثم ، لفظ كلمة السر " ليسبس " ، وتابع قائلاً بأن مرسوماً بذلك قد صدر بتوقيع رئيس الجمهورية . كان هذا المرسوم يتضمن المادتين التاليين :

المادة الأولى : تُؤمم الشركة الدولية لقناة السويس الملاحية لتصبح شركة مصرية وتُنقل ملكيتها للدولة بكل ما لها وما عليها .

المادة الثانية : يؤمن جهاز مستقل لتنظيم الملاحة في قناة السويس جهاز مستقل[4] .

وبعد الانتهاء من خطابه الذي استمر حوالي ساعة ونصف ، طلب عبد الناصر من

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien, op. cit.*, p. 16.

2- للتأكد من أن كلمة السر lesseps وصلت وفهمت ، كررها عبد الناصر ثلاث عشرة مرة في خطابه .

3- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien op. cit.*, p. 173.

4- *Ibid*, p. 179.

هيكل أن يذهب إلى القاهرة ليتابع الأحداث في العاصمة ، بسبب تجمع الشخصيات الحكومية الهامة في الاسكندرية .

وفي صباح اليوم التالي ، وبعد أن عاد هيكل إلى مكتبه في صحيفة أخبار اليـــوم اتصل بمحمد يونس ، المهندس المكلف بتطبيق المرسوم ، ليسأله عن سير الأمور ، لكي يطلع قراءه على ذلك ، فأجابه بأنها تسير بشكل إيجابي .

من الواضح أن هيكل راضٍ جداً عن قرار تأميم القناة بدليل قوله :

" خلال 24 ساعة تأكدنا أن عبد الناصر على حقٍ باتخاذ القرار الأهـم في تاريخه السياسي "[1] .

والواقع أن تأميم قناة السويس قد أثار على الفور ردات فعل عنيفة من قبل الدول الغربية . فاتخذت بريطانيا وفرنسا تدابير طوارىء ضد مصر وجمدتا الأموال المصرية في الخارج ، كذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية .

في الجانب المصري ، يقول هيكل ، إن عبد الناصر قد اعتبر أن مرحلة الخطر الاقصى تقع خلال الأيام الأولى التي تلي إعلان التأميم . فقد " اعتبر عبد الناصر أن 90٪ من خطر الهجوم العسكري على مصر يقع في الأيام الأولى من شهر آب/ اغسطس . بعدها تنزل النسبة 80٪ في نهاية شهر آب/اغسطس ، والى 60٪ في أيلول/سبتمبر ، وإلى 40٪ حتى منتصف تشرين الأول/أكتوبر ، و20 ٪ في النصف الثاني من الشهر نفسه "[2] .

ضمن هذا المنطق حاول الغربيون وعبد الناصر معاً أن يكسبا الوقت ، ولكن بهدفين مختلفين . فقد كان هذا الوقت ضرورياً لعبد الناصر لتحقيق غايتين :

1- تأمين دعم الدول العربية ودول عدم الانحياز .

2- تحريك الرأي العام العالمي .

أما بالنسبة للغربيين فقد ارادوا كسب الوقت لإنهاء تحضيراتهم العسكرية وتهيئة الرأي العام في بلدانهم للتدخل في مصر .

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien, op. cit.*, p. 181.

2- *Ibid*, p. 170 .

" من جهتهِ شجع الاتحاد السوفييتي مشروع التأميم . وأعلن في 9 آب/أغسطس عام 1956 أن القرار المصري (قرار شرعي)"[1] .

إذن ، فقد كان الخطر الحقيقي من جانب الدول الغربية ، حيث كانت فرنسا تؤيد عملاً عسكرياً عنيفاً ضد مصر لأنها ترى في عبد الناصر العقل المدبّر لحركات المقاومة في افريقيا الشمالية وخاصة في الجزائر . وكذلك الحال بالنسبة لإنجلترا التي تربطها بالعالم العربي روابط تاريخية ودبلوماسية متميزة[2] .

في هذه الظروف وبتأثير هذهِ الدوافع ، قررت الحكومتان الفرنسية والبريطانية بقيادة أنتوني إيدن ، والعدو اللدود لعبد الناصر ، المباشرة بالقيام بعمل مشترك مع إسرائيل وذلك بعد لقاءات تمت بمدينة (سيفر) Sèvres بالقرب من باريس بين سلوين لويد ، كرستيان بينو ، وديفيد بن جوريون[3] .

بعد أربعة أيام من هذا القرار ، أي في 29 تشرين الأول/أكتوبر عام 1956 ، هاجمت اسرائيل مصر عبر شبه جزيرة سيناء بينما كان عبد الناصر يحضر حفلاً عائلياً .

في المساء كان هيكل يتناول العشاء مع السفير اليوناني ولم يعرف بنبأ الهجوم الاسرائيلي إلا عندما اتصل هاتفياً بمكتبهِ ، وعندها اتصل مباشرةً بعبد الناصر الذي طلب منه موافاته[4] .

ويرى هيكل أن عبد الناصر كان حتى بعد ظهر 30 تشرين الأول/إكتوبر مقتنعاً بأن الهجوم الغربي حاصلٌ حتماً . لذلك طلب من هيكل أن يذهب لمقابلة السفير الامريكي ريمون هير ليخبرهُ باسم الرئيس أن طائرة استطلاع بريطانية قد التقطت مما يدل على النوايا الغربية المشبوهة .

نقل هيكل ذلك . لكنه ترك السفير الأمريكي مشحوناً بالشك ، خاصةً وأنه قد علم بتلقي السفارة أمراً من واشنطن بأن يغادر الرعايا الأمريكيون مصر حماية لهم من النتائج

1- انظر المقال المتعلق بدور السوفييت في هذه الازمة بعنوان : " الموقف السوفييتي في قضية السويس " ، مجلة المعارف العربي ، القاهرة ، العدد 80 ، 1986 ، ص70 .

2- Khoury, Samaha, *Cours de DEUG sur les courants politique dans le Monde Arabe*, Université de Bordeaux III, 1991, p. 58.

3- Heikal, M.H, *les Documents du Caire, op. cit.*, p. 75.

4- هيكل ، محمد حسنين ، "قصة السويس" ، مرجع سابق ، ص 228.

المحتملة للصراع . نقل هيكل ذلك لعبد الناصر مما زاد من شكوكه بدلاً من أن ينقصها[1] .

بناء على اتفاق (سيفر) l'accord de Sèvres أطلقت فرنسا وبريطانيا إنذاراً للجهات المعنية بوقف القتال . رفضت مصر هذا الإنذار معتبرة أنه لا يحق لأي قوة أجنبية ، وخاصة إنكليزية بأن تنـزل على الأرض المصرية حتى ولو مؤقتاً . وفي 31 تشرين الأول/أكتوبر بدأت عمليات القصف الفرنسي الإنجليزي لمنطقة قناة السويس والقاهرة .

وبعد خمسة أيام من القصف الكثيف هدد الاتحاد السوفييتي باستخدام صواريخ نووية ضد فرنسا وإنجلترا إذا لم تتوقف العمليات العسكرية .

كذلك ، فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة أدانت الدول التي شاركت في هذه العملية وطلبت وقف إطلاق النار الفوري على الأرض ، كما انسحبت إسرائيل وبضغط من الولايات المتحدة الامريكية من شبه جزيرة سيناء .

وهنا يلحظ هيكل :

" في السويس كانت الحرب ، لكنها حرب صغيرة ، وإذا كان لا بدّ من تصنيف الضحايا خلال أيام القتال الحقيقية ، أي في نهاية تشرين الأول/أكتوبر وفي بداية تشرين الثاني/نوفمبر عام 1956 ، فإن المصريين قد تكبدوا أكثر الخسائر (921 قتيلاً) في حين أن الإسرائيليين ، وبحسب أرقامهم هم ، قد خسروا 200 قتيل ، والبريطانيين 22 والفرنسيين10" .

لكنه يقول أيضاً " أن السويس كانت شيئاً آخر غير الحرب . إذ أن هذه المواجهة هي نهاية أشهر طويلة من المناورات الدبلوماسية ، والسياسية والعسكرية "[2] .

وإذا كان هيكل قد اعتبر عملية السويس حدثاً وانتصاراً لعبد الناصر ، فإن تحليله يعبر عن رؤية القوميين العرب ، حيث أنه يركز على الأفكار التالية[3] :

1- ان انتصار السويس هو الانتصار الأكمل في التاريخ العربي المعاصر . وهو تطبيق ناجع لنظرية الحروب المحدودة بين القوتين العظميين في الشرق والغرب .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " قصة السويس" ، مرجع سابق ، ص229 .

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien op. cit.*, p. 11.

3- هيكل ، محمد حسنين" قصة السويس " ، مصدر سابق ، ص 7 - 14 .

2- إن حرب السويس هي إحدى التجارب النموذجية للقومية العربية ، وهي تجسيد لمعنى الوحدة بين شعوب العالم العربي التي لم تقف متفرجة وإنما دعمت مصر .

3- إن جيل السويس هو جيل ثورات الاستقلال في العالم العربي . إنه جيل عبد الناصر ، أحمد بن بله ، هواري بومدين ، عبد السلام عارف ، وجيل الطلائع الملتزمة من حزب البعث العربي الاشتراكي الذين يحكمون منطقة الهلال الخصيب ، إنه جيل المبادىء العربية التاريخية ، ومبادىء الحرية والوحدة والاشتراكية ، من المحيط إلى الخليج .

4- كانت حرب السويس فرصة للاتحاد السوفييتي في تحقيق توازن في موازين القوى مع الولايات المتحدة والتعبير عنها في مجال اسلحة الدمار الشامل . كما كانت بالتالي نقطة مفصلية في الحرب الباردة فرضت بالضرورة سياسة انفراج بين القوتين العظميين .

5- لم تكن حرب السويس بعيدة عن التطورات الحكومية ، السياسية والعسكرية التي أصابت الكتلة الغربية نفسها وخاصة فرنسا .

6- إضافة إلى ذلك كانت حرب السويس مفجرة لحركات التحرر التي انطلقت في أميركا اللاتينية وفي المستعمرات الفرنسية في إفريقيا .

7- كانت حرب السويس آخر ساحة مواجهةٍ بين عمالقة هذا العالم : عبد الناصر ، بن جوريون ، نهرو ، تيتو ، ايزنهاور ، خروتشوف ، ديغول . . . إلخ .

هذه هي الدروس التاريخية الأساسية التي يخرج بها هيكل من حرب السويس ، لكن السؤال الأساسي يبقى في معرفة النتائج الملموسة والعميقة للحرب ، وعليه يجيب :

" لقد عرفت قضية السويس أكثر من مهزوم ، وهناك منتصرين مطلقين : الرئيس عبد الناصر والولايات المتحدة الامريكية ، لأن محاولة بريطانيا العودة إلى منطقة كانت تعتبرها معقلها قد انتهت إلى كارثة ، ومثلها المحاولة الفرنسية . أما الأمريكيون فلم يعودوا يعتبرون أن لهم منافسين في المنطقة ، وعبد الناصر بالتحديد ، لذلك لم يعد من الوارد لديهم التخلص منه"[1] .

1- Heikal, M.H, *l'Affaire de Suez : un regard egyptien, op. cit.*, p. 271.

يبدو لنا ، أن تحليل هيكل من خلال أفكاره التي طرحها قريبة إلى الصحة ، فالواقع أن عبد الناصر قد اكتسب شرعية جديدة ، بعد الشرعية الثورية . لقد أصبح الرجل الأول في العالم العربي . أليس هو من واجه الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية؟ أليس هو من واجه العدو الأول للعالم العربي (إسرائيل)؟ . أما من جهة أخرى ، فقد تشبثت الولايات المتحدة الامريكية سياسياً واستراتيجياً في المنطقة على المواقع التي كانت لبريطانيا وفرنسا نتيجة أزمة السويس .

3- تجربة الوحدة السورية - المصرية

غداة حرب السويس التي جعلت مصر هدفاً لتحالف اسرائيلي غربي ، بدا هذا البلد بمثابة تجسيد للقومية العربية وزعيم لا ينافسُ للأمة العربية . " هذا المنطق هو الذي حكم الوحدة السورية - المصرية عام 1958 ، التي تبرهن رغم مدتها القصيرة (1958-1961) ، على إصرار عبد الناصر على تحقيق المرحلة الأولى من الوحدة العربية"[1] .

سنحاول أن نوضح وجهة نظر هيكل بخصوص هذا الحدث الحاسم في التاريخ السياسي العربي ، محاولين الإحاطة بطبيعة الوحدة السورية المصرية ، ودوافعها ، أهدافها ، نتائجها وأسباب انهيارها .

هكذا ، سنعرض الاستراتيجية السياسية الناصرية بخصوص الوحدة العربية التي تشكل أحد المحاور الرئيسية في *فلسفة ثورة* عام 1954 . فقد أعطى هيكل أهمية خاصة لنظرية عبد الناصر للوحدة العربية .

يبدأ كل شيء في شباط/فبراير عام 1958 ، زيارة مفاجئة لأربعة عشر ضابطاً من الجيش السوري إلى القاهرة دون علم وموافقة من الحكومة السورية[2] . واستقبال عبد الناصر لهم يوم وصولهم بالذات . ومعاً توصل الجميع إلى اعلان فوري لوحدة مصر وسوريا .

ويتضح الطابع المفاجىء لهذا الحدث عندما نأخذ بالاعتبار الظروف التي كانت تميز الوضع الداخلي والخارجي لسوريا في تلك المرحلة . فالواقع أن هذا البلد يُعد مركز حركة القومية العربية ، كما كان هدف بعض القوى مثل "حلف بغداد" ، وهدفاً للتهديدات التركية

1- Alem, Jean-Pierre, *le Proche-Orient Arabe*, P.U.F, Paris, 1977, p. 48.

2- Flory, Maurice, (et al), *les Régimes politiques arabes*, P.U.F, 1990, Paris, p. 166.

التي حشدت قواتها العسكرية على الحدود السورية عام 1957 . يضاف إلى ذلك تهديدات الجيران : إسرائيل طبعاً ، ودول عربية أخرى لها علاقات متوترة ومتأزمة معها . نتيجة لذلك كان من شأن عدم الاستقرار الداخلي ، المرافق للمخاطر الخارجية ، أن يعطي الانطباع للكثيرين من أعضاء النخبة السورية بأن الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا الوضع ، هي الاتحاد المباشر مع (الأخ الأكبر) في الجنوب أي مع مصر الناصرية . ولم يكن هناك إذن وقت يضيع ، إذ إن الرهان كان على مصير سوريا نفسها[1] .

أما داخلياً ، فبعد خلع الرئيس السوري أديب الشيشكلي ، وانتخاب خالد بكداش مؤسس الحزب الشيوعي السوري نائباً عن دمشق بأكثرية ساحقة ، أصبح حزبه نقطة جذب للطبقة المتوسطة التي كانت حتى ذلك الوقت مؤيدة للبعث . وقد وجد هذا الحزب الكبير ولكن الضعيف التنظيم ، نفسه فجأة مهدداً ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي دفعته للاتحاد مع مصر أملاً بالإفادة من شعبية نظام عبد الناصر في العالم العربي ، خاصة بعد صفقة الأسلحة السوفييتية [2] .

فيما يخص مصر ، كانت هناك من جهة أسباب أيديولوجية حتمية ، تتعلق خاصة برغبتها بإعادة بناءٍ عالم عربي موحدٍ وقويٍ ، كما كانت هناك دوافع أمن وطني من جهة أخرى .

لكن عبد الناصر وبالرغم من كل ذلك ، تردد قبل اتخاذ قرار الوحدة بين مصر وسوريا : كان يريد البدء بنظامٍ كونفدرالي قبل الوصول إلى وحدةٍ حقيقيه . وبحسب هيكل أن أسباب تردد عبد الناصرِ تعود إلى أنه لم يكن يعرف جيداً ، في ذلك الحين ، تفاصيل الوضع السوري الداخلي ، والأهداف التي يمكن أن تنشأ عنه[3] .

ويؤكد كتاب آخرون موقف عبد الناصر الحذر من الوحدة فمثلاً يعتبر أنور السادات في كتابهِ ***البحث عن الذات*** ، أن عبد الناصر حاول أن يغير رأيهم . وأنهُ شرح لهم أن وحدة كهذه لا يمكن أن تحصل بهذا الشكل المفاجىء دون أي تحضير مسبق . لكن كل اعتراضٍ

1- Flory, Maurice, *op. cit.*, p. 166.

2- Sabri, Ali, *Nasser en procès face à la nation*, Point de Vue, Paris, 1968, p. 90.

3- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص123 .

كان عديم الجدوى ، كما يقول السادات[1] . ويؤكد محمود رياض وزير الخارجية آنذاك ، تردد عبد الناصر ، قائلاً بأنه طلبَ من الضباط السوريين أن يحققوا الوحدة بمراحل لكن تحفظاته لم تلبث أن تبخرت تحت ضغط هؤلاء الضباط[2] .

قبل عبد الناصر إذن قرار الوحدة برغم تردده الأولي ، ويرى هيكل أن ثلاثة أسباب كانت تبرر بنظره هذا الخيار :

1- إن التجربة السورية يمكن أن تشكل الحجر الاساسي في بناء الوحدة العربية المأمولة .

2- إمكان تجنيب سوريا مخاطر حرب أهلية قد تجر اجتياحاتٍ خارجية محتملة .

3- يمكن لهذه الوحدة أن تؤدي إلى جبهة عسكرية موحدة ، وهو أمر مفيد في بناء جبهة موحدة ضد اسرائيل[3] .

لكن عبد الناصر ، كي يضمن للوحدة قواعد موضوعية من الشرعية ، طلب تحقيق ثلاثة شروط :

1- اجراء استفتاء شعبي حول الموضوع في مصر كما في سوريا كي يكون هذا الخيارُ مقبولاً بحرية .

2- الغاء جميع الأحزاب السورية بما فيها حزب البعث نفسه .

3- الفصل الكامل بين السياسة والجيش . وتحديداً أن يمتنع الجيش عن التدخل في أي نشاط سياسي ، وأن يصبح مجرد أداة للدفاع والقتال؟[4]

" بعد عدة مشاورات قبلت القوى السياسية السورية أن تقدم برهاناً على المرونة وعلى روح التضحية"[5] . وقد كانت قيمة عبد الناصر برأي زعماء البعث التاريخيين " إنه برهن على أنه يمكن أن يكون معادياً للأمبريالية anti-impérialiste ومؤيداً للسوفييت

1- El-Sadate, Anouar, *A la récheche d'une idéntité*, Fayard, Paris, 1978, *op. cit.*, p. 220.

2- Flory, Maurice, *op. cit.*, p. 166.

3- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 124 .

4- هيكل ، محمد حسنين ، " سنوات الغليان :حرب الثلاثين سنة" ، مركز الأهرام للنشر والترجمة ، القاهرة ، 1988 ، ط1 ، ص 279 .

5- Roulou, Eric, le Monde diplomatique, Septembre, 1967.

pro-soviétique . ومعادياً للشيوعية anti-communiste ، والزعيم الأقوى في العالم العربي ، كل ذلك في آن واحد ، وبما أنه كذلك ، فإنه قد استحق أن يصبح زعيم الأمة العربية ، رجلٌ تمتد سلطة زعامته من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي مروراً بسوريا "[1] .

ووقع بروتوكول الوحدة السورية المصرية في أول شباط/فبراير عام 1958 . وهكذا ولدت الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر ، وعاصمتها القاهره ، مع دستور مؤقت أعلن في 3 آذار/مارس عام 1958 وكانت هذه الجمهورية بنظر مؤسسيها نواة الدولة العربية الكبرى .

وفي 6 آذار/مارس عام 1958 شكل عبد الناصر الحكومة المركزية للجمهورية العربية المتحدة ، ولها نائبا رئيس أحدهما مصري والآخر سوري . كانت الحكومة تتضمن ثماني حقائب أسندت واحدة منها فقط إلى وزير سوري . علماً بأنه كان لوزير الدفاع نائب سوري أيضاً .

ويصف هيكل الذي رافق رئيس الدولة الجديد الى مقاطعة الشمال ، الجو الخاص الذي رافق إنشاء الجمهورية العربية المتحدة كما يلي : "وصل جمال عبد الناصر ، وللمرة الأولى في حياته ، رئيساً لدولة لم تطأ قدماه أرضها سابقاً . واستُقبلَ وصوله بطريقة استعراضية لا تنسى . كانت الشوارع والأرصفة تعجُ بالناس ، إذ أن خبر زيارته كان قد انتشر بسرعة قبل ان تطأ قدماه الأرض"[2] .

مع ذلك فإن الوحدة السورية المصرية أثارت عدداً من الصراعات والخلافات وردات الفعل في مختلف الدول خاصة العربية ، بسبب تعارض المصالح والمشاريع الايديولوجية المتعددة .

ردت تركيا ، التي كانت إحدى أطراف حلف بغداد ، فوراً على الحدث . إذ وجه رئيس وزرائها عدنان مندريس رسالة إلى نظيره الامريكي جون فوستر دالاس ، يقول فيها :

"إن تطورات المنطقة تحتاج إلى إعادة تقييم ، فالواقع أنني قد نمت أمس وعلى الحدود الجنوبية أمة تُعد ستة ملايين نسمة ، وعندما استفقت في الصباح وجدت على حدودي أمة أصبح عدد سكانها سته وثلاثين مليوناً"[3] .

1- Sabri, Ali, *op. cit.*, p. 90.

2- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص124 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " سنوات الغليان :حرب الثلاثين سنة" ، مرجع سابق ، ص 281 .

أما في العراق ، حيث كان رئيس الوزراء نوري السعيد مهندس حلف بغداد ، يحلم بتحقيق مشروع الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى [1] ، فقد شعر بإحباط كبير لرؤيته سوريا تقع بين يدي مصر[2] .

أما الأردن ، فقد ردت بشكل سلبي على إعلان الوحدة إذ رأت فيه تهديداً مباشراً لأمنها . ولهذا السبب وقعت في نيسان/ابريل عام 1958 بروتوكولاً مع العراق هدفه تشكيل سدٍ في وجه الطموحات المحتملة للجمهورية العربية المتحدة الجديدة .

من الواضح أن الأردن قد طبق نظرية التحالفات في مجال السياسة الخارجية . مما يشكل منحى خاصاً لدى الدول العربية حيث لا تقوم نظرية التحالفات على أسس استراتيجية بعيدة المدى وإنما على أُسس تكتيكية .

وهكذا ، كان السعوديون في الثلاثينات من هذا القرن على خلاف مع المصريين حول قضية الأماكن الإسلامية المقدسة ، وعلى قضية الخلافة ، خاصة خلال حكم الملك فؤاد . لكن هذا الخلاف تحول فيما بعد إلى تحالفٍ بين الأسرة المالكة السعودية ومصر ، لمواجهة طموحات الأسرة الهاشمية ، التي اخرجت من الحجاز ، وأدى خروجها إلى إنشاء دولتين : في الأردن والعراق .

إذن ، هكذا كان يدور منطق العلاقات السياسية بين الدول العربية ، وهذا ما لاحظه عبد الناصر ، فقرر الغاءه بكل الوسائل خاصة بإنشاء وحدة عربية خارج التنظيمات القائمة على القبلية وعلاقات النسل الدموي الأسرية . وهذا ما يسميه المفكر السوري صلاح البيطار " قدرة عبد الناصر على بناء دولة المحور Etat-Pivot "[3] .

فيما يخص العربية السعودية ، يعتبر هيكل أن ردة فعلها على الوحدة ، كانت سلبية لسببين أساسيين :

الأول : أنها كانت تنظر نظرة سيئة إلى تنامي نفوذ عبد الناصر في العالم العربي .

الثاني : أن الامريكيين قد حذروا العربية السعودية من الخطر الاشتراكي الذي

1- مشروع يضم العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردن ، فلسطين .

2- Sabri, Ali, *op. cit.*, p. 89.

3- Flory, Maurice, *op. cit.*, p. 156.

يمثله عبـــد الناصر ، خاصة بعد القوانين الاشتراكية التي أصدرتها الجمهورية العربية المتحدة عـام 1961 [1] .

وكان اليمن البلد العربي الوحيد الذي أبدى إشارات تشجيع لهذه الوحدة . إذ أعرب الإمام البدر عن رغبته في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة ، بناءً على الشكل الفيدرالي المرن ، على أن يحمل الاتحاد الجديد اسم الدولة العربية المتحدة . ودون أن يشارك اليمن في الاصلاحات التي ستتخذها الجمهورية العربية المتحدة .

في هذا الجو العدائي ، سواء على الصعيد العربي أم الدولي . تشكلت أول وحدةٍ عربية معاصرة . وللأسف ، يقول هيكل ، بعد ثلاث سنوات من الوحدة ، أي في 28 ايلول/سبتمبر عام 1961 ، حصل انقلاب عسكري في سوريا . وكان حصوله واحداً من أصعب الأزمات التي واجهتها الثورة منذ تموز/يوليو عام 1952 [2] .

أول ردة فعل لعبد الناصر كانت محاولة الحفاظ على استمرارية الوحـدة التي تحققت . ولتحقيق هذا الهدف قـرر أن يقيم استراتيجيته على الانقسامات القائمة داخل الاوساط العسكرية السورية نفسها ، والتي برزت منذ قيام العملية الانقلابية . حيث قام مجموعة من العسكريين المؤيدين للناصرية ببث جملة أنباء من راديو حلب تحث الناس على التصدي للعناصر الانفصالية وعلى الطلب إلى الجمهورية العربية المتحدة أن تتحمل مسؤولية الدفاع عن نفسها[3] .

لا شك في أن استراتيجية عبد الناصر القائمة على الافادة من وسائل الاتصال الحديث ، مثل الراديو والتلفزيون ، تدل على تأثير هيكل . فهيكل هو الذي كان يعتبر أن ثورة الاتصالات لا تقل أهمية عن الثورة الصناعية . وكان لعبد الناصر تجربة خاصة جداً ، ومهارة خاصه في الافادة من الراديو والتلفزيون كجسورٍ للتواصل المباشر مع الجماهير الشعبية . مما سمح له بتحقيق نتائج جيدة . فقد كان لإنشاء راديو صوت العرب على سبيل المثال دور حاسم في الحرب الاعلامية ضد حلف بغداد[4] .

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص135 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، "سنوات الغليان : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص554 .

3 مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص129 .

4- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

وبما أن الوحدات العسكرية المؤيدة للجمهورية العربية المتحدة كانت تتمركز في اللاذقية ، فإن عبد الناصر قرر أن يُنزل في هذه المنطقة وحدات من المظليين . ومن هناك بدأت العمليات بعد أن توقف راديو حلب عن البث . لكن القيادة العسكرية الانقلابية نصبت بعض الفخاخ للوحدات القادمة لتمنع تقدمها . وعندها وجد عبد الناصر نفسه في وضع دقيق وحرج ، لانه كان قد اعطى أمراً للوحدات الحربية البحرية في الاسكندرية وفي بورسعيد بتدعيم القوات المتمركزة في اللاذقية[1] .

والحقيقة ، أن عبد الناصر اتخذ هذه القرارات في جوٍ من التردد والشك ، لأنه لم يكن يريد الحفاظ على جمهورية عربية متحدة ملوثة بدم المواجهـــة بين المصريين والسوريين[2] . كذلك فـإذا كـــان له ان يحقق نجـاحاً على الصعيـد العسكري فإنه سيخسر ولا شك على الصعيد السياسي . لذلك طلب من عبد الحكيم عامر ممثله في دمشق أن يعود ، معترفاً بذلك بشرعية الانفصاليين الذين لم يلبثوا أن تلقوا الاعتراف الدولي ، بدءاً بالأردن ومن ثم الاتحاد السوفييتي .

هنا لا بد من التوقف قليلاً عند الموقف الدبلوماسي للأردن وللاتحاد السوفييتي ، ليس إزاء سوريا بل إزاء مصر . فإذا كان من السهل أن نفهم أسباب موقف النظام الأردني إزاء جارته سوريا ، التي تهدد إستقراره السياسي ، وتجسد نمطاً بعثياً وحدوياً ثورياً إلى حدٍ ما ، فإنه من الصعب أن نفهم الموقف الدبلوماسي للأتحاد السوفييتي .

والحقيقة انه بالرغم من الدعم السياسي الذي قدمه العملاق الشيوعي لعبد الناصر في أزمة السويس عام 1956 ، وبالرغم من الدعم الاقتصادي لبناء سد أسوان وأيضاً الدعم العسكري المتمثل في صفقات الاسلحة الكثيفة ، كذلك بالرغم من هجوم عبد الناصر المتكرر ضد كل ما يهدد الاتحاد السوفييتي " حلف بغداد ثم الحلف الاسلامي منذ 1955 " ، عدا عن جهود عبد الناصر لإدخال الاتحاد السوفييتي إلى ساحة الشرق الاوسط بفضل صفقات التسلح ، بالرغم من كل هذا نلاحظ أن العلاقات بين البلدين كانت تمر بأزمات دورية .

وليس سبب هذه الأزمة الحالية رفض السوفييت الوحدة بين مصر وسوريا ، بل عدم

1- هيكل ، محمد حسنين ، " سنوات الغليان :حرب الثلاثين سنة" ، مرجع سابق ، ص 571 .

2- المرجع نفسه .

الاتفاق على أنماط وإجراءات تشكيل هذه الوحدة ، التي ادت الى حظر الحزب الشيوعي المصري والسوري وسجن وتعذيب أعضائهما . وهذا ما دفع خروتشوف إلى انتقاد عبد الناصر بقوة مما حدا الأخير للرد عليه في دمشق عام 1961 . وقد عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي بين الرجلين خلال انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك عام 1962 .

وفي تحليل لأسباب فشل الوحدة السورية المصرية يقول علي صبري (رئيس وزراء عبد الناصر من 1965-1966) :

" لا شك في أن السوريين ، الذين أرادوا الوحدة قبل ثلاث سنوات ، لم يتراجعوا عنها بدون أسبابٍ جادة . فالأوامر التي كان يعطيها ممثلو عبد الناصر ، كان يتم تحملها في البداية بصمت ثم بتعب وأخيراً بنفاد صبر ، أما على المستوى الاقتصادي فإن سوريا التي انتظرت الحد الأقصى من الدعم المصري ، لم تشهد إلا انهيار أحلامها ، مما استتبع صدمة نفسية جرحت بشكل خاص البورجوازية الصغرى والعليا المدنية . ثم جاءت قوانين التأميم عام 1961 لتكمل ما تبقى . والواقع أن البورجوازية التجارية في دمشق وفي حلب قد تأثرت كثيراً"[1] .

ويعتقد الكاتب بهجت كوراني ، الذي ساهم في تحرير كتاب جماعي بعنوان ***الأنظمة السياسية العربية*** ، بأن سبب الفشل كان ضيق الفترة التي تم فيها التفكير في الوحدة والتحضير لها . ويقول :

" إذا كان حلم الوحدة بين مصر وسوريا حلماً قديماً ، فإن ترجمته الى برنامج عملٍ في الواقع الملموس عام 1958 قد حصل في يومٍ واحد "[2] .

يقبل كتابٌ كثيرون هذا التحليل الذي يرمي الجزء الأكبر من مسؤولية فشل الوحدة على عاتق النظام الناصري نفسه ، أما هيكل فانه يحلل الأمر من منظورٍ آخر . فهو يكتب ، تعليقاً على هذا الحدث "بأنه لم يكن لعبد الناصر أن يفاجأ بما حصل في دمشق ، لأن كل المؤشرات كانت تدل على أن قوى معادية تعمل داخل وخارج المنطقة لتدمير الجمهورية العربية المتحدة .R.A.U ، مُركزة جهودها على عاصمة الأمويين . ويضيف بأن الأجهزة السرية الامريكية هي التي حضرت وساعدت العملية الانفصالية ، لأنها لم تكن تريد

1- Sabri, Ali, *op. cit.*, p. 97.

2- Flory, Maurice, *op. cit.*, p. 164.

للوحدة العربية أن ترى النور .

ورغم ذلك ، يعترف هيكل ، ببعض أخطاء التقدير التي ارتكبها عبد الناصر ونظامه .

ففيما يخص عبد الناصر ، يعرض هيكل ثلاثة أسباب رئيسية :

1- لقد شكل الجمهورية العربية المتحدة دون أن يأخذ بعين الاعتبار وضع سوريا التي كانت تضم عناصر إشكالية ومتناقضة . وقد ظلت هذه العناصر فاعلة بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة .

2- أن الوسائل المتاحة كانت غير كافيه لتحقق آمالاً لا حدود لها . خاصة أن الجهاز البيروقراطي الحكومي والعسكري الذي أُنشيء لبلوغ اهداف الوحدة ، لم يكن مهيئاً بشكل جيد .

3- كما أن الضباط الذين كانوا يحيطون بعبد الحكيم عامر لم يكونوا على مستوى المهمات الموكل اليهم تحقيقها . لقد كان عبد الناصر يستند وبطريقة ميتافيزيقية على مشاعر الشعب ورغبته في التغيير ، ناسياً انه مهما كانت إرادة الشعب ومشاعره ، فإنها لا تستطيع شيئاً أمام قوة السلاح"[1] .

أما فيما يخص نظام عبد الناصر ، فيقول هيكل :

1- لقد اعتبر حزب البعث نفسه شريكاً مبادراً وحاسماً في انشاء الوحدة . وقد كان هذا صحيحاً من الناحية النظرية ، أما من ناحية التطبيق فإن الظروف التي قامت بها الوحدة كانت تدل بقوة وحتمية على أن البعث السوري لم يكن قادراً على إدارة تطورات الأحداث في سوريا .

2- لقد بنى الكثير من الضباط والأحزاب آمالاً وطموحات على مشروع الوحدة . لكنهم اكتشفوا بعد تحقيقها بأنهم لم يعودوا يمتلكون السلطة التي كانت لهم في السابق ولم يأتِ ما يعوضهم عن ذلك .

3- إن الضغوطات والمؤامرات التي وسمت الوضع السوري بين 1955-1958 قد خلقت وضعاً غير مستقر في البلاد . مما نتج عنه أن الأجهزة المسؤولة عن الأمن ، خاصة

1- هيكل ، محمد حسنين ، "سنوات الغليان : حرب الثلاثين سنة " ، مصدر سابق ، ص 555 وما يليها .

الاستخبارات والمكتب الثاني ، قد بسطت سلطتها ، بحجة ، تأمين استقرار سوريا . لكن نشاط هذه الاجهزة ، الذي لم يتوقف بعد إقامة الجمهورية العربية المتحدة ، لم يكن مناسباً مع متطلبات الواقع الجديد .

4- إن نقل مقر الحكم والسلطة إلى القاهرة قد خلق فراغــاً في دمشق وهو ما لـم تكن هذه المدينة معتادة عليه . وكان من نتائجه نوع من الاحباط الذي أصاب الاحساس القومي والسوري .

5- كان بين صديقي عبد الناصر ، عبد الحميد السراج الرجل القوي والموثوق به من قبل عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر الصديق والممثل الشخصي للرئيس في سوريا ، خلافات تعود إلى فوارق في الشخصية وفي تقييم الأمور ، لا علاقة لها بالأدوار والواجبات التي كان عليهما أن يقوما بها[1] .

ودون أدنى شك فإن نتائج الانفصال كانت هامة جداً بالنسبة لكل العالم العربي . يعدد هيكل أهم هذه النتائج والمتمثلة بما يلي : إنهيار أمكانية تطويق إسرائيل ، والخوف من الإشتراكية ، ووقف إنتشار الحركات القومية العربية ، واهتزاز فكرة الوحدة في العالم العربي نفسه[2] .

تبدو هذه التحليلات صحيحةً إلى حدٍ ما ، بدليل فشل محاولات الوحدة التي تمت فيما بعد . ونورد منها على سبيل المثال ، المحاولة الانقلابية الوحدوية التي قام بها الحزب السوري – القومي في لبنان في 30 - 31 كانون الأول/ديسمبر 1961 . ومحاولات الوحدة مع العراق عام 1964 - 1965 التي كان مصيرها الفشل هي الأخرى .

وفي الوقت الذي اتضح فيه أن إدارة محاولة الوحدة بين مصر وسوريا كانت أصعب من المتوقع ، ظهر ، مع أزمة اليمن تحدٍ جديد لنظام عبد الناصر ودور جديد لهيكل . ففي يوم 26 ايلول/سبتمبر عام 1962 شهدت اليمن عملية انقلابية عسكرية ضد النظام الملكي ، وتدخلت القوات المصرية لدعم العقيد عبد الله السلال قائد الثورة ضد الإمام البدر ومؤيديه .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "سنوات الغليان : حرب الثلاثين سنة " ، مصدر سابق ، ص 556 وما يليها .

2- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص 132 .

4- حرب اليمن : " واجبٌ قومي "

لقد شكلت حرب اليمن حدثاً حاسماً في التاريخ السياسي المصري . وفي تطور العلاقات السياسية داخل العالم العربي ، وفي تكوين استراتيجية متناغمة داخل كتلة دول الجزيرة العربية . وقد وجهت هذه الحرب ضربةً كبرى للاقتصاد المصري ، لكنها فتحت آفاق من التحرر والاستقلال لمعظم دول الخليج العربي .

كان محمد حسنين هيكل أحد مهندسي السياسية التي قادت ورافقت ، وتبعت حرب اليمن . ولذلك سنحاول فيما يلي أن نفهم من خلاله ، المناخ الذي ميز هذه الحرب ، دون أن ننسى مع ذلك ، العودة إلى شهاداتِ آخرين كان لهم دورٌ في تحضير هذه الحرب وفي متابعتها ، أو الذين حللوا ظروفها ونتائجها .

ففي 27 ايلول/سبتمبر عام 1962 ، وبينما كانت العملية الانقلابية تتم في اليمن ، وجدت مصر نفسها أمام خيارين كلاهما صعب :

- إما ترك الثورة اليمنية تُسحق على يدِ خصومها .
- وإما مساعدتها .

كان الخيار الثاني خطيراً خاصة في سياق الحالة السياسية القائمة في تلك المرحلة . والواقع أن بعض الدول العربية المحافظة كانت تبذل كل قواها لبناء دعاية حقيقية ضد عبد الناصر ، وضد مفهوم الوحدة العربية ، وضد الحركة الثورية . وقد بلغت هذه الدعاية قمتها خلال مؤتمر شتورا [1] ، بينما كان عبد الناصر أيضاً يمرّ بأزمة في علاقاته مع الاتحاد السوفييتي والاحزاب الشيوعية العربية[2] .

لقد كانت الحركة العربية الثورية الناصرية ، إذن ، تعيش حالة حصار وتتخذ وضعاً دفاعياً ، خاصة بعد الانفصال السوري المصري . ولذا كان التدخل العسكري في اليمن تجسيداً لهذه الحالة الدفاعية[3] .

داخل النظام الناصري ، طُرح مقترحانِ مختلفان لمواجهة القضية اليمنية : الأول جاء من

1- في 15 آب/اغسطس عام 1962 اجتمع أعضاء من المملكة العربية السعودية ، سوريا ، الاردن ، العراق ، ولبنان في شتورا ، لعزل مصر ومهاجمتها . انظر : El - Sadate Anouar, (1978), *op. cit.* p., 236

2- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص138 .

3- المرجع نفسه ، ص140 .

هيكل ، والثاني جاء من أنور السادات :

الاقتراح الأول : يقوم على مساعدة مادية بحتة دون تدخل عسكري مباشر .

ويعكس هذا الموقف عمق حسه الاستراتيجي بمصالح مصر الحقيقية ؛ فعندما كان يقف مؤيداً للوحدة السورية المصرية ، كان يعرف بان هذه الوحدة ستسمحُ بتشكيل كتلة قوية يمكنها التصدي بفاعلية للهيمنة الاسرائيلية ، وتقوي موقف مصر بجعلها دولة المحور في تشكيل الوحدة العربية ، مما يعني وجود مصالح مشتركة للسوريين والمصريين والعرب بشكلٍ عام .

أماً بالنسبة لليمن فصحيح أنهُ بلدٌ عربي ، لكن هيكل يعرف أنهُ ما زال يعيشُ في بُنى تعود للقرون الوسطى . إضافةً إلى أن لا شيء يجبر مصر على الغرق في هذا المستنقع الذي لا تعرف مستقره . وعلى أية حال فهو يبرر ذلك في أحد كتبه قائلاً :

" كنت أعتقدُ في حينه أن وضع الثورة اليمنية لا يتحمل وجود ثقل مسلح . كنت أعتقد أن كل محاولة تطوير تفترض بنى تحتية أساسية (خطاب اشتراكي معتدل وواقعي) وذلك ما لم يكن موجوداً في اليمن . اشرت على عبد الناصر بقراءة رسالة ماجستير للسيد مصطفى سالم : ***تشكّل اليمن الحديث*** إذ أن هذه الرسالة كانت تتناول القضية اليمنية وعمليات الجيش التركي في اليمن . وقد أشار الرئيس فيما بعد إلى رأيي هذا وإلى إقتراحاتي خلال اجتماعٍ لمجلس الوزراء "[1] .

ورغم التأثير المعروفٍ والمعتاد لهيكل على قرارات عبد الناصر ، فإن هذا الاخير رفض رأيه ، إذ رأى فيه خطورة إظهار مصر بمظهر دولة ضعيفة (نظرية الصورة والهيبة في السياسية الخارجية) . كما رأى أنه يناقض تطلعات الشعب اليمني الذي يحاول الخروج من القرون الوسطى التي يعيش فيها بسبب نظام الامام البدر .

عندها قدم هيكل لعبد الناصر اقتراحاً جديداً مبنياً على خبرته الطويلة كصحفي . ويقضي هذا الاقتراح بِإرسال متطوعين عرب للقتال إلى جانب المتطوعين اليمنيين على غرار ما حصل في الحرب الأهلية الأسبانية عام 1936 . لكن هيكل نفسهُ يعود ويعترف بعد

1- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر " ، مصدر سابق ، ص 56 وما يليها .

فترة : " إن الاحداث قد برهنت أن رؤيتي تلك كانت رومانسية جداً إزاء الواقع العربي في تلك المرحلة"[1] .

ورغم هذا التأكيد يكشف لنا التحليل الثاني على أن هيكل رجل استراتيجي وصاحب خبرة سياسية كبيرة ، فهو بدعوته عبد الناصر إلى ارسال متطوعين عرب فقط ، إنما يحاول تحقيق هدفين ، (حتى ولو أنه استوحاهما من تجربة الحرب الإسبانية) :

أولاً : إذا نجحت الثورة اليمنية تبدو مصر الدولة التي حشدت المتطوعين العرب لتحقيق هذا النصر .

ثانياً : إذا فشلت الثورة اليمنية تبدو مصر أكثر حيادية ، وغير متورطة في الصراع بشكل مباشر ورسمي . وفي صيغتي السيناريو هذه لا تخسرُ مصر شيئاً بل تكون منتصرة في الحالتين .

أما الاقتراح الآخر ، ذو الطبيعة الاخرى ، جاء من أنور السادات صديق عبد الناصر وخليفته . وكان يطرح فكرة التدخل العسكري المصري إلى جانب الجمهوريين اليمنيين . ويقول السادات نفسه إن هدفه من ذلك كان : " تلقين درس للملك سعود الذي قاد الحملة الموجهة ضد بلادنا خلال الوحدة السورية المصرية"[2] .

يعكس موقف السادات في الواقع بنية العقلية السياسية العربية ، القائمة على الصراعات الشخصية بين الحكام ، فمن جهة تجدهم يدعون بحماس إلى بناء علاقات أخوية بين دولهم والى بناء الوحدة العربية ، ومن جهة أخرى ، فإن هذه الشعارات اللفظية لا تفضي إلى أي ترجمةٍ ملموسة على أرض الواقع .

فعلى سبيل المثال قام الملك سعود بنفسه ، حسب هيكل ، بعرضِ مبلغ قيمته مليون دولار على عبد الحميد السراج ، وزير الداخلية القوي في حكومة الوحدة ، لاغتيال عبد الناصر خلال القائه خطابه في دمشق[3] . كذلك أعلن عبد الناصر على لسان رئيس مجلس

1- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر " ، مصدر سابق ، ص57 .
2- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 236.
3- Heikal, M. H, *les Documents du Caire, op.cit.*, P. 126.

نوابه أنور السادات ، التدخل العسكري في اليمن ، وهو قرار يعكس في الواقع رد فعل على الملك ابن سعود نفسه .

ورغم صعوبة اختيار حل مناسب ، اختار عبد الناصر بعد ثلاثة أيامٍ من المناقشات المكثفة ، استراتيجية التدخل المباشر . فقد وجد أن عملية ضرب الثورة اليمنيّة تعطي الملك سعود فرصةً لتحقيق انتصارٍ جديد بعد الانتصار المتمثل في العملية الانفصالية السورية . ولم يكن عبد الناصر مستعداً لاعطائه هذه الفرصة ، لذلك قرر التدخل[1] .

وبدأت مصر تدخلها بإعلان الاعتراف بالجمهورية اليمنية ، وذلك يوم 21 تشرين الأول/ أكتوبر عـام 1962 . ومن ثم ، وقعـت هـذه الجمهوريـة معاهـدة دفـاع مشتـرك مع مصر لمدة 5 سنوات . كما تلقت مساعداتٍ مالية وبضع عشرات الآلاف من الجنود المصريين (40 ألف على حدّ قول عبد الناصر في خطابه في بورسعيد يوم 23 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1963) . لكن حرب اليمن تركت أعباءً ثقيلة على شعب مصر واقتصادها .

ولتبرير هذه العملية المصرية ، أو بالاحرى ، لتقديم البرهان على أن عبد الناصر قد فعل ما كان يتوجب فعله ، يقول هيكل :

" لم يكد العالم يتنفس ، بعد أزمة الصواريخ الكوبية ، حتى فوجىء بوضع جديد في جنوبي الجزيرة العربية . وكان هذا الوضع الجديد يحملُ علاماتٍ مبشرة بتغيرات محتملة في موازيين القوى في الشرق الاوسط . بعدها بدأ العالم يدرس هذا الوضع بكثير من الجدية عندما بدا أن القوات المصرية قد عبرت البحر الأحمر في طريقها إلى اليمن " [2] . وهنا ثمة معانٍ يحملها هذا كله برأي هيكل :

1- أن القوات المصرية استطاعت أن تسيطر بسرعة على وسائل الاتصال الممتدة الى الفي كيلومتر شمالي البحر الأحمر .

2- وبفضل هذا بدأت مصر تمسك بيدها مداخل البحر الأحمر عند نقاط التقائه بالبحر

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص140 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " سنوات الغليان : حرب الثلاثين سنة " ، مصدر سابق ، ص618 .

المتوسط على مستوى قناة السويس ، كما بدأت تسيطر على منافذه على المحيط الهندي .

3- أصبح الوجود المصري واضحاً في منطقة الجزيرة العربية ، وعلى مقربة من المناطق النفطية الأكثر أهمية .

4- برهنت العملية العسكرية المصرية على أن الحركة القومية الثورية العربية استيقظت من جديد ، بعد فترة من السكون نتجت عن الأزمة الانفصالية السورية . لكن نشاطها اكتسب هذه المرة مظهراً عسكرياً فعلياً [1] .

هنا ، نحن أمام هيكل المحلل والمستشرف للمستقبل ، الذي يدافع عن المصالح الجيوسياسية لمصر . إنه يتحدث عن وسائل الاتصال ، وعن البحر الأحمر ، عن قناة السويس ، عن المحيط الهندي ، وعن دور القوميين العرب الثوريين . يعني هذا أن هيكل لم يكن رجلاً يكتفي بأن يعيش الحدث ويصفه ، بل إنه يضع القارىء والمسؤول على قدم المساواة ، وإشراكهما معاً في تطوراته ، وفي ظواهره الايجابية والسلبية على حدٍ سواء ، وهو يحدثهما عن السياسة ، وعن الدور السياسي لمصر وللقوى القومية العربية :

" لم يكن العالم ، يؤكد هيكل ، يتوقع ابداً هذا التدخل المفاجىء . والأكثر غرابة ، أن مصر نفسها قد فوجئت بما حصل" [2] .

لقد قاد التدخل العسكري المصري . عبد الناصر إلى مواجهة مع المملكة العربية السعودية ، التي كانت تساند الامام البدر ومؤيديه بقيادة أخيه سيف الاسلام الحسن . إضافة إلى أن صراع النفوذ في اليمن بين القوى الكبرى ساهم في إطالة مدة الحرب بين الملكيين والجمهوريين ، مسلمين زيديين وشافعيين ، قبليين وسكان المدن" [3] .

وكانت القوى الكبرى متورطة في هذه الخلافات : إنكلترا ، والولايات المتحدة الامريكية ، وإسرائيل . إذ ان الأولى تعتبر اليمن إحدى محمياتها . بينما ترى الثانية في هذه القضية تهديداً مباشراً لمصالحها . أما الثالثة فترى في انتشار الناصرية في اليمن تهديداً جدياً لأمنها .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "سنوات الغليان : حرب الثلاثين سنة " ، مصدر سابق ، ص619 .

2- المرجع نفسه .

3- Rouleau, Eric,"*l'Equilbre précaire du Proche-Orient*", le Monde diplomatique, décembre, 1967.

ويتهم هيكل القوى العظمى بالتورط معتبراً إياها مسؤولة عن التوسع الخطير للصراع اليمني . ويؤكد بأنه لولا وجود السماسرة الأجانب المكلفين والمدفوعين الأجر لخدمة المصالح الأجنبية حيث بلغ عدد الجنود المرتزقة خمسة عشر ألفاً ، لانهار نظام الإمام البدر بسرعة[1] .

والواقع أنه بالرغم من رغبة هيكل في أن يقدم الدليل على ان القوى العظمى تتحمل مسؤولية امتداد الحرب اليمنية وتعقيد فرص الحلول السياسية ، فإنه كان يريد أيضاً أن يعطي الانطباع بأن عبد الناصر كان ضحية مؤامرة إمبريالية صهيونية .

بتعبير آخر كانت الوحدة العربية ، بحسب هيكل ، مهددة باستمرار ومـن قبل الأعداء ذاتهم (الصهيونية والإمبريالية) ، بهدف إلغاء فرص تحقيقها وتدمير زعامة عبدالناصر . وهذا الامر أدى ، في رأينا ، وعلى عكس ماكان يخطط له ، أن يعطي شرعية أكثر لمصر ولقائدها .

لقد كانت نتائج هذه الحرب ضخمة سواء على المستوى البشري أم على المستوى الاقتصادي . ففي 26 شباط/فبراير عام 1965 أعلن المشير عبد الحكيم عامر قائد القوات المسلحة المصرية أمام البرلمان المصري أن 105 ضباط و 1502 جندي مصري قد لاقوا حتفهم وأن العمليات المصرية كلّفت مصر ستة ملايين جنيه مصري ، ذهب نصفها بشكل ديون للدولة الجمهورية اليمنية ، ونصفها الآخر تكاليف حرب ، يضاف إلى ذلك تكاليف الجنود التي تساوي 15 مليون جنيه مصري[2] .

ويصف بعض الكتاب الوضع الذي وجدت مصر نفسها فيه وصفاً درامتيكياً ، فيقول برنار فيرنييه مثلاً ، الذي ألّف كتاباً عن الجمهورية العربية المتحدة :

" ازداد عدد الأسر التي ترتدي الحداد . ولم يكن النصر المنتظر ليأتي أبداً ، ثقل الأعباء المالية كان يزداد كل يوم . والأزمة الاقتصادية تتفاقم ، في وضع لـم تعرف مصرُ مثله إلاّ يوم العلمين "[3] .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد عبد الناصر" ، مصدر سابق ، ص 58 .

2- Tomich, Nada, *op. cit.*, p. 108.

3- Vernier, Bernard, *Rapport sur la R.A.U: le role xtra-militaire de l'armée dans le tiers monde*, P.U.F., 1966, p. 35.

بدوره يعترف السادات ، الذي كان يومها مسؤولاً عن الجوانب السياسية في التدخل المصري في اليمن ، بفشل مصر العسكري رغم انه يعتبر أن ظواهر إيجابية برزت على المستوى السياسي ، ويعتقد بان أحد أسباب الفشل تمثلت في أنها أرسلت إلى اليمن جيشاً نظاميا في حين كان أعداؤها يشكلون مجموعات مدربة على طريقة المليشيات[1] .

من جهته ، يتهم علي صبري ، رئيس الوزراء المصري خلال الحرب ، عبد الناصر بأنه اتّخذ قرار الحرب دون أن يستشير مجلس الشعب أو مجلس الوزراء ، وينتقد رئيس مجلس الشعب في حينه (السادات) ، لأنه أعلن في إحدى الصحف بأن الأمر "ليس أكثر من نزهة بسيطة في البحر الأحمر" . ثم يخلص إلى الاستنتاج :

" لا شك في أن الأسباب التي دفعت الرئيس عبد الناصر لاتخاذ هذا القرار الهام كانت طيبةً بشكلٍ عام . لكن ألم يقل صموئيل جونسون أن طريق الجحيم مفروشة بالنوايا الحسنة؟ وليست النوايا الحسنة كافيةً لمن يدعي بأنه رجل دولة ، كما أنها ليست عذراً . ففي السياسة يحكم على العمل الجيد بنتائجهِ ومحصلته "[2] .

إذا بدت آراء علي صبري صحيحة ، فإنها تستحق الاهتمام لعدة أسباب :

1- إذا كانت شهادة علي صبري صحيحة ، فإن ذلك يعني أن عبد الناصر كان سلطوياً في قراراته بمعنى أنها كانت قرارات شخصية وانفعالية .

2- يدل قول السادات بأن الجيش ذهب في " نزهة بسيطة" على عدم احترام الرأي العام المصري والعربي ، وعلى الحواجز التي كانت تبنى في وجه تقديم الاعلام الصادق والموضوعي عن القرارات التي يتخذها المسؤلون . وهذا ما حاول هيكل أن يغيره ، خاصة بعد نكسة 1967 .

3- إذا كان علي صبري رئيس الوزراء في حينها غير موافقٍ على القرار الذي اتُخذ ، ويعتبره شخصياً وانفعالياً ، فلماذا استمر في العمل مع نظام سلطوي كالنظام الناصري؟ لماذا لم يخرج من السلطة وقمتها إلاّ عندما طردهُ السادات منهاً بعد أن اتهمه بإدارة " مراكز القوى " عام 1971؟

1- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 237.
2- Sabri, Ali, *op. cit.*, p. 108.

ورغم أنه لا يمكن لهيكل أن يدعي بأن مصر قد حققت انتصاراً في اليمن ، إلا أنه حاول ، وهو يعترف بالجوانب السلبية للتدخل المصري ، أن يستخرج منه الجوانب الإيجابية . بالنسبة له تكمن النقاط السلبية على الصعيد السياسي فيما يلي :

1- كانت الثورة اليمنية ضعيفة ، ولذلك فإن الادارة المصرية قد حلت محلها ، مما نتج عنه وجود مصري طويل في البلاد .

2- تم التدخل في اليمن دون أن تُحدد له مهلة أو مدى . ولذلك وجدت مصر نفسها أسيرة الظروف والتطورات غير المتوقعة .

أما على الصعيد العسكري ، فيعتبر هيكل ، أن الأخطاء المصرية تنحصرُ في الضباط والجنود المعتادين على الحروب السهلة ، على قوة النار ، وعلى إستعمال السلاح غير الدقيق ، وعلى الرد البطيء . وهو يرى أن الجيش المصري قد اكتفى بحرب تقليدية في حين أن القوى المعادية استعملت شكلاً مختلفاً من أشكال المليشيات [1] .

وإذ يأخذ في اعتباره النقاط السلبية ، فإن هيكل يعتقد بالرغم من هذه الحسابات ، بأن حرب اليمن حملت الكثير من النقاط الإيجابية للعالم العربي بشكل عام ولمصر بشكلٍ خاص . وبتحديد أكثر يؤكد أن ما حصّلهُ عبد الناصر على هذا المستوى يشابه ما فعله نابليون . إذ أن هذا الاخير قد دمر المماليك وفتح آفاق العلم أمام المصريين ، كذلك فإن عبد الناصر قد أجبر الاستعمار البريطاني على الخروج من شبه الجزيرة العربية ، وجنوب الخليج ، كما أن هذه الظروف الجديدة أجبرت الملك سعود على التخلي عن العرش للملك فيصل الذي قام بتحديث الدولة وكان أول حاكمٍ من جيل الأمراء الذين رغبوا في أن يكونوا دائماً على اطلاع بالعلوم ، والتقنيات وكل ما هو حديث في العالم[2] .

إن المقارنة التي أقامها هيكل بين دور عبد الناصر في اليمن ودور نابليون في مصر تستدعي برأينا ملاحظتين :

أولاً : اعطاء عبد الناصر شرعية التدخل في اليمن ، وتركيز شهرته لصالحه كزعيم

1- مطر ، فؤاد ، مصدر سابق ، ص141 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مصدر سابق ، ص58 .

لأكبر دولة عربية وكمطبق لنظرية الوحدة العربية . وهكذا يصبح ما فعله عبد الناصر واجباً ، ودوراً قومياً ، بما فيه إزالة " الأنظمة الرجعية والقبلية" كما كان يرى آنذاك .

ثانياً : إن إختيار نابليون كصورة نموذجية يدل على تأثر هيكل بالثورة الفرنسية وبالنظام السياسي الفرنسي وهذا ما نلاحظه من بداية الثورة ، مع كتابه ***فلسفة الثورة*** الذي كتبهُ باسم عبد الناصر . حيث يكشف هذا الكتاب عن مظاهر تشابه بين الثورة الفرنسية والثورة المصرية[1] .

نقطة إيجابية أخرى ، بحسب هيكل ، تتمثل في أن حرب اليمن أعطت نوعاً من الاستقلال لجنوب العالم العربي وسمحت بتحديد وعي إستراتيجي عربي فيه . كما يرى بأن حرب اليمن قد غيرت سلوك الدول الأجنبية إزاء المصادر البترولية [2] .

ويمكن إيضاح رأي هيكل ، بكون السياسة النفطية العربية قد تحولت ، لتصبح ورقة سياسية اساسية بأيدي الزعماء العرب ، كما بدا جلياً للعالم كله في حرب عام 1973 ، حيث كان دعم الدول النفطية العربية لمصر حاسماً . وذلك ما أطلق عليه أستاذ العلوم السياسية بهجت كوراني مصطلح "صعود النفط السياسي" [3] .

لجميع هذه الأسباب ولهذه النتائج الإيجابية يقول هيكل ، قررت القوى الغربية والاسرائيلية ، أخيراً ، أن تهاجم الثورة المصرية والتجربة الناصرية .حيث تجلى هذا الموقف العدائي للغرب بشكل واضح عام 1967 .

1- Emad, Awad, "*l'Impacte et l'influence de la révolution française sur l'Egypte*", Défense Nationale, Paris, 1989, p. 15.

2- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مصدر سابق ، ص58 .

3- Flory, Maurice, *op. cit.*, p. 173.

5- هيكل وحرب حزيران (1967)

قلبت حرب حزيران عام 1967 الخارطة السياسية في الشرق الأوسط ، ولذا أطلق عليها وصف " النكسة " . ولا شك في أن القاء الضوء على عمل هيكل وتحليله لهذه الظاهرة العسكرية والسياسية ، سيمكننا من استخلاص الابعاد الحقيقية والجوهرية لهذه الحرب بمحاولة الإجابة عن بعض التساؤلات :

- هل أراد عبد الناصر الحرب؟
- هل كانت استقالة عبد الناصر فعلاً صادقة أم مناورة سياسية ؟
- كيف كان هيكل وعبد الناصر يريان اشكالية الحرب والسلام .

هذه الأسئلة الجوهرية التي سنحاول الاجابة عنها بتحليل كتابات وتصريحات هيكل ، وأولئك الذين عايشوا هذا الحدث المهم وعلقوا عليه .

أ- الحرب الخاطفة

كان تاريخ 5 حزيران/يونيو عام 1967 ، وسيكون ، بالنسبة للعرب (مصريين ، وسوريين ، وأردنيين ، بشكل خاص) تاريخ الكارثة الأكبر في تاريخهم المعاصر ، إذ إنه بداية ونهاية الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة ، الحرب التي خرجت منها إسرائيل بانتصار عسكري ساحق . حرب الأيام الستة هذه من 5 إلى 11 حزيران/يونيو عام 1967 ، غيرت موازين القوى في الشرق الأوسط وفجرت صراعات كبرى بين المثقفين العرب من كل الاتجاهات ، صراعات نتجت عن تحديد المسؤولية المتبادلة للحكام العرب ، أكثر مما نتجت عن استخراج العبر الواقعية والبناءة للمستقبل .

بدأت الحرب في الساعة الثامنة من صباح يوم الإثنين الموافق 5 حزيران/يونيو عام 1967 ، بهجوم جوي مفاجىء نفذه الطيران الاسرائيلي بهدف تدمير الطيران العسكري المصري على أرضه ، وبقصف كثيف لمدرجات الاقلاع . وخلال أقل من ثلاث ساعات ونصف [1] ، تم تدمير

1- هيكل ، محمد حسنين ، "الانفجار 1967 : حرب الثلاثين" ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1990 ، ط1 ، ص710 .

306 من بين 419 طائرة مصرية وتعطيل المدرجات[1] ، مما يعني شل قُدرة مصر الحربية ، وإجبارها على قبول وقف إطلاق النار الذي فرضته الأمم المتحدة في 11 حزيران/يونيو عام 1967 ، اي بعد ستة أيام من القتال .

وخلال هذه الأيام الستة . احتلت إسرائيل أراضي عربية تعادل مساحتها أربعة أضعاف مساحة إسرائيل : سيناء ، ومرتفعات الجولان ، قطاع غزة ، والضفة الغربية ، أي ما يعادل 88000 كيلو متر مربع ، وتسيطر على سكان يزيد عددهم عن مليون شخص[2] .

ويرى هيكل أن سبب هذه الهزيمة يكمن في عمليتي حساب خاطئتين ارتكبهما عبد عبد الناصر وهما : إغلاق خليج العقبة وتعيين عبد الحكيم عامر (أحد الضباط الأحرار والصديق المقرب لعبد الناصر) قائداً عاماً للجيش المصري[3] .

وبالنظر إلى السرعة التي تمكن فيها سلاح الجو الاسرائيلي من تدمير 306 طائرة وتعطيل مدرجات المطارات المصرية ، يكون لنا الحق في التساؤل ما إذا كان عبد الناصر ، بالرغم من التحذيرات المتعددة التي وجهت لمسؤولي الجيش للتهيؤ لهجوم إسرائيلي ، يعتقد حقاً ، أو حتى يتخيل ، بأن هذا الهجوم سيحصل ، وإلا كيف يمكن تفسير النتائج الهائلة التي حققها الجيش الاسرائيلي دون مقاومة مصرية كبيرة تذكر ؟

حاول هيكل أن يفسر الأسباب العسكرية للهزيمة العربية ، معتبراً أن هناك عدة نقاط تستحق التوقف :

1- لقد فقدت القيادة المصرية هدوء أعصابها وتوازنها منذ اللحظة الأولى . إذ ان ذلك هو هدف الحرب الخاطفة Blitzkrieg التي وضع نظريتها الاستراتيجي ليدل هارت وطبقها الجنرالات الألمان :جوريان مانشتاين ، وروميل خلال الحرب العالمية الثانية .

2- أصبح الجيش المصري هدفاً دون حماية في الصحراء الواسعة ، بعد أن فقد غطاءه الجوي ، وأصبحت السيطرة الكاملة على الفضاء ، للجيش الإسرائيلي .

1- Dayan, Moshé, *histoire de ma vie*, Fayard, Paris, 1976, p. 327.

2- Senarclens, Pierre (De), " *la politique Israélienne dans les territoires occupés*", politique étrangère, l'Institut Français des Rélations Internationales, n44 ,Paris, 1979, p. 191-192

3- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص133 .

في هذه الظروف ، يتابع هيكل "أدّى الضعف العسكري المصري إلى مجزرةٍ كبيرةٍ ، وذاك ما دفع عبد الحكيم عامر إلى قرار الانسحاب يوم 6 حزيران/يونيو كنتيجة منطقية للهزيمة التي مُني به جيشهُ"[1] .

ويعترض بعض الكتاب والسياسيين المصريين على فكرة هيكل القائلة بأن عامر هو الذي اتخذ قرار الانسحاب من سيناء . فيكتب حسن التهامي وهو أحد الضباط الأحرار ، في صحيفة الأهرام عام 1977 (في ظل حكم السادات) : " لقد اعترف عبد الناصر نفسه بأنه هو الذي أمر بالانسحاب من غرب القنال"[2] .

وأيّاً يكن تقاسم المسؤولية على هذا الصعيد ، فإن قرار الانسحاب كان ذا نتائج قاسية : إذ ان عدد القتلى في الجانب المصري بلغ 294 شخصاً في اليوم الأول ، في حين ارتفعت القائمة بعد اتخاذ القرار وتنفيذه في 8 حزيران/يونيو إلى 6811 قتيلاً[3] .

واضافة الى ذلك ، حوصر الجيش المصري يوم 7 حزيران/يونيو عام 1967 بين قناة السويس ، كحاجز طبيعي ، وبين صحراء سيناء ، دون الانتباه إلى أنه أصبح رهينة بيد الطيران الاسرائيلي والجيش الاسرائيلي على الأرض .

وبالرغم من الآراء المتناقضة حول الدور الحقيقي لعبد الناصر في اتخاذ قرار الانسحاب ، فإن سؤالاً آخر يطرح نفسه : لماذا لم يدر عبد الناصر بنفسه العمليات العسكرية عندما أحس بأن قيادة الجيش في مأزق وقد ضلت طريقها ؟

قضية أخرى طرحتها هذه الحرب وهي معرفة ما إذا كانت هناك مؤامرة وراء الهجوم الاسرائيلي المفاجىء . فالواقع أنه بالرغم من كل التحليلات التي كانت تتوقع حصول هجومٍ إسرائيلي ، لم يكن الجيش المصري مهيئاً للقتال .

وكان هيكل نفسهُ ، بصفته رئيساً لتحرير صحيفة الاهرام ، قد نبه منذ عام 1963 ، النظام المصري إلى مخاطر حرب خاطفة ، فيقول في أحد مقالاته :

" الأرجح أن اسرائيل ستطلق سلاحها الجوي في هجوم خاطف ضد سلاح الجو

1- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص712 .
2- الأهرام ، القاهرة ، 5 آب 1977 .
3- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص712 .

المصري ، وأن تشكيلاتها الجوية لن تترك سماء مصر إلا بعد تدمير كل شيء"[1] .

الحقيقة ، أننا ما ان نتصفح الكتابات التي تنقل وجهة نظر هيكل حول الحرب قبل عام 1967 ، حتى نشعر ، لا محالة ، بأننا أمام عسكري وخبير استراتيجي ، أمام رجل يوضح طروحاته ويدافع عنها بل ويصل إلى مرحلة التنبؤ . فيعطي رأيه في التسليح المستقبلي ، مركزاً على دور الطيران للعب دور كبير في الحروب الحديثة . وبهذا الخصوص لا بد من ذكرِ ملاحظة أخرى ، وهي أنه بالرغم من قربهِ من عبد الناصر فإنه - يبدو لنا - أنه لم يستطيع أن يُسمع رأيه ، أو بالأحرى ، أن عبد الناصر لم يستمع جدياً إلى رأيه على المستوى التطبيقي .

وفي مقال آخر صدر عام 1965 يقول هيكل منبهاً من خطر هجوم اسرائيلي مفاجىء فيقول :

" دون أن نناقش الأسرار العسكرية . ودون أن نقترب من المناطق المحرمة ، لا بد من القول بأن الطيران العسكري الاسرائيلي وصواريخه ، قد يلعبان دوراً حاسماً في عملية مفاجئة"[2] . ثم يضيف "أن الظروف تفترض منذ الآن بسط الآلة العسكرية المصرية بحيث تكون قادرة على مواجهة كل هجوم مفاجىء بكفاءة كاملة"[3] .

والحقيقة أن هذا الهم لم يكن حاضراً لدى هيكل فقط بل لدى عبد الناصر ايضاً . إذ يؤكد أنور السادات على أن الهم الذي كان يشغل عبد الناصر هو التأكد من نتائج هجوم اسرائيلي محتمل على الطيران المصري . لكن قائد سلاح الجو صدقي محمود طمأنه قائلاً بأن الخسائر المصرية لن تتجاوز في هذه الحال 10٪.[4] .

يدلنا توقع قائد سلاح الجو ، والذي يقوم على أن مصر لن تخسر إلا 10٪ في حال هجوم اسرائيلي بوضوح - خـاصة بعدما ثبت عكس ذلك تماماً على أرض الواقع - على ضعف تحليل القيادة العسكرية المصرية وجهلها بالقدرات الحقيقية لإسرائيل . كما تكشف

1- الأهرام ، القاهرة ، 26 نيسان 1963 .انظر ايضاً : هيكل ، محمد حسنين ، "وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص68 .

2- الأهرام ، القاهرة ، 15 تشرين الأول 1965 .

3- المرجع نفسه .

4- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 253.

عن تطبيقٍ سيّىء لنظرية الحرب ، التي تفقد جزءاً كبيراً من أسسها بدون معلوماتٍ موضوعيه ، أو بدون معرفة واقع قدرات العدو التي من شأنها أن تسبب هزيمة كاسحة .

وهذا ما يقودنا إلى طرح تساؤلات ضرورية حول مفهوم دور أجهزة الاستخبارات والتجسس ، ليس فقط في السياسة الدولية ، بل وفي مجال السياسة العسكرية أيضاً .

على كل حال ، يحدد السادات هذا الهم لدى عبد الناصر أكثر إذ يقول :

" يوم الجمعة 2 حزيران/يونيو عام 1967 وافق عبد الناصر بصفته رئيساً للجمهورية وقائداً أعلى للقوات المسلحة ، على خطة حرب محتملة . وفي اليوم ذاته أعلن عبد الناصر أن اسرائيل قد تهاجمنا يوم 3 ، أو يوم 4 أو في اقصى حد يوم 5 حزيران/يونيو 1967 "[1] .

لكن تحذيرات عبد الناصر ظلت نظرية ، وبحسب الكاتب الناصري عبد الله إمام ، فقد كانت هناك ثلاثة إنذارات كان على المؤسسة العسكرية المصرية أن تأخذها بعين الاعتبار ولكنها للأسف لم تبدِ أي اهتمام بها :

الأول : أن اسرائيل قد بدأت هجومها عام 1967 بتغير مواقع قواتها البرية على الحدود المصرية وليس بهجوم جوي كما يُقال عادة . ففي الساعة السابعة وخمسة عشر دقيقة من يوم 5حزيران/يونيو عام 1967 بدأ الهجوم البري دون أن تعيره المؤسسة العسكرية المصرية الاهتمام المناسب .

الثاني : ويتشكل من مجموع المعلومات الواردة من العريش ، والتي أشارت الى تجمّع للوحدات المعادية ، وبأن اضواءً قد شوهدت وضجيج عربات قد سُمع مما يعني تحضيرات للهجوم . هذه المعلومات أرسلت إلى وزارة الدفاع في الساعة الرابعة صباحاً من يوم 5 حزيران/يونيو 1967 ، دون أن تأخذها القيادة العسكرية بعين الاعتبار .

الثالث : هو إنذار عجلون (مدينة أردنية) ، وهو إنذار أرسله عبد المنعم رياض ، القائد العام لقوات التحالف المصري الأردني التي شكلت بمقتضى اتفاق 3 حزيران/يونيو عام 1967 . وقد أشار هذا الانذار إلى أن شاشات الرادارات الأردنية قد لاحظت إقلاع

1- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 253.

طائرات اسرائيلية بعددٍ كبير . هذه المعلومات إيضاً لـم تؤخذ على محمل الجد لأن الضابط المكلف باستقبال الشيفرة لم يستطع فهمها بسبب جهلهِ [1] .

مـجـمـوع هـذه الآراء والـطـروحـات ، يـدل بـوضـوح عـلـى أن عـبـد الـنـاصـر وبـعـض العناصرالمحيطة به ، خاصةً هيكل ، كانوا يعون خطورة الوضع ، ومع ذلك ، فإن القيادة المصرية لم تبدِ ردة فعلٍ فعالة إزاء الهجوم الاسرائيلي المفاجيء .

إن قضية وجود خيانة داخل الجيش أو الحكومة المصريه هي قضية لم يتناولها هيكل إطلاقاً ، ونحن لا نمتلك أي عنصر يسمح لنا بطرح افتراضات بهذا الخصوص . إلاّ أنه وخلال لقائنا مع هيكل ، طرحنا عليه سؤالاً حول إذا ما كان يعتقد بوجود تواطؤ داخلي – سواء على المستوى السياسي أو العسكري مع اسرائيل– . فكان جوابه سلبياً ، بطريقة واضحة وقاطعة[2] . مما يعطينا الانطباع بأن المشكلة كانت في صفوف الجيش ، وفي عدم قدرته على تجميع المعلومات وتحليلها بطريقة دقيقة وموضوعية .

وعلى كل حال ، فلقد كانت هذه الهزيمة العربية إزاء اسرائيل فرصة لكل خصوم ومؤيدي القومية العربية ، لقياس نتائج هذه الحرب ، كل بحسب تحليلاته وبحسب مرجعياته الايديولوجية .

هكـذا مثلاً نجد الكاتب العراقي عزيز السيد جاسم قد رأى في هذه الهزيمة " النتيجة الطبيعية لنظامٍ ديكتاتوري ، كان يُعين المقربين الموثوق بهم من العسكريين في المناصب العليا في المؤسسات السياسية والعسكرية على حساب الأشخاص الكفوئين"[3] .

في ذات السياق ، يلقي المرشد العام للأخوان المسلمين عمر التلمساني ، بكـل المسـؤولية علـى عـاتق عبد النـاصر ، الذي كان ، بحسب تعبيره ، صاحب قرار الانسحاب ، وبالتالي المسؤول عن الكارثة العربية . وبرأي التلمساني ، أن إلحاد عبدالناصر دفعه إلى الارتباط بالسوفييت ، على حساب مصلحة مصر [4] . ويبدو هذا الموقف الأيديولوجي جاهلاً كلياً

1- إمام ، عبد الله ، " عبد الناصر والحملة الظالمة " ، دون ذكر لدار النشر ، القاهرة ، 1986 ، ص 137-138 .
2- حوار شخصي مع هيكل ، 9 آب 1994 ، الاسكندرية .
3- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص21 .
4- التلمساني ، عمر ، مصدر سابق ، ص142 .

للطابع الأكثر براغماتيةً في العلاقات الدولية .

من جهتهِ ، ألحّ أنور السادات ، مثله مثل هيكل قبلهُ ، على أن الهزيمة لم تكن بسبب نقص في تدريب الجيش المصري على يد الخبراء السوفييت ، ولا لنقصٍ في التكنولوجيا ، بل لضعف القيادة العسكرية[1] .

ب ـ هل أراد عبدالناصر الحرب ؟

ما يزال هذا السؤال حتى اليوم موضوع جدل ، سواء في الجانب العربي أم في الجانب الاسرائيلي . وإذا كان الجواب سلبياً ، فلا بد من (توضيح سلوك عبد الناصر غير المتكيف مع هذا التوجه) مثل طلب سحب القبعات الزرقاء من سيناء في 14 أيار/مايو عام 1967 وإغلاق خليج العقبة . وبالمقابل إذا كان إيجابياً ، فلا بد من محاولة معرفة الجواب عن السؤال لماذا لم تتهيأ مصر بطريقة فعّالة وعملية لهذه الحرب المعلنة؟ وما هي اجابات هيكل؟

حسب تحليل هيكل ، كان لإسرائيل خمسة دوافع لاعلان الحرب ضد مصر :

1- تدمير أكبر كمية ممكنة من الأسلحة السوفييتية لإرضاء الولايات المتحدة الامريكية .

2- تدمير معنويات الجيش المصري وإذلاله ، كي لا يقدر فيما بعد على الدخول في حرب مع اسرائيل أياً تكن الظروف .

3- دفع الهزيمة العسكرية إلى حد الاذلال كي لا تدعي مصر بعد ذلك قيادة العالم العربي .

4- إثارة غضب الجماهير المصرية والعربية بحيث تقلب النظام الناصري بفعل هذه العوامل السابقة .

5- احتلال الضفة الغربية والقدس[2] .

و يشاطر الكاتب الماركسي محمود حسين ، هيكل هذا التحليل ، رغم الاختلافات الأيديولوجية بينهما ، وذلك في كتابه ***صراع الطبقات في مصر بين 1945–1970*** [3] ، حيث

1- الأهرام ، القاهرة ، 7 تشرين الأول 1977 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص 714 .

3- Hussein, Mahmoud, l*a lutte de classes en Egypte: 1945-1970*, François Maspero, Paris 1971, p. 258.

يوجه الاتهام إلى البنى (المايكرو - اقتصادية) في النظام الناصري المبني على طبقة مسيطرة تمثلها البيروقراطية العسكرية . وبرأيه أن الأهداف الاسرائيلية ما هي إلا أهداف الإمبريالية الامريكية وهي متمثلة بما يلي :

1- تحطيم التيار العربي الباحث عن الاستقلال عن الغرب .

2- تحطيم هيبة التجربة الناصرية والنظام السوفييتي في آن واحد .

3- إحلال " النموذج السعودي " محل " النموذج المصري " في العالم العربي .

4- فرض حالة أمر واقع لصالح اسرائيل في الشرق الأوسط .

أما نحن ، فنعتقد من جهتنا ، بوجود دوافع أخرى لحرب عام 1967متمثلة بما يلي :

أولاً : تتعلق بأمن الحدود الاسرائيلية المصرية ، خاصة بعد إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964 ، وهجماتها المتعددة على الحدود الاسرائيلية . ولذلك فإن الجنرال بيليت يصرح بأن " النظرية التي تقول بأن المجزرة كانت فوق رؤوسنا عام 1967 وإن إسرائيل كانت تقاتل من أجل وجودها الفيزيائي ليست إلاّ خدعة" [1] .

ثانيا : يتعلق بدوافع اقتصادية ، ففي عام 1966 أكد البنك المركزي لدولة اسرائيل أن البلاد تمرُ بأزمةٍ اقتصادية جدية وذلك بهدف الحصول على مساعداتٍ من اليهود الموزعين في العالم .

والواقع أن العجز في ميزان المدفوعات الذي كان في نهاية عام 1966 ، 217 مليون دولار ، قد أنخفض في نهاية عام 1967 إلى 118 مليون دولار ، في حين زاد الاحتياطي من العملات الاجنبية 80 مليون دولار بالنسبة إلى عام 1966 ، وبلغ مجموعاً قيمته 700 مليون دولار في نهاية عام 1967 ، مما يعني ربحاً صافياً بقيمة 400 مليون دولار[2] . وهكذا فإن الحرب قد سمحت بتدفق الرساميل من يهود الخارج .

ثالثا : الشعور والتعلق بفكرة (الأرض الموعودة) أي (أرض إسرائـيل الكبـرى) . ومن هنا فإن للضفة الغربية وقطاع غزة ، قيمة شعورية وعاطفية خاصة لدى الرأي العام الاسرائيلي . لذا

1- Gresh, Alain, Vidal, Dominique, *les 100 Portes du Proche - Orient*, Autrément, Paris, 1986, p. 108.

2- Saint Prot, Charles, *la France et le renouveau arabe*, Copernic, Paris, 1980, p. 59.

فـــإن عدم التلاقي بين حجج الأمـــن والحجـج النابعة من إعتبارات شعورية هو شيء مصطنع[1] .

رابعا : الرغبة في إجبار العرب على دخول مفاوضات السلام في وضع من الضعف إزاء اسرائيل كما يدل تصريح رئيس الوزراء الاسرائيلي ليفي اشكول ، في حينه ، يوم 12 حزيران/يونيو عام 1967 :

" لا يتخيل أحد بأن اسرائيل مستعدة للعودة إلى الوضع الذي كان قائماً قبل أسبوع ، لقد أوضحنا غالباً للعالم أننا لا ندير وجهنـا للماضي بل للمستقبل نحو السـلام "[2] .

وقد اعترف هيكل برغبة السلام الاسرائيلية هذه ، ولكنه يقول بأنهم يريدون سـلامهم هـم ، سـلاماً مفروضـاً على العرب لا يأخذ في اعتبـاره إلا مصالح الاسرائيليين ، ولهذا يركز في تحليلاته على دوافع اسرائيل العدوانية لتحقيق السلام الاسرائيلي بواسطة حرب1967 .

من جهةٍ اخرى ، يلحّ هيكل على واقع كون عبد الناصر لم يكن يريد الحرب بل إنه كان ضحية لمؤامرة أمريكية اسرائيلية[3] وربما يكون رأي هيكل هذا مستنداً إلى حجج مقنعة ، ولكن لا بد من الاشارة إلى أنه يلقي ظلاً من الصمت على حقيقة أن عبد الناصر ، كان يحاول ، في كل استراتيجياته ، وفي كل تحركاته السياسية والعسكرية في مصر ، وفي الشرق الأوسط ، أن يكون الزعيم الأول بدون منازع .

أما بخصوص المؤامرة فيضيف هيكل بأن عبد الناصر كان يتوقع المساعدة الامريكية لاسرائيل في حال المواجهة العسكرية ، التي تصلُ حد تدخلهم المباشر في الصراع . ولذا كان يعتقد بأن نجاح كل مواجهة عسكرية يتوقف على سياقٍ عالمي وعربي يجعل القوة الامريكية عاجزة عن التحرك .

1- Senardens, Pierre (De), *op. cit,.* p. 191-192.

2- Gresh, Alain, et Vidal, Dominque, *op. cit.,* p. 108.

3- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص 147 . انظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين "الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص439 .

كما أنه يعتبر أن الجيش المصري يحتاج إلى خمسة عشر عاماً لاستيعاب امكانيات الاسلحة السوفييتية . مهلة لا تبدأ من تاريخ أول عقد تسلح ، أي عام 1955 بل إبتداءً من عام 1957 ، تاريخ تسليم أول دفعة ، لذلك فإن المرحلة المناسبة في تقديره للمواجهة العسكرية كانت بين 1972- 1975 [1] .

ويمكن القول بأن استراتيجية عبد الناصر التي يوضحها هيكل تحتاج إلى المراجعة وذلك لعدة أسباب :

- بداية هناك سؤال يفرض نفسه حول وضع الجيش المصري في حالة حصول المواجهة مع إسرائيل قبل التاريخ المحدد لإستيعاب الاسلحة السوفييتية؟ فإذا إفترضنا أن عبد الناصر كان يتوقع المواجهة مع إسرائيل عام 1970 ، وإفترضنا بالتالي انه كان يحاول أن يكسب الوقت لتحقيق هذا الهدف ، فكيف نفسر إذاً تهديداته الواضحة لإسرائيل ، إقفال خليج العقبة ، وسحب قوات الأمم المتحدة ، وتوقيع المعاهدات العسكرية مع الأردن والعراق قبل يوم أو يومين من الهجوم الاسرائيلي؟

أسئلة تحتاج كلها إلى إجابات ، لكنها تدل على شيء واحد ، هو وجود بعض الشك والغموض في تحليل وتفسيرات هيكل .

- على قاعدة ما سبق ، فإن عبد الناصر كان يؤمن ، بحسب هيكل ، سياسة عزل اسرائيل وإخضاعها للضغط المستمر لهدف إضعافها بشكل حاسم قبل تاريخ المواجهة العسكرية .

ولذلك كان عبد الناصر يعتقد أن الظروف الدولية لا تضمن للعرب نصراً نهائياً في حربٍ واحدة ، بل أن هذا النصر يحتاج إلى عدة حروب متكرره ، تحقق كل منها تقدماً عسكرياً وسياسياً جزئياً للعرب ، حتى التوصل إلى أفشال المشروع الصهيوني في فلسطين افشالاً نهائياً [2] .

رغم الأهمية القطعية التي تحملها هذه التوضيحات ، يظل هناك سؤال : لماذا لم تطبق هذه المبادىء على الارض . لماذا قرر عبد الناصر أن يطلب سحب عناصر الأمم المتحدة من

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص134

2- المرجع نفسه ، ص 135 .

سيناء ، وإغلاق مضيق تيران متسبباً بذلك بحرب 1967؟

يرى هيكل أن سوريا كانت مهددةً بهجوم اسرائيلي ، وأن الظروف كانت تفرض على مصر التحرك احتراماً لالتزاماتها تجاه سوريا[1] .

يبدو أن هيكل يشير هنا إلى التهديدات التي أطلقتها اسرائيل ضد سوريا على لسان إسحاق رابين رئيس هيئة الاركان ، في حينه ، الذي أعلن يوم 10 أيار/مايو عام 1967 أن الجيش الاسرائيلي جاهز للهجوم على دمشق وقلب نظام الحكم[2] .

وقد قامت اسرائيل فعلاً ، أثر هذا التصريح بتحريك قواتها على الحدود السورية ، وقام الاتحاد السوفييتي بإبلاغ مصر عبر أنور السادات الذي كان يقوم بزيارة إلى موسكو في 12 أيار/مايو عام 1967 بالمخاطر القائمة ضد سوريا[3] .

إذا أخذنا بعين الاعتبار التهديدات ضد سوريا والالتزام الذي وجدت فيه مصر نفسها ، إحتراماً لمعاهدة الدفاع المشترك المعقودة مع سوريا في تشرين ثاني/نوفمبر عام 1966 [4] يمكننا أن نفهم المنطق الذي حكم قرار عبد الناصر . والا فكيف يمكن تفسير قراره بإغلاق خليج العقبة ، أو طلبهُ إنسحاب قوات الأمم المتحدة ، الذي شكل السبب الأهم لحرب عام 1967؟

وعلى عكس موقفه من القرار الأول ، لم يؤيد هيكل القرار الثاني وكتب في صحيفة الأهرام يوم 28 أيار/مايو 1967 ، محذراً القيادة والرأي العام المصري من العواقب الوخيمة الممكنة لهذا القرار ، مما جرّ عليه تهمة "الانهزامي"[5] . من جهته ، يوضح السادات ، بأن هذا القرار لم يكن إلا تعبيراً عن رغبة عبد الناصر في تنمية شعبيته في العالم العربي[6] .

وفي كل الأحوال ، وخارج الحسابات العربية ، فإن اسرائيل قد اعتبرت من جهتها أن هذين القرارين هما بمثابة أعمال حرب actes du guerre ، خاصة بعد توقيع اتفاقية الدفاع

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص136 .

2- Saint prot, Charles, *op. cit.*, p. 54

3- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 250.

4- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 192.

5- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص140 .

6- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 252.

المشترك مع العراق ومن ثم مع الأردن في 31 أيار/مايو و 4 حزيران/يونيو عام 1967 على التوالي . أي قبل يوم واحد من إندلاع الحرب في 5 حزيران/يونيو عام 1967 إذ أن هذا التحالف قد أثار ردة فعل عنيفة في إسرائيل التي كانت قد شكلت لتوها حكومةً إئتلافيه أدخلت المتطرف مناحيم بيغن لأول مرة إلى الساحة السياسية ، وهو الذي اعتبر ان إنضمام الأردن والعراق إلى " التحالف العسكري المصري – السوري هو بمثابة تعبير عن النوايا العدوانية "[1] .

وفي حين كانت إسرائيل تنتظر اللحظة المناسبة للرد على هذه التهديدات ،كان عبد الناصر يحاول تفتيت الأزمة بمساعٍ دبلوماسية لدى الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتي ، ودول عدم الانحياز . ويعتقد هيكلٍ بأن عبد الناصر قد أجرى حسابات خاطئة كلفته غالياً ببذل هذه المساعي :

أولاً : لأنه قد خُدع بالمراهنة البالغة على دعم السوفييت ، قياساً على الدور الحاسم الذي لعبوهُ في عام 1956 . غير أن المرحلة والسياق قد تغيرا عام 1967 ، فالاتحاد السوفييتي بقيادة بودغورني ، وكوسيجين ، وبريجنيف قد إختاروا إستراتيجية التقارب ، أو على الأقل الاعتدال ، في علاقاته مع الولايات المتحدة ، ولم يعد مستعداً للتدخل بذات القوة التي تدخلت بها عام 1956 في ظل خروتشوف .

برأي هيكل أن سباق التسلح قد أضعف الاتحاد السوفييتي وأستدعى معارضة بعض أوساط الانتلجنسيا . كذلك فإن بعض ردات الفعل ضد الاشتراكية المطبقة على النمط السوفييتي ، كانت قد بدأت تبرز في أوروبا الشرقية . وإزاء هذا الوضع أصبح الجيش الأحمر يميلُ إلى تنمية وزنهُ داخل النظام السياسي السوفييتي ، ويترددُ في التورط والمغامرة في الخارج[2] .

وفي سبيل تجنب مخاطر الصراع ، " لجأ الرئيس ليندون جونسون ، إلى الهاتف الأحمر " le téléphone Rouge " الذي يوصلهُ بالكرملين ، ليؤكد للسوفييت أن

1- Gresh, Alain, Vidal, Dominique, *op. cit.*, p. 109.

2- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلا ثين سنة " ، مرجع سابق ، ص724 .

الاسرائيليين لن يهاجموا مصر ، مركزاً على أن تنقل هذه الرسالة إلى عبد الناصر "[1] .

ثانياً : وبحسب هيكل ، فإن الخطأ الآخر الذي ارتكبه عبد الناصر ، كان بتبنيه عام 1967 إزاء الرئيس جونسون نفس الموقف السياسي الذي تبناه إزاء أنتوني أيدن عام 1956 ، دون أن يأخذ بعين الاعتبار المتغيرات التي طرأت على العالم في أواسط الستينات .

ويقول هيكل ان عبد الناصر كان يعرف تمام المعرفة دعم جونسون لاسرائيل ، لكنه كان يعتقد بأن الولايات المتحدة قد تساعد إسرائيل بالتدخل العسكري المباشر كما فعل أنتوني إيدن عام 1956 ، غير أنه كان في نفس الوقت ، مقتنعاً بأن هـــذا الافتـراض غيـر مقبـول ، بسبب مخـاطر الصـراع المحتملـة مع السوفييت ، وبسبب ردات الفعل السلبية التي يمكن أن يثيرها تدخل كهذا لدى الدول العربية الحليفة للامريكيين والخوف على المصالح الامريكية[2] .

هذه الحسـابات الخاطئة تأكـدت خلال شهر أيار/مـايو عام 1967 عنـدما قـام الرئيس جونسون بإعطاء الاسرائيليين ، عن طريق البنتاغون ، معلومات عن مواقع القوات المصرية ، مشجعاً إياهم على مهاجمة مصر بشكل مفاجىء ، مبدياً موافقته على خطة الهجوم بواسطة أعضاء من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية [3] .

وعلى كل حال ، وبغض النظر عن الحسابات الخاطئة والصائبة ، فإن تحليلات هيكل التي كُتبت ونُشرت قبل حرب 1967 ، تؤكد إخلاصه وقُربه وعلاقته المتينة من صاحب القرار السياسي المصري ، فهو يكتب بواقعية قبل الحرب ما يلي :

" لقد وجهت مصر ضربةً أولى لإسرائيل بتركيز قواتها في سيناء ، وبإقفال خليج العقبة ، ولم يكن من المقبول في هذا الصراع أن توجه إليها ضربه ثانية ، هذه إحدى مسلمات السياسة التي لا يمكن أن يختلف عليها أحد ، وإلا فإن ذلك يعني بأنها تتهيأ لاحتمال تدخل عسكري أمريكي مباشر"[4] .

1- Gendy, Moustfa, *op. cit.*, p. 197.

2- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص716 .

3- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 409.

4 - هيكل ، محمد حسنين ، " وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1983 ، ط3 ، ص182 .

هكذا أذن ، وكما قال أمام المدعي العام الاشتراكي بعد اثنتي عشرة سنة من الحرب ، أراد هيكل بنشرهِ هذا التصور في تلك الفترة ، أن يوضح الحقيقة ، وأن يحذر الرأي العام المصري كي يتحمل كلُ مسؤولياته . إضافة إلى ذلك ، كان هيكل يحرص على ترديد آراء رؤساء الدول الأجنبية مثـل جونسون ، ديغول ، بريجنيف ، ويوثانث ، الذين دعوا عبد الناصر بالا يكون البادىء بالعمليات العسكرية[1] .

ويجب القول هنا ، بأن عبد الناصر كان يشارك هيكل هذه الرؤيا ، بدليل انه أعلن يوم 25 أيار/مايو عام 1967 ، في مؤتمر صحفي ، أمام صحفيين من كل أنحاء العالم ، "أن المصريين لن يكونوا البادئين بالحرب ، وأن الموقف المصري يتمثل في إنتظار هجوم إسرائيلي ليردوا عليه"[2] . ويرى هيكل أن هذا المنطق يعني "أن عبد الناصر كان يعتبرٍ أن دفاعاً ناجحاً هو بقوة الهجوم" [3] .

من جهته ، يدافع الكاتب عبدالله إمام عن عبد الناصر وموقفه في هذه الحرب في كتابه ***عبد الناصر والحملة الظالمة*** قائلاً :

"إنهم يتهمون عبد الناصر بأنه تلقى الضربه الأولى عام 1967 ، ألا يعلمون بأن اسرائيل قد تلقت عام 1973 الضربة القاضية الأولى من مصر ، وأنها قاتلت ، في حين أن المانيا كانت الأولى في توجيه الضربة خلال الحرب العالمية الثانية ولكنها حصدت الهزيمة ، والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ"[4] .

بعد كل هذه الطروحات ، يمكن الإجابة عن سؤالنا الأول حول رغبة عبد الناصر بإعلان دخول الحرب 1967 ، بالقول أن هيكل قد أوضح وبرهن على أن رغبة من هذا النوع لم تكن موجودةً لدى عبد الناصر . فاسرائيل هي التي فرضت الحرب مختارة الوقت المناسب لها . حتى ولو كان صحيحاً أن عبد الناصر قد تسبب في حصول الحرب بإغلاق خليج العقبة وبسحب القوات الدولية من سيناء . فإنه لم يعرف أن يدير قراراته السياسية

1- هيكل محمد حسنين ، " تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" مرجع سابق ، ص183 .
2- الأهرام ، القاهرة ، خطاب الرئيس ، 26 أيار 1967 .
3- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص146 .
4- إمام ، عبد الله ، مرجع سابق ، ص139 .

والعسكرية كما يجب . ونحن نبررُ حكمنا هذا بثلاث أسباب رئيسية على الأقل :

1- كانت مصر الناصرية قد أرسلت اربعون ألف عسكري إلى اليمن(البعض يقول سبعون ألفاً) ، لدعم الثورة اليمنية ولم يكن هؤلاء الجنود في وضع يحسدون عليه كثيراً .

2- لم تكن العلاقات مع بعض الدول العربية في أفضل حالاتها ، خاصة مع الأردن والسعودية .

3- لم تكن لدى مصر الامكانيات الاقتصادية والعسكرية الكافية للحرب ، كما قال عبد الناصر نفسه ، في خطاب ألقاة يوم 26 أيار/مايو عام 1967 :

" إن اعلان الحرب ، عندما لا تكون لدينا وسائل خوضها ، هو قيادة البلد إلى مغامرة ، والشعب إلى الكارثة"[1] .

أخيراً ، ورغم الجهود الدبلوماسية التي بذلتها كثير من الدول ، والهيئات السياسية العالمية ، فقد نشبت الحرب يوم 5 حزيران/يونيو عام 1967 ، إذ هاجمت اسرائيل مصر ، وسوريا ، والأردن . واعتباراً من ذلك ، فتحت صفحة جديدة في الشرق الأوسط ، لصالح اسرائيل . أما بالنسبة لمصر فقد كان في ذلك درسٌ لتحضير المستقبل أو " لصراع مستمر " le conflit prolongé . كما يقول ماوتسي تونغ[2] .

ج ـ هيكل واستقالة عبد الناصر

لا شك أن هزيمة مصر في 5 حزيران/يونيو عام 1967 قد أضعفت النظام الناصري ، لا في عيون العالم العربي الذي أرادَ عبد الناصر أن يكون زعيمَه فقط ، بل وفي مصر نفسها ، ذلك أن الشعب قد اكتشف الهوة القائمة بين الخطاب والواقع في نظام عبدالناصر .

وقد جاءت استقالةُ عبد الناصر يوم 9 و 10 حزيران/يونيو عام 1967 تعبيراً عن هذه الهزيمة . لذا تستحق التحليل بالاستناد إلى مذكرات وتوضيحات هيكل .

بدأ كل شيء يوم 8 حزيران/يونيو 1967 ، أي بعد 3 أيام من الحرب ، عندما قال عبد

1- New York Times, 26 May 1967.

2- CUAU, Yves, *op. cit.*, p. 7.

الناصر لهيكل بأنه يفكر في الاستقالة ، فأيد هيكل هذا الاقتراح ، وعندها طلب منه أن يصوغ كتاب الاستقالة[1] .

ويوم الجمعة 9 حزيران 1967 ، جاء هيكل إلى عبد الناصر ، حاملاً رسالة الاستقالة المكتوبة ، دون أن يذكر فيها اسم شمس الدين بدران وزير الحرب ، الذي اقترحه عبد الناصر لخلافته لاعتقاده بأنه يستطيع أن يسيطر على الدولة وعلى الوضع الخطير الذي تعيشه مصر ، كان هيكل يفضل زكريا محيي الدين ، أقدم الضباط الأحرار ، رغم أنه كان يُعتَبر قريباً ومقبولاً جداً من الأوساط السياسية الغربية [2] ، في حين كان يعتقد أن بدران يتحملُ مسؤوليةً كبيرةً في الهزيمة[3] .

حرر هيكل كتاب استقالة عبد الناصر مركّزاً فيه ، بحسب تصريحاته ، على "أنه يتحمّل حصتهُ من المسؤولية" ، لكن عبد الناصر أجبره على أن يعلن فيه "بأنه المسؤول الوحيد عن الهزيمة" ، في حين وافق على تسمية زكريا محيي الدين خليفةً له في منصب رئيس الجمهورية[4] .

وهكذا قدّم عبد الناصر في خطاب 9 حزيران/يونيو 1967 اعترافاً بالهزيمة ، ففي هذا الخطاب الذي بُثَّ من التلفزيون ، أعلن استقالته من منصب رئيس الجمهورية تاركاً موقعه لزكريا محيي الدين ، مع احترامه للإرادة الشعبية [5] .

يرى الكاتب الماركسي محمود حسين أن عبد الناصر قد ستقال ، لصالح زكريا محيي الدين المقرب من الغرب ، كي يسمح لفريقٍ جديدٍ في الحكم باكتساب ثقة الأوساط البورجوازية المصرية ومودة الأمريكيين النسبيّة ، وذلك للتفاوض حول آلية الاستسلام[6] ، غير أن بعض الإسلاميين والساداتيين يعتبرون أن قصة الاستقالة هذه لم تكن إلاّ

1- هيكل ، محمد حسنين ، "الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص836 .

2- المرجع نفسه ، ص 842 .

3- المرجع نفسه.

4- المرجع نفسه ، ص843 .

5- المرجع نفسه ، ص 850 .

6- Hussein, Mahmoud, *op. cit.*, p. 261.

مناورة ، تم اعدادها من قبل أجهزة الاستخبارات السريّة في النظام الناصري[1] .

أما هيكل ، فيرى أن عبد الناصر كان يريد الاستقالة حقاً بل وأنه كان يريدُ أن يُحاكم ، لأنه كان يشعر فعلاً بأنه كان يتحمّل مسؤولية الهزيمة[2] . ويمضي هيكل أبعد من ذلك في توضيحاته إذ يتناول موضوع الاستقالة على الصعيد العربي ليقول بأن عبد الناصر أراد من خلالها ، أن يكشف مواقف بعض الأنظمة العربية المحافظة التي تلقي بمسؤولية كل أوجاعها وآلامها على عاتق النظام الناصري[3] .

ولتنفيذ قرار الاستقالة ، ولكي يكون انتقال السلطات بشكل هادىء ومناسب ، كلّف عبد الناصر هيكل بضبط وسائل الإعلام (التلفزيون والراديو ، والصحف) خلال هذه الفترة الحرجة كي يستطيع زكريا محيي الدين أن يطّلعَ بمهامهِ دون مشاكل .

في ذلك الحين كان إعلان الاستقالة قد جعل الجماهير المصرية تنزل إلى الشوارع طالبةً منه البقاء في منصبه ، كي يقودَ الأمة ويمحو الإذلال الذي ألحقته إسرائيل بها . كذلك فإن بعض رؤساء الدول ، مثل العراقي عبد السلام عارف ، والرئيس اللبناني شارل الحلو ، والجزائري هواري بومدين ، والفرنسي شارل ديغول ، والسوفييتي ليونيد بريجنيف ، طلبوا منه ألاّ يستسلم وأن يتحمل مسؤوليته كرجل دولة . عندها استطاع عبد الناصر أن يقدر الأهمية التي تُعلّق عليه والثقة التي مُنحت له لإعادة بناء الوضع من جديد[4] .

ورغم أن هيكل يحاول أن يُضفي شرعيةً ما على عَوْدَة عبد الناصر عن قراره ، سواء عن طريق الضغط الشعبي ، أو الضغوط الدولية ، فإن تبرير الأخطاء السياسية لكبار المسؤولين بتظاهراتٍ شعبية سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، يبدو لنا أمراً منتقداً في الوقت الحالي .

والحقيقة أن هيكل يحاول دائماً أن يعطي شرعيّة لعبد الناصر ليس فقط لتبرير مواقفه

1- جريدة الأخبار ، القاهرة ، 18 شباط 1978 . انظر أيضاً التلمساني عمر ، مرجع سابق ، ص 171 .

2- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص146 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص 848 .

4- المرجع نفسه ، ص854 وما يليها .

بعد اتخاذ القرار السياسي ، وبل ولتبرير إجراءات صناعة هذا القرار السياسي ، وهذا ما رأيناه سابقاً خلال دعوات ديغول وبريجنيف وغيرهم من رؤوساء الدول الأخرى الذين نصحوا عبد الناصر ألاّ يكون البادىء في إعلان الحرب .

لذا فإن سؤالنا يدور حول ما إذا كان يحق لرجل السياسة أن يبني قراراته السياسية والاستراتيجية بالاستناد فقط إلى استشارة رجالِ دولٍ أخرى؟ وهل من المشروع أيضاً أن يستمر ، بعد الهزيمة ، في ممارسة سلطته ، استناداً إلى نصائحهم التي أثبتت فشلها على أرض الواقع ؟

برأي محمود حسين أن لموقف الشعب الذي خرج إلى الشوارع مطالباً زعيمه بالعدول عن قراره ، تفسيراً آخر ، يتضمن عنصراً جديداً ، " فلأول مرة يفرض الشعب المصري إرادته على السلطة السياسية معبراً بذلك عن إصراره في متابعة النضال ضد إسرائيل . لقد كان في حركةِ الجماهير هذه ، برأي حسين ، عنصراً أساسياً : لأنه لم يعد الشعب المصري هو ذاته" [1] .

وفي ذلك يكتبُ جان لاكتور قائلاً :

" لم يعد جمال عبد الناصر رجل انقلاب 23 تموز/يوليو عام 1952 ، بل رجل استفتاء 9 حزيران/يونيو عام 1967 . لم يعد الضابط الذي استولى يوماً على السلطة بالحيلة والجرأة ، مدعياً بإنه أداة الشعب في حين يتصرف كزعيم فرد . بل أنه أصبح من هذه اللحظة زعيماً منادياً به ومكلّفاً من قِبَل الجماهير ، وهذا ما أحس به جيداً ، وجعله يرفض رغبة الضباط الذين كانوا على خلاف مع عامر وبدران ، في إعلان تأييدهم له . لقد أراد عبد الناصر في رفضه تأييد الضباط العسكريين التركيز على عملية الانقلاب العسكري . لكي يُظهر لنفسه وللآخرين بأنه إذا كان قد دُعي من جديد ، فيجب أن يقال أن مَنْ دعاه هذه المرة هو الشعب وحدهُ" [2] .

نتيجةً لتظاهرات الجماهير هذه ، سحب عبد الناصر استقالته ليهيّىء الشعب المصري

1- Hussein, Mahmoud, *op. cit.*, p. 264.

2- Lacouture, Jean, *Nasser*, Seuil , Paris, 1971, p. 273.

لحرب جديدة ضد إسرائيل . وفي كتابه ***البحث عن الذات*** يقول أنور السادات : " الشعب هو الذي أجبر عبد الناصر على العودة عن استقالته "[1] .

أمّا هيكل فيعلق على عودة عبد الناصر هذه بالقول :

" لو أن عبد الناصر قد انسحب كلياً من الحياة السياسية ، لكانت الهزيمة كاملةً ، ذاك أنه إذا كانت مصر قد فقدت جزءاً كبيراً من سلاحها في حرب 5 حزيران/يونيو ، فإن إرادتها لم تُهزم . وهكـذا فإن خروج الجماهيـر الشعبيـة إلى الشوارع ، لرفضِ استقالةِ عبد الناصر ، كان دليــلاً على أن إرادة الشــعب لم تُنتهك ، وأن الانتصار هو في النهاية قضيــة إرادة" [2] .

وقد أوضح عبد الناصر في رسالة – حرّرها هيكل – أمام مجلس الشعب المصري ، سبب عودته عن الاستقالة قائلاً :

" كنت آملُ أن تساعدني الأمة على تحقيق القرار الذي اتخذته ، ويعلم اللّه أن ما من شيء فرض عليّ الاستقالة إلاّ تقديري لمسؤوليتي ، وحسّي الأخلاقي ، وما كنت أعتقدُه واجبي " .

" وأرغبُ في أن أُعْلِمَ مجلس الشعب الموقر بأنني مقتنع بالاسباب التي كانت وراء استقالتي ، لكن صوت الجماهير الشعبية ، هو في ذات الوقت ، شيء لا يمكن تجاهله . لذلك قررتُ أن أبقى في منصبي ، حيث أرادني الشعب أن أكون هنـا لأمحو آثار العدوان ، وأشعر بأن الهزيمة يجب أن تعطي لوجودنا عمقاً جديداً "[3] .

إثرَ هذا الالتزام الرسمي الذي قطعه عبد الناصر على نفسه أمام الشعب المصري وأمام الأمة العربية كلها ، كان عليه أن يبدأ من جديد وأن يعيدَ بناء كل شيءٍ من جديد . وبهذا الخصوص ينظم هيكل قائمة مقارنة ، ودالة ، على إرادة عبد الناصر . موضحاً أن الوضع العسكري قد تغيّر في ثلاثة أشهرٍ فقط . ففي حين انعدم ، نتيجة الحرب ، وجود أيٍّ تشكيل

1- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 265.

2- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 148 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص860 .

عسكري منظم ، أصبح هناك بعد ثلاثة أشهر جبهةً دفاعيةً جاهزة ، حيث أعيد تنظيم الجيش الثاني والثالث[1] .

على الصعيد السياسي ، حصل شيءٌ من الانفتاح ، يتوافق مع صيغة هيكل التي أطلقها عبر صحيفة الأهرام ، والتي تقول"بانه على النظام الذي لا يستطيع أن يُغيّر يجب أن يَتغيّر"[2] .

في هذا السياق طلب عبد الناصر من هيكل أن يكتب " إعلان 30 مارس " الذي رأى النور في عام 1968 ، حيث بدأ الحديث عن الحرية الشخصية ، والحرية السياسية ، على طريق تحقيق الديمقراطية السياسية في مصر .

وتُظهر هذه الاستراتيجية الجديدة ومنطق التغيير السياسي هذا في إعادة تنظيم بُنى وآليات عمل النظام . حيث نقرأ في مجلة الدستور الصادرة في لندن يوم 9 تشرين الأول/أكتوبر عام 1978 أن عبد الناصر قد صرّح ، خلال إجتماع عُقد يوم 3 آب/اغسطس عام 1967 أمام زكريا محيي الدين ، وأنور السادات ، وحسين الشافعي ، وعزيز صدقي أن الأحادية الحزبية قد قادت إلى ديكتاتورية بعض الأفراد ، وأنه يجب تغيير سياسة النظام . غير أن جميع مَنْ حضر هذا الاجتماع كان ضد رؤية عبد الناصر[3] .

كما أن هيكل قد كتبَ ، بصفته ناطقاً باسم عبد الناصر ، مجموعة من المقالات ذات الدلالة حول ضرورة التغيير ، وحول الخطر الذي يمكن أن تمثّله "مراكز القوى" والحركات المحافظة ، وهو أمر يظهر انسجام وتوازن أفكار الرئيس ومستشاره كلٌّ من في مركزه وفي مهنته .

د- النكسة لدى هيكل

بعد هزيمة 5 حزيران/يونيو عام 1967 ، استعملت الأذاعات العربية "مصطلح النكسة" الذي أطلقه هيكل رئيس تحرير صحيفة الأهرام آنذاك ، والذي يميزه في معناه عن مفهومي الهزيمة والإذلال التقليديين . وبإلقائنا الضوء على هذه النكسة يتضح لنا ، أكثر ، دور وأهمية هيكل في النظام الناصري .

1- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 149 .

2- الأهرام ،بصراحة "هل تحقق التغيير؟" ، القاهرة ، 11 تشرين الأول 1968 .

3- مجلة الدستور ، لندن ، 9 تشرين الأول 1978 .

في هذه المرحلة الدقيقة والحرجة ، كان لنشاط هيكل مساران : فمن جهة نجده يعمل على التقليل من شأن الخسارةِ الكبيرة موضحاً الفوارق القائمة بين النكسة والهزيمة ، ومن جهة أخرى يشجّع مصر على التهيؤ لحرب محتملة مقبلة ضد إسرائيل مع توضيح موازين القوى سواء على الصعيد العسكري أم السياسي ، مع محاولة اطلاع الرأي العام المصري على مجريات الأمور .

كان المسار الأول يتمثّل في رفع معنويات المصريين ، في إعادة ثقتهم بأنفسهم ، وذلك بمهاجمة الذين لايريدون لمصر أن تنهض من هزيمتها ، مع القبول بالتحليلات الموضوعية لأسباب الهزيمة لنتائجها ولوسائل تجاوزها ، كل ذلك من أجل مصلحة مصر كما يراه .

أما المسار الثاني ، فيقوم على اعداد الرأي العام والشعب المصري ، لمعركة مقبلة يتم فيها محو العدوان الاسرائيلي ، مما يتطلب ضرورة تضافر جهود الشعب والقيادة في هذه الظروف الصعبة لتحقيق الهدف المنشود .

فإذا كان بعض الكتّاب مثل العراقي عزيز السيد جاسم ، يردون الهزيمة إلى ديكتاتورية النظام[1] . فإن هيكل نفسه يقبل هذا التفسير ، إذ يكتب في 11 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1968 :

" لم تكن نتيجة مظاهرات 9-10حزيران ، تفويضاً للسلطة المطلقة لعبد الناصر ، بل كانت تأييداً للتغيير ، لم تخرج الجماهير الشعبية لتعبر لعبد الناصر عن رغبتها في بقائه دون تغيير مناهج الحكم ، بل إنها خرجت لتقول له : إبدأ بالتغيير وسنكون معك"[2] .

إرادة التغيير بعد الهزيمة هذه ، كانت هدفاً أساسياً لعبد الناصر . لذا يكتب غالي شكري في كتابه ***مصر: ثورة مضادة*** "لم يكن الشعب المصري الذي نهض عام 1964 ، 1967 ، 1968 يعرف بأن عبد الناصر كان يقود صراعاً مستميتاً داخل دائرة صغيرة في سبيل الديموقراطية . ونحن نفهم اليوم بشكل أفضل أن "بيان 30 مارس" عام 1968 بقي كتاباً ميتاً لأن أكثر الذين نادوا به كانوا ضد الديمقراطية "[3] .

والحق يقال أن هيكل لم يكن ضد الحوار البنّاء ، وإنما على العكس كان يرفض ،

1- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص21 .

2- الأهرام ، بصراحة ، "هل تحقق التغيير؟" ، القاهرة ، 11 تشرين الأول 1968 .

3- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 462.

ومازال ، يرفض بعض الأحكام التي أطلقها الإسلاميون والساداتيون على نظام عبد الناصر ، مثل أحمد أبو الفتوح رئيس تحرير صحيفة المصري ، التي منعها عبد الناصر عام 1954 ، حيث كتب في ظل نظام السادات : " لو أن حرب 1967 لم تحصل لما كانت مصر قد دخلت حرب 1973 ، ولكانت وفرت على نفسها الإذلال في الأولى ، والنفقات والضحايا في الثانية"[1] .

ومع اعترافه بهزيمة مصر ، يحاول هيكل أن يقلل من شأن نتائجها ، إذ يقول في ذلك ، بأن لكل حرب هدفين : هدف أولي ، يتمثل في تدمير قدرات العدو العسكرية ، وهدف نهائي هو تدمير إرادته السياسية . وبرأيه أن اعداء الأمة المصرية قد نجحوا في 5 حزيران/يونيو في بلوغ الهدف الأول ولكنهم فشلوا في بلوغ الثاني[2] .

كما يقول أيضاً بأنه يجب التمييز بين نوعين من الهزيمة : " الهزيمة الثقيلة lourde défaite أي النكسة التي حصلت لنا ، والهزيمة النهائية défaite intégrale التي لم نصلها أبداً ، لأنها تفترض مسبقاً تدميراً لإرادة الصراع"[3] . ويرى هيكل أن منطق هذا التميز يتحقق بشكل ملموس عبر ثلاثة أمثلة تاريخية معبرة :

1- ان الولايات المتحدة قد شهدت مصيراً مشابهاً خلال هجوم بيرل هاربر ، حيث دمر أغلبية الأسطول الأمريكي ، لكن ذلك لم يمنع انتصارها النهائي على اليابان .

2- ان الأمر نفسه قد حصل مع بريطانيا العظمى في دنكارك ، حيث إنهزم جيشها أمام جيش هتلر .

3- وأخيراً عرفت فرنسا أيضاً وضعاً اكثر صعوبة ، مع الاحتلال الالماني ، إلى أن جاء ديغول ، ليعيد إلى بلاده كرامتها .

كل هذه الهزائم ، يقول هيكل ، كانت هزائم سلاح ، لا هزائم إرادة ، ولذلك فهي بحسب تعبيره ، (نكسات) أي هزائم ثقيلة .

أما الهزائم النهائية ، فإنها تنتج عن انتصار بالسلاح ، وانتصار بالمعنى السياسي معاً ، كما حصل لليابان أو لألمانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية . حيث إستسلم هذان البلدان

1- الأهرام ، القاهرة ، 25 كانون الأول 1977 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " الإنفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص11 .

3- المرجع نفسه .

بدون شروط وخسرا سيادتهما على أراضيهما .

أما بالنسبة للمصريين والعرب ، فإنهم لم يبلغوا أبداً هذا الحد السيّىء ، لأنهم خسروا جزءاً من اراضيهم ، كما أنهم لم يستسلموا ، طالما أن حرب الاستنزاف guerre d'usure قد بدأت بعد عدة أشهر ، مع إعادة بناء الجيش . إذن على العالم العربي أن لا يعتبر نكسة عام 1967 هزيمة نهائية تشبه هزيمة المانيا أو اليابان [1] .

من جهتهم ، يرفض الأخوان المسلمون والساداتيون هذا التحليل ، بسبب معارضتهم لنظام عبد الناصر . ويُحمل مرشدهم عمر التلمساني مسؤولية الهزيمة لعبد الناصر معتبراً أنه لو لم يكن في السلطة لما احتلت إسرائيل هذا الكم من الأراضي[2] .

ويردد الكاتب الساداتي محمد جلال كشك الخطاب نفسه في كتابٍ بعنوان ***ثورة يوليو الأمريكية : علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية*** ، حيث يخصص فصلاً كاملاً بعنوان (التاريخ البلاستيك وهيكل) لاتهامهِ بتزوير التاريخ السياسي المصري المعاصر أثناء وجوده بالقرب من أصحاب القرار في النظام الناصري[3] .

كذلك لم يتقبل الطلاب وبعض فصائل العمال تحليلات هيكل هذه إذ رأوا فيها ، وخاصة الطلاب ، مجرد محاولة لإضفاء الشرعية من جديد على سلطة عبد الناصر . والنتيجة أن هناك ثمة اتهاماً وشكاً يحمله الشعب ضد حكامه . لذلك وعندما أعلن عبد الناصر رسمياً الحكم الذي أتهم فيه كبار الضباط المسؤولين مباشرة عن الجيش خلال نكسة67 (برأي الطلاب والعمال أن الحكم لم يكن قاسياً بما فيه الكفاية) ، قام المتظاهرون بإحتلال مقر الاتحاد الاشتراكي العربي"الحزب الواحد" ، ثم جامعة القاهرة ، وأخيراً مجلس الشعب الذي كان السادات رئيساً له . وفي طريق عودتهم احتل المتظاهرون صحيفة الاهرام التي يعتبرون رئيس تحريرها ، أي هيكل ، الوجه الخفي للرئيسl'éminence grise كما كان اليسار الراديكالي يعتبره الناطق الرسمي الماكر والمخادع للانهزاميين المصريين . وقد رفض هيكل الظهور أمام المتظاهرين ، ووصفهم بالجبناء فحاولوا إضرام النار في الصحيفة ، في حين هربَ هو من بابٍ خلفي[4] .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة " ، مرجع سابق ، ص13 - 14 .

2- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص160 .

3- كشك ، محمد جلال ، مرجع سابق ، ص 37 وما يليها .

4- Hussein, Mahmoud, *op. cit.*, p. 291-292.

بعد ذلك بفترةٍ قليلة ، وخلال مظاهراتٍ أخرى ، أصبحت كلمات السر أكثر قساوةً وأكثر تحديداً بقدر ما أصبح موقف السلطات أكثر قسوة . (ملعونون الذين يخونون) ، (الشرطة عدوّةُ الشعب) ، وأيضاً (فليسقط هيكل) [1] ، ان هذا الشعار الأخير يدل على مدى اندماج هيكل بسياسة النظام الناصري .

وهكذا أجبر الضغط الشعبي عبد الناصر على الإسراع في مشروع دمقرطة المؤسسات ، لذا طلب من هيكل أن يحرر "بيان 30مارس" عام 1968 ، ليفتح صفحةً جديدةً في التاريخ السياسي المصري ، لكن هذا الإعلان ظل ، كما يقول غالي شكري ، "بقي حبراً على ورق ، لأن أكثر زملاء عبد الناصر ومساعديه كانوا ضد الديمقراطية"[2] .

المحور الثاني لمشاركة هيكل الفعّالة إلى جانب عبد الناصر ونظامهِ خلال النكسة تتبدّى في مجموعةِ مقالاتٍ نشرت في صحيفة الأهرام اعتباراً من 5 حزيران/يونيو عام 1967 وحتى تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 .

والواقع أن دور هيكل هنا كان في تقديم وجهة نظر الحكومة عبر هذه المقالات مع تفسير الحدث والالتزام باستحضار الماضي ، في سبيل تحضير الرأي العام المصري والعربي لحربٍ جديدةٍ ضد إسرائيل . وقد كان هذا الدور لهيكل مهماً وضرورياً خاصةً وأن هزيمة عام 1967 قد جعلت المثقفين والفلاسفة ورجال السياسة ينقسمون حول الوسائل التي يجب اتباعها لمحو آثار الهزيمة .

فثمةُ تيارٍ مغامر يتكون من الاشتراكيين والبعثيين ، كان يرى بوجوب إعلان حرب شاملةٍ ومباشرة على "الامبريالية والصهيونية" . في حين أن تياراً آخر يتكون من الإسلاميين والماركسيين كان يعتقد بوجوب اللجوء إلى حرب المليشيات الشعبية ، على نمط الحرب الفيتنامية ، وذاك ما لم يكن ممكناً بسبب عوامل جيوسياسية وإستراتيجية خاصة بمنطقة الشرق الأوسط .

أما رؤيا هيكل فكانت أكثر براغماتية ، حتى ولو أنه كان يعتبرُ الدفاع عن الوحدة

1- Hussein, Mahmoud, *op. cit.*, p. 292.
2- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 462.

الجغرافية و السياسية لمصر وللعالم العربي أمراً ضرورياً . فبرأيه أن الطريقة الأكثر عقلانيةً تتمثلُ في تحريك جميع الوسائل لتهيئة الشعب والجيش لمواجهةٍ واسعةٍ ومستمرة . ولتجسير هذا المنظور النظري ، باشر منذ عام 1967 ، وبعد النكسة مباشرةً بنشر مقالات ووجهات نظر في الصحف وفي التلفزيون ، تعرض للرأي العام إحتمالَ حصول حربٍ وشيكة . وهكذا نراه يكتب في هذا الخصوص أكثر من ثلاثين مقالاً ، يُظهرُ تحليلها بوضوح ، إلتزام هيكل بالرد العسكري على إسرائيل .

ورغم أن هيكل يحاول أن يقدم نفسه للعامة بصورة رجل محايد في الجدل القائم بين الجيش و بعض فئات الشعب ، غير أن الواقع أكثر تعقيداً من ذلك . فهو لا يستطيع – كونه عنصراً أساسياً من عناصر النظام – (الحكومة والجيش) ، أن يعتبر نفسه خارج منطق عمله ، أو أن يدعي أنه لا يمثله . لكن يمكن الاعتقاد بأن خطابه ، وإن كان يمثل السلطة فإنه غالباً ما كان يلعب دوراً يمثل الشعب ، ويدافع عن حقوقه وعن آماله وطموحاته ، مركزاً في الوقت نفسه ، على ضرورة تحمل الشعب قرارات وسياسات السلطة القائمة .

ولا تخلو خطب هيكل السياسية هذه من طابع المعنى ذي الوجهين ، وجه يدعم الحكومة ورئيسها ، ووجه آخر يطالب الشعب المصري بأن يقبل أكثر مما يستطيع ، ويطالب العرب بأن يؤمنوا بأن عبدالناصر هو الرمز القادر على محو آثار العدوان .

ولذلك يكتب هيكل في مقالٍ له بتاريخ 15 أيلول/سبتمبر عام 1967 : " تفترض النكسة التي أصابت العالم العربي ، بالضرورة ، صراعاً يمر بمرحلتين متتاليتين : مرحلة أولى تهدف إلى محو آثار حرب الأيام السته ، ثم مرحلة ثانية يجب أن تفضي إلى حل المشكلة الفلسطينية ، التي يعتبرحلها الهدف الرئيسي للنضال العربي" .

ثم يضيف في مقطع آخر :

" لقد قلت وأُكرر بأنه لا يمكن تجنب الحرب إذا لم تحصل معجزة ، تمنع حدوثها وتحلَّ هذا الصراع . غير أننا لم نعد نعيش في عصر المعجزات" .

ثم يتابع بنبرة مصممة ، محدداً نمطاً لا بديل له للنضال العربي :

" هذا النمطُ هو نمطُ الحرب التقليدية ، أي حرب جيشٍ ضد جيش ، طيران ضد طيران ،

وبحرية ضد بحرية ، شرط أن تجتمــع كل طاقــات العالــم العربــي وراء هذه الجيــوش العربية "[1] .

وثمة هناك مرحلتان في خطاب هيكل السياسي . ففي الأولى كان موقفه دفاعياً ، لأنه في موقف الهزيمة . وفي الثانية أصبح موقفه هجومياً لأنه موقف يدعو إلى الحرب ضد اسرائيل . حيث يحضر مصر للحرب ، بدعم العالم العربي كسند مادي وسيكولوجي ، وبهذا المعنى يقوم بشحن ايديولوجية الوحدة القومية . ويمكن أن نعتبر بأن خطاب هذه المرحلة الاخيرة ، يهدف إلى استرجاع شرعيةٍ مفقودة سواء على الصعيد الداخلي أم الدولي ، ويترجم في الوقت نفسه رفضه للنكسة .

لكن هيكل لا يكتفي بهذه النداءات وبأعماله التعبوية ، كما لا يكتفي باطلاق سيناريوهات الحرب المقبلة . بل إنه يفكر باستراتيجيات جيوسياسية ، وبالجبهات العسكرية المناسبة في المنطقة . وقد كان يعتقد بأنه من الضروري بناءُ كتلتين :

1- كتلة في الغرب تشترك فيها الدول العربية الافريقية (المغرب الجزائر تونس) وتقودها مصر .

2- وكتلة في الشرق تقودها سوريا ويشارك فيها (الاردن والعراق)[2] .

أما الموضوع الثالث الذي كان هيكل يركزعليه فهو موضوع التوازن السيكولوجي بين الخوف والثقة المطلقة ، والذي يفترض بالعرب بلوغه .

لقد كان الجميع يعرف بأن النكسة قد أفرزت نتائج نفسية سيئة سواء لدى المسؤولين أو الشعوب ، ولدى الجيوش العربية ايضاً . ولذلك أعتقد هيكل أنه من الضروري في هذه المرحلة الدقيقة دعوة العرب إلى بناء جوٍ من الثقة لا يقل أهمية عن القوة العسكرية للانتصار على إسرائيل . وهكذا لم يكن هيكل يهمل الابعاد السيكولوجيه للصراع . ولذلك ، كان يعتبر أن الحرب مع إسرائيل والانتصار عليها تحقق نتائج جيدة في العالم العربي :

1- الأهرام ، بصراحة : "طريق القتال – نقطة أخيرة . . ولمسات ضوء عليها " ، 15 أيلول 1967 .

2- الأهرام ، بصراحة : " شكل المعركة القادمة وما يجري الآن في سوريا " ، 7 أذار 1969 .

1- بتدميرها إسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يهزم .
2- بمحو النتائج السيكولوجيه لهزيمة عام 1967 .
3- زعزعة النسيج الاجتماعي الاسرائيلي الذي يعتبر الجيش عموده الفقري .
4- إجبار الولايات المتحدة على تغيير إستراتيجيتها في المنطقة[1] .

وهكذا لم يتوقف هيكل عن توجيه نداءات الحرب ، في ذات الوقت الذي كان يحاول فيه أن يحيط بالابعاد المختلفة للصراع العربي الإسرائيلي . وذلك ما تدل عليه فقرات كثيرة من مقالاته الصحفية حول هذا الموضوع .

لكن القضية الرئيسية تظل بالنسبة له معرفة ما إذا كان العرب قادرين على تحقيق انتصار على جيش إسرائيلي مدرب ومجهز . وبالرغم من إعترافه بتفوق الجيش الإسرائيلي ، حيث يقول مثلاً "إننا كنا عام 1967 أمام عدوٍ منظمٍ وحديث" [2] . إلاّ أن هيكل يؤمن بإرادة الجيش والشعب المصري . وبقدرة العرب على تحقيقٍ النصر في حربٍ لا تكون حرباً خاطفة كحرب عام 1967 [3] .

ولتبرير آرائه هـذه ، كان يحـرص على تقييم موازين القوى وصولاً إلى الأستنتاج بأن العرب يمتلكون ميزات لا يمكن إنكارها :

1- العرب يمتلكون العناصر الضرورية لتحقيق سلام عربي في المنطقة : عناصر ديمغرافية ، وسياسية وروحيه .
2- لم تتمكن إسرائيل ابداً ، وبسبب غياب هذه العوامل ذاتها ، من تحقيق سلامٍ دائم ، رغم الحروب المتتالية 1948 ، 1956 ، 1967 حيث أن كل ما استطاعت تحقيقه بعد هذه الحروب هو هدنات مؤقته .
3- ورغم واقع التفوق التكنولوجي الاسرائيلي على العرب ، إلا أنه أمرٌ قابل للتجاوز[4] .

1- الأهرام ، بصراحة : " الجيش الاسرائيلي والدواعي الملحة لهزيمته في معركة" ، 11 نيسان 1969 .
2- الأهرام ، بصراحة : " وقفة بقرب الجانب العسكري - من النكسة - عن العدو " ، 20 تشرين الأول 1969 .
3- الأهرام ، بصراحة : " شكل الحرب القادمة وما يجري الآن في سوريا " ، 7 آذار 1969 .
4- المرجع نفسه .

وقد كانت قضية تنظيم جيش عربي حديث ، قادر على منافسة إسرائيل ، القضية الأكبر التي تشغل بال عبد الناصر . لذلك ذهب إلى موسكو في شباط/ فبراير عام 1970 للحصول على مساعدةٍ سوفييتيه في إعادة بناء القوات الجوية المصرية . وبعد موت عبد الناصر ساهم هيكل بصفته وزيراً للاعلام ، وعضواً في مجلس الأمن القومي بمساعدة السادات في الرد على مشروع روجرز وزير الخارجية الامريكي في عهد ريتشارد نيكسون . وكان هذا المجلس المؤلف من عشرة أشخاص منقسماً إلى فئتين إزاء هذا المشروع بين مؤيد ومعارض :

كان هيكل والسادات أيضاً ، من مؤيدي تمديد وقف إطلاق النار الذي يقترحهُ هذا المشروع ، وذلك للأسباب التالية :

1- لم يكن الشعب المصري ، والشعوب العربية بعد موت عبد الناصر عام 1970 في وضعٍ مهيأ لمواجهةٍ عامةٍ مع إسرائيل .

2- كان يشعر بأن القيادة العسكرية والسياسية المصرية الجديدة تحتاج إلى الكثير من الوقت ، لتقييم الوضع ، قبل أن تتحمل مسؤولية قرار الحرب أو السلام .

3- كان يتوقع أن يصاب الوضع الداخلي بعد عبد الناصر ، بحالة من عدم الاستقرار ، ومن الجمود السيكولوجي ، قبل أن يعود إلى وضعه الطبيعي .

4- كان يعرف أن عبد الناصر أراد تجديد وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر وإنه كان يعتبر أن الربيع هو أفضل وقت لبدء العمليات العسكرية .

وهكذا ، كان يعتبر هيكل ، بأن الوضع السياسي يجب أن يسير في هذا الاتجاه ليقنع الإسرائيليين بحسن نية المصريين ، كما كان يريد كسب الوقت إلى أن تصل الاسلحة المطلوبة من الاتحاد السوفييتي إلى مصر[1] .

من جهة أخرى ، كان هيكل ، وهو يهيّىء الرأي العام ، يدعو إلى الحرب ولكن ، ليس أي حرب ، بل إلى حربٍ محدودة ، لذلك ذهب في أوائل عام 1973 إلى آسيا [2] ، حيث

1- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق أمام المدعي العام الاشتراكي" ، المرجع نفسه ، ص134 وما يليها .

2- نشر هيكل هذه المقالات في صحيفة الأهرام ، وعاد فجمعها كلها في كتاب أسماه "أحاديث في آسيا" ، دار المعارف ، بيروت ، دون تاريخ .

التقى في الهند الماريشال مانكشوا قائد الجيش الهندي في الحرب الهندية الباكستانية التي دارت في بنغلاديش عام 1971 ، كما التقى في الباكستان أيضاً بالجنرال تيكاخان الذي أُصيبَ بهزيمة أمام الأول ، ومن خلال هذين اللقاءين ، استطاع أن يجمع معلومات اعتبرها ضرورية للحرب . فالحرب الهندية - الباكستانية برأيهِ يجب أن تكون نموذجا للحرب العربية الإسرائيلية القادمة ، لأنها تقدم للعرب صورة فريدة للحرب المحدودة . ذلك أن هذه الحرب ، هي برأيه ، شكلٌ جديدٌ في تاريخ الحروب ، وإذا كان العالم قد عرف الحرب الشاملة والحرب النووية ، فإنه لم يعرف الحرب المحدودة في إطار التوازنات النووية الجديدة .

أخيراً ، ولتلخيص رؤية هيكل لعبد الناصر ، المحرك الرئيسي لكل أحداث الشرق الأوسط في هذه الفترة ، يمكننا استعارة عبارة من كتابهِ ***وثائق القاهرة*** تقول ، "لقد لخص لي أندريه مالرو ، عبد الناصر ، قبل أشهر من وفاته ، بقولهِ : بعيداً عن أي اعتبار ، وبعيداً عن النجاح والفشل ، الانتصار والهزيمة ، يظل عبد الناصر في التاريخ ، تجسيداً لمصر كما أصبح نابوليون تجسيداً لفرنسا "[1] .

2- Heikal, M.H, *les Documents du Caire, op. cit.,* p. 314.

وضع هيكل نفسه في خدمة الدولة الناصرية بطريقتين ؛ أولاً : كصحفي ، خاصة كرئيس لتحرير صحيفة الأهرام . وثانياً : كرجل سياسة عندما قبل أن يصبح وزيراً للإعلام .

ورغم التناقض الظاهر ، نلاحظ أن هيكل قد مثّل دائماً هذه الثنائية لأن دافعه وحافزه هدفٌ واحد ؛ تقدم ومصلحة مصر والعالم العربي . ورغم ذلك ومن وجهة نظر التحليل ، فإن السؤال الذي يطرحُ نفسهُ على هذا الصعيد هو : كيف استطاع هيكل التوفيق بين وضعه كصحفي بما يفرضه ذلك من الموضوعية ، ووضعه كسياسي بما فيه من انحياز؟

للإجابة عن هذا السؤال سنتناول الجسور التي أقامها بين السياسة والإعلام ، خاصة عبر أنشطته في صحيفة الأهرام ، وأخيراً دوره كوزيرٍ للإعلام .

1- هيكل أو صحافة ملتزمة ؟

الواقع أن هيكل كان من أحد الصحفيين القلائل ، الذين اكتشفوا أن السياسة تحتاج إلى الاعلام والعكس بالعكس . ويمكن أن تعزى إلى ذلك قدرته على إقامة علاقات دقيقة مع عبدالناصر ، علاقات لعبت فيها المهارة الصحفية دوراً كبيراً حيث جعلته موضع اعجاب عبد الناصر طيلة ثمانية عشر عاماً .

ولتوضيح وتحليل علاقات هيكل بعبد الناصر عبر السياسة والصحافة سنحاول أن نجيب عن السؤال التالي :

هل كان هيكل يمارس صحافة السلطة (الدولة) ؟

ويمكن لهذا السؤال حول استقلالية هيكل في ممارساته الصحفية عن النظام أن يجد عناصر جوابه في أربع نقاط أساسية :

أ - تأميم وسائل الاعلام (الصحافة) .

ب – ممارسة الرقابة .

جـ – الالتزام الصحفي لهيكل بالنظام الناصري .

د – العلاقة بين الصحفي والسياسي .

أ– تأميم وسائل الاعلام (الصحافة) .

تندرج هذه المحاولة في سياق أكثر شمولية ، حاول فيه عبد الناصر أن يخلق طبقة وسطى كي يتخلص من البورجوازية القديمة . ومن أجل ذلك حاول أن يبسط سلطة النظام على كل مؤسسات المجتمع بما فيها وسائل الاعلام .

والقضية التي تُطرح هنا هي قضية الملكية الخاصة لوسائل الإعلام . إذ كان عبد الناصر يرفض الملكية الفردية أو الأسرية لهذه الوسائل ، في حين كان هيكل ينظر إلى الأمور بطريقة أخرى ، فنراه يقول : " إن لي منظوراً مختلفاً تماماً عن منظوره وقد كنت أناقشه في هذه النقطة منذ عام 1952 إلى عام 1960 . أحياناً كنت أحاول أن أفهمه ، لكنني لم أكن أستطيع في الوقت ذاته أن أتخيل إمكانية تحويل الملكية الفردية أو الأسرية لوسائل الإعلام إلى ملكية الدولة . كان هذا يبدو لي أكبر الكوارث غير أنه كانت للثورة وزعيمها ، وللنظام السياسي ورجاله وجهة نظر أخرى"[1] .

والواقع أن مصر قد قررت عام 1961 أن تُؤمّم القطاع الخاص كله تطبيقاً للقوانين الاشتراكية . وبما أن صحيفة الأهرام كانت شركة خاصة فلم يكن من الممكن أن تفلت من هذا التأميم . ويبرهن هذا بشكل قطعي على إرادة عبد الناصر في متابعة الثورة حتى النهاية من جهة ، كما يكشف عن الأهمية التي كانت تمثلها هذه الصحيفة للنظام السياسي في تلك المرحلة من جهة أخرى .

وقبل أن يطبق عبد الناصر هذا القرار استدعى هيكل إلى مقره في القناطر ، مما يدل على أن زعيم الثورة كان يكن له الاحترام والتقدير . لكن هذا اللقاء ، بحسب هيكل ، يعتبر أحد أهم وأصعب لقاءاته مع الرئيس ، حيث قال له هذا الأخير خلاله :

1– هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة " ، مرجع سابق ، ص75 .

" نحن على عتبة تحولات اجتماعية كبرى ، وقد بدأت هذه التحولات بتأميم بنك مصر ، وإذا كنا نريد تحقيق خطتنا للتنمية وتحقيق تحولات اجتماعية عميقة في مصر ، فيجب أن يمتلك المجتمع وسائله المالية والانتاجية . إذ انني لا أستطيع ، لا باسم العقل ، ولا باسم العدالة أن أسمح للمجتمع بأن يمتلك كامل السلطة على الاقتصاد في الوقت الذي أترك فيه وسائل الاعلام في أيدي مجموعة من المواطنين"[1] .

للوهلة الاولى ، يبدو ، لنا أنه قد خسر جولة حرية التعبير أمام عبد الناصر . غير أن عبد الناصر قد وعده بمراجعة بعض المظاهر التشريعية للتأميم وذلك لإضفاء المرونة على تطبيق بعض القوانين . وهكذا تم العبور من تأميم وسائل الاعلام إلى إعادة تنظيمها [2] . فقد نقل نظام الصحافة الجديد الذي دارت حولهُ فيما بعد مناقشات بين عبد الناصر وهيكل ، ملكية وسائل الاعلام من الدولة إلى المنظمات السياسية ، أي الاتحاد الاشتراكي العربي . كذلك سمح لكل صحيفة بالاحتفاظ بأرباحها ، وبإنفاق نصف الارباح على تجديد بناها التحتية وعلى اقتسام النصف الآخر مع جمعية العمال في كل دار من دور النشر .

ولا بد من الاعتراف بأن هيكل قد بذل جهداً كبيراً للحصول على وضع مستقل نسبياً ، ضمن سياقٍ لا يعطي أهمية كبيرة لمثل هذا النوع من الطروحات الليبرالية . فقد عبّر عن رفضه لأول تقرير قانوني قدمهُ فهمي عمر المستشار القانوني لرئاسة الجمهورية حول تنظيم الفعاليات الصحفية . ولذلك طلب منه عبد الناصر أن يعيد صياغته ، إلاّ أنه صاغ تقريراً آخر يصر على حرية الصحافة ولا يخضع لنصوص قانون 24 أيار/مايو عام 1960 [3] .

بعد ذلك بخمس سنوات ألح هيكل على عبد الناصر أن يعيد تنظيم الصحافة المصرية في العمق . ووجه دعوة إلى رئيس تحرير صحيفة الوموند بيف ميري ، لزيارة القاهرة ، وذلك لمناقشة تفاصيل تجربه هذه الصحيفة الكبيرة والتعلم منها . ووضع كل جهده لاقناع عبد الناصر بتطبيق ذلك شرط أن تبدأ التجربة بصحيفة الأهرام قبل أن تمتد لتشمل وسائل

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسة " ، مرجع سابق ، ص76 .

2- المرجع نفسه ، ص77 .

3- المرجع نفسه ، ص78 .

الاعلام المصرية الأخرى . وكانت تجربة الوموند التي يقدّرهـا هيكل عالياً ، تتمثل في نوع من "الملكية التعاونية" .

خارج هذا النضال في سبيل حرية الصحافة ، استطاع هيكل أن يطور في صحيفة الاهرام كل ما يتعلق بالتقنيات الحديثة في مجال الكتابة والطباعة في الصحافة العالمية . وهكذا فإن العناوين ، والبنى التحتية ، ومراكز الأبحاث ، ومراكز التكوين ، كانت كلها تستوحي ، آخر ما هو معروف في المجتمعات المتطورة .

ورغم كل هذه الجهود وجد هيكل نفسه مضطراً للتخلي عن منصبه بفعل مرسوم جمهوري أصدره السادات عام 1974 ، معيناً محلّه عدوه ورئيسه السابق علي أمين .

بخسارته موقع رئيس مجلس الإدارة ، ورئيس التحرير ، وكاتب زاوية "بصراحة" ، التي كانت تصدر كل يوم جمعة ، خسر هيكل مشروع حياته كما عبّر عن ذلك ، وهو يعتبر أنه خسر مسؤولياته هذه بسبب آخر مهمة شغلها[1] .

الواضح أن هيكل ، بصفته رئيساً لمجلس الإدارة ، لم يكن له أي تأثير سياسي على السادات ، حتى ولو كان له شيء من ذلك التأثير بصفته رئيساً للتحرير . أما بالنسبة لنفوذ هيكل السياسي الذي أزعج السادات ، فقد كان ينبُعُ من عموده السياسي الأسبوعي "بصراحة" ، إذ كانت مقالاتُه هذه ، وهي تفسر ، وتحلل أنماط تكوّن القرار السياسي المصري ونتائجه ، سواء على الصعيد الوطني أو على الصعيد الدولي ، تصطدم بالمشاريع السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية لأنور السادات وكذلك بقرارته على جميع المستويات[2] .

يعطينا كل هذا ، الانطباع بأن هيكل قد حاول طوال الفترة التي تعامل فيها مع السادات ، أن يحافظ على مساحة من حرية التعبير الشخصية . ومن الواضح أنه لـم يعد باستطاعة السادات أن يتحمل هذا الصحفي الذي يفرض نفسه بينه وبين الرأي العام ، لقد أصبح بنظره رجل سياسة لا صحفيا وكان هذا هو السبب الذي دفعه لإبعاده .

هكذا ، كان هيكل يحاول دائماً تأكيد مفهومهِ الليبرالي للصحافة ، سواء في ظل عبد

1- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص223 - 224 .

2- انظر تعليق صحيفة Times حول إقالة هيكل من قبل السادات ، في 4 شباط 1974 ، لندن . (النص كاملاً موجود في ملحق الكتاب ، ص 330) .

الناصر حيث رفض التأميم ، أم في ظل السادات فيما بعد .

ب ـ ممارسة الرقابة .

في عهد عبد الناصر ، كانت جميع الصحف المصرية تخضعُ لرقابة النظام . والواقع أنه كان يتم دائمـاً تعيين مسـؤول من الحزب الواحد ، الاتحـاد الاشتراكي العربي ، على رأس الصحف .

وكانت صحيفة هيكل (الأهرام) نفسها تخضع لهذه الرقابة ، مع ذلك ، وكما يقول هيكل نفسه ، كان مقال "بصراحة" مجازاً من قبل عبد الناصر نفسه ومعفياً من هذه الشروط[1] .

هكذا استفاد هيكل من مساحة الحرية الأسبوعية هذه التي أُعطيت له بشكل خاص للقيام بالنقد الذاتي للنظام ، ولإدانة بعض الممارسات مثل ممارسات "مراكز القوى" [2] التي كانت تريد أن تمارس سياسة القبضة الحديدية ، والمواجهة المباشرة مع إسرائيل ، والارتباط التام مع الاتحاد السوفييتي . في هذا السياق طالب هيكل أن تكون لمصر علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة ، بالحديث عن "تحييد الولايات المتحدة" ، وبرأيه أنها تمثل قوةً عظمى لها دورٌ أساسي لتأمين السلام ، دور يمكن لمصر أن تقبله من تلقاء نفسها[3] .

كذلك استعمل هيكل هذه الوسيلة لإدانة ممارسات التعذيب ، واللجوء التعسفي للسجن .كما انه دعا إلى إنشاء دولة القانون ودولة المؤسسات[4] .

ويمكن القول ، إنه إذا لـم يكن هيكل خاضعاً ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، رسمياً ، للرقابة فإن حريته في التعبير كانت مقننةً بشكل ما : كان يعرف ما يمكن قوله وما لا يمكن قوله . وكما يقول هو نفسه . فقد كان عبد الناصر يثق به كما كان هو يثق بالتطلعات الوطنية لعبد الناصر .

وهنا يجب وضع رغبة هيكل في الحرية بالنسبة لسياق المرحلة التي عاشها ، أي للرقابة التي كانت مفروضة تماماً على حرية التعبير . وهنا يظهر إلى حد ما ، التناقض بين الفكر

1- صحيفة الأهالي ، "حوار مع هيكل" ، القاهرة ، 1 حزيران 1983 .

2- الأهرام ، بصراحة : "كيف تنشأ مراكز القوة ؟" ، 25 تشرين الأول 1968 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص 38 .

4- الأهرام ، بصراحة : ، "المجتمع المفتوح" ، 18 تشرين الأول 1968 .

والعمل ، ومع ذلك ، تبقى مقالات هيكل ذات أهمية كبيرة لفهم الفكر والعمل السياسي المصري اللذين سادا الفترة المصرية .

وكما يقول جان لاكتور ، فإن مقالات هيكل كانت تثير اهتمام المراقبين الاجانب الذين يرون فيها ، ليس فقط رسالة موجهة إلى الشعب المصري ، بل رسائل موجهة للسوفييت والامريكيين ، بل ورسائل سياسية تعبّر عن قناعات داخلية[1] . هكذا استطاع هيكل في بداية تلك المرحلة ، أن ينتقد النظام وأن يسمح لبعض رجال الفكر بالتعبير عن أنفسهم .

ففي ظل إدارته نشرت عدة أعمال نقدية مثل ***بنك القلق*** لتوفيق الحكيم . ***اللص والكلاب*** و ***ثرثرة فوق النيل*** و ***السمان والخريف*** لنجيب محفوظ وغيرها [2] . حيث عبر هؤلاء الكتاب ، في ظل عبد الناصر عن الاستياء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

ج ـ الالتزام الصحفي لهيكل بالنظام الناصري .

بعد عدة مناقشات ومشاورات مع إدارة صحيفة الاهرام ، أصبح هيكل ، وبفضل علي اسماعيل باشا ، رئيساً لتحرير واحدة من أكبر وأهم صحف العالم العربي . وأول مقال كتبه هيكل في صحيفة الأهرام كان بعنوان" بصراحة " **السر الحقيقي في مشكلة عمان ،** بتاريخ 15 آب/اغسطس عام 1957 . أما آخر مقال كتبه ضمن سلسلة مقالات تحت عنوان "بصراحة" كان مقال **الظلال والبريق** الذي نشر في 1 شباط/فبراير عام 1974 [3] .

لقد تأسست هذه الصحيفة عام 1876 [4] في الاسكندرية ، على يد سليم وبشارة تقلا ، وهما أخوان مسيحيان لبنانيان . بدأت الأهرام أسبوعية قبل أن تصبح يومية في 3 كانون الأول/يناير عام 1881 وكانت صحيفة أدبية واقتصادية .

وفي عام 1899 استقرت الصحيفة في القاهرة ، لترافق طيلة سنوات طويلة التاريخ المصري في كل مراحله ، بأمانة وحرية حتى انقلاب عام 1952 .

1- Lacouture, Jean, *op. cit.*, p. 317.

2- صحيفة القبس الكويتية ، مقابلة مع هيكل ،" الموقف من امريكا أصل خلافاتي مع السادات" ،21 شباط 1976 .
وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين "أحاديث في العاصفة ، مرجع سابق ، ص43 .

3- المحلاوى ، حنفي ، مرجع سابق ، ص 136 .

4- الفهد ، ياسر ، "الصحف العربية المعاصرة" ، منشورات طلاس ، دمشق ، 1980 ص 116 .

ومع صعود الضباط الأحرار إلى السلطة ، كان على صحيفة الأهرام ، مثلها مثل جميع المنشورات المصرية ، أن تواجه رقابة أسياد مصر الجدد .

لكن ، وجود هيكل على رأسها ، جعلها تعيش أياماً أفضل كثيراً مما عاشته الصحف الاخرى . وقد ورد في *موسوعة العالم المعاصر : العرب* "بأن هيكل ، وهو يدير صحيفة الاهرام ، قد كشف عن صحفي لامع ، اعتبر منذ عام 1957 من بين أهم الشخصيات في مصر المعاصرة . وكانت مقالاته تصدر كل يوم جمعة معطيةً آخر وجهات النظر الرسمية حول القضايا الداخليه والخارجية في البلاد"[1] .

ولا بد من الاشارة في هذا الخصوص ، بأن هيكل قد وجد نفسه وهو يتسلم مسؤولية صحيفة الاهرام ، في وضع صعب ودقيق من الناحية المالية :

أولاً : كانت خسائر صحيفة الاهرام قد تجاوزت خلال 10 سنوات ، مليوناً ونصف المليون جنيه مصري ، ويعود تفسير هذا الوضع المزري إلى مصاعب التوزيع ، حيث لم تكن الصحيفة تطبع أكثر من ثمانية وستين ألف نسخة (68.000) .

ثانياً : كانت البني التحتية التقنية في حالة من الفوضي . حيث تم تصنيعها في فرنسا في الفترة ما بين عام 1904 وعام 1928 ، ولم يتم تجديدها منذ ذلك الحين

ثالثاً : كان رأس مال صحيفة الاهرام أربعمائة ألف جنيه مصري (400.000) ، إضافة إلى أربعمائة ألف جنيه مصري (400.000) ثمن الأسهم ، ولهذه الأسباب المختلفة فكرت أسرة تقلا ببيع الصحيفة .

هكذا ، إذن ، كان الوضع المالي للأهرام عندما استلمها هيكل عام 1957 . لكنه ترك هذه الصحيفة في وضع مختلف تماماً ، وهو يوضح هذا التبدل أمام المدعي العام الاشتراكي ، خلال التحقيق الذي أُجري معه بأمر من السادات عام 1978 فيقول :

" لقد تركت صحيفة الاهرام عام 1974 ، أي بعد 17 عاماً من ادارتها ، في ظروف جديدة تماماً . حيث تجاوز رأس مالها 40 مليون جنية مصري ، أما حجم عملياتها السنوية فيدور حول 100 مليون جنيه ومعدل سحبها وبيعها اليومي يتجاوز ثلاثة ارباع المليون بما فيها

1- Encyclopédie Du Monde Actuel, *les Arabes*, Livre du poche, san date, Paris, p. 69.

عدد يوم الجمعة الخاص ، مع ربح يقترب من ثلاثة ارباع مليون جنيه "[1] .

يبدو تأكيد هيكل ، هذا ، مطابقاً للواقع حيث أن الطبعة العربية والدولية للأهرام أصبحت واحدة من أفضل أول عشر طبعات في العالم ، وذاك بحسب المجلس الدولي للصحافة المجتمع في لوس أنجلوس 1971 [2] .

بسبب هذا النجاح أمكن بناء مقر جديد للأهرام في القاهرة ، يجمع ، في عدة مبانٍ ، جميع أجهزة الصحيفة وجميع مراكزالابحاث التابعة لها[3] .

ولأول مرة في مصر تضمن هذا المركز ، عدة أقسام يتخصص كلٌ منها في أبحاث سياسية واستراتيجة تتعلق بمصر ، وبالعالم العربي ودول العالم الاخرى . وهكذا تخصص أحد المراكز في البحث في الصراع العربي الاسرائيلي ، بينما كُرس آخر لتنقيب خزائن الارشيف المصرية المعاصرة ، وأخيراً خصص مركز للتأهيل وتهيئة الطلاب لمهنة الصحافة المكتوبة .

لقد حاول هيكل ، من خلال اضطلاعه بالمسؤولية عن الصحيفة الكبيرة ، أن يحافظ على شيء من الاستقلالية النسبية إزاء النظام الناصري ، فنجح أحياناً ، ولم ينجح في أحيانٍ أخرى .

د ـ العلاقة بين الصحفي والسياسي

بدأ تكفل عبد الناصر بهيكل منذ اصطحابه إياه إلى مؤتمر باندونغ في أندونيسيا في عام 1956 . وكان من شأن هذا (الموقف) أن يثير انتقادات وغيرة الصحفيين الآخرين ، خاصة أن عبد الناصر كان يعطي اهتماماً أكبر لهيكل ، ويمضي معهُ وقتاً أكبر من أي صحفي آخر بل ان الصحفيين قد فتحوا نقاشاً مع عبد الناصر حول هذه النقطة ، حيث قال لهم " من قال لكم إنه يتلقى معلومات مني؟ على العكس إنه هو الذي يعطيني إياها"[4] .

1- محمد حسنين ، "تحقيق سياسي امام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص 223 .
2- المرجع نفسه . انظر ايضاً ملحق الكتاب ، صحيفة التايمز وتعليقها على إقالة محمد حسنين هيكل ودوره في صحيفة الأهرام .
3- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ص 406 .
4- حوار شخصي مع هيكل ، الأسكندرية ، 9 آب 1994 .

والواقع أن هيكل كان على معرفة تامة باهتمامات عبد الناصر ، ويعطيه الاجابات الحاسمة . وبهذا الخصوص يقول الكاتب الأردني طلعت هُمام :

" كان هيكل يعرفُ ما يريدُ عبد الناصر كإنسان وكسياسي . كان يستطيع أن يوقظهُ من نومهِ ليبلغهُ معلومات هامة كي يتخذ القرارات التي لا بدّ من أخذها . كما كان يرفق الانباء والمعلومات بتحليلات شخصية ، وبوجهات نظرٍ شخصيات أخرى ، وباستشهادات يستعيرها من آخرين ، واذا كان هناك أخبار غير سارة يختمها دائماً بعبارة حظاً سعيداً (Hard Luck) "[1] .

لاشك بأن الحصول على ثقة رجلٍ سياسي مهم كعبد الناصر كانت تفترض امتلاك معلومات هامة وذكاء سياسي كبير . ولا يمكن إنكارُ هذه الكفاءات المهنية والشخصية لهيكل التي جعلت منه أمين سر عبد الناصر .

وبقدر ما كان النظام الناصري يقوي وجوده على الصعيد الدولي والوطني ، بقدر ما كان موقع هيكل يتأكد ويبرز أكثر فأكثر . وهذه العلاقة بين الصحفي ورجل القرار هي التي يوضحها بقوله :

" لا يخص هذا الوضع مصر فقط ، بل أكثر الدول المتقدمة ، هكذا كان عميد الصحفيين في هذا العصر ، والتر ليبمان ، مقرباً جداً من الرئيس ويلسون . حتى أنه هو الذي حرر بيدهِ نقاط ويلسون الأربع عشرة خلال الحرب العالمية الاولى . هذه النقاط التي اعتبرها الوفد أساساً لعملهِ ، برئاسة زغلول ، في مصر . كما أن أكبرالصحفيين الدوليين من مثل بيف ميري في الوموند الفرنسية ، جيمس رنستون في نيويورك تايمز في الولايات المتحدة الأمريكية . كونراد الرس في ديرشبيغل في ألمانيا . آلكسي أدجوني في أزفستيا في روسيا ، لم يكونوا يكتفون فقط بنقل المعلومة ، بل بإعادة خلقها مع رجالٍ مثل ديغول ، كنيدي ، براندت وخروتشوف . كذلك في مصر ، أيضاً كانت للأديب عباس العقاد علاقات وثيقة مع سعد زغلول رجل السياسة"[2] .

ولتجسيد هذا المنطق لم يتردد هيكل في وضع شخصيته كرئيس لتحرير صحيفة

1- هُمام ، طلعت ، مرجع سابق ، ص 25 .

2- هيكل ، محمد حسنين " بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص228 .

الاهرام في خدمة النظام الناصري . وقد استعمل لهذا الهدف منهجين ، هما :

1- منهج نشط يتمثل في الدفاع عن وجهة نظر النظام وشرحها .

2- منهج سلبي ، بتبني وجهة نظرٍ نقدية إزاء النظام ورجاله .

نحن هنا أمام هيكل الذي يحاول أن يقوم على التوالي بدورِ القاضي والمتهم . لكن المهمة تظلُ صعبة رغم ادعاءاته بموضوعية أحكامة ، ومن هنا تأتي الشكوك ، والتساؤلات التي طرحت حول دوره .

وفي سبيل تقديم البرهان على واقعية هذا المنطق ، أي على دعم هيكل اللامحدود لعبد الناصر نوردُ ما يقولهُ الكاتب طلعت هُمام :

" كان هيكل يقوم بجمع الأخبار والمعلومات من مكاتب الاهرام المتفرقة في العالم ليقوم بنقلها هاتفياً إلى عبد الناصر راسماً صورة للوضع الدولي . وفي أغلب الأحيان كان يسبق ، بذلك ، السفراء والموفدين إلى الخارج ، إذ يحصلُ على الانباء قبلهم . ومن ثم يقوم بتلخيصها وتقديم تقرير إلى عبد الناصر . وفي حين كان بعض الضباط يحصلون من صلاح نصر رئيس الاجهزة السرية المصرية ، على مبالغ ضخمة لشراء حقوق لنشر الكتب المكتوبه عن عبد الناصر ، كان هيكل يسبقهم ويحصلُ عليها بفضل علاقاته الشخصية المتعددة"[1] .

إضافة إلى ذلك ، كان هيكل وبفضل شبكة علاقاته الشخصية الممتدة مع عددٍ من الصحفيين الأجانب ، يستطيع أن يُطلعَ عبد الناصرعلى ما سيكتبه بعض الصحفيين عنه قبل أن تنتشر في صحفهم .

أما فيما يخص دعم هيكل لنظام عبد الناصر ، فإن بعض المقالات التي كتبها عن النظام الناصري وعلاقاته بالمعارضين ، تقدم صورة وافيةً عنه فنجده يقول :

«اذكر أنني خلال صيف 1965 ، وهو العام الذي بلغ فيه عدد المعتقلين 5000 معتقل ، ذهبت إلى عبد الناصر لأقول له بأن معلوماتي في الاهرام ، تقول بأن عدد المعتقلين قد تجاوز 500 خلال الشهر الأخير وحده . فأجابني بأن العدد قد بلغ فعلاً 700 ، وأن هناك أعمال

1- هُمام ، طلعت ، مرجع سابق ، ص24 .

اغتيالات وأعمال إرهاب تتم دون معرفتي" .

ثم أضاف عبد الناصر لهيكل :

" مشكلتي أنني لا أستطيع التردد . أنت كصحفي تستطيع أن تأخذ وقتك في التفكير ، أما أنا كمسؤول فإن عليّ أن أتبنى خطةً محددة ، أن أقرر ، وأن أتحمل مسؤولياتي"[1] .

الشيء الملاحظ أنه بعد هزيمة عام 1967 اتجهت كتابات هيكل نحو النقد الذاتي ، وهو سلوك تقليدي في نظام عبد الناصر . ولذلك كتب في 30 حزيران/يونيو عام 1967 مقالاً بعنوان : "علامات – إلى أين من هنا؟ وإلى أين بعد الآن؟ " . كذلك كتب أكثر من 25 مقالاً حول مواضيع الديمقراطية ، وحرية التعبير ، وقضايا التوقيف على ذمة التحقيق والاعتقالات العشوائية .

ولا بد هنا من الاشارة إلى أن التغييرات التي كان هيكل يدعو إليها مثل : مجتمع أكثر انفتاحاً ، واحترام الحاكمين للقانون بشكلٍ أفضل ، أصبحت مواضيع للمناقشة في قمة هرم الدولة ، بعد تناوله لها ، ولم يكن عبد الناصر نفسه يعارض عملية الديمقراطية هذه بل ويشجعها[2] .

لا شك ، في أن مقالات هيكل ذات أهمية كبرى لفهم الوضع المصري في زمنهِ . لكن نشرها كان يحصل دائماً متأخراً بعض الشيء مما كان يضعف مصداقيتها وتأثيرها . فقد كانت هذه المقالات محاولة لتحليل وفهم اسباب الهزيمة ، ولتوضيح نتائجها الداخلية ، وأخيراً للمطالبة الرسمية بإقامة الديمقراطية .

وبما أن هيكل كان أحد الصحفيين المسموح لهم رسمياً بالتعبير وبإنتقاد النظام ، فلا شك بأن بعض الصحفيين وبعض الكتاب ذوو التوجهات السياسية المختلفة سواء في مصر أو في العالم العربي لم يكونوا ينظرون بشكلٍ إيجابي إلى العلاقة بينهُ وبين عبد الناصر .

ولذلك ، خصص الكاتب العراقي عزيز السيد جاسم كتاباً عن الموضوع بعنوان ***سقوط مدرسة هيكل وأزمة العقل السياسي المصري*** حيث يحاول الكاتب أن يبرهن على ما

1- هيكل ، محمد حسنين ، "المصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص 80 .

2- مجلة الاهالي ، مقابلة مع هيكل ، " أفهم ما دار قبل الثورة وخلالها أما الآن فلا أفهم الوضع القائم " . القاهرة 12 نيسان 1978 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص95 .

يسميه الظاهرة الشمولية لهيكل ، كما ويحاول من جهة أخرى ، أن يحلل العناصر التي رافقت هذه الظاهرة . وهو يعتبر أن ظاهرة هيكل باعتبارها ظاهرة " اجتماعية سياسية " هي ظاهرة شرقية بشكل أساسي ، بكل ما يحمله هذا التعبير في الخيال الغربي . وبرأيه أن هيكل هو ثمرة تقليد شرق أوسطي اوتوقراطي ، يتميز بغياب حرية التعبير ، وبإنعدام الديمقرطية في المؤسسات ، وبطابع المادية الغالب على السلوكيات . وكل هذه الخصائص والصفات مخالفة تماماً لما هو موجود في الغرب[1] .

ويعتبر كاتب آخر هو عمر التلمساني ، مرشد الإخوان المسلمين ، "بأن هيكل قد جعل الصحافة ذات قطب واحد ، وأخضعها لمصالحه الشخصية خلال المرحلة الناصرية ، إلى حد أنه أصبح الصحفي المصري الأوحد ذا النفوذ الواسع"[2] .

أما أنيس منصور أحد الصحفيين البارزين في مصر والعالم العربي ، فيعتقد بوجود تواطؤ بين عبد الناصر وهيكل ، وفي ذلك يقول :

" في حين أن الصحفي يناقش بشكل عام مشاكل وقضايا عامة تحت نظر الشعب والجمهور ، فإن هيكل كان يناقش أمور الشعب تحت نظر عبد الناصر [3] .

الحقيقة أن تفسير أنيس منصور قريب إلى الواقع في طرحة ، لكننا نستطيع أن نقول إنه في الحالتين : أن يناقش هيكل القضايا العامة أمام الشعب ، أم أمام الرئيس ، فإن النتيجة واحدة ، وبلوغ الهدف يتحقق بطريقتين :

فعندما يناقش هيكل الرئيس يتحدث عن الشعب وعن القضايا العامة الأخرى ، وعندما يتحدث إلى الشعب فإنه ينقل إليه رسالة الرئيس ، وبهذا يبدو كصلة وصل بين رأس الدولة والشعب .

ومع ذلك ، ورغم أن هيكل كان الرجل الأقرب إلى عبد الناصر ، فإنه لم يتردد عام 1968 ، عندما علم باعتقال زميله الدكتور جمال العطيفي ، بالاتصال هاتفياً بمكتب الرئيس ليسأل عن أسباب هذا الاعتقال . وقد أجابه عبد الناصر بأن العطيفي كتب مقالاً في

1- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص 179 .
2- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص 234 .
3- نقلاً عن جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص 101 .

الأهرام عن قوانين الاستثناء التي تنشرها مجلة الوقائع المصرية وتجهلها أغلبية الشعب المصري . لكن هيكل ألحّ ودافع عدة مرات عن زميلة متحملاً مسؤوليتة كرئيس تحرير ، وسائلاً عبد الناصر عن أسباب هذه الأعمال التي تستهدف رجال الفكر في مصر ، وبعد عدة تدخلات أمر عبد الناصر بإطلاق سراح العطيفي[1] .

أما الكاتب فؤاد زكريا فيرى بأن هيكل لم يدافع عن حرية التعبير ولا عن حقوق الإنسان . بل إنه وعلى العكس من ذلك قد دافع عن بيتهِ (الاهرام) ، وعن رجاله وهيبته[2] .

يرد هيكل على هذه الهجومات المتكررة دون تحديد المقصود من إجابته بقوله :

" قالوا يوماً ، بأن الصحافة ظلت ، طوال فترة من الزمن احتكاري الخاص ، وانني كنت أعمل لذاتي ولمصالحي الشخصية ، في حين أن احسان عبد القدوس ، أحمد بهاء الدين ، صلاح ماهر ، ومصطفى أمين كانوا يكتبون في الصحف وانني اقترحت عدداً منهم لمواقع مسؤولية"[3] .

" لقد كان بيني وبين عبد الناصر ثقة متبادلة ،لكن هناك مناقشات حصلت بيننا أيضاً لم أخفِ خلالها آرائي الشخصية ، لأنني كنتُ أعرف ميول الاتحاد الأشتراكي لتشكيل حكومة فوق الحكومة . ولم أكن أتأخر في حينه عن الدعوة في مقالتي إلى انفتاح على الولايات المتحدة ، ما الذي حصل إذن؟ كم من الكتّاب نشروا مقالاتٍ في الجمهورية لمواجهتي ؟ أين هي إذن الصحافة المقفلة على هيكل؟ . لقد كنتُ لعبد الناصر صديقاً ، يثق به سواء لخطه الاستراتيجي أم لصدقه "[4] .

ويرد هيكل أيضاً على الذين يتهمونه باحتكار المعلومات والصحافة لنفسه بقوله انه لم يكن إلا صحفياً بسيطاً يركض وراء المعلومات ، ولكنه كان يساهم أيضاً في تكوينها .

1- هيكل ، محمد حسنين " السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة " ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1988 ، ط8 ، ص 311 .

2- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص 220 .

3- مجلة صباح الخير ، مقابلة مع هيكل " لم يكن عبد الناصر طبعة رخيصة من عصر النازيين " ، القاهرة 14 كانون الثاني 1982 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص140 .

4- المرجع نفسه ، ص141 .

ويورد على سبيل المثال انه كان وراء فكرة فتح قناة السويس عام 1975 ، إلى جانب أنور السادات ، الذي قبل هذه الفكرة بعد أن أقنعه بها . كما يقول بأنه هو من كتب خطة هذه الفكرة ، ولو أنه كان ما يزال في صحيفة الاهرام لكان أول من نشر الفكرة والخطة معاً [1] .

باختصار ، يعتبر هيكل أن دوره داخل النظام الناصري كان دوراً مشروعاً ، وإنه لم يتجاوز أبداً حدود مهنته كصحفي . ولا شك أن هيكل قد دافع عن عبد الناصر ونظامه ، ولم يتنكر للرجل بعد موته ، في حين أن آخرين قد غيروا مواقفهم تحت تأثير المصالح الجديدة . اما هو ، فلم يتوقف في أعماله المختلفة ، عن الاعلان بأن عبد الناصر كان رجلاً سياسياً هاماً وزعيماً كبيراً وسيظل كذلك في تاريخ مصر والعالم العربي والعالم كله .

والواقع أن كل كتاب من كتب هيكل يحمل معطيات تهدف الى تمجيد عبد الناصر ، ونذكر على سبيل المثال : ***مذكرات عبد الناصر*** (1969) ، ***وثائق القاهرة*** (1972) ، ***لمصر لا لعبد الناصر*** (1976) وغيرها .

2- وزير الإعلام

في 25 نيسان/ابريل من عام 1970 قرر عبد الناصر استدعاء هيكل ، حتى دون استشارته ، لتكليفه بمنصب وزير الاعلام . تردد هيكل قبل قبول هذه الدعوة . وعبّر عن هذا التردد بإرساله كتاباً إلى الرئيس يوضح فيه الاسباب التي تمنعه من شغل منصب على هذا القدر من الأهمية[2] .

ويمكن تلخيص هذه الاسباب بالتأكيدات التالية :

1- أن الصحافة قد أصبحت حياته الحقيقية وهو لا يستطيع ممارسة مهنة أخرى .

2- أن القرار الذي يكلفه بالاضطلاع على التوالي بمسؤوليات في الأهرام وبمسؤوليات وزارية يُحمله عبء مسؤولية كبيرة ، وهو يعتبر نفسه غير قادر عليها . ولذلك يفضل تركيز جهوده

1- مجلة صباح الخير ، مقابلة مع هيكل " لم يكن عبد الناصر طبعة رخيصة من عصر النازيين " ، القاهرة 14 كانون الثاني 1982 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص141 .

2- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 67.

على خدمة صحيفة الاهرام .

3- إن الجمع بين المهمتين يعطيه جميع الوسائل التي تجعل منه رجل سلطة وقوة ، وذاك ما يمكن أن يؤذي النظام .

وفي ختام رسالته يخلص هيكل إلى لفت نظر عبد الناصر إلى واقع أن المهام الوزارية تتطلب استعدادات وكفاءات لا يمتلكها هو[1] .

لا شك في أن هذا التعيين يعكس ثقة عبد الناصر بهيكل ، خاصة أن عبد الناصر كان يهييء في حينها الرأي العام الوطني والعربي لحربٍ محتملة ضد اسرائيل . وحول هذه النقطة الأخيرة يبدو من المناسب الاشارة إلى أن عبد الناصر حاول اقناع هيكل بقبول هذا المنصب ، بالقول أن مصــــر تقترب من ظروف وأحداث حاسمة . إضافة إلى ذلك كان هيكل يعرف أن "خطة غرانيت 1" (هي خطــة هجومية أعدها الجيش المصري لعبور قناة السويس بخمس فرق على ثلاث محاور) قد تقررت ، وكان مطلعاً أيضاً على تفاصيل تطوير "خطة غرانيت2" (والعبور والوصول والتمسّك بخط المضايق) . في هذا السياق كان عبد الناصر يحاول اقناع هيكل ، بالقول أنه يريده إلى جانبه حتى نهاية الحرب مع اسرائيل التي يعتقدها حاسمة ولصالح العرب[2] . لذا لـم يكن أمام هيكل إلا القبول .

ويعتبر الكاتب جان لاكتور في كتابه المعنون ***ناصر*** أن هذا التكليف يعني شيئاً آخر . وفي ذلك يكتب :

" سألت دبلوماسياً مصرياً عن أسباب تعيين محمد حسنين هيكل وزيراً للأعلام والتوجيه الوطني . لماذا هذا "التسويق" promotion لرجلٍ كان قد أصبح الأقوى في مصر بعد الرئيس؟

- لتهيئة الرأي العام لا بد من رجلٍ على هذا القدر من النفوذ .
- تهيئة لماذا ؟
- للسلام دون شك "[3] .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص223 .

2- المرجع نفسه ، ص224 .

3- Lacouture, Jean, *op. cit.*, p. 190 .

وأصبح هيكل وزيراً للاعلام ، أو ما يسمى في مصر " وزير الارشاد القومي " في 26 نيسان/ابريل 1970 . وظل بهذا المنصب حتى قدم استقالته بعد وفاة عبد الناصر في 18 تشرين الأول/اكتوبر 1970 [1] .

وهنا لا بد من التذكير بأن هيكل قد رفض هذا المنصب أربع مرات في السابق . الاولى عام 1956 والثانية والثالثة خلال الوحدة السورية المصرية 1958 - 1961وبعدها ، وأخيراً الرابعة بعد نكسة عام1967 [2] .

وعلى الرغم من عدم استمرار هيكل طويلاً على رأس وزارة الاعلام (6 أشهر) وذلك بسبب موت عبد الناصر في ايلول/سبتمبر عام 1970 . إلا أنه ، لا يمكن اغفال دوره ونشاطه داخل الحكومة التي شارك فيها بفعالية كبرى وساهم في بلورة وتحقيق قرارات سياسية مصرية ، خاصة في مجال السياسة الخارجية .

وثمة مداخلات عدة تسم وجود هيكل في الحكومة :

– على الصعيد الداخلي : حاول ، إعلامياً ، أن يخلق نوعا من الـ B.B.C على الطريقة المصرية ، وذلك لتأمين استقلالية كل جهاز من أجهزة الإعلام .

– اكتشف كوزير إعلام وجود مخصصات كبيرة لبعض الصحف اللبنانية ،خاصة مجلة الحوادث مقابل القيام بدعاية للدولة الناصرية ، وقد أدان هذا السلوك غير الطبيعي بحسب رأيه[3] .

– أخيراً قام بصفته وزيراً ، بتحذير الدولة والنظام من التصريحات المبالغة والكاذبة بخصوص اسرائيل . وبرهن على تفوق اسرائيل التقني والعسكري[4] . لهذا السبب تم استجوابه حول بعض المقالات ، خلال مثولة أمام المدعي الاشتراكي ، بأمر من السادات عام 1978 .

أما على الصعيد الخارجي : كان أول تدخل لهيكل بخصوص مشروع روجرز للسلام

1- المحلاوى ، حنفي ، مرجع سابق ، ص 137 .

2- مجلة العربي ، "وجها لوجه هيكل ومحمود المراغي " ، الكويت ، العدد 326 ، كانون الثاني 1986 ، ص68 .

3- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 119

4- الاهرام ، بصراحة : "هذه هي الازمة الحقيقية" ، 19 حزيران 1970 .

عام 1970 ، الذي كان يقترح وقفاً للقتال وللعداء بين اسرائيل والدول العربية ، وذلك للسماح للأطراف المتنازعة بالجلوس إلى طاولة المفاوضات بهدف إيجاد حل عادل ودائم للصراع .

قبلت مصر هذه المبادرة كأساس للأنطلاق نحو المفاوضات ، في حين أن بعض الدول العربية الاخري ، مثل العراق وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينيه قد رفضتها ، متهمة مصر بالضعف والتخلي عن القضية الفلسطينية . وبهذه المناسبة توجه محمد حسنين هيكل يوم 12 آب/اغسطس عام 1970 للفلسطينيين ، محذراً إياهم من كل هجوم على مصر ورئيسها . ثم عاد وبررَ هذا التحذير في مؤتمر صحفي قائلاً للفلسطينيين" بأن لهم الحرية بأن يفعلوا مايشاؤون ، ولكن للمصريين أيضاً حرية إتخاذ المبادارات التي يريدون ، مطالباً الفلسطينيين بمحاولة تجنب لغة الاتهام وتبني لغة الحوار الموضوعي"[1] .

والحقيقة ، أن هيكل كان على اتصال وثيق بالسلطة المصرية وبياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد اعتقد بأن منظمة التحرير الفلسطينية لن تفهم معنى حركة عبد الناصر التي كانت تستهدف قبول مبادرة روجرز لكسب الوقت الضروري لتحضير العمل العسكري[2] .

ومثال آخر على تدخل هيكل المباشر في العمل السياسي المصري ، تتمثل في مشاركته في الوفد المصري الذي قام بزيارة سرية للاتحاد السوفييتي في حزيران/يونيو عام 1970 ، برئاسة جمال عبد الناصر ، وكان هدف الزيارة زيادة عدد الخبراء السوفييت في مصر ، وذاك ما كان بريجنيف يتردد بخصوصه ، مبرراً موقفه بما يمكن أن ينجم من ردات فعل سلبية لدى المصريين عن وجود سوفييتي كثيفٍ على أراضيهم . وبما أن عبد الناصر لم يكن مقتنعاً بهذا التحليل الذي قدمه له بريجنيف خلال لقائهما ، فقد وجه الرئيس السوفييتي الكلام إلى هيكل قائلاً : "لا شك أن لدى السيد هيكل معلومات عن ردات الفعل السلبية هذه في وزارته؟"

1- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي امام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص217 .

2- مجلة التضامن ، مقابلة مع هيكل" قصة عرفات مع عبد الناصر والسادات" ، الكويت ، 3 كانون الأول 1983 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " مرجع سابق ، ص437 .

وقد تعجب هيكل من هذه الملاحظة ، وقال لبريجينيف بأنه لا وجود لأي تقرير عن هذا الموضوع ، ثم وعد عبد الناصر بأن يتحقق من ذلك فور عودته إلى القاهرة : وقد اكتشف في الواقع ، وبعد عدة تحقيقات في مصر ، أن معلوماتٍ غير دقيقة قد تسربت إلى (الحليف الكبير) الاتحاد السوفييتي بطريق الخطأ .

يوضح هيكل أن زيارة عبد الناصر هذه اكتسبت أهمية كبرى ، لأنها كانت تعني بالنسبة للنظام المصري رفع درجة التورط السوفييتي في سبيل التأثير في موازين القوى بين العملاقين الدوليين ، ولتحويل الصراع الاقليمي مع اسرائيل إلى صراعٍ ذي أبعاد دولية ، وذي تأثيرٍ على التحالفات الشرق اوسطية[1] .

الحقيقة ، أنه أتيحت لهيكل مناسبات أخرى للتدخل بصفته وزيراً للأعلام . فهو الذي أطلع عبد الناصر على المواجهة المسلحة بين الجيش الأردني ومنظمة التحرير الفلسطينية في أيلول/سبتمبر عام 1970 . وهو الذي نصحهُ بإرسال رئيس هيئة الاركان في الجيش المصري إلى عمان . وعندما عاد هذا الأخير من عمان لم يكن في خطابه ما يطمئن . لذلك تم تنظيم اجتماع طارىء في القاهرة لتوضيح المشاكل العالقة بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية . وقد أدى هذا الاجتماع إلى استعادة ثقة ، سمحت بالتوصل إلى اتفاق وإيقاف القتال بين الطرفين المتنازعين ، ويعتبر هيكل ذلك آخر معركةٍ لعبد الناصر بصفته زعيماً تاريخياً للعالم العربي[2] . في حين أن طريقاً آخر كانت تنتظر هيكل بعد وفاة الرئيس ، إذ بدأ مرحلة جديدة مع الرئيس الجديد أنور السادات .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ص67 .

2- مجلة التضامن ، "مقابلة مع هيكل" ، الكويت ، 3 كانون الثاني 1983 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين "أحاديث في العاصفة ، " مرجع سابق ، ص437 .

الفصل الثاني

هيكل – السادات: من الدعم الواضح إلى المعارضة المحسوبة

بعد موت عبد الناصر عرفت مصر فترة حزنٍ عصيبة (كانت تشعر بأنها فقدت أباً) . وكان عليها أن تنتخب رئيساً جديداً بسرعة ، وكما يقول تيري دي جاردان في كتابه ***السادات فرعون مصر*** . "لقد اتجه التفكير إلى العديد الذين من الممكن أن يخلفوا عبد الناصر : سامي شرف ، شعراوي جمعه ، وأيضاً محمد حسنين هيكل ، لكن ليس إلى أنور السادات"[1] .

ورغم ذلك ، أصبح هذا الاخير الرئيس الذي اختاره ودعمه مستشارو عبد الناصر ، لاسيما محمد حسنين هيكل . إذن لا بد من الاهتمام هنا بهذه العلاقة الخاصة بين

1- Desjardins, Thierry, *Sadate: pharaon d'Egypte,* Marcel Valtat, Paris, 1981, p. 350.

المستشار السياسي لعبد الناصر ورئيس الدولة الجديد ، علاقة غريبة ومعقدة مرت بثلاث مراحل مستقلة ومختلفة إحداها عن الأخرى .

في المرحلة الأولى ، نجد هيكل قريباً من السادات ، ونجد الرجلين يتفاهمان ويتفقان فكرياً وسياسياً . كما أنها المرحلة التي تعكس الدعم الذي قدمهُ هيكل للسادات ليصبح رئيساً للدولة وليساعده على التخلص من خصومه ومنافسية في الحكم ، خاصة أولئك الذين يمثلون مراكز القوى التي كانت تدعي أحقية الإرث الثوري الناصري .

أما في المرحلة الثانية ، بدأت الخلافات تظهر بين الرجلين ، على مستوى تقييم وتحليل الأحداث السياسية . ومع ذلك لم تحصل قطيعةٌ بينهما ، لأن كلاً منهما كان يفعل كل ما في وسعه للتأقلم مع نوع من " التعايش" cohabitation ، وذاك ما ينطبق على خلافاتهما بشأن الخبراء السوفييت ، وحرب رمضان ، ودور هيكل السياسي في الظل في الفترة الساداتية .

أخيرا ، تأتي المرحلة الثالثة ، وهي الأكثر أهمية والأكثر تعقيداً على التحليل ، لأنها مرحلة المعارضة ، بل والصراع المفتوح بين السادات وهيكل ، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية التي انتهجها السادات للتوصل إلى السلام مع إسرائيل . (اتفاقيات كامب ديفيد عام 1978) . فما أن انتقد هيكل هذه الاتفاقات ، حتى أصبح هدفاً لهجوم إعلامي أعده النظام الساداتي . هجوم تأكدت مصداقيته أكثر عندما نشر هيكل بعد موت السادات كتاباً أثار ضجةً كبرى بعنوان ***خريف الغضب*** . فرغم الاهمية السياسية لهذا الكتاب ، ورغم عمق تحليلاته ، إلاّ انه يظهر بطريقة واضحة أن بعض الغموض وبعض الاضطراب يسيطران على فكر هيكل وعمله ، ذاك أن كثيراً من الأوساط بدأت بطرح تساؤلات حول صراحة هيكل ، ووفائه لمبادىء عبد الناصر .

سنحاول ، في الصفحات التالية ، أن نتناول هذه المحاور بالتفصيل وتحليلها ، لفهم مواقف هيكل وآرائه ودوره في مسيرته الجديدة مع السادات .

الباب الأول : هيكل في خدمة السادات

تتميز المرحلة الاولى التي تمتد من عام 1970 إلى عام 1972 ، بعلاقات سيطر عليها تشابه وجهات النظر والعمل السياسي بين هيكل والسادات . لذلك نجد هيكل يدعم موقف السادات ليصبح رئيساً للدولة المصرية بعد موت عبد الناصر .

ولتأكيد وجود هذا التوافق في وجهات النظر ، لا يتردد هيكل لحظة في تقديم دعمه للسادات الرجل الجديد ، وفي مواجهة خصومه المتمثلين في" مراكز القوى" بقيادة نائب الرئيس السابق علي صبري ، الذي كان يدعي بأنه الرجل الذي نذرته العناية الالهية للدفاع عن الإرث الفكري والعملي للناصرية بمساعدة الاتحاد السوفييتي .

1- اختيار رئيس

يمثل موقف هيكل (الناصري) الى جانب السادات خليفة الرئيس عبد الناصر عام 1970 ، بالنسبة لنا ، ولجميع الذين يهتمون عن قرب بالحقبة الناصرية ، منعطفاً حاسماً في فكر هيكل السياسي وسلوكه السياسي والصحفي .

في المرحلة الأولى من علاقاته مع الرئيس الذي خلف عبد الناصر ، نجدهُ يدعمهُ ويؤكد شرعيتهُ . معلناً أن السادات هو الرجل الذي يمثل الخط الثوري ، والذي يضطلعُ بالقيادة التاريخية . لكنهُ ، تراجع فيما بعد ، عن هذه الاقوال خاصةً في كتاب ***خريف الغضب*** عام 1981 إذ يكتب بأن السادات لم يكن أبداً الزعيم الذي تنتظرهُ مصر ، وأن تاريخاً سيكولوجياً معقداً يُفسر مسيرتهُ السياسية (إذ أن والدة السادات تنحدرُ من اصول افريقية متواضعة بما غذى لديه الشعور بالنقص وعطش للانتقام) .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح هيكل هدفاً لانتقادات حادة يطلقها اعداؤه السياسيون والشخصيون الكثيرون في مصر وفي بعض الدول العربية .

لذلك ، سنحاول أن نعرض آراءهُ منذ بداية علاقاته من السادات وحتى نهايتها ، وذلك للإحاطة بالطريقة التي يفسر بها هيكل نفسه تطور هذه العلاقات .

من جديد يشارك هيكل ، (وهو الذي شارك في الثورة المصرية عام 1952 ، بتقديم وجهة نظر هامة وعن طريق الصدفة حول الوجود الانكليزي في مصر لعبد الناصر) باختيار السادات ليرأس الدولة المصرية ، متحملاً بذلك نتائج حدث من أهم الاحداث في تاريخ مصر المعاصرة .

والواقع انه بعد موت عبد الناصر في 28 أيلول/سبتمبر عام 1970 اجتمع مستشاروه السياسيون في القصر الرئاسي في القبة ليناقشوا مراسم الجنازة وشكليات انتقال السلطات[1] .

وبدأ التشاور بسؤال طرحهُ السادات عندما كان ما يزال نائباً للرئيس إذ توجه إلى المشاركين في هذا الاجتماع قائلاً : ما العمل؟ وبعد فترة من الصمت أجاب هيكل معطياً وجة نظره حول هذا الموضوع الحساس . وتبرهن لنا هذه المبادرة في الاجابة بشكل واضح أهمية الدور الذي كان يضطلع به هيكل في قمة الدولة الناصرية . فهو لم لكن وزيراً للإعلام فقط ، بل أقرب مستشاري الرئيس الراحل .

وبحكم المنطق الذي يفرضهُ دوره وموقعه ، قال انه "وبمقتضى الدستور يعود إلى نائب الرئيس ، أي إلى السادات ، ترؤس الدولة خلال مرحلة انتقاليه تمتد 60 يوماً إلى أن يتم انتخاب المؤسسات السياسية والدستورية المكلفة قانونياً بترشيح رئيس جديد لرئاسة الجمهورية وتقديمه للاستفتاء العام"[2] .

كذلك طرح أن يتجلى السلوك السياسي في هذه الفترة الحرجة بالعمل التدريجي والموزون ، طبقاً للمثل الانكليزي القائل : "خطوة واحدة في الوقت الواحد " one step at a time ، مما يعني أنه إذا انتهت عملية انتخاب الرئيس فإن تنظيم المؤسسات السياسية يتبع بسهولة .

لقد كان هم هيكل عبر هذه المقترحات ، تفكيك مهام المؤسسات السياسية الناصرية وإيجاد حلولٌ لها ، حيث كان عبد الناصر يجمع في يدِهِ مهام رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء وأمين عام الاتحاد الاشتراكي العربي ، وهي مهام منصوص عليها في دستور عام 1964 (مما

1- Lacouture, Jean, *op. cit.*, p. 299.

2- مجلة الوطن العربي ، مقابلة مع هيكل ،" الوحدة بين مصر وليبيا أكبرمن السادات والقذافي" . باريس 2 آذار 1977 .
وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة" ، مرجع سابق ، ص73 .

يوضح لنا بسهولة الممارسة السلطوية للنظام الناصري مع كل هذه المسؤوليات التي يضطلعُ بها عبد الناصر) . ويقول هيكل أيضاً أن السادات قبل هذه المقترحات برضى ، ولم يعترض أحد عليها ، حيث كان كل من الموجودين قد تحمل مسؤولياته في هذه اللحظة الصعبة[1] .

وكي يتم نقل السلطات بشكل رسمي ودستوري ، قرر هيكل بصفته وزيراً للأعلام أن يوقف جيمع البرامج التلفزيونية والاذاعية ،ليقتصر البث على قراءة القرآن علامةً على الحِداد والحزن الوطني .

واقترح السادات على هيكل أن يعلن ، بصفته وزيراً للأعلام خبر موت عبد الناصر ، لكن هيكل اقترح عليه أن يعلنه هو نفسه وأن يعلن معه الاجراءات التي تم اتخاذها . وبهذه الطريقة كان هيكل يعتقد أن المصريين يستمعون إلى صوت رئيسهم الجديد . ألم يستعد الشعب الأمريكي ، كما يقول هيكل ، ثقته بعد موت كنيدي عندما رأى نائب الرئيس ليندون جونسون يقسم اليمين الدستورية على متن الطائرة التي أعادته إلى واشنطن[2] .

ورغم دعمه للرئيس الجديد ، فإنه لم يلبث أن قدم استقالته في 3 تشرين الأول/أكتوبر عام 1970 ، أي بعد خمسة أيام فقط من جنازة عبد الناصر . وبرر هيكل سرعته في تقديم الاستقالة بالقول بأن مهماته في صحيفة الأهرام كثيرة ، وإحساسه المسبق بالصراعات حول السلطة . ويقول هيكل أن السادات كان يعتقد بأنه يحتاجه ، وأن من شأن استقالته المبكرة أن تطرح تساؤلات على مستوى الرأي العام[3] .

وأياً تكن آراء كل من السادات وهيكل ، فإن الأول قد قبل استقالة الثاني ، بشرط أن يشارك في تنظيم حملته الانتخابية والا تعلن الاستقالة إلا يوم اعلان النتائج[4] .

من الواضح أن هذا الشرط الذي وضعه السادات يعكس قضيتين مهمتين هما :

أولاً : الدور الرئيسي الذي كان يضطلع به هيكل داخل النظام الناصري .

ثانياً : حاجة السادات إلى الشرعية السياسية لدى رجالٍ مثل هيكل .

1- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص 351 .

2- Heikal, M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 51.

3- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسية" ، مرجع سابق ، ص353 .

4- المرجع نفسه .

وعلى أثر هذا اللقاء بين الرجلين ، أدار هيكل حملة السادات الانتخابية وكانت تحت شعار : "السادات الرجل الذي اختاره عبد الناصر" .

وفى 15 تشرين الأول/أكتوبر عام 1970 عُين السادات في منصبه كرئيس للجمهورية المصرية باستفتاءٍ حصل فيه على 90.04٪ من الأصوات . وقبلت استقالة هيكل التي قدمها في 3 تشرين الأول/أكتوبر في 18 تشرين الأول/اكتوبر عام 1970 بشكل رسمي[1] .

وبما أن هيكل كان ما يزال رئيساً لتحرير صحيفة الاهرام ، فإنه لـم يتردد في نشر مقالاتٍ مؤيدة للسادات ، وفي كتابة كل ما يمنحهُ شرعية في عيون الرأي العام المصري والعربي ، حيث نراه يقول في إحدى هذه المقالات :

"لقد قال السادات حقاً : أنا لا أرى طريقاً أخرى غير طريق عبد الناصر"[2] . ثم يضيف :

" تسلك قيادة أنور السادات طريق جمال عبد الناصر . إنها الممثل الشرعي للحركة الثورية الوطنية والعربية في الظروف الحاضرة . وفي رأيي أن هذه القيادة هي التي ستسمح لنا في الظروف الحاضرة بأن نحمي أنفسنا من ظلامية اليمين الرجعي ومن تعصب اليسار المغامر"[3] .

ويؤكد الصحفي الفرنسي دي جاردان بدوره ، في كتابه ***السادات فرعون مصر*** ، على أن الشيء اللافت للنظر ، أنه وبالرغم من دعم هيكل الصريح والفعلي للرئيس الجديد ، فإن مقالته في فترة ما بعد حرب 67 إلى ما قبل وفاة عبد الناصر ، كانت تعكس وقوفه إلى جانب رجل آخر هو زكريا محيي الدين ، القريب من الغرب[4] .

ولاستكمال بحثناً عن العناصر السياسية والتاريخية المتعلقة بدور هيكل ومشاركته السياسية إلى جانب الرئيس الجديد ، عُدنا إلى كتاب السادات ***البحث عن الذات*** ، ولكننا لـم نجد فيه ، للأسف ، أي تعليق بهذا الخصوص ، بل اننا وعلى العكس من ذلك ، لاحظنا أن السادات لـم يعطِ أهمية كبيرة لهذه المرحلة الدقيقة في حياته باستثناء ثلاث صفحات

1- الحلاوى ، حنفي ، مرجع سابق ، ص137 .
2- الأهرام ، بصراحة : " حديث عن تجربة" ، 14 كانون الثاني 1972 .
3- الاهرام ، بصراحة : "علامات على طريق طويل" ، 11 شباط 1972 .
4- Desjardins, Thierry, *op. cit.*, p. 350.

فقط من كتابه الذي يبلغ 499 صفحة . وفي هذه الصفحات الثلاث أراد السادات أن يوضح للقراء الاعتراضات التي أبداها على إجراء تحضير الانتخابات الرئاسية . اعتراضات بناها على رغبته في محو آثارالعدوان الاسرائيلي[1] . أي بكلمات أخرى ، يريد القول بأنه لم يكن يسعى للسلطة والحُكم ، بل للقيام بواجبه ومسؤوليته القومية . ورغم ذلك فإن السادات يتراجع بسرعة عن اعتراضاته ، ويبرر ذلك بثلاثة عوامل :

1- العامل الثقافي ، الذي يقضي بحسب التقليد المصري بوجود رجلٍ ثابت على رأس الدولة (شرعية وطنية) .

2- جملة للرئيس الجزائري هواري بومدين تقول ما معناه : لا يجوز أن تبدو مصر مشتتة وتائهة في نظر العالم (شرعية عربية) .

3- عامل أكثر حسماً ، برأي السادات ، وهو تلقيه رسالة من القائد العام للقوات المسلحة يقول له فيها الجيش يحتاج في تنفيذ مهامه ، إلى وجود قائد أعلى [2] (شرعية عسكرية) .

من جهتنا ، نستطيع أن نفسرموقف الرئيس المتجاهل لهيكل ، بان كتابه هذا قد كتب ونشر عام 1978 ، أي في المرحلة التي بلغت فيها الخلافات بين السادات وهيكل قمتها . إضافة إلى كون السادات قد أراد أن يبرهن على أنه لم يبحث عن السلطة .

كذلك ، يمكن أن نلاحظ هنا ، وجود قاعدة شبه عامة في العالم الثالث والعالم العربي (في الدول غير الديمقراطية) يحاول وفقها الرؤساء دائماً اظهار عدم سعيهم للسلطة ، وأنهم لم يقوموا إلاّ بتحمل مسؤولياتهم الضخمة والجسام أمام المخاطر المحدقة التي تتعرض لها الأمة والشعب في لحظة ما .

وسواء كان دعم هيكل قد افاد أم لم يفد . فإن تساؤلين يطرحان نفسيهما :

- لماذا دعم هيكل السادات؟
- ما هو حجم دعمه للسادات؟

يمكن أن نجيب عن السؤال الأول بالقول بأن هيكل كان يبحث عن رجل معتدل في

1- El-Sadate, Anouar, (1978). *op. cit.*, p. 297.
2- *Ibid*, p. 298.

توجهاته وفي سلوكه السياسي ، خاصة وأننا نعرف أنهما كانا متحدين في مواجهة " مراكز القوى " التيار الذي أراد أن يحكم مصر بيد من حديد .

أما السؤال الثاني فيمكن الاجابة عنه بالقول بأن شرعية السادات لـم تكن نتيجة دعم هيكل فقط ، بل ان السادات قد بنى سياسته انطلاقاً من تجارب سياسية متعددة في قمة مؤسسات الدولة العليا ، كوزير في حكومة الثورة عام 1957 ، وكرئيس لمجلس الشعب منذ عام 1964 ، وأخيراً كنائب للرئيس عبد الناصر منذ عام 1969 . لا شك بأن هذا كله قد شكل قاعدة سياسية هامة للسادات ، دون أن يعني ذلك القول ، بأن دور هيكل كان ضعيفاً .

ففي كل الأحوال ، استطاع السادات أن يصبح رئيساً ويحقق طموحاته بفضل الدعم السياسي والاعلامي الذي قدمه له هيكل ، حتى ولو كان ذلك الفضل جزئياً . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو معرفة هل كان السادات فعلياً رئيس مصر؟

ذلك ما سنحاول معرفته في ما يلي ، مبرهنين على وجود مجموعات سياسيه أخرى كان على الرئيس أن يحسب حسابها ويأخذها بعين الاعتبار .

2- أحداث مايو 1971

يكمن هذا الحدث في تحرك مجموعة من الوزراء (علي صبري ، وهو نائب رئيس يعتبر نفسه وريث الناصرية ورجل السوفييت في مصر . شعراوي جمعه ، وزير الداخليه ، ومحمد فوزي وزير الحرب . . وغيرهم) ، حيث وضعوا أجهزة تنصت على اتصالات جميع المقربين من الرئيس . وتدل وثيقة بتاريخ 21 نيسان/ابريل بتوقيع وزير الدفاع موجهة إلى رئيس هيئة الاركان على قرار بمراقبة العاصمة وسائر الاتصالات . لكن اكتشاف هذه المؤامرة سمح للسادات بأن يضع هؤلاء جميعاً في السجن[1] .

وإذ كان الرئيس السادات يعتبر أن أحداث 15 أيار/مايو عام1971 هي العمل الأكثر أهمية والأكثرحسماً منذ وصوله إلى السلطة عام 1971 بحيث أنه اطلق عليها تسمية "الثورة الثانية" la seconde révolution [2] . فإننا نرى فيها المثال الثاني ، كي لا نقول البرهان ،

1- Heikal, M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 56.

2- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 297.

على دعم هيكل العميق للرئيس الجديد ، ذلك الدعم الذي تجلى منذ البداية لمشاركته الفعاله في انتخاب السادات على رأس الدولة المصرية .

وفي اعتقادنا ، أن تلك الاحداث قد سارت على مرحلتين في المواجهة بين السادات وصديقه هيكل من جهة ، "ومراكز القوى" من جهة أخرى . الأولى نظرية والثانية عمليه ، وبتعبير آخر ، فقد صدرت في البداية تصريحات لفظية بحتة ، ثم تبع هذه التصريحات الشروع في تطبيق ملموس عبر أعمال مباشرة . وعلى هذين المستويين لعب هيكل دوراً هاماً ، لذلك سنحاول أن نحيط بخصوصياتهما .

فعلى المستوى النظري : كان هناك اجتماع عام للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي في 21 نيسان/ إبريل ، وكان من المفترض أن يناقش فيها مشروع الوحدة بين مصر ، وسوريا ، وليبيا ، إلا أن المناقشات التي دارت حول المشروع الوحدوي أفسحت المجال لظهور الخلاف بين فريقين سياسيين مختلفين تماماً ؛ فريق مؤيد للوحدة وعلى رأسه السادات وهيكل ، وفريق المعارضين وعلى رأسه نائب الرئيس علي صبري . وكان كل من هذين الفريقين يفهم تماماً أن نوايا سياسية تختبىء وراء قضية الوحدة . فالواقع أن وحدة الدول الثلاث التي أيدها السادات وهيكل ، كانت ستفرض انشاء مؤسسات سياسيه جديدة وتنظيم انتخابات جديدة ، وتفرز برلماناً جديداً يمنح لجنة مركزية جديدة للاتحاد الاشتراكي ، وهما مؤسستان تتميزان بعدم وجود أغلبية مؤيدة للسادات في صفوفهما[1] .

وكما يقول الكاتب المصري غالي شكري " لقد كان في ذلك فرصة دستوريه للسادات لإجراء التغيير المرغوب فيه في بنية الدوله ، بشكل يتوافق مع المضمون الاجتماعي للسلطة الجديدة"[2] .

ويضيف الكاتب نفسه " بأن ورقة الوحدة كانت إحدى الوسائل الكفيلة بالسماح للرئيس بالضغط بكل قوته في المفاوضات المتعلقة بأزمة الشرق الاوسط"[3] .

1- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 72.
2- *Ibid* .
3- *Ibid* .

وإدراكاً منه بوجود هذه الحسابات السياسية المختلفة ، خاصة القضية الاولى . هاجم زعيم المعارضة علي صبري بحدة ، خلال اجتماعات الجمعية العامة ، مشروع الوحدة والرئيس نفسه . وهنا لا بد من الاشارة إلى أن هذا التعبير المباشر عن المعارضة ، لا يجب تفسيره بأي توجه ديمقراطي لدى السادات ، بل بالدعم الكبير الذي كان يتمتع به علي صبري داخل الجمعية العامة . فقد افضت الخلافات داخل الجمعية العامة إلى انتصار ساحق لمعسكر علي صبري حيث لم يؤيد الوحدة إلاّ 4 أعضاء فقط (من بينهم هيكل) من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي[1] .

وعلى صعيد التطبيق العملي : جرت المواجهة بين المعسكرين "بسلوك غير طبيعي" بحسب تعبير هيكل ، مارسه وزير الدفاع محمد فوزي الذي رفض جذرياً مبادرة الرئيس بخصوص حل أزمة الشرق الاوسط . والواقع أن السادات أعلن في 4 شباط/فبراير عام 1971 أمام البرلمان والرأي العام المصري والعربي والدولي ، مبادرة لحل قضية الشرق الاوسط تستند إلى قرارات الامم المتحدة 242 عرفت فيما بعد باسم "مبادرة السادات"[2] .

يقول السادات في كتابه ***البحث عن الذات*** " إن هذه المبادرة اتخذت كي يقال بأنه أصبحنا ، وربما للمرة الأولى ، بأننا أمة موضوعية وواقعية لا انفعالية" [3] .

وبسبب هذه المبادرة حضر وزير الخارجية الامريكية في حينه ، وليام روجرز ، إلى القاهرة يوم 4 أيار/مايو عام 1971 حاملاً مقترحات جديدة أجاب عليها السادات بمقترحات مقابلة ، ملتزماً بسلوك خط تفاهمي للوصول إلى حل شامل . لكن السادات أصيب بالدهشة خلال لقائه بالجنرال محمد فوزي إذ قال له هذا الأخير بوضوح ، بأن الجيش يعتبر مقترحات وليام روجرز والمقترحات التي ردها الرئيس غير مقبولة . وقد عبر هيكل في مرات متعددة عن تعجبه من ردة فعل وزير الدفاع معتبراً أنه ليس من اختصاص الجيش أن يبدي رأيه بهذه القضايا [4] .

في هذا السياق الدقيق ، قرر السادات أن يخوض صراعاً بلا هوادة ضد معسكر علي صبري

1- هيكل ، محمد حسنين ، " تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي " ، مرجع سابق ، ص 247 .

2- خطاب الرئيس المصري ، انظر النص الكامل الذي نشرته صحيفة المحرر اللبنانية ، بيروت ، 25 شباط 1971 .

3- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 320.

4- Heikal, M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 57.

بدءاً بتسريح هذا الاخير يوم 2 أيار/مايو عام 1971 ووضعه في الاقامة الجبرية . على الرغم من أن هذا التصرف لا يعود فقط إلى مجمل الظروف السياسية التي ذكرناها ، بل يعود أيضاً إلى عمل حاسم حصل يوم 11 أيار/مايو عام 1971 وهو العمل الذي يصفة هيكل كما يلي :

" خلال هذه الليلة وصل إلى بيت الرئيس أنور السادات وبعد منتصف الليل ضابط شرطة يعمل في وزارة الداخليه ، وكان يحمل معه مجموعة من أشرطة التسجيل التي تكشف بوضوح أن جميع المكالمات الهاتفيه للرئيس قد وضعت تحت التنصت باستثناء هاتفه الشخصي ، مما يعني أن مكالمات جميع الذين اتصلوا بالرئيس قد سُجلت"[1] .

في هذه الفترة كانت العلاقة بين الرئيس وهيكل تقوم على الثقة المتبادلة . ولذلك لم يتردد بابلاغه عن هذه القضية ، وعلى الفور نصحه هيكل أن يقوم بابلاغ رئيس الوزراء طالباً منه إلا يتأخر عن موعده المحدد في اليوم ذاته مع وزير الدفاع محمد فوزي الذي كان أحد اعضاء " مراكز القوى" . كي لا يشعره بأن مؤامرته قد كشفت . من جهة أخرى ورغم الدور الذي لعبه وزير الدفاع لم يكن هيكل قد فقد ثقته بالجيش لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن للقوات المسلحة إلاّ أن تدعم الشرعية وتضمن القانون[2] .

ونتيجة لذلك ، قال هيكل للرئيس بأن الشخصيتين اللتين تعنيانه أكثر ما يمكن في هذا الوضع هما اللواء الليثي ناصيف قائد الحرس الجمهوري[3] ، والجنرال محمد صادق رئيس هيئة الأركان في القوات المسلحة . والواقع أنه عندما أحسّ السادات أن المعارضة تتحرك ضده ، ناقش الأمر مع اللواء ناصيف يوم 11 أيار/مايو عام1971 . حيث قال له هذا الأخير بأنه كجندي ينفذ كل أمر يصدر عن السلطات الرسمية الشرعية[4] .

أما اللواء صادق فقد التقى الرئيس خلال زيارة القاعدة العسكرية يوم 12 أيار/مايو . ويظهر تحليل تفاصيل هذا اللقاء بوضوح بأن اللواء قد فهم بأن الرياح تجري لصالح السادات ،

1- لمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه القضية : انظر هيكل ، محمد حسنين " خريف الغضب : قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات" ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1983 ، ط1 ، ص 99 وما يليها .

2- Shoukri, Ghali, *op. cit.,* p. 73.

3- رسمياً كان الحرس الجمهوري تحت اشراف ومسؤولية وزير الشؤون الرئاسية سامي شرف .

4- Shoukri, Ghali, *op. cit.,* p. 74.

لأ نه استغل الظرف ليقول له"نحن نفهم وضعك" وكان هذا كافياً تماماً كما يقول هيكل[1] .

نتيجة لانكشاف تلك التسجيلات ، قدّم شعراوي جمعة وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء استقالته يوم 13 أيار/مايو عام 1971 وقبلها الرئيس ، ثم عيّن شخصاً آخر مكانه . ورداً على ذلك قام معسكر علي صبري بتقديم استقالة جماعية ، وقعها عدد من المؤيدين من أعضاء الحكومة وكبار مسؤولي الدولة . وكانت بينها استقالة وزير الدفاع ، رئيس مجلس الشعب ، ومدير المخابرات العامة وعدد من أعضاء اللجنة التنفيذية . وكان من طبيعة هذا الوضع أن يخلخل استقرار السلطة الجديدة وأن يزرع الشك في شرعيتها . غير أن السادات خرج منتصراً من هذه الازمة السياسية واضعاً جميع معارضيه في السجون .

واستطاع السادات ايجاد فريق وزاري جديد لتعبئة الفراغ الذي اوجدته الاستقالات الجماعية لمجموعة علي صبري . ويرى هيكل ، إن السادات ، وبعد هذا المنعطف السعيد لصالحه ، أصبح ليس فقط رئيساً بالاسم وإنما "رئيساً بالفعل "[2] .

ولم يقتصر دور هيكل إلى جانب السادات على حدود أحداث مايو عام 1971 . فهو الذي نصحه بتعيين اللواء الصادق على رأس وزارة الدفاع . وهو الذي نصحه أيضاً بالتأكيد على موضوع الديمقراطية في الخطبة التي كان ينوى توجيهها للأمة لابلاغها عن المؤامرة التي كشفت ، في حين كان السادات يريد التركيز على الطريقة التي حاول بها المعارضون منعه من التفاوض مع وليام روجرز وزير الخارجية الامريكي[3] .

وهنا لا بد من القول ، بأن دعم هيكل يبدو واضحاً في مقالات صحيفة الاهرام التي كان لا يزال رئيساً لتحريرها ، ففي هذه المقالات كان يعبر عن دعمه المعنوي والسياسي للسادات ، مما شكل فيما بعد احدى نقاط الضعف التي استغلها خصومه لإثارة الشكوك حول غموض الأدوار المتعددة التي لعبها في تاريخ مصر المعاصرة ، وهكذا كتب في مقاله الاسبوعي "بصراحه" وبعد المؤامرة مباشرة قائلاً : "لقد عشت لحظة الانفجار ولحسن الحظ أن الكارثة لم تحصل . إنها شهادة تاريخية لصالح أنور السادات ، لشجاعته المادية والروحية

1- Shoukri, Ghali, *op. cit.,* p. 74.

2- Heikal, M. H, *l'Autome de la colère, op. cit.,* p. 58.

3- *Ibid.*

في ظروف صعبة وخطيرة . لقد كانت لحظة حاسمة في التاريخ المصري (. . .) لقد عشنا مرتين ظروفاً دقيقة جداً في هذه السنوات الأخيرة ، الأولى مع جمال عبدالناصر (وقصد بذلك تمرد عبد الحكيم عامر بعد هزيمة 1967) والثانية مع أنور السادات . ولولا العناية الإلهية لوقعت مصر في حفر الظلام والخوف"[1] .

ومضى هيكل بعيداً في التزامه السياسي مع السادات وتشجيعه ، لا لدعمه فقط وإنما لإدانة خصومه ، وهكذا يقول : " لقد كان صادقاً ولم يكونوا كذلك ، لقد تصرّف وفق طبيعة المصري الحقيقي بقلب مفتوح وعقل مفتوح"[2] .

ويقول هيكل أيضاً : "أن هذه المرحلة التاريخية تجعل السادات وبإرادة اللّه ، القائد التاريخي لشعبه ولوطنه ذاك أن القائد التاريخي هو أكثر أهمية من الرئيس ، أياً تكن الصفات التي يمكن أن نعطيها لهذا الاخير"[3] .

ويضيف أيضاً : " لقد برهن السادات عملياً على هذا في صراعه ضد "مراكز القوى" . لقد كان أمامهم مجرداً من السلاح ومعهم جميع أسلحة السلطة في مصر . ومع ذلك فقد كنسهم من فوق الأرض كنساً لأن الشعب كان معه"[4] .

ولا بد من الاشارة إلى أن اعتقال اصدقاء موسكو قد أثار ردود فعل متناقضه . إذا حيّا الغرب الرئيس الجديد لجرأته في حين أن السوفييت رأوا فيه تهديداًحقيقياً لمصالحهم .

لكن هيكل يقول فيما بعد ، في كتابه ***خريف الغضب*** بأن أول عمل قام به السادات ، بعد استبعاد "مراكز القوى" ، في مجال السياسة الخارجية كان توقيع اتفاقية الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي في 27 أيار/مايو عام 1971 ، وهو الامر الذي لم يكن من شأنه إلاّ ازعاج الاميركيين . ماذا كان يعني ذلك؟ لماذا بدأ بالتخلص من أعضاء الحكومة الذين يعتبرون اصدقاء للسوفييت ، ليتم ، بعد ذلك توقيع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتي؟[5]

1- الاهرام ، بصراحة : "السؤال الأول والأكبر" 28 أيار 1971 .

2- المرجع نفسه .

3- الاهرام ، بصراحة : "الخطوة الضرورية" ، 26 تشرين الثاني 1971 .

4- الاهرام ، بصراحة : "علامات على طريق طويل11 شباط 1972 .

5- Heikal, M. H, *l'Autome de la colère, op. cit.*, p. 59.

ويبدو أن القضاء على "مراكز القوى" في السلطة ، وهم أعداء هيكل والسادات ، وإقامة العلاقات المباشرة والمتوازنة مع موسكو قد اقنعا هيكل بأن الرئيس الجديد أهل للثقة ، وأنه سيسلك سياسة تسير في خط استمرارية الإرث الناصري ، علماً أن عبد الناصر نفسه كان ضد " مراكزالقوى " من جهة ، ومع اقامة علاقات ودية مع الاتحاد السوفييتي من جهة أخرى .

واختتاماً لدراسه دور هيكل في أحداث أيار/مايو ، نستطيع القول ، بأنه كان قريباً من السادات حيث دعمه ونصحه سياسياً ومعنوياً ، كي لا يقع في فخ خصومه . لكن ، ولسوء الحظ ، فإن جميع الأعمال التي قام بها هيكل لصالح السادات في هذه المرحلة الدقيقة ، ستعود لتنقلب عليه خاصة بعد نشر كتاب ***خريف الغضب*** الذي يكشف فيه عن أخطاء وعيوب الرجل الذي طالما اعتبره قائداً تاريخياً .

الباب الثاني : التعايش بين الرجلين .

بعد سنتين فقط من التفاهم والاتفاق بدأت العلاقات بين هيكل والسادات تتسم بمؤشرات الخلاف . إذ ظهرت خلافات في تقييم وتحليل الأحداث السياسية الداخلية والخارجية ، لكن هذه المرحلة تظل بالرغم من ذلك مرحلة تعايش cohabitation [1] . ذاك أن العلاقات بين الرجلين لم تنقطع أبداً بالرغم من خلافاتهما .

خلال هذه المرحلة ، نلاحظ أن هيكل لم يكن يوافق على الفكرة القائلة بأنه على مصر أن تعتمد كلياً على الولايات المتحدة الصديق الوحيد كما كان يقول السادات . كما نلاحظ ايضاً أن هيكل يرفض في الوقت ذاته إبعاد الخبراء السوفييت من مصر وتقليص دورهم في منطقة الشرق الأوسط . كما أن هذه المرحلة تظهر بأن هيكل لم يكن ضد السلام مع اسرائيل ، لكنه كان يعتقد بعدم تحقيق هذا السلام في ظل موازين قوى لا تميل لصالح العرب . لذلك كان يعتقد بأن حرب عام 1973 هي انتصار نموذجي ولكن القيادة السياسية "الساداتيه" لم تعرف أن تخرج من الوضع العسكري بالنتائج السياسيه الضروريه .

أخيراً ، وفي ظل مرحلة التعايش ، لم يقبل هيكل المشاركة الرسمية في العمل السياسي . لذلك رفض عدة مرات العمل في أكثر من وزارة أو شغل منصب رسمي واكتفى بالعمل السياسي في الظل ، أو كما يقول هو نفسه اكتفى بوضع "الصديق المقرب" للقيادة السياسيه .

1- قضية طرد الخبراء السوفييت عام 1972

يبدو لنا أن قضية إبعاد السادات للخبراء السوفييت عام 1972 تشكل عنصراً هاماً لفهم

1- تم استعارة مصطلح ، "cohabitation" من الخطاب السياسي الداخلي لفرنسا ، والذي أُستخدم لوصف حالة السياسة التي عاشتها فرنسا عام 1986 ، حيث وجدت فرنسا نفسها تُحكم من قبل رئيس جمهورية اشتراكي (فرانسوا ميتيران) ورئيس وزراء يميني (جاك شيراك) .

فكر هيكل وروابط الوفاء التي تربطه بعبد الناصر ، بأفكاره وبمبادئه ، في حين كان السادات قادراً على القطيعة مع سياسة عبد الناصر وعلى بناء سياسته الخارجية للخروج من ظل عبد الناصر .

والواقع اننا نلاحظ بسهولة أن هوة كبيرة كانت تفصل بين هيكل والسادات على مستوى تقييم بعض الأحداث الكبرى والحكم عليها . حتى عندما كان الأول يعمل إلى جانب الثاني .

وكما سنرى ، فإن قضية الخبراء السوفييت ستشكل النقطة الأساسية في الخلاف بين رئيس الدولة ومستشاره السياسي . لكن فهم أبعاد ونتائج هذه القضية يستوجب وضعها في إطار العلاقات السوفييتية – المصرية الأكثر شمولاً . فمن المناسب أن نلاحظ بداية أن هذه العلاقات لم تكن أبداً علاقات صريحة ومتجذرة بين الدولتين[1] .

فالاتحاد السوفييتي قبل بعد هزيمة عام 1967 ، ومنذ شهر حزيران/يونيو أن يعيد تسليح مصر ، ولكن بعد أن رجاها بممارسة الحذر والصبر ، إلى حد جعل عبد الناصر والسادات من بعده يعتقدان بأن موسكو لا تساند أبداً حرب التحرير العربية ، بل إنها ، تكتفي بالوضع القائم le statut quo الذي ليس من شأنه الاّ تنمية نفوذها في الشرق الأوسط . مما يدخل في منطق الحرب الباردة وتوازن الرعب ، إضافة إلى ذلك فإن لعب مصر لدور أكبر في المنطقة كان سيمنع الاتحاد السوفييتي من لعب دوره هو بطريقه أكثر استعراضية .

والحق يقال أن الحذر كان متبادلاً ؛ فالاتحاد السوفييتي كان يحذر من الاشتراكيه العربية سواء في ظل عبد الناصر أو في ظل السادات ، كما كان يحذر من سياسة عدم الانحياز ومن الجيش المصري[2] . من جهتهم ؛ كان المصريون ايضاً حذرين من اللعبة السوفييتيه في الشرق الاوسط ومن عمل الاحزاب الشيوعية العربية .

ففي ظل السادات جاءت أحداث 15 أيار/مايو عام 1971 ، والقضاء على معسكر علي

1- Mirel, Pierre, *l'Egypt des éres de Nasser, Sadate, et Moubarak*, Sindbad, Paris, 1982, p. 56.

2- نذكر هنا بالهجوم المتكرر الذي شنه السوفييت ضد ثورة 1952 . انظر الفصل المتعلق بالناصرية والشيوعيين في الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص 89 .

صبري ، ودعم الرئيس لنظـــام جعفر النميري في السودان الذي قتل الشيوعيين السودانيين ، لتشكل عوامل تساهم في تصعيد الحذر عند السوفييت ، لذلك ذهب السادات إلى موسكو في 12 تشرين الأول/أكتوبر عام 1971 حيث وجه لرئيس الكرملين جملته المعبرة : " أنا لا أطلب منكم إلا شيئاً واحداً : ثقوا بي" [1] .

وكما أشار العديد من الكتاب فقد كان في سلوك الاتحاد السوفييتي إزاء مصر بعض العوامل التي تعود إلى طبيعة العلاقات بين القوتين العظميين . ذاك أن الاتحاد السوفييتي قد التزم خلال مرحلة التفاهم مع الولايات المتحدة بالحفاظ على مسافة ما إزاء مصر خاصة فيما يتعلق بمبيعات الاسلحة[2] .

ويؤكد هيكل نفسه أن ايقاع تسليم الاسلحة السوفييتيه لمصر كان يتغير بحسب طبيعة العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . فعندما تكون هذه العلاقات جيدة ينخفض ايقاع تسليم الاسلحة في حين انه يستعيد حيويته عندما تسوء هذه العلاقات[3] .

أياً يكن الامر ، فإن السادات ، وقد تأكد من غموض اللعبة السوفييتيه ، قرر إعطاء دور أكبر وأكثر حيوية للدبلوماسية الاميركية في المنطقة . إن موقف السادات الجديد المؤيد لأمريكا صعّد معارضة هيكل له : (واتفاقيات كامب ديفيد كانت مثالاً على ذلك) وقد برّر أنور السادات هذا الانعطاف في استراتيجية السياسه المصرية ازاء القوتين العظميين في كتابة ***البحث عن الذات*** الصادر عام 1978 بما يلي :

أولاً : الموقف السوفييتي المتمثل في تأخير تسليم الاسلحة ، خصوصاً وأن السادات كان قد أعلن أن عام 1971 سيكون "عاماً حاسماً" على الصعيد العسكري .

ثانياً : كان الرئيس يريد أن يعطي الاتحاد السوفييتي وأوروبا الغربية واسرائيل الانطباع بأن مصر قد قررت نهائياً عدم خوض الحرب .

ثالثاً : إن السادات أراد الحفاظ على الموقع الحقيقي للاتحاد السوفييتي ، أي موقع بلد

1- Heikal, M.H, *le sphinx et le comissaire, op. cit.*, p. 279.

2- Gendy, Moustfa, *la Détente internationale et la politique étrangère égyptienne, op. cit.*, p. 219.

3- Heikal, M.H, *le sphinx et le comissaire, op. cit.*, p. 228.

صديق لا أكثر ولا أقل[1] .

من جهته ، يعتقد هيكل ، بوجود أسباب أخرى عقدت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي وهي :

أولاً : استياء الضباط المصريين من احتلال الضباط السوفييت لمواقعهم في شبكة الدفاع الجوي المصري ، ومنعهم من الدخول بحرية إلى القواعد الجوية المصرية[2] .

ثانياً : زيارة الأمير سلطان بن عبد العزيز إلى القاهرة عائداً من الولايات المتحدة الامريكية ، حيث أبلغ السادات ، بأن الولايات المتحدة لن تمارس أي ضغط على إسرائيل طالما ان مصر لم تضع حداً لمهمة الخبراء السوفييت على أراضيها[3] .

ثالثاً : وجود بعض المشاكل ذات الدلالة ، مثل قضية تهريب الخبراء السوفييت للذهب من مصر[4] .

وفي كل الأحوال ، فإن الرئيس السادات إتخذ يوم 7 تموز/يوليو عام 1972 قراره ، بعد أن استنتج بأن هدف القوتين العظميين هو الحفاظ على وضع اللاحرب واللاسلم Ni guerre Ni paix في الشرق الأوسط ، مع الحفاظ على التفوق العسكري الاسرائيلي . وذاك ما فهمه جيداً ، خاصة بعد قمة نيكسون – بريجنيف في موسكو عام 1972 [5] .

وما يلفت النظر في هذه المسألة ، أنه بالرغم من كون هيكل مستشاراً سياسياً للسادات ، فإنه لم يبلغ بهذا القرار إلاّ يوم 11تموز/يوليو عام 1972 ، أي بعد أربعة أيام من اتخاذه . وقد وصف هو نفسه هذا القرار فيما بعد بردة فعل فردية وانفعالية[6] . والأمر المستغرب أن هيكل نفسه كان قد نشرَ ، وقبل صدور قرار السادات بمدة ، سلسلة من المقالات[7] . يركز فيها على نقطتين هامتين :

1- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 335-336.

2- Heikal, M.H, *The Road to Ramadan*, Collins, London,1975, p. 165.

3- *Ibid*, p. 175.

4- *Ibid*, p. 160.

5- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 219.

6- مجلة الأهالي ، مقابلة مع هيكل ، "هذه قصة طرد الخبراء السوفييت من مصر " ، القاهرة 15 كانون الأول 1982 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة" ، مرجع سابق ، ص325 .

7- الاهرام ، بصراحة : " حالة اللاسلم واللاحرب" ، القاهرة ، 16 تموز الى 21 حزيران 1972 . وانظر ايضاً : هيكل ، محمد حسنين ، "وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، 159 .

ضرورة إيجاد حل للخروج من المأزق الذي تراوح فيه أزمة الشرق الأوسط ، أي مأزق اللاحرب واللاسلم ، محذراً مصر من اللعبة الاسرائيلية والامريكية التي تهدف إلى فصلها عن الاتحاد السوفييتي .

من جهة أخرى ، برهن هيكل ، على أن الاتحاد السوفييتي يستفيد حتماً من الوضع القائم الذي يميز الوضع في الشرق الأوسط مثله مثل الولايات المتحدة واسرائيل ، في حين أن مصر هي التي تخسر كثيراً .

بهذا السياق ، نجد أن السؤال الذي يطرح نفسه : هو معرفة كيف أن هيكل قد عبّر في مقالاته السابقة لقرار السادات ، عن افكار تفترض منطقياً هذا القرار ، في حين انه من جهة أخرى بدا متفاجئاً عندما أطلع عليه؟

في اعتقادنا أن هناك أربع اجابات ممكنه عن هذا السؤال :

أولاً : يمكن القول بأن هدف هيكل كان تحريك الوضع بين مصر والاتحاد السوفييتي ، بالقول بأن اضطراب العلاقات مع هذا الأخير سيكون مسيئاً لمصر على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، مما لا يخدم إلا المصالح الاسرائيلية .

ثانياً : يمكن الاعتقاد بأن الرئيس قد أساء فهم رسالة هيكل وأن القرار قد اتخذ نتيجة لذلك .

ثالثاً : يمكن القول ايضاً بوجود اتفاق بين الرجلين على الظهور بمظهر المختلفين ، وذلك لإعطاء هامشٍ من الحرية والحركة للدبلوماسية المصرية . علماً بأن هذا الافتراض ضعيف الاحتمال .

رابعاً : ربما كانت هناك لعبةٌ سياسية شخصية ، أراد بها هيكل ، أن يحمل السادات وحده مسؤولية القرار .

وبغض النظر ، عن صدق أو حقيقة هذه الافتراضات والتوقعات ، فإنه يجب الإشارة إلى أن القرار المتعلق بطرد سبعة عشر ألف خبير سوفييتي قد نُفذ خلال سبعة أيام بدلاً من عشرة أيام كما كان الرئيس قد قرر ، مما فتح الباب للدبلوماسية الامريكية للعب دورٍ مبكر وأوسع في الشرق الاوسط .

وأخيراً لا بد من التذكير بأن هيكل قد خصص كتاباً للعلاقات بين الاتحاد السوفييتي والعالم العربي بعنوان *ابو الهول والضابط* عام 1978 معلقاً على قرار أنور السادات بالقول :

" ربما يكون أكثر ما يثير الدهشة هنا ، أن السادات لم يحاول أيه محاولة للحصول من الامريكيين على شيءٍ مقابل ذلك ، فلو أنه أبلغ واشنطن بأنه يفكر جدياً بالتخلص من كل هؤلاء المستشارين السوفييت ، لكان الامريكيون قد اهتموا بأن يقدموا له شيئاً بالمقابل"[1] .

ويكشف هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك في مذكراته على أنه لم يفهم في البداية سياسة السادات فيما يخص إبعاد الخبراء السوفييت ، ولكنه يعتقد ، بأن ذلك كان دليلاً على ذكائه وخياله الذي لم يكن أحد يتصوره [2] .

وفي كل الأحوال ، فإن هيكل رغم هذا الاختلاف في تقييم هذا الحدث وتنفيذه ، لم يعبر بوضوح عن هذا التباعد بينه وبين رئيس الدولة ، ذلك لان الرئيس كان يحتاجه لتحضيرالخطة الاعلامية لحرب عام 1973 التي حصلت بعد ذلك بسنة تقريباً .

2- الادارة السياسية لحرب عام 1973

لا شك في أن هيكل كان عنصراً فاعلاً ونشطاً في حرب 1973 . ولا شك أيضاً ، في أنه لم يكن فاعلاً رسمياً ، مثلهُ مثل كبار مسؤولي الدولة والجيش الذي كانت تفرض عليهم مهامهم الدستورية المشاركة المباشرة في الصراع العربي الاسرائيلي . لكنه كان رجلاً في الظل وعلى صلة بالقرارات الكبرى التي اتخذت خلال هذا الصراع ، مما يدفعنا الى القول بأنه كان الرجل الثاني المطلع على حيثيات وتفاصيل الحرب بعد الرئيس أنور السادت .

وقد كتب خلال ذلك عدة مقالات حول سير الاحداث ، وحول تحليل رهانات كل من الفرقاء . إضافة إلى أنه نشر بعد انتهاء المعارك كتاباً تاريخيا بالغ الاهمية حول الموضوع بعنوان *الطريق إلى رمضان* .

1- Heikal, M.H, *le Sphinx et le comissaire, op. cit.*, p. 290.

2- Kissinger, Henri, *The White House Years*, Little Brown and Co, Boston, 1979, p. 483.

لقد وسمت هذه الحرب التي غيرت الخريطة الجيو استراتيجية والجيوسياسية في الشرق الاوسط ، بداية قطيعة شبه كاملة بين رئيس الدولة المصرية وصديقه ومستشاره هيكل ، حيث ظهرت أول ملامح هذه القطيعة خلال الحرب نفسها ، ثم تضاعفت فيما بعد .

وتبرهن لنا هذه الخلافات ، أنه بالرغم من قبول هيكل التعامل مع السادات ، فإنه كان يحتفظ بمجموعة من المبادىء التي يحرص على الوفاء لها والالتزام بها .

صيغتان تسمحان لنا باختصار هذه المبادىء وعلى هذا الصعيد : " القومية " و"الناصرية المعتدلة " بحسب المتطلبات البراغماتية للظروف التاريخية التي تجتازها مصر ، وهذه الرؤيا الهيكلية هي ما سنحاول تحليله .

ففي البداية كانت العلاقات بين هيكل والسادات جيدة ، بدليل أن الأول قد كلفه بكتابة تعليمات استراتيجية موجهة لرئيس هيئة الأركان يوم 5 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 باسم السادات . وتُشكل هذه التعليمات نوعاًمن الأوامر الاستراتيجية التي تحدد لأحمد إسماعيل ، وزير الدفاع وقائد القوات المسلحة الأهداف التي يجب تحقيقها من خلال هذه الحرب ، وكانت تتمثل هذه التعليمات كما صاغها هيكل بما يلي :

1- الخروج من المأزق العسكري الحالي بقطع وقف إطلاق النار ابتداءاً من 6 تشرين الأول/أكتوبر 1973 .

2- تكبيد العدو أكبر الخسائر الممكنة في الرجال والسلاح والمعدات .

3- المناورة في سبيل تحرير الاراضي المحتلة على مراحل متعاقبة ، بشكل يتوافق مع نمو وتطور الإمكانات وقدرات القوات المسلحة .

4- إتمام هذه المهام بطريقة مستقلة أو بالتعاون مع القوات السورية[1] .

سياسياً ، يعني ذلك أن الهدف كان تدمير نظرية القوة الاسرائيلية التي لا تقهر . إذ أنه من المعروف أن هيكل قد وجه الكثير من مقالاتة في هذا الاتجاه . إذن فقد كان في هذا تلاقٍ في وجهات النظر بين السادات وهيكل .

وعلى أية حال ، فإن الجيش المصري والسوري ، وتنفيذاً لهذه الأوامر قد بدأ يوم

1- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 487.

6 تشرين الأول/أكتوبر هجوماً مفاجئاً ضد اسرائيل ، بحيث أن المسؤولين الاسرائيليين رفضوا في البداية التصديق بالهجوم العربي[1] .

على الجبهة المصرية ، عبر ثمانية آلاف رجلٍ قناة السويس واحتلوا الدفاعات الاولى في خط بارليف ligne Barlev ، وفي آخر النهار كان المصريون يسيطرون على الضفة الشرقية للقناة على جبهةٍ طولها 170 كيلومتر . أما السوريون فقد دخلوا مسافة 5 كيلومترات داخل مرتفعات الجولان .

ولا شك في أن هيكل كان راضياً عن الأخبار الواردة من الجبهة ، حيث عبر عن فرحه البالغ في مقالاته ، بأساليب متعددة ، منها مدح رئيس الدولة المكتوب يوم 12 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 ، أي بعد ستة أيام من بدء العمليات :

" السادات هو رجل القرار " في هذه الحرب لأن هذا القرار يقرر المصير القومي ويعبر عن الإرادة الوطنية"[2] .

وفي كتابه ***الطريق إلى رمضان*** يطلق على السادات لقب " رجل القرارات الكبرى" .

لقد لعب هيكل إلى جانب السادات دوراً أساسياً في انجاح تأثير الحرب ، فقد نصحه باقناع الدول العربية باستعمال سلاحِ النفط في هذه الحرب[3] ، وذاك ما فعله السادات بإرسال رئيس مجلس الشعب المصري سيد مرعي إلى دول الخليج العربي .

وفي مقاله الثاني في صحيفة الأهرام ألحّ هيكل على العربُ لمساعدة مصر وسوريا ، ليس لمواجهة إسرائيل ، فقط وإنما الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً . وفي ذلك يقول يوم 13 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 :

"تقول قاعدة أساسية من قواعد القوى في السياسة الدولية ، أنه إذا أردنا أن نمارس ضغطاً ذا قيمة فعلية وقادرة على تحقيق نتائج واقعية ، فيجب علينا أن نمتلك ثلاثة شروط :

1- Duclos, Louis Jean,"*la bataille d'october*", Revue Français de Science Politique, R.F.S.P, Paris, août 1974.

2- الأهرام ، بصراحة : " محاولة تصور للموقف " ، القاهرة ، 12 تشرين الأول 1973 . انظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " عند مفترق الطرق" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1983 ، ط1 ، ص33 .

3- الأهرام ، بصراحة : " محاولة تصور للموقف " ، القاهرة ، 12 تشرين الأول 1973 .

1- أن نمتلك سلاح الضغط (النفط) .

2- أن نمتلك سلاحاً قابلاً للاستعمال (أزمة الطاقة موجودة) .

3- أن الفريق موضوع الضغط يجب أن لا يشك بالطابع الفعّال لهذه الضغوط (نظرية اللعب الاستراتيجية) .

وعلى العكس يجب أن يشعر الفريق المقابل بأن الضغوط قد بدأت تمارس فعلياً . وحتى الآن ، فإنه لا الحكومة ولا الكونغرس ولا الرأي العام في الولايات المتحدة الامريكية قد أحسوا بعد بهذه الضغوط"[1] .

ما يبدو لنا مهماً في هذه القضية هو أن الدول العربية المصدرة للنفط قد تبنت يوم 16 تشرين الأول/أكتوبر 1973 اقتراح هيكل الذي نقلهُ إلى الرئيس وذلك بعد 10 أيام من القتال ، وبعد ثلاثة أيام من النداء الذي أطلقه هيكل في مقالهِ ، إذ اجتمعت هذه الدولُ في الكويت وطرحت فكرة انقاص انتاجها النفطي بنسبة 5٪ شهرياً إلى أن ينسحب الاسرائيليون كلياً من الأراضي المحتلة ويعترفوا بحقوق الشعب الفلسطيني[2] .

صحيح أن "سلاح البترول" لم يعطِ كل النتائج التي كان يتوقعها هيكل ، لكن الحلفاء الأوروبيين كانوا أول من مسّهم القرار وجعل بعضهم يرفضون أن تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية قواعدهم العسكرية لتزويد اسرائيل بالسلاح ، مما يعني أنه ليس بالضرورة أن يتوافق الأمن الأوروبي مع الامن الامريكي[3] .

كما أن وزراء الخارجية التسعة في المجموعة الأوروبية اجتمعوا في بروكسل للعمل على تعميق علاقاتهم مع الدول العربية[4] .

خلال عشرة أيام من القتال أي من 6 إلى 16 تشرين الأول/أكتوبر أحسّ العرب بأن الانتصار النهائي أصبح قريباً ، بحيث أن المصريين والسوريين رفضوا وقف اطلاق النار الذي اقترحه كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية يوم 10تشرين الأول/أكتوبر عام 1973[5] .

1- الأهرام ، بصراحة : "سؤال" ، القاهرة ، 13 تشرين الأول 1973 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " عند مفترق الطرق " ، مرجع سابق ، ص52 .

2- Saint prot, Charles,*op. cit.*, p. 35.

3- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 227.

4- Saint prot, Charles, *op. cit.*, p. 36.

5- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 372.

لكن الحرب اتسعت من حيث مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي في هذا الصراع . والواقع أن الرئيس نيكسون ، الذي كان قلقاً جداً من الوضع ، قد قرر اعطاء مساعدة عسكرية ومادية لاسرائيل عن طريق الجسر الجوي يوم 16تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973 [1] ، في حين أرسل السوفييت أسلحة وتجهيزات عسكرية للدول العربية (توازن الرعب + مناطق نفوذ) .

وفي هذه المرحلة ، أي من 16 إلى 22 تشرين الأول/أكتوبر ، نلاحظ بداية تبلور انتقادات يوجهها هيكل إلى السادات ، "رجل القرارات الكبرى" ، وذلك نتيجة قبول الأخير وقف إطلاق النار ، اعتقاداً منه أن مصر لا تستطيع الاستمرار في قتال القوات الاسرائيلية التي تتمتع بالدعم العسكري الأمريكي[2] .

في حين كان هيكل يعتبر أن الحرب يجب أن تستمر وأن الظروف مواتية تماماً لهذا الاستمرار ، وهو يبرز هذه النقطة في كتابه ***الطريق إلى رمضان*** الذي نُشر عام 1975 ، أي عندما كان السادات ما يزال في السلطة ، والذي يحاول فيه أن يدافع عن مبادئه ووجهات نظره تجاه هذه الحرب .

وكان رئيس هيئة الأركان آنذاك سعد الدين الشاذلي يقاسم هيكل الرأي ذاته ، حيث يكتب في مذكراته ، أنه ، وبعد خمسة أيام من القتال ، بدا بوضوح أن سياسة السادات تتعارض مع واقع ساحة القتال التي كانت لصالح الجيوش العربية[3] .

ولهذا السبب ، أي التخلي عن فرصة حربٍ رابحة ، يعتقد بعض الكتّاب بأن هذه الحرب قد تم تحضيرها بين الأمريكيين وأنور السادات في سبيل السماح لمصر وإسرائيل ببدء مفاوضات سلام . افتراضٌ يرفضه حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومي في ظل السادات[4] كما يجد هيكل هذه الفكرة غير واقعية ، لأنه يعتبر أن التضحيات المصرية التي قدمت كانت

1- Nixon, Richard, *la Vrai guerre,* Albin Michel, Paris, 1977, p. 113.
2- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.,* p. 379.
3- الشاذلي ، سعد الدين ، "حرب اكتوبر" ، منشورات مجلة الوطن العربي ، باريس ، 1980 ، ص8 .
4- مجلة المصور ، "هل كانت حرب 1973 حرباً ملفقة " ، القاهرة ، 13 آيار 1983 .

ضخمة ، وأنه لـم يكن ممكناً للإسرائيليين أن يقبلوا بخسارة ، هذا العدد من الضحايا التي خسـروها عام 1973 [1]

أما نحن ، فلا نعتقد أنه هذه الحرب كانت "مرتبة" arrangée ، خاصة بعد قراءة مذكرات الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون وتصريحات وزير خارجيته هنري كيسنجر اللذين عاشا هذه الأزمة . حيث نلاحظ أن الأول يتهم الاتحاد السوفييتي بأنهُ كان وراء هذه الحرب[2] . في حين أن كيسنجر كان متفاجئاً باندلاع القتال في الشرق الأوسط[3] .

وعودة إلى المرحلة الواقعة ما بين 16 و 22 تشرين الأول/إكتوبر عام 1973 وإلى علاقات هيكل بالسادات للقول ، بأن الأول قد بدأ يبتعد عن رئيسه عندما كتب عدة مراتٍ وجهة نظره الشخصية وتحليلاته التي لـم تكن لصالح الرئيس إن لـم تكن ضده ، فهو يقول مثلاً في أحد مقالاته المبكرة جداً بعد الحرب :

" إلى شباب هذا الوطن الذين كانو أبطالاً في الواقع ، ربما أكون واحداً من الذين يؤمنون بأن الأمة التي يظهر فيها بطلٌ أسطوري هي أمةٌ في مأزق ، وأن الأمة التي تنتظر هذا البطل ، هي أمةٌ يشفق عليها ، أن هذه المرحلة مرحلة الرجل العادي ، والبطل العادي ، وهذا ما برهنته لنا حرب اكتوبر ، إن في هذا إشارة إلى تغيير في حياتنا يجب أن نتوقف عنده "[4] .

نحن نعتبر هذا النص بمثابة نقدٍ للسادات ، كون هذا الأخير قد أراد أن يوصف ببطل الأمة . في حين أن هيكل يعتبر الرجلَ العادي والجنود هم أبطال الأمة الحقيقيون .

ولفهم هذا النقد بشكلٍ أعمق علينا أن نطرح السؤال التالي : هل كان هيكل سيقول نفس الكلام في عبد الناصر لو كان خاض هذه المعركة ؟ لا شك في أن الجواب سلبي . فقد قال هيكل عدة مراتٍ في مقالاته أن حرب عام 1973 لـم تكن إلا تتويجاً للمشاريع

1- مجلة الأهالي ، مقابلة مع هيكل " السياسة خذلت السلاح في حرب أكتوبر" ، القاهرة ، 18 أيار 1983 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة" ، مرجع سابق ، ص405 .

2- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 226 .

3- انظر الحوار بين هيكل وكيسنجر ، ضمن الملحق في نهاية هذا الكتاب ،ص 314 . وانظر أيضاً :
Heikal, M.H, *le Sphinx et le commissaire* , *op. cit.*, p. 307.

4- الأهرام ، بصراحة : " أحاديث السلاح : مقابلة مع أحمد اسماعيل" ، القاهرة 18 تشرين الثاني 1973 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " عند مفترق الطرق " ، مرجع سابق ، ص187 .

والخطط التي بلورها عبد الناصر .

وعلى كل حال ، فقد ذهب هيكل إلى أبعد من ذلك في نقده للسادات وإدارته للحرب ، حيث يقول :

" أنا لا أريد أن أبرر شيئاً . هذا ليس شأني ولا دوري ، لا أريدُ أن أُعطي أهمية لما حصل لأنني أعتقد بأنه مايزال بين أيدينا لغاية الآن شيء كبير . لكنني لا أقبل المنطق الذي يقول بأنه كان يجب الاكتفاء بعبور قناة السويس وبلوغ خط بارليف ، لأنني واحد من الذين يؤمنون بالقاعدة التالية : الذي لا يتقدم لا يفعل شيئاً في الواقع إلاّ التراجع"[1] .

ويقول هيكل أيضاً في هذا الصدد ، أن سفير الاتحاد السوفييتي قال له في حينها : "لماذا لا تتقدمون طالما أن طريق تل أبيب أصبحت مفتوحة أمامكم "[2] .

الواقع ، وبغض النظر عن طبيعة العلاقات والاختلافات بين السادات وهيكل ، فقد أدركت القوتان العظميان فجأة أن المواجهة الاقليمية قد تقود إلى مواجهة مباشرة بينهما ، ولهذا السبب توصل بريجينيف وكيسنجر يوم 21 تشرين الأول/إكتوبر إلى اتفاق لوقف اطلاق النار في الشرق الأوسط . ومن ثم ، قدّم هذا الحل إلى الأمم المتحدة بشكل القرار 338 الذي تم تبنيه يوم 22 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 [3] .

وقد استفاد الجيش الاسرائيلي من وقف القتال ليطوق الجيش المصري الثالث على الضفة الشرقية لقناة السويس ، مما جعل الوضع على الأرض حرجاً بالنسبة للمصريين . ولذا يبدو تحليل السوفييت حول خطر وقف التقدم للجيش المصري بعد قناة السويس تحليلاً دقيقاً .

السادات من جهته ، برر عملية التطويق بقوله "أن تصرفاته سواء في فترة الحرب أم في فترة السلم ، هي محكومة بقانون أخلاقي عالٍ ، في حين أن اسرائيل لم تحترم أي قانون أخلاقي منذ نشأتها عام1947 " [4] ، يبدو أنه من الصعب قبول حجة الرئيس أنور السادات ،

1- جريدة الأهرام ، بصراحة : " السلام البعيد . . البعيد " القاهرة ، 2 تشرين الثاني .1973 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص116 .

2- مجلة الأهالي ، مقابلة مع هيكل ، "السياسة خذلت السلاح في حرب أكتوبر" ، القاهرة ، 18 أيار 1983 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، "أحاديث في العاصفة" ، مرجع سابق ، ص421 .

3- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 224.

4- El-Sadate, Anouar, (1978), *op. cit.*, p. 386.

لأنه حتى ولو كانت هناك معاهدة فينا المتعلقة في قوانين الحرب، فإننا لم نسمع عن أحدٍ يحترم هذه المعاهدة في الحروب.

وفي كل الأحوال، فبعد ثلاث أيام من وقف إطلاق النار يوم 22 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973، وبعد انتهاك اسرائيل لوقف اطلاق النار هذا، هدد الاتحاد السوفييتي بالتدخل بشكل مباشر لإنقاذ حلفائه العرب. وإزاء هذا الوضع وضع الرئيس نيكسون قواته النووية في حالة تأهب يوم 25 تشرين الأول/أكتوبر تحسباً لتدخل قوات سوفييتية بشكل مباشر في الشرق الأوسط. وعندما أصبحت الظروف على هذه الدرجة من الخطورة لجأ الكرملين إلى الهاتف الأحمر ليضغط على الولايات المتحدة مهدداً القواعد الأمريكية في جمهورية ألمانيا الاتحادية [1].

بعد كل هذه الأحداث والتطورات، قبل الفرقاء وقف إطلاق النار لبدء مفاوضات سلام برعاية كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما النتائج التي نجمت عن هذه الحرب؟

"برأي هيكل، أن عنصرين أساسيين يجب أن يبقيا في الذهن من حرب أكتوبر:

العمل العسكري والعمل السياسي، ففيما يخص العنصر الأول من وجهة نظر المراقبين الدوليين كان العمل العسكري المصري مميّزاً. وعلى العكس من ذلك، فإن الإدارة السياسية للمعركة لم تكن على مستوى الفعاليات العسكرية وان السياسة خذلت السلاح ولا أقول خانته"[2]، ويمضي حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي للرئيس السادات في الاتجاه نفسه[3].

أخيراً فإن غالي شكري يطلق أيضاً، انتقادات أكثر قسوة، ولكنه يبدو على حق عندما يقول أن هدف حرب السادات لم يكن تحرير الأراضي المحتلة بل الحصول على شرعية سياسية داخل بلاده للانطلاق نحو تحقيق الحل السلمي:

1- Kissinger, Henri, *op. cit.*, p. 910-911.

2- جريدة الأهالي، مقابلة مع هيكل، "السياسة خذلت السلاح في حرب أكتوبر"، القاهرة، 18 أيار 1983. وانظر أيضاً: هيكل، محمد حسنين، "أحاديث في العاصفة"، مرجع سابق، ص404.

3- المرجع نفسه.

" الحقيقة السياسية هي أن الأمر يعتبر هزيمة طالما أننا أعلنا الحرب دون أن نحقق أهدافها ، ولا أهداف الشعب ، ولا أهداف المؤسسة العسكرية . لم يتحقق شيء إلا هدف الرئيس والتحالف الاجتماعي الذي يمثله ، مما قاد بالضرورة إلى عدة تنازلات من قبل الرئيس وصلت حد قيامه بزيارة العدو ، دون أن يؤدي ذلك إلى أبسط تغيير في موقف العدو"[1] .

إذن ، فإن شعار لا انتصار ولا هزيمة ni victoir, ni défaite بين العرب واسرائيل الذي عبر عنه شكري ، يمثل ، النتيجة الطبيعية لشعار هيكل لا حرب ولا سلم ni guerre, ni paix .

3- دور في الظل

يكتسي موقف هيكل ، من تحمل المسؤوليات السياسية في ظل السادات الشكل ذاتَه الذي اكتساه في ظل عبد الناصر ، بمعنى أنه يُترجم عملياً برفض قطعي للمشاركة في منصبٍ حكومي رسمي خاصةً منصب وزير الإعلام . ويختلف الذين اهتموا من قريب أو من بعيد بالمسيرة السياسية والصحفية لهيكل في تفسير وتقييم هذا الموقف غير المألوف في العالم الثالث بشكل عام وفي العالم العربي بشكل خاص . ويمكننا أن نميّز بين رؤيتين بهذا الخصوص ، الأولى لصالح هيكل والثانية ضده :

1- فيما يخص وجهة النظر الأولى ، يعتبر سلوك هيكل تعبيراً عن الحدود التي أراد فرضها لمهامه كصحفي ، فوعياً منه بالاشكالات التي يمكن أن تسببها التزاماته داخلُ الدائرة السياسية ، وبالانعكاسات السلبية التي يمكن أن تتركها على مكانته وشهرته في مجالات الاعلام ، قرر اتخاذ قرار التضحية بمهنته كسياسي كي يمارس بشكل أفضل مهنته كصحفي . من جهة أخرى وحتى لو افترضنا أن المهنة السياسية كانت تراوده وتغريه ، فقد كان يعرف جيداً أنه كي يكون سياسياً عليه أن يمتلك قوة سياسية (أن يكون عضواً في حزب) ، أن يمتلك (قوة اقتصادية) كي يمول حملاته الانتخابية ، وأخيراً أن يمتلك قاعدة من التضامن الشعبي ، والواقع أن هيكل لم يكن يمتلك شيئاً من هذا . لذا نراه يقول بهذا الخصوص :

" لم أكن أملكُ قوةً سياسية ورائي ، ولم أكن أنتمي إلى أي حزبٍ سياسي . ونتيجة

1- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 200.

لذلك فإنني لـم أرد الدخول في الصراع على السلطة "[1] .

أيضاً ، إذا كان هيكل أراد البقاء بعيداً عن المهام الحكومية ، فذلك لكي يحافظ على موضوعيته ومصداقيته النسبيتين لدى الرأي العام المصري والعربي الذي كان يخاطبه في مقالاته في صحيفة الأهرام .

2- أما وجهة النظر التي لا تصب في صالح هيكل ، فهي وجهة نظر خصومه الإسلاميين والساداتيين الذين يرون فيه رجلاً ميكيافيلياً ، تحركُه مصالحُه الشخصية ، ويبحث بشكل منظم عن موقع سلطوي هام في دوائر السلطة ، ليس بالضرورة كوزير ، بل بأن يختبىء وراء منصب ما ويعمل في الظل لتحقيق أهدافه كي لا يتحمل مسؤولية أعماله سياسياً وقضائياً[2] .

لا شك ، أن في هذا التحليل الذي يُقدمه خصوم هيكل بعداً ذاتياً وشخصياً ، لأنه من المعروف عن هيكل أنه قد رفض منذ عام 1956 أي منصب وزاري ، رغم أنه كان يمتلك بأقدميته وبأفضليته كل الفرص ليصبح ، ليس فقط وزيراً وإنما نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للإعلام . وكي لا ندخل في جدالات عقيمة ودون جدوى ، فإننا سنبرهن كيف ولماذا رفض هيكل ثلاث مرات أن يكون وزيراً ، خلال أربعة أعوام من وجوده إلى جانب السادات .

أ- في عام 1970 وبعد موت عبد الناصر واستلام السادات للسلطة ، عرض هذا الأخير على هيكل حقيبة وزير الإعلام ، ربما ليشكره على دعمه له خلال الحملة الانتخابية ، وربما أيضاً ، لأنه كان يعرف طبيعة الكفاءات المطلوبة لممارسة مهام إعلامية عُليا في جهاز السلطة . ورفض هيكل عرض السادات قائلاً بأنه يفضل أن يظل مستقلاً عن السلطة ومحايداً أمام القرّاء .

ب- في عام 1971 وبعد انتهاء قضية "مراكز القوى" التي لعب فيها هيكل دوراً حاسماً كما يقول هو نفسه[3] ، أراد السادات أن يكافئه بأن عرض عليه من جديد منصب

1- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 ، .

2- كشك ، محمد جلال ، مرجع سابق ، ص 336 .

3- صحيفة المصور ، مقابلة مع هيكل " المسألة الأساسية الآن هي : من نحن؟ ماذا نريد؟ وأين مصلحة مصر ؟ " القاهرة ، 4 كانون الأول 1981 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص120 .

نائب رئيس الوزراء ، ووزير الإعلام بحضور رئيس الوزراء محمود فوزي ورئيس مجلس الشعب سيد مرعي ، لكن هيكل عبّر عن رفضه بالطريقة التالية : " لقد رجوت الرئيس أمام هؤلاء بإعفائي من هذه المهمة"[1] .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هيكل الذي هيأ الرأي العام المصري والعربي والدولي خلال حرب رمضان عام 1973 إلى جانب السادات ، قد أجبر من قبل هذا الأخير على ترك صحيفة الأهرام عام 1974 .

ج- بعد سنة ونصف من الغياب وفي أواسط نيسان/ابريل عام 1975 اتصل السادات بهيكل يدعوه إلى الغذاء ، حيث ناقش معه قضية العلاقات المصرية الاسرائيلية وزيارة وزير الخارجية الأمريكي إلى القاهرة ، ثم عرض عليه منصب وزير الاعلام ونائب رئيس الوزراء آنذاك ممدوح سالم . لكن هيكل رفض من جديد ، ورغم ذلك عاد الرئيس السادات فطلب من رئيس وزرائه الاتصال بهيكل ودعوته إلى رئاسة الوزراء ليعرض عليه مرةً أخرى المنصب ذاته . لكن هيكل عبّر من جديد عن تحفظاته عارضاً الحجج التالية :

1- أن وجهات نظره ، لا تلتقي مع وجهات نظر الرئيس فيما يخص الاتفاقيات ، التي تهدف إلى حل الصراع في المنطقة ، ولا تلتقي حول وطبيعة العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية .

2- الهجوم الإعلامي الكبير ضد عبد الناصر ، ذلك الهجوم الذي يعتبره هيكل غير مبرر ومناقض للحقائق التاريخية ، ولذا فإنه ، لا يستطيع المساهمة في الحكومة والسكوت عن تشويه الحقائق التاريخية الممارسة ، في حين أن مهمته كصحفي تفرض عليه احترام الالتزام الأدبي .وقد أجابه ممدوح سالم على ذلك بالقول ، بأنه بامكانه الاطلاع بمهامه في الحكومة مع التصرف بحرية مطلقة في مجال الإعلام ،لكنه أصرّ على رفضه المبدئي[2] .

ورغم رفض هيكل وللمرة الثالثة للعرض الذي قدمه السادت لترتيب العلاقات مع الصديق والمستشار ، فإنه لا يجب أبداً اضفاء طابع درامي على هذا لرفض المتكرر ، أو أن نرى فيه علاماتٍ على علاقاتٍ سيئة جداً بين الرجلين ، ذاك أن هيكل قد حافظ منذ عام

1- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص246 .
2- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسية " ، مرجع سابق ، ص392 .

1970 إلى عام 1975 ، على علاقة وثيقة وبنّاءة نسبياً مع السادات .

فإضافة إلى دعم هيكل الواضح والصريح للرئيس السادات في مواجهة "مراكز القوى" ، فإن هيكل قد وسم بأفكاره وآرائه عدة قضايا هامة أخرى سواء المستوى الوطني أم المستوى الدولي في ظل السادات :

أولاً : على المستوى الوطني أثر هيكل في عدة قرارات متعلقة بدولة السادات . ولتوضيح هذا الدور سنتختارُ بضعة أمثلة ذات دلالة :

أ- بعد موت عبد الناصر واستلام السادات للسلطة ، كان هيكل هو الذي نصحه بتعيين الدكتور محمود فوزي على رأس الحكومة المصرية ، بل ان السادات قد كلفه بالذهاب للقاء رئيس الوزراء الجديد وإبلاغه بالنبأ ، لأنه يعتقد بأنهما صديقان حميمان . ولم يكن هذا الاختيار عشوائياً أو شخصياً ، فمحمود فوزي كان رجلاً مدنياً معروفاً في العالم العربي وفي أوساط الدول غير المنحازة كممثل لمصر في الأمم المتحدة [1] .

ب- كذلك فإن هيكل هو الذي دعم ترشيح اللواء محمد صادق لمنصب وزير الدفاع بعد قضية "مراكز القوى" وعلي صبري .

ثانياً : على المستوى الدولي ، استطاع هيكل أن يحافظ على نوع من التأثير في القضايا المتعلقة بالسياسية الخارجية المصرية في ظل السادات كما كان في ظل عبد الناصر :

أ- هو الذي كلفه السادات بتطبيع العلاقات بين المانيا ومصر (بعد القطيعة الناتجة عن بيع الأسلحة الألمانية لاسرائيل عام 1966) .

ب- هو الذي كلفه الرئيس بتنظيم الحملة الاعلامية خلال حرب تشرين الأول/أكتوبر عام 1973[2] .

ورغم غيابه عن الحياة السياسية المصرية بين عامي 1974 و 1975 كان هيكل الرجل الوحيد ، الذي تشاور معه الرئيس حول المبادرة الاستراتيجية بعد حرب رمضان عام 1973 ، والتي تمثلت في اعادة فتح قناة السويس بارداة مصرية عام 1975 . كما أنه استشاره في تحرير

1- هيكل ، محمد حسنين ، " بين الصحافة والسياسية " ، مرجع سابق ، ص354 .

2- هُمام ، طلعت ، مرجع سابق ، ص41 .

الخطاب الذي القاه بهذه المناسبة [1] . وقد أوضح هيكل فيما بعد أنه هو من أقنع الرئيس باعادة فتح قناة السويس .

لقد كان موقف هيكل من السادات ونظامه موضوع جدال ساخنٍ ، وذلك لوجود عدة نقاط غامضة في هذه العلاقة . فبحسب المفكر فؤاد زكريا ، فإن هيكل يمثل نفس توجه تيارٍ السادات ، فقد كانت هناك في السنوات الأخيرة من رئاسة عبد الناصر ثلاث مجموعات ؛ مجموعة من العسكريين المنظمين حول عبد الحكيم عامر وشمس الدين بدران ، ومجموعة قريبة من السوفييت منظمين حول علي صبري ، ومجموعة من أصدقاء الأمريكيين تضم السادات وهيكل وبعض الشخصيات الأخرى[2] . بينما يعتقد كتابٌ آخرون ، مثل الاسلاميين ، وعلى رأسهم عمر التلمساني بأن هيكل ليس إلاّ رجلاً من رجال مراكز القوى[3] .

ومن الواضح أن تحليل مرشد الإخوان المسلمين هو تحليلٌ ذاتي وشخصي ، بحيث لا يمكن الأخذ به ، لأنه يخلط كل الذين كانوا مع عبد الناصر ويستعمل لغة بلاغية وعاطفية أكثر مما يستعمل حُججاً وأدلة مقنعة ، خاصة عندما رأينا حجم الدور الذي لعبه هيكل في استبعاد "مراكز القوى" ، سواء في ظل عبد الناصر أم في ظل السادات .

وخلاصة القول ، أن هيكل ينتمي إلى مدرسة سياسية تبحث وقبل كل شيء عن مصلحة مصر ، مع المحافظة على التوازن بين الشرق والغرب . وربما يكون ذلك سبباً يجعل من تعريف غالي شكري له تعريفاً خاصاً ومبتكراً حيث يقول :

" إنه الناطق باسم اليمين المستنير والمتحضر : أنه المؤيد الجريء للتطبيع مع الولايات المتحدة الأمريكية في الصراع الشرق أوسطي ، والخصم المعارض للتحالف معها"[4] .

هكذا ، يبدو هيكل وطنياً حقيقياً ، مدافعاً عن مصر وعن فكرة الأمة العربية ووحدتها . ولذلك كان يسعى جاهداً أن يبقى محايداً كي يتمكن من الدفاع عن هذا المثال وعن هذا المبدأ .

1- صحيفة المصور ، مقابلة مع هيكل " المسألة الأساسية الآن هي : من نحن؟ ماذا نريد؟ وأين مصلحة مصر ؟ " القاهرة ، 4 كانون الأول 1981 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين ، " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص120 .

2- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص114 - 115 .

3- التلمساني ، عمر ، مرجع سابق ، ص141 .

4- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 74 .

المرحلة الثالثة في العلاقة بين هيكل والسادات ، هي مرحلة المعارضة المباشرة بل الصراع المفتوح . وتتضمن هذه المرحلة فترتين مختلفتين لكنهما متكاملتان .

الأولى : تقع بين عامي 1976 و 1981 حيث عبّر هيكل عن نوعٍ من الانسجام والاستمرارية في فكره وأيديولوجيته الناصرية . واقعٌ تجسّد بشكل نموذجي في هجومه الدقيق على اتفاقيات كامب ديفيد المعقودة عام 1978 .

أما الثانية فموازية للأولى ، وهي نتيجة منطقية لها تبدأ عندما أصبح هيكل هدفاً لموجة من الانتقادات الاعلامية التي نظّمها السادات ونظامه ، في حين أن الرجل ما يزال مثاراً للكثير من التساؤلات والتناقضات التي تدور حول دورهِ وأمانته ، حول حقيقة مواقفه السياسية ، التي أصبحت اشكالية منذ نشرهِ لكتابه ***خريف الغضب*** عام 1981 ، أي بعد موت السادات .

1- معارضة هيكل لاستراتيجية السلام الساداتية

أ - اليمين ضد اليسار

تتمثل إحدى الاستراتيجيات التي اعتمدها السادات لإضفاء الشرعية الشعبية على سلطته ، التقارب مع الحركات الاسلامية . تقارب اعتبره ضرورياً بقدر ما رأى الفعاليات السياسية اليسارية التقدمية تعارض سياسته ، لا سيما أن الحركة الاسلامية قد اكتسبت شعبية عريضة بعد هزيمة عام 1967 ، أعادتها إلى الواجهة بعد أن أبعدت عن المسرح الوطني طوال الفترة الناصرية .

والواقع أن الاسلاميين استعادوا نفوذهم بعد حرب عام 1967 ، كردة ايديولوجية على العقائد القومية وعلى هيمنة أيديولوجيات القوتين العظميين ، إذا قدموا حلاً وسطاً في وجه الانحياز إلى الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي . وكما يقول هيكل :

" في سياق أصبح معه من المستحيل الانطلاق إلى الأمام ، انكفأ الناس إلى الماضي ،

ليجدوا في الدين حلاً للهزيمة العسكرية "[1] .

ولان السادات كان مدركاً لأهمية الاسلاميين المتنامية ، فقد بادر إلى التقارب مع الإسلاميين خاصة بعد أحداث أيار/مايو عام 1971 التي عبّر فيها الذين يحنّون إلى الناصرية عن معارضتهم لسياسة الانفتاح الاقتصادي والسياسي . وفي كتاب ***اغتيال رئيس*** الصادر عام 1991 يقول الكاتب المصري عادل حمودة بهذا الشأن :

" بدأت حيوية التيار الديني بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967 كوسيلة للهروب تنقذ الشباب من صدمة عام 1967 ،لكنه لم يصبح حاضراً على الساحة بقوة إلاّ بعد وصول السادات إلى السلطة عام 1970"[2] .

ويقول عادل حمودة أيضاً :

" مع وصوله إلى السلطة عام 1970 ، بدأ السادات حملة تصالحية تجاه التيار الاسلامي ولقّب نفسه بالرئيس التقي ، كما وصف دولته بأنها دولة الايمان ، كما أمر بأن يسمى محمد أنور السادات وأمر الصحف بأن تكتب اسمه هكذا ، وأمر التلفزيون بأن يصوره وهو يصلي ويرفع يديه إلى السماء"[3] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا اقترب السادات من الاسلاميين ، وبأي هدف؟

برأي هيكل أنه اختار ذلك بعد أحداث أيار/مايو 1971 ، إذ اعتقد أن التشكيلات الناصرية والشيوعية تهدد نظامه ، خاصة بعد المظاهرات التي نظمها الطلاب ، واجتاحت شوارع القاهرة وغيرها من المدن ، مطالبة بأن تشن مصر الحرب على اسرائيل عام 1971 ، كما وعد الرئيس الذي أعلن بأن هذا العام سيكون عام الحسم . وكان من الطبيعي ، والحال هذه ، يقول هيكل " أن يتوجه الرئيس نحو اليمين ، لا اليمين السياسي فقط ، وإنما اليمين الديني " [4] .

ويبدو هذا التفسير مقبولاً ومبرراً ، رغم انه تفسير لا يأخذ في اعتباره إلاّ أهداف

1- Heikal, M.H, *Khomeiny et sa revolution*, Jeune Afrique, Paris, 1983, p. 139.

2- حمودة ، عادل ، " اغتيال الرئيس " ، دار الجيل ، بيروت ، 1991 ، ص56 .

3- المرجع نفسه .

4- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, .op. cit.*, p. 134.

السادات المباشرة ، اي اقامة توازن سياسي مع الناصريين والشيوعيين ، لذلك فإن تفسير الصحفي الفرنسي تييري دي جاردان يبدو أكثر عمقاً ، إذ يحدد الاستراتيجية المحددة لعمل الرئيس على الأمد البعيد قائلا :

" احتاج السادات إلى ثلاث سنوات كي ينفذ حربه ، وأصبح الآن بحاجة إلى أربع سنوات كي ينفذ سلمه ، والغريب أنه في حين أمضى السادات هذه السنوات الثلاث الأولى مردداً أنه سيعلن الحرب ، لم يصدقه أحد لحظة واحدة . وسيردد الآن ، طوال أربع سنوات أنه مستعد ليفعل أي شيء كي يحقق السلام ، ولن يصدقه أحد ، إلى أن ذهب فيه فعلياً إلى القدس "[1] .

إذن ، فقد كانت الورقة الاسلامية ، ورقة استراتيجية لبلوغ هذا الهدف . وفي هذا الاطار نستطيع أن نفهم المساعدات الخليجية السخية المخصصة لتنمية التيار الاسلامي . ففي عام 1971 ، قدم الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية ، هبة بقيمة مئة مليون دولار لجامعة الأزهر ، كي تتصدى لما أسماه الشيوعية والالحاد . كذلك تمت طباعة كتب لشيوعيين تائبين ، وكتب دعاية اسلامية ، كما تم بناء عدد كبير من المساجد .

كذلك نظم الملك فيصل لقاءات مصالحة بين السادات وبعض زعماء الاسلاميين ، مثل سعيد رمضان ، الذي عاش فترة في السعودية ، ذهب بعدها إلى جنيف ليرأس تنظيماً اسلامياً تموله الرياض . وخلال هذه اللقاءات أفهم السادات الأصوليين بأنه يحتاج إليهم لضرب " مراكز القوى " الناصرية والشيوعية [2] .

وتؤكد أحداث عديدة أقوال هيكل هذه ، حيث يعقد عمر التلمساني ، مرشد الاخوان المسلمين ، ورئيس تحرير مجلة الدعوة نوعاً من التحالف مع السادات ، يقضي بتقديم دعمه للرئيس مقابل حصوله على حرية التعبير وعلى أسلمة جزئية لمصر [3] .

ويضاف إلى ذلك ، أن السادات سهّل سيطرة الاسلاميين على التنظيمات الطلابيّة ، في

1- Desjardains, Thierry, *op. cit.,* p. 425.

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, .op. cit.,* p. 134.

3- Shoukri, Ghali, *op. cit.,* p. 340-343. voir aussi: Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, .op. cit.,* p. 136.

سبيل تحجيم حضور الشيوعيين والناصريين على ساحات الجامعات المصرية[1] . ولم تكن المساعدات المقدمة للتنظيمات الاسلامية مجـــرد مساعـــدات مالية ، وإنما امدادات بالأسلحة أيضاً[2] .

وهكذا يتفق غالي شكري ، وهيكل ، وحمودة ، على ملاحظة الانتشار الاستعراضي ، للجماعات الاسلامية على الساحة المصرية ؛ فقد ظهرت جمعيات طلابية دينية ، وطالبات محجبات ، وطلاب بالجلابية ، وكان هذا التوحد في الزي بمثابة رد على نمو الفوارق الاجتماعية الناتج عن الانفتاح . وبذلك أخذت التجمعات التقدمية والناصرية تستبعد شيئاً فشيئاً .

وبعد أن بسط الاسلاميون سيطرتهم على التنظيمات السياسية ، أصبح بإمكانهم أن يفرضوا أجندتهم السياسية : وجوب ايقاف المحاضرات في موعد الصلاة ، عدم إحياء الأعياد غير الدينية ، حظر الاختلاط بين الجنسين . حتى أن الأمر وصل بالطلاب الإسلاميين حد حمل الخناجر والسكاكين لفرض أوامرهم بالقوة[3] .

يعلق هيكل على هذا الانتقال من الكلام إلى الفعل ، بما يلي :

" لقد تم توقيف عدد من الذين كانوا يحملون السكاكين ، بعد أن جرحوا عدداً من زملائهم . ولكن كي يطلق سراحهم فوراً ، ولم تكن السلطات تتسامح فقط مع الطلاب الاسلاميين بل كانت تشجعهم أيضاً"[4] .

ويعتبر هيكل أن سياسة التحريك الاسلامي هذه كانت تهدف إلى تحضير الرأي العام لاتفاقيات كامب ديفيد ، وذلك باقناع الجماهير ، أن عدوها الحقيقي ما هو إلاّ الشيوعية ، وجعلها تنسى أنه اسرائيل ، وتوجيهها نحو الاعتقاد ، بأنه طالما أن اسرائيل هي حليفة للمعسكر الأمريكي ، وعدوة للمعسكر الشيوعي ، فيمكن بالتالي أن تكون حليفة لمصر[5] .

1- حمودة ، عادل ، مرجع سابق ، (1991) ، ص57 .
4- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, .op. cit.*, p. 152.
3- *Ibid.*
4- *Ibid*, p. 153.
5- هيكل ، محمد حسنين ، "السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1988 ، ط6 ، ص45 .

ويجب الإشارة إلى أن هيكل قد جمع هذا التحليل ، مع مقالات أخرى ، في كتاب بعنوان ***السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة*** صدر عام 1979 ، بعد زيارة السادات للقدس . وهو تحليل يحمل معنيين :

أولاً : أن هيكل كان يمثل موقفاً واضحاً من السلام الساداتي مع اسرائيل ، وقد عارضه ، حتى عندما كان في أعلى دوائر السلطة .

ثانياً : أنه يوضح بشكل قطعي مخاطر استراتيجية السادات ، التي ستغير المشهد السياسي المصري والعربي تغييراً تاماً .

إن إحدى النتائج السلبية للسياسة الساداتية ، هي التسبب في صراعات طائفية بين الاقباط والمسلمين ، وذاك ما يقول فيه عادل حمودة " في مصر ، كان هناك التيار الاسلامي مقابل التيار التقدمي ، ثم لـم يعد هناك إلاّ التيار الاسلامي ومقابله التيار المسيحي . وقد أثارت هذه المواجهة الكراهية والتعصب داخل المجتمع المصري . مما أدى إلى حصول أحداث طائفية مثـل حادث " الزاوية الحمراء" في حزيران/يونيو عام 1981 ، الـذي ذهب ضحيته 17 قتيلاً و 50 جريحاً ؛ وتم اعتقال 212 إسلامياً ومسيحياً"[1] .

وكما يلاحظ عالم الاجتماع السياسي سعد الدين إبراهيم ، فإن السادات قد شجع حركةً لا تؤمن في الواقع لا بالملكية ولا بالناصرية ولا بالساداتية ، حركة دخلت في صراعات متكررة مع السلطة لأنها لا تعترف لا بشرعية السلطة ولا بشرعية الأحزاب العلمانية[2] .

ويعدد سعد الدين ابراهيم ثلاثة أمثلة لتدعيم طرحهِ :

أولاً : عملية 1974 التي قادها أستاذ الفلسفة صالح سري ، عضو منظمة التحرير الإسلامية أو ما يسمى بجماعة التقنية العسكرية للاستيلاء على مواقع الاتحاد العربي الاشتراكي ، لقتل السادات ، وللاستيلاء على السلطة وصولاً لفرض الإسلام في مؤسسات الدولة العُليا .

ثانياً : العملية التي نفذتها عناصر (جماعة التكفير والهجرة) عام 1977 ، بأخذ وزير

1- حمودة ، عادل ، مرجع سابق ، (1991) ، ص58 .

2- إبراهيم ، سعد الدين ، "ثورة يوليو وتفسير التاريخ" ، في كتاب " مصر والعروبة وثورة يوليو " ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1982 ، ص18 .

الأوقاف محمد الذهبي رهينة تساوم عليها السلطة كي تستجيب لطلبهم ، بقراءة بيانٍ عبر الإذاعة والتلفزيون يدينُ عدم تطبيق الشريعة الإسلامية ، وعندما رفض السادات مطلبهم قتلوا الوزير الذي اعتبروه عميلاً للحكومة يساعد على تقوية الدولة المُلحدة المُقابلة للدولة الإسلامية .

ثالثاً : تنظيم الجهاد الذي اغتال الرئيس أنور السادات في 6 تشرين الأول/أكتوبر عام 1981 ، ثم بعد يومين قتل 80 من رجال الشرطة في أسيوط[1] .

وهكذا لم يتردد السادات ، إذن ، في سبيل البدء بمفاوضات مع إسرائيل ، في تشجيع الهجوم الإسلامي على الناصريين والشيوعيين والأقباط . ولكن السؤال الذي يبقى مطروحاً هو معرفة ثمن هذا التحالف بين نظام السادات والإسلاميين ، خاصة بعد بدء المفاوضات مع إسرائيل وزيارة السادات للقدس عام 1977؟ . هذا ما سندرسه في الصفحات اللاحقة مُركزين على تحليل هيكل .

ب ـ السلام وسياسة الانفتاح

" إن الرابط بين اضطرابات الخبز ومبادرة السلام الساداتية هو أمر بالغ التعقيد . ومع ذلك فإن دراسة مسار هذين الحدثين الهامين يُبرهن على أن هذا الرابط كان مباشراً وفورياً"[2] . بهذه الجملة يحلل هيكل منطق اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل المُوقع في كامب ديفيد عام 1978 .

بتحليلنا لمشروع السلام في الشرق الأوسط ، الذي بدأ بعد حرب 1973 مباشرة ، نستطيع أن نفهم أفضل ، ليس فقط شخصية هيكل بل واستراتيجية السادات "بطل العبور" أيضاً .

ولهذا الهدف ، سنحاول أن نحيط بطبيعة ومحتوى ونتائج سياسة الانفتاح معتمدين على تعليقات وآراء هيكل حول هذا الموضوع . ونستطيع تعريف الانفتاح بالقول ، بأنها السياسة التي انتهجها السادات والتي تتمثل وللمرة الأولى منذ عام 1952 بالاعتراف

1- إبراهيم ، سعد الدين ، مرجع سابق ، ص18 .

2- حوار شخصي مع هيكل ،الإسكندرية ، 9 آب 1994 .

بالقطاع الخاص وباعتبار القطاع العام مجرد قطاع مُساند . وهكذا أصبح التخلي عن الاقتصاد المُوجه كاملاً وأُعيد الاعتبار للرأسمالية . وقد شمل إعادة الاعتبار لرأس المال الأجنبي الذي استدعي بشكلٍ واسع .

لكن الانفتاح كان أيضاً انفتاحاً سياسياً تحت شعار "دولة القانون" التي يُفترض بها أن تضع حداً للارتجال وأن تضمن الحريات الفردية والسياسية . ففي عام 1975 اعترف الاتحاد الاشتراكي العربي بالتعددية ، حيث تم قبول ثلاثة منابر سياسية plates-formes داخل الاتحاد الاشتراكي : من الوسط منبر تحت اسم مصر العربية الاشتراكية ، ومنبر اليسار باسم الوحدوي القومي التقدمي ، ومنبر اليمين تحت اسم الاشتراكي العربي . وفي عام 1976 تحولت هذه البرامج السياسية إلى أحزاب : الحزب الاشتراكي وهو الحزب الحاكم ، الحزب الوحدوي التقدمي الذي كان يمثل جناح اليسار ، والحزب الليبرالي الذي يمثل اليمين[1] .

ولأن هيكل كان مع دولة اشتراكية في سنوات الستينات والسبعينات تمحو أخطاء الماضي ، ويلعب فيها القطاع العام دوراً أساسياً ، دولة اشتراكية تنتهج سياسة متوازنة إزاء القوى العُظمى بهدف الحفاظ على المصلحة الوطنية ، فإنه لم يستطع إلاّ ان يعارض السادات عندما شرح هذا الأخير سياسة الانفتاح أمام مجلس الشعب .

" لماذا الإنفتاح ؟ لأننا انغلقنا على أنفسنا خلال المرحلة التي سبقت عام 1974 ، بسبب قوانين فرضناها على أنفسنا ، وبسبب ستارٍ حديدي وضعناه حول أنفسنا ، وهكذا وجدنا أنفسنا مقطوعين عن العالم وعن تقدمه ، عن حضارته وعن حداثته ، كنا مقطوعين عن كل هذا لأننا حصرنا علاقاتنا بمعسكر واحد هو الاتحاد السوفييتي الذي يبحث مثلنا عن التقدم والتكنولوجيا . وكما أقول لكم فإن البعض أرادوا أن نُقدس نموذجاً هو الشيوعية"[2] .

ويعتبر أستاذ العلاقات الدولية الفرنسي شارل زورجيب بأنه "كان على مصر بعد انتصار 1973 أن تختار سياسة الانفتاح لأن مصر الخالدة المُنهكة بفعل أربعة حروب ،

1- Rizk, Charles, *les Arabes ou l'histoire à contresens*, Albin Michel, Paris, 1992, p. 232.

2- أخبار اليوم ، القاهرة ، 9 تشرين الثاني1977 .

والمُجمدة بفعل البيروقراطية الناصرية مشحونة بالأمل أمام الانفتاح ، فمصر تحتاج إلى السلام والتنمية بشكلٍ عاجل ، وهي تميل إلى اعتبار العروبة عبئاً فرضه عبدالناصر عليها"[1] .

وفي حين يعتقد هيكل أن سياسة الانفتاح هذه هي سياسة السادات نفسه ، يعتقد كُتاب آخرون بأن هذه السياسة سبق ان طرحها عبد الناصر بعد عام 1967 [2] . وعلى أية حال ، فإن سياسة الانفتاح الساداتية هذه قد ترافقت بهجومٍ أعلاميٍ واسع شنّه السادات على عبد الناصر ونظامه[3] .

في هذا السياق ، ولكي يؤكد هيكل وفاءه لإرث عبد الناصر ومعارضته التدريجية للسادات ، كتب عدة مقالات في صحفٍ عربية مثل الوطن والقبس في الكويت ، الرأي والدستور في الأردن ، الخليج في الامارات العربية المتحدة . ثم جمع هذه المقالات في كتابٍ بعنوان ***لمصر لا لعبد الناصر*** عام 1976 ، أي في مرحلةٍ كان السادات ما يزال فيها على رأس السُلطة . وفي هذا الكتاب يدافع هيكل بقوة عن عبد الناصر والاشتراكية العربية متحدياً بذلك النظام الساداتي . وتحت عنوان " الحكومة القائمة حالياً في مصر وقضية عبد الناصر" يهاجم هيكل جميع الذين يتصدون للتجربة الناصرية في الصحف الحكومية قائلاً :

" أنا أفهم تماماً لماذا تحاول بعض قوى السيطرة العالمية – وبسبب مصالحها – أن تشوه التجربة الناصرية والوحدة العربية ، والاشتراكية ، والقطاع العام . ولكنني لا استطيع أن أفهم الأسباب الحقيقية التي تدفع بعض عناصر النظام المصري الحالي إلى تشويه وتحوير هذه التجربة ، وذلك بحماسٍ مُبالغ فيه أحياناً".[4]

وبحسب هيكل ، فقد كانت هناك مصلحة لطبقة اجتماعية مسيطرة في هذا التشكيك بالناصرية :

" هناك طبقة اجتماعية جديدة بدأت تظهر في مصر ، تُكدّس بسرعة ثروة هائلة ،

1- Zorgbibe, Charles, *Térres Trop promises*, la Manufacture, Paris, 1991, p. 291.

2- Rizk, Charles, *op. cit.*, p. 232.

3- حمودة ، عادل ، مرجع سابق ، (1991) ، ص53 .

4- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص39 .

مستفيدة من الظروف الحاصلة ، عبر تجارة الأراضي والمضاربات والتلاعب والسرقات" .

ثم يضيف :

" المشكلة في أننا لا نستطيع أن نثق بهذه الطبقة الجديدة من حيث الدور الاجتماعي ، والتغير الاجتماعي ، ووحدة الأراضي الوطنية ، ذاك اننا إذا قارّنا البورجوازية الوطنية القديمة بهذه الطبقة الجديدة المسيطرة ، لوجدنا أن الأولى يمكن أن تكون موضع ثقة لأنها كانت تمتلك الأراضي مما يربطها بالأمة المصرية ، في حين أن الثانية لا تمتلك في مصر إلا قنوات الإثراء الشخصي التي تسمح لها بتصدير ثرواتها إلى الخارج"[1] . ونلاحظ هنا أن هيكل يُقيم مقارنة بين البورجوازية المالكة للأراضي والبورجوازية المالية .

من جهته ، يحدد الاقتصادي الماركسي فوزي منصور هذه الطبقة في كتابه ***مأزق العالم العربي*** مميزاً بين ثلاث طبقات مسيطرة في النظام الساداتي ، الأولى : البورجوازية القديمة وهي تمثل بقايا نظام الملك فاروق ، والثانية البيروقراطية الناصرية ، وأخيراً البورجوازية الطُفيلية التي ظهرت بفضل الانفتاح الساداتي[2] .

وكي يُبرهن على وجود صلةٍ بين سياسة الانفتاح والسلام مع اسرائيل يثير هيكل قضية المصادر الثلاثة للميزانية المصرية :

أولاً : بلغت المساعدات المالية العربية بعد حرب عام 1973 ، 1000 مليون دولار سنوياً ، عدا عن صناديق التنمية ؛ مثل صندوق التنمية الكويتي ، وصندوق التنمية في الامارات العربية المتحدة ، في حين أن مصر عبد الناصر لم تكن تتلقى إلا 100 مليون دولار ، وذلك وفق مقررات مؤتمر الخرطوم المنعقد بعد حرب عام 1967 ، لدعم المقاومة في مصر وتعويض الخسائر التي نتجت عن إقفال قناة السويس .

ثانياً : أصبحت مصرتتمتع بعد عام 1973 بمساعدة أمريكية وفق قانون رقم 480 الذي تمّ التصويت عليه عام 1954 للسماح للولايات المتحدة الامريكية بالتخلص من فائضها الغذائي (خاصة الحبوب) وذلك بإعطائها لبعض الدول النامية على أن تدفع هذه الدول

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص100 .

2- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 120.

ثمنهُ بالعُملة المحلية . قد سمحت هذه الآلية للولايات المتحدة بتصريف فائضها مع الحفاظ على ارتفاع سعره في السوق الداخلي الامريكي . وفي عام 1974 قرر الامريكيون توجيه هذه المساعدة إلى مصر استجابة للنداء الذي أطلقه أنور السادات بعد حرب رمضان عام 1973 ، ورغم ذلك يعتبر هيكل أنه كان من المشكوك فيه أن يتمكن السادات من تحصيل نتائج فعّالة مساوية لنتائج «خطة مارشال» ، بسبب الطفيلية المستشرية في مصر .

ثالثاً : ثمة مصدر آخر للتمويل قدمه صندوق النقد الدولي . إذ إن هذه المؤسسة التي لم تعطِ مصر في عهد عبد الناصر إلا قرضاً بقيمة 60 مليون دولار لتوسيع قناة السويس ، عادت وزادت مساعدتها بعد عام 1974 حيث قدمت قرضاً أوليّاً بقيمة 222 مليون دولار عام 1975 ثم قرضاً ثانياً بقيمة 276 مليون دولار عام 1977 أوصل مجموع ديون مصر لهذا الصندوق إلى مليار دولار[1] .

الواقع أن ثمة باحثين آخرين أيّدوا تحليل هيكل هذا ومنهم شارل رزق الذي كتب يقول :

" بأن حرب أكتوبر قدمت للعربية السعودية فرصة الالتحاق بالتحالف المعادي لإسرائيل ، وفرصة تقديم البُرهان بأن (الثروة) يمكن أن تكون سلاحاً مساوياً في فعاليته (للثورة) إن لم يكن أفضل ، معطية بذلك الأنظمة المحافظة شرعية بالنسبة للأنظمة الراديكالية"[2] .

كذلك فإن الكاتب فوزي منصور يقول "بأن جزءاً من عائدات الدول النفطية العربية قد أنصبّ على مصر في السبعينات أي بعد حرب 1973 وبعد رفع سعر النفط . وذلك تحت شكلين مختلفين :

ففي المرحلة الأولى ، كان ذلك تحت شكل مساعدات حكومية قدمتها دول الخليج العربي ، أما في المرحلة الثانية ، فقد جاء الدعم عن طريق مئات الآف من المصريين العاملين في الخليج العربي . حيث تراوحت عائداتهم بين ثلاثة وأربعة مليارات دولار سنوياً مما أثار جوا من الانتعاش سواء في الدوائر الحكومية أو عند الشعب المصري كلّهُ . هذا الازدهار شجّع الرغبة في المضيِّ قُدماً ، كماشجع السادات على البحث عن اتفاق مع

1- Heikal,M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 99.
2- Rizk, Charles, *op. cit.*, p. 230.

الولايات المتحدة واسرائيل ، بأي ثمن ، لأن ذلك هو الطريق الذي رسمه له أصدقاؤه في المملكة العربية السعودية"[1] .

ويؤكد ديفيد روكفللر ، المصرفي الامريكي الشهير ، هذه الصلة بين الوضع الاقتصادي في مصر وتوجه السادات للسلام مع إسرائيل ، وذلك في جريدة نيويورك تايمز حيث يقول :

" تكتشف مصر الآن بأن السياسة الاشتراكية والقومية العربية قد فشلت في تحسين مستوى المعيشة لدى سكانها الأربعين مليوناً ، ويتأكد الرئيس السادات بأن القطاع الخاص هو الوحيد القادر على مساعدته وعلى تحسين مستوى الحياة في مصر " .

ثم يضيف : " لقد بحثت ذلك مع الزعماء الإسرائيليين ، الذين يرون في ذلك خطوة إيجابية من جانب السادات ، تفسح المجال أمام إمكانية تحقيق السلام "[2] .

وهكذا ، أصبحت سياسة الانفتاح الساداتية تسير جنباً إلى جنب مع ولادة بورجوازية طُفيلية-جديدة ، ومع تصاعد قوى أنصار اليمين ، وخاصة الإسلاميين ، كما إنها تترافق مع نقد حاد للتجربة الناصرية .

وفي هذه الظروف نشر هيكل كتابه ***لمصر لا لعبد الناصر*** عام 1976 مُحذراً النظام الساداتي من مخاطر هذه السياسة مدعماً رأيه بالاحصائيات . ففيما يخص الاقتصاد المصري ، يؤكد هيكل ، " أن القطاع العام كان يمثل 30٪ من وسائل الانتاج وذلك بحسب تقرير البنك الدولي لعام 1976 ، في حين ان القطاع الخاص يُمثل 70 ٪ منها . ومع ذلك يجب الانتباه إلى أن القطاع العام قد ساهم في ميزانية الدولة عام 1975 بقيمة 800 مليون جنيه مصري ، في حين لم يساهم القطاع الخاص إلا بـ 30 مليون جنيه فقط . ويضيف هيكل انه لا بد من ملاحظة أن قوة الدولة الاقتصادية تأتي من القطاع العام . وذلك دون التقليل من أهمية القطاع الخاص"[3] .

كما يتحدث البعض ، غير هيكل ، عن محاولة حقيقية لإلغاء التصنيع وتفكيك

1- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 130.

2- Heikal,M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 106.

3- هيكل ، محمد حسنين ، "لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ، ص112 .

المشاريع العامة لأنها لم تعد بتنمية حقيقية على الأمة ، بهدف المضي قدماً لعملية الانفتاح الاقتصادي والسياسي[1] .

وإضافة إلى ذلك ، فإن سياسة الانفتاح قد سمحت للبورجوازية الساداتيه بنقل الرساميل التي تجمعت في مصر إلى الخارج . وتقول بعض التقديرات بأن قيمة هروب الرساميل تتراوح بين 50 ملياراً و 400 مليار دولار[2] .

وفي إجابات له عن أسئلة طرحتها مجلة الأهالي المصرية عام 1978 ، حول تجربتة في ظل الملك فاروق ، وعبد الناصر ، والسادات ، يؤكد هيكل أن الأمور كانت واضحةً سواء كان في عهد فاروق أم في عهد عبد الناصر . حيث ان نظام الملك فاروق قد حدَّد موقفه بوضوح من مفهوم التخلص من الاستعمار ، في حين أنه كان لنظام عبد الناصر موقف محدد من الاشتراكية والوحدة العربية والعدالة الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك ، لا يمكن تحديد الهويةالاجتماعية لنظام السادات[3] . مما جعل هيكل يتساءل أمام المدعي العام الاشتراكي من هم الاشخاص وما هي المصالح التي تمثلها الطبقة الساداتيه الحاكمة[4] .

وفي كتابه ***الاستيلاء العربي : الدولة ضد الأمة*** يقدم المفكر السوري برهان غليون جرداً حسابياً لهذه السياسة اذ يقول " لم تكن سياسات التبادل التي سُميت سياسة الباب المفتوح la porte ouverte (الانفتاح) والتي طُبقت في بعض الدول منذ عام 1970 مثمرة . إذ تبين أن نتائجها كانت أكثر من مُحبِطة : توقف الاستثمارات ، سوء عمل المشاريع القائمة ، تفاقم وضع الديون العامة ، البطالة ، سياسة التضخم ، ارتفاع الاسعار وانخفاض القدرة الشرائية لدى الطبقات الشعبية أي لدى أكثر من 80٪ من الشعب ، ظهور الفوارق الاجتماعية الصارخة ، ظهور المجاعات ، انهيار الاجهزة العامة ، الصحة ، التعليم ، النقل ، الفساد الإداري ، وفساد الكوادر العُليا ، فقدان ثقة الشعب بنفسه وبمستقبله ، القلق وغو جميع

1- Rizk, Charles, *op. cit.*, p. 233.

2- Mansour, Fawzi, *op. cit.*, p. 126.

3- جريدة الاهالي ، مقابلة مع هيكل " أفهم ما دار قبل الثورة وخلالها أما الآن فلا أفهم الوضع القائم " ، القاهرة ، 12 نيسان 1978 . انظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص92 .

4- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص231 .

أشكال الكآبة والتفاهة والعنف اليومي ، انتشار استعمال المخدرات ، انهيار القيم ، سيطرة طبقة اجتماعية صغيرة على الجزء الأكبر من الدخل القومي ، الجشع على المنفعة والثراء دون الاهتمام بنوعية الوسائل ، كل هذه تُشكل محاور السياسات الجديدة التي توقع أمماً كاملة في الفوضى واليأس"[1] .

في هذا السياق ، وجدت مصر نفسها في وضع حرج على المستوى الاقتصادي ، بحيث وصلت إلى نقطة الخضوع إلى السياسة المايكرو اقتصادية Macro -Economique التي يفرضها عليها صندوق النقد الدولي وذلك لتسديد دينها الضخم . وذلك ما يعلق عليه هيكل بالقول "إن مصر قد وجدت نفسها بذلك ، ولمرة أخرى ، كما في عهد إسماعيل باشا ، غارقة في ديونها ، ذلك أن المؤسسات التي هبت لنجدتها تقوّي الآن من قبضتها وسيطرتها على الاقتصاد المصري . ويعتبر بأن النتائج السياسية قد تكون خطيرة ، حيث ان السيطرة الامريكية الكاملة على الاقتصاد المصري تستطيع عزل مصر عن بقية العالم العربي . وهكذا يمكن أن تستعمل أموال النفط لإبقائها على سطح الماء ، دون أن تعرف أو تتمكن من السباحة . وفي كل الأحوال ، فإن هذا يمسُ دورها كزعيمة للعالم العربي "[2] .

ورغم التحذيرات التي أطلقها هيكل عبر كتاباته ومشاركاته النشطة في مناقشة سياسةالانفتاح ونتائجها ، فإن صحف القاهرة أعلنت يوم 17 كانون الثاني/يناير عام 1977 ، وعلى صفحاتها الأولى قرار الدولة برفع سعر 25 مادة من المواد الأساسية . وعندها هبت المظاهرات في مصر كلها يوم 18 كانون الثاني/يناير 1977 رافعة شعارات معادية للحكومة .

وكان من بين الشعارات التي تعبر عن الاحتجاج على السادات وسياسة الانفتاح :

- ألبسونا الخيش والآن ينتزعون منا الخبز .
- حكومة وسط وهزّ البطن . كيلو اللحم ميزة .
- أمريكا اسحبي تجارتك الشعب العربي سيسحقك .

1- Ghalioun, Burhan, *le Malaise arabe: l'Etat contre nation*, la Découverte /essais, Paris , 1991, p. 94

2- Heikal,M. H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p, 107.

- الطلاب والعمال ضد الحكومة واستغلالها .
- كان عبد الناصر يقول دائماً : اهتموا بالعمال[1] .

واعتبر الرئيس السادات وحكومته أن الشيوعيين والناصريين كانوا وراء تنظيم هذه المظاهرات . ولا يستبعد دور هؤلاء غير أن إتساع المظاهرات كان يعبر في الواقع عن ثورة الطبقات الاجتماعية العريضة التي تأثرت بتحرير الأسعار ، خاصة ، والانفتاح عامة[2] .

كذلك ، شارك بعض أعضاء الأخوان المسلمين في هذه المظاهرات ، إلا أن السلطة الساداتية لم تحاول أن تبرز دورهم ، لأنها أرادت أن تُحمِّل اليسار المسؤولية الكاملة عن هذه الاحداث بالحديث عن دور موسكو وليبيا[3] .

وفي كل الأحوال ، فإن هذه المظاهرات التي كانت تحمل مظاهر مشابهة لتلك التي رافقت حريق القاهرة في كانون الثاني/يناير عام 1952 ، واسفرت عن مقتل 79 شخصاً و 800 جريح ، وأكثر من مليار جنيه مصري كخسائر مادية [4] ، قد هزّت بقوة شرعية سلطة الرئيس السادات ، وبرأي عادل حمودة " إن الشرعية التي اكتسبها السادات خلال صراعاته ضد قوى اليسار الناصرية عام 1971 ، والتي تنامت مع حرب تشرين الأول/اكتوبر عام 1973 ، قد إنهارت بعد مظاهرات كانون الثاني/يناير عام 1977 [5] ، حيث واجه أبو الأمة المصرية ثورة أولاده .

أما الرئيس السادات ، فقد اعتبر هذه المظاهرات غير شرعية ، واتهم تنظيمات يسارية بإثارتها ، واصفاً إياها "بانتفاضة الحرامية"[6] ، في حين أن هيكل كتب في الصحف العربية إنها كانت التعبر عن الانفجار الشعبي ووصفها "بالانتفاضة الشعبية" [7] .

وخلال تحقيق عام 1978 تم استجواب هيكل حول هذه التعليقات . فأصرّ على ما كتبه

1- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 385.

2- رمضان ، عبد العظيم ، "مصر في ظل السادات" ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1988 ص197 .

3- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 389.

4- Desjardins, Thierry, *op. cit.*, p. 442.

5- حمودة ، عادل ، (1991) ، مرجع سابق ، ص54 .

6- المرجع نفسه .

7- هيكل ، محمد حسنين ، " تحقيق أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص 248 .

أمام المدعي العام الاشتراكي الذي كان يمثل الموقف الرسمي ، والذي كان يعتبر أن الاضطرابات كانت نتيجة ترتيبٍ وإثارةٍ من قبل اليساريين والناصريين ، غير أن هيكل ردّ عليه بأنه إذا كانت تلك الحقيقة فقد كان على الحكومة أن لا تعطيها أهمية وأن لا تتراجع عن رفع الأسعار[1] .

ويعتبر هيكل ، أن هذه المظاهرات التي سقط فيها ثمانون قتيلاً ومئات الجرحى ، كانت المؤشر على حصول تغير في التوجه السياسي ، ذاك أن مشكلة اقتصادية ما كانت دائماً وراء كل تحول سياسي في كل المجتمعات وعبر التاريخ[2] .

ويُعبر عادل حمودة عن وجهة نظر هيكل هذه بشكلٍ أكثر مباشرة إذ يكتب" إنه إثر هذه الأحداث ، أعلن السادات ، وبحسب طريقته المعهودة التي تعتمد الصدمات الكهربائية في علاج الأزمات ، على أنه يفكر في السفر إلى القدس ووضع حد نهائي لحالة الحرب مع اسرائيل ، والعمل على ازدهار البلاد وتجنيب أبنائها الموت"[3] .

ويمكن القول ، بأن مرحلة الانفتاح أدت إلى استبعاد وتغييب الهدف السياسي المصري " بالانتصار على إسرائيل " ، وإلى التطاول على الأيديولوجية الناصرية ومحاولة تشويهها من وجهة نظر هيكل ، وهو السبب الذي كان وراء ولادة الخلاف بين الرجلين ، وهنا بدأت معارضة هيكل للرئيس بُعداً أكثر اتساعاً سنتناوله في القسم التالي .

ج – هيكل وزيارة السادات إلى القدس

كان السلام مع إسرائيل – الذي بدأ رسمياً بالزيارة المفاجئة التي قام بها السادات إلى القدس يوم 19 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1977 – أول عملٍ للرئيس لم يشارك فيه هيكل فعلياً ، سواء على صعيد تشكل صناعة القرار أو على صعيد تنفيذه .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " تحقيق أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص 250 .
2- المرجع نفسه .
3- حموده ، عادل ، (1991) ، مرجع سابق ، ص 54 .

وهنا ، علينا أن نذكر بأن هيكل الذي أُضطر إلى ترك صحيفة الأهرام في شهر شباط/فبراير عام 1974 ، بأمرٍ من السادات ، قد استطاع رغم كل شيء أن يحافظ على حضوره على الساحة السياسية ، لا كفاعل acteur بل كمراقب observateur يعطي معنى وديناميـة للأحداث ، إذ يحللّ جميع المعطيات السياسية ، والتاريخية ، والاستراتيجية ، للسلام المنفصل بين مصر الساداتية والدولة العبرية ، ويعلق عليها .

ويتجسد موقف هيكل من مبادرة السلام الساداتية عبر المقالات التي نشرها قبل وأثناء هذه المبادرة ، ومن ثم ، في الكتب التي نشرها بعد ذلك مُدعماً ما طرحة في مقالاته وحواراته الصحفية ، مثل ***الحل والحرب***[1] ، ***حديث المبادرة***[2] ، و ***السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة***[3] . حيث عبّر هيكل في هذه الكتب ، بشكل واضح وصريح عن معارضته لمبادرة السلام كما قادها السادات .

ولفهم منطق معارضته سنحاول أن نجيب عن بعض الاسئلة :

- كيف كان هيكل وعبد الناصر ينظران إلى فكرة السلام وحل القضية العربية الاسرائيلية؟
- ما نتائج السلام المنفرد على الصعيد القومي والدولي؟

ويبدو لنا من الضروري أن نعود قليلاً إلى الوراء لنضع مبادرة السادات في سياقها التاريخي والسياسي . فقد بدأ كل شيء يوم 9كانون الثاني/يناير عام 1977 ، عندما أعلن السادات أمام مجلس الشعب رغبتهُ في الذهاب إلى القدس ، وحتى إلى الكنيست لتحقيق السلام مع اسرائيل . ولم يشأ المسؤولون العرب ، حتى لحظة ذهابه أن يصدقوا بأن الرئيس جادٌّ في تصريحه ، بل كانوا يعتقدون بأن ضغوطهم ستنجح في ثنيه عن الذهاب إلى القدس . ولم تُحسم الشكوك إلاّ عندما حطت طائرته يوم 19تشرين الثاني/نوفمبر عام

1- هيكل ، محمد حسنين ، " الحل والحرب " شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط5 ، 1985 .
2- هيكل ، محمد حسنين ، " حديث المبادرة " ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط9 ، 1988 .
3- هيكل ، محمد حسنين ، " السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة " ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط6 ، 1988 .

1977في مطـار اللّد في فلسطــين[1] .

ومُنذ ذلك الحين أصبح السادات هدفاً لأكثر من هجوم حاد ،ليس فقط من قبل الدول التقدمية (الراديكالية) ، مثل سوريا والعراق والجزائر ومنظّمة التحرير الفلسطينية ، بل وأيضاً من قبل الدول المحافظة ، مثل المملكة العربية السعودية والأردن والإمارات العربية المتحدة ، وجماعات المعارضة المصرية ؛ مثل الشيوعيين والإخوان المسلمين والناصريين .

وفي تعليقه على مبادرة السادات ، يرجعها هيكل إلى "مرض العظمة" لدى هذا الأخير ، وعلى ميله المُعلن للاستعراضية ، ثم يضيف ، أن التلفزيون الامريكي قد لعب دوراً كبيراً في ذلك :

" يمكن القول ، وبدون أية مبالغة ، إن التلفزيون الأمريكي قد لعب دوراً حاسماً في فتح الطريق إلى القدس . . . فقد كانت الاسئلة والاجابات تتطاير أمام الكاميرات وتحت الأضواء"[2] .

لكن ما هي الأسباب التي دفعت السادات إلى اختيار السلام مع اسرائيل بهذه الطريقة المسرحية؟

يدعي البعض أن السادات قد اختار زيارة اسرائيل لتجنب ضربة عسكرية ضد مصر كانت تهيّىء لها اسرائيل[3] .

لكن هيكل يرفض هذه الفكرة لأن قوات الأمم المتحدة ، وبعد عام 1974 و خاصة بعد عام 1975 ، قد انتشرت بين الجيشين على طول الحدود بين البلدين للفصل بينهما . إضافة إلى أن طائرات الاواكس الامريكية كانت حاضرة في المنطقة مما يجعل افتراض حصول هجوم اسرائيلي افتراضاً مستبعداً [4] . ويشارك اللواء سعد الدين الشاذلي هيكل هذا الرأي في مقال نُشر في مجلة الوطن العربي[5] .

1- Zorghibe, Charles, *op. cit.*, p. 292.

2- هيكل ، محمد حسنين ، "حديث المبادرة" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ط9 ، 1988 ، ص49 .

3- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 465.

4- مقال لهيكل في صحيفة الوطن الكويتية بعنوان " تساؤلات حول خيار الحرب" ، 19تشرين الأول 1975 .

5- مجلة الوطن العربي ، باريس ، تشرين الأول 1978 .

كذلك فإن المفكر فؤاد زكريا يرى في زيارة السادات اسباباً تاريخية أكثر عمقاً ، فيقول : " أصبحت مصر متعبة بسبب المعـاناة المادية والمعنوية التي استمرت طيلة المراحل السابقة في نضالها ضد اسرائيل وضد القوى الاستعمارية ، وذلك بعد 30 سنة من النضال"[1] .

أما الكاتب العراقي عزيز السيد جاسم الذي خصص كتاباً نقدياً لهيكل وتجربته فيرفض تحليل زكريا قائلاً : " نجد هنا تصويراً خاطئاً لا علاقة له بتحقيق النضالات التي خاضها الشعب المصري ، لكن لها علاقة وثيقة بواقع السلطة السياسية . فالسلطة السياسية هي التي أرادت المصالحة والاتفاقيات تحت غطاء الانهيار المادي والمعنوي ، في حين أنها هي الوحيدة المسؤولة عن هذا الانهيار . فما هي اسرائيل بالمقارنة مع مصر ديموغرافياً وحضارياً؟"[2]

أما الكاتب شارل زورغبيب فيقول في كتابه ***أرضي موعودة جداً*** "إن الرئيس السادات ، وبعيداً عن أي رغبة في إلغاء الأرث القومي العربي ، كان يميل أن يقدم البرهان على أنه يستطيع ، بفعل وزن مصر ، وبفعل مهارته الدبلوماسية الشخصية ، أن يحقق السلام المشرّف الذي يتوق إليه العالم العربي بغالبيته"[3] .

ويبدو لنا ، أن هذا الرأي ليس بعيداً عن الحقيقة ، خاصة ، وأن السادات نفسه قد كتب في صحيفة أخبار اليوم عام 1978 ، معبراً عن رغبته في ان يترك بصمته على السياسة المصرية قائلا : " لـم يكن عبد الناصر يستطيع قبول الذهاب إلى اسرائيل لأنه كان متعلقاً جداً بأفكاره القديمة"[4] .

ولا يستبعد البعض أن يكون السادات قد حاول تحقيق اهداف مصرية بحتة . فهو وقد خرج قوياً من "حرب 73 " ، قرر بسرعة استغلال القومية العربية ، وإنما لصالحه الخاص هذه المرة[5] .

1- منصور ، إبراهيم " الإزدواج الثقافي وأزمة المعارضة المصرية : حوار مع د.فؤاد زكريا " ، نص مأخوذ عن كتاب جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص199 .

2- المرجع نفسه .

3- Zorghibe, Charles, *op. cit.*, p. 296.

4- أخبار اليوم ، 10 كانون الأول 1978 .

5- Barthélemy, André, *Israéliens et Palestiniens: du dialogue à la paix,* Chronique Sociale, Lyon, 1992, p. 98.

على كل حال ، لقد عبر هيكل عن معارضته لرحلة السادات إلى القدس ، ولكل ما تلاها من اتفاقيات كامب ديفيد وتطبيع العلاقات الدبلوماسية بين مصر واسرائيل في الفترة الواقعة بين عامي 1977 و 1981 ، عبر عدة مداخلات في وسائل الاعلام المصرية والعربية والغربية .

وبعد أن كان هيكل يتهم بالانتهازية ، جاء موقفه من السلام المصري الاسرائيلي يبرهن على استقلالٍ فكري وسياسي ، أما الانتقادات التي تعرض لها فتندرج في إطار التناقضات الجدلية داخل الدائرة الاعلامية والسياسية الشرق أوسطية ، حيث غالباً ما تتقدم المشاعر الشخصية على الموضوعية .

ولقد عبر هيكل عن موقفه من رحلة السادات إلى القدس يوم 14 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1977 ، أي بعد خمسة أيام من الاعلان الرسمي عن مبادرة السلام . وذلك أمام كاميرات التلفزيون الأمريكي ، بلقاء تم مع مراسل التلفزيون في الشرق الأوسط جون سنايدر :

" أنا أعترف بأنني لا أفهم ما يحصل اليوم ، وكل ما اتمناه أن تكون هذه المبادرة نتيجة خطة واحدة مدروسة تهدف إلى تحقيق السلام العادل ، وإذا كانت الامور كذلك فإنني أتمنى نجاح هذه الخطة . والا فإنني أعترف بأنني لا أرى كيف يمكن لهذا النجاح أن يتحقق . نحن بحاجة إلى إقناع الشعب المصري وكل الدول العربية بهذه الخطوة ، فالمشكلة ليست مشكلتنا لوحدنا . ودعوني أعترف أيضاً بأنني أحسستُ باضطرابٍ كبير عندما سمعت الرئيس السادات يعلن بأنهُ لم يستشر أحداً في مبادرته (. . .) . لا يمكن للسلام أن يتحقق بإرادة رجلٍ واحد ، أياً تكن الثقة الموضوعة فيه ، إضافة إلى أن تحقيق السلام يفترض تفاهماً ، بالدرجة الأولى بين الدول العربية ، لأن القضية هي قضية المجموعة العربية كلّها"[1] .

من جهة أخرى يعود هيكل فيؤكد معارضته يوم 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1977 عبر الاذاعة الانكليزية B.B.C :

" يجب أن أقول ، وبكل موضوعية ، إنني متفاجىء من هذه الزيارة ، التي تتعارض مع كل سياستنا ، حتى تلك التي قادها السادات حتى الآن ، ولا أعرف الاسابقتين تاريخيتين

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 102.

لهذه الزيارة فقط ، وهما لسوء الحظ : زيارة نيفيل تشمبرلين رئيس الوزراء البريطاني لميونيخ للقاء هتلر عام 1938 وزيارة رودولف هس لاسكتلندا عام 1941 للقاء تشرشل . هذه المقارنة مثيرة ومزعجة لنا وهي في الحقيقة محرجة للسادات وظالمة له "[1] .

المثال الثالث الذي يُظهر وجهة نظر هيكل حول عملية السلام المصرية الإسرائيلية ، يرد في صحيفة التايمز البريطانية ، حيث يحذر هيكل السادات من مخاطر اتفاقٍ مصري اسرائيلي يستبعد الدول العربية الاخرى ، ومن سلام ورقي كرتوني[2] .

وقد التقته أيضاً صحيفة الوموند الفرنسية ومجلة الإكسبرس ، وأبدى هيكل أسفه وعدم اتفاقه مع هذه " المبادرة " وشكلها ، بحيث أن صحف القاهرة هاجمته ووضعت في صفحاتها الأولى وبعناوين كبيرة " رجل ضد مصر "[3] .

نلاحظ ، اذن ، أن هيكل قد اختار بوضوح معسكره من عملية السلام منذ البداية ، محافظاً بذلك على وفائه للمبادىء والقيم التي كان يبشر بها أيام الناصرية . وفي كل الأحوال فإن الأحداث قد تتالت بسرعة كبيرة بحيث أن مصر وإسرائيل استطاعتا بعد زيارة الرئيس السادات للقدس ، وبعد مناقشة مصير سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية ، أن توقعا اتفاقيات كامب ديفيد ، بحضور الرئيس الامريكي جيمي كارتر ، وهي اتفاقيات تدعو إلى إقامة السلام في الشرق الأوسط عن طريق مسارات تفاوضية ثنائية بين إسرائيل والدول العربية ، وذلك ما رفضته هذه الدول[4] .

خلال هذه المرحلة ، هاجم هيكل بعنف سياسة السلام السّاداتية الذاتية واصفاً إياها بالسياسة السلطوية . مقارناً بين السياسة المصرية وبين السياسة الاسرائيلية مذكراً تصريحٍ لجولدا مائير في واشنطن بعد حرب أكتوبر :

" أنا لا أستطيع التوقيع على أي اتفاقٍ ، حتى ولو كنتُ أريد ذلك ، لأنه ، يخرج عن قدراتي ، انه يؤدي إلى انفجار التحالف الحكومي ، وعندها ستحاول المعارضة إثارة الرأي

1- هيكل ، محمد حسنين ، " حديث المبادرة " ، مرجع سابق ، ص 23 .
2- The Times, 20 December 1977, London .
3- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 103.
4- Gresh, A. Vidal, D, *op. cit*, p., 102.

العام عليّ ، وستهب وسائل الاعلام وتجعل من حياتنا جحيماً لا يطاق . أما هناك فإن العرب يمتلكون قدرات تكتيكية كبيرة لأن كل زعيم عربي هو سيد قراراته حتى النهاية . فظروفهم لا تضعهم تحت ضغط أحد "[1] . كما يؤكد هيكل أن خطاباً كهذا قد صدر عن بيغن وشامير ورابين فيما بعد .

وإذا كان هيكل ينتقد مفاوضات السلام ، فذاك لانها ليست برأيه ، انعكاساً لموازين القوى التي لـم تكن في صالح مصر في مرحلة الانقسامات القوية داخل العالم العربي . وفي ذلك يقول :

" لا تقتصر حصيلة مفاوضات ما على نتيجة المواجهة بين الحجج القانونية والأخلاقية للفرقاء ، بل انها أولاً وأخيراً نتاج مجموعةٍ من الوقائع وموازين القوى . لذا فإن حصيلة كل مفاوضات سلام تحدد مسبقاً منذ البداية ، وذلك قبل أن يجلس أي فريق إلى الطاولة فالمفاوض لا يستطيع خلق وقائع وموازيين قوى ، بل انه يعكسها فقط"[2] .

رغم هذه الرؤيا الايجابية والواقعية ، سيثير هيكل فيما بعد مفاهيم ذاتية ومثالية لانتقاد مشروع المفاوضات مع اسرائيل ، مديناً غياب الرؤيا المستقبلية لدى المصريين :

" ليس الحلم قضية ترف بالنسبة للشعوب والأمم والمجتمعات ، ليس الحلم قضية آنية ، انه المحرك الأكبر لطاقة الأمم والدول ، فلا يمكننا فهم قدرة الولايات المتحدة دون أن نفهم الحلم الأمريكي ، ولا يمكننا أن نفهم قوة أوروبا دون أن ندرك أهمية حلم الوحدة الأوروبية ، ولا يمكننا فهم قوة اسرائيل دون أن يحضر في بالنا الحلم الصهيوني . أليس الحلم محرك كل طاقاتنا ، ومصدر كل طموحاتنا ، حتى ولو أمكن أن يؤدي ذلك أحياناً إلى احتلال أراضي الغير كما هو الحال بالنسبة لاسرائيل"؟ .

ويتابع هيكل :

" كان ، في مصر عبدالناصر ، حلم قومي عربي قائم على إحساس الانتماء إلى أمة

1- هيكل ، محمد حسنين ، "السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة" ، مرجع سابق ، ص305 - 306 .

2- المرجع نفسه ، ص61 .

عربية تتعارض مع الرؤيا الصهيونية" [1] .

في العمق ، يعتقد هيكل أن السلام مع إسرائيل يضعف مصر التي لا تستطيع أن تعيش معزولة عن محيطها الطبيعي ، أي العالم العربي ، ولذلك صرح عام 1986 لمجلة السياسة الدولية الصادرة في باريس " أنه ليس مع السلام الحالي لأن مامن أحد يستطيع أن يصنع السلام متجاهلاً التاريخ والجغرافيا ، وقد أهمل السادات هذه الحقيقة"[2] .

تعكس رؤية هيكل هذه ، تحليلاته الجيوسياسية والاستراتيجية بخصوص مصر ، حيث يميز بين ثلاثة أنماط من الدول :

1- دول تستمد قوتها من وضعها الجغرافي ، ومن مصادرها الأساسية : مساحة كبيرة ، ثروات طبيعية ، نفط ، ثقل ديموغرافي كبير ، وهذا هو وضع الاتحاد السوفييتي ، الصين ، الولايات المتحدة الامريكية ، والبرازيل .

2- دول تستمد نفوذها من دورها في العلاقات الدولية والاقليمية مثل : لبنان ، وسويسرا وإلى حد ما النمسا .

3- دول تستمد نفوذها من دورها التاريخي ، دون أن تكون مساحتها ومصادرها كافية ، غير أن حيويتها التاريخيةهي التي تجعل منها قوىً إقليمية مؤثرة في محيطها . وبرأي هيكل أن مصر تشكل نموذجاً لهذا النمط من الدول حتى أن مصر بلغت في وقت ما ، وعلى قاعدة عروبتها ، وضعاً دولياً قيادياً في قلب حركات التحرر ، في قلب دول عدم الانحياز ، وفي قلب العالم العربي[3] .

وعلى الرغم من مواقف هيكل المكتوبة والمرئية والمسموعة ، فقد أُسيء فهم موقف هيكل من السلام المصري الإسرائيلي ، وأصبح هدفاً لانتقادات حادة ، وإذ نكتفي بمثال واحد على هذه الانتقادات ، نورد ما قاله فؤاد زكريا في كتابه ***كم عمر الغضب : هيكل وأزمة العقل العربي*** المنشور عام 1983 حيث يقول :

1- هيكل ، محمد حسنين ، " السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة" ، مرجع سابق ، ص65 .

2- Politique internationle, "*Entretien avec Heikal*" , n32, été,1986, p. 113.

3- هيكل ، محمد حسنين ، "السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة" ، مرجع سابق ، ص64 .

" منذ زيارة القدس أدرك الأصدقاء الأقرب من السادات إلى الأمريكيين ، والأكثر ذكاءً ، والأكثر عمقاً في رؤيتهم ، بأن مصير المركب هو الغرق ، لذلك قفز منه اسماعيل فهمي وزير الخارجية ، ثـم منصـور حسـن ، ثم هيكـل الذي كان يعي أبعاد الأزمة قبل كل الآخرين" [1] .

لا يبدو لنا ، أن هذا التحليل يستحق أن نأخذ به ، بل نعتقد ، بأن هيكل قد قدم البرهان على شيءٍ من الثبات إزاء نفسه وقرائه . والواقع أن هيكل قد رفض أسلوب السادات في التفاوض بعد حرب عام 1973 وعبّر عن خلافة مع كيسنجر على صفحات الأهرام ، معتبراً ان أهداف هذا الأخير تتعارض مع مصالح الدول العربية ، خاصة فيما يخص ضمان الامريكيين لأمن اسرائيل . كذلك كان يعتبر بأن استمرار دول الخليج العربي في مد الغرب بالنفط والرساميل مع تهميش الاتحاد السوفييتي في الشرق الاوسط يسير في اتجاه معاكس للقضية العربية وخاصة القضية الفلسطينية . علماً بأن هيكل تمنى نجاح مشروع التفاوض الذي بدأه كسينجر ، شرط أن يؤدي ذلك إلى نتائج تأخذ في اعتبارها مصالح الدول العربية[2] .

لقد كان موقف هيكل هذا ثابتاً ، خاصة وأنه قد رفض طلب الرئيس السادات للذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1973 للقاء الرئيس ريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر ، إذ انه كان يعتبر أن الظروف الدولية والاقليمية لـم تكن مناسبة لحوار متوازن مع الولايات المتحدة [3] .

وهكذا ظل هيكل أميناً لأفكاره وسلوكه . وكثيراً ما اتخذ نقد هيكل للسياسة الساداتية شكل هجوم شخصي جارح أحياناً . ويقدم كتاب ***السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة*** مثالاً بليغاً على ذلك . ففي هذا الكتاب يقارن هيكل بين عبد الناصر وديغول من جهة وبين السادات وبيتان من جهة أخرى ، إذ يمثل الثنائي الاول سياسة تتجاوز العقل وتتوجه إلى خيال

1- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص189 .

2- انظر إلى ملحق هذا الكتاب ، "مناقشة مع كيسنجر" ، ص 313 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص189 .

الشعوب ، فيما يجسد الثنائي الثاني سياسة ما تحت العقل ، إذ يتوجه إلى غرائز الشعوب .

ففي مواجهة الاحتلال النازي أطلق ديغول نداءً توجه به إلى ضمير الأمة الفرنسية ، مقدماً للفرنسيين مثالاً قابلاً للتجسد ومجسداً تلك القوة التنبؤية للأمل وروح المقاومة .

أما الماريشال بيتان فقد توجه إلى غريزة البقاء لدى الشعب الفرنسي . حيث كان يركز في خطبه على نقاط الضعف لدى فرنسا وعلى انتشار المآسي التي أصابتها ، ويدعوها إلى الانصياع أمام المحتوم والخضوع للمطالب النازية . وهكذا فإذا كان ديغول وعبد الناصر قد جسدا روح المقاومة ، فإن السادات قد استعمل خطاب التخلي ذاته الذي استعمله بيتان ، إذ ركز على مواجهة مصر لاسرائيل في حروب عام 1948 ، 1956 ، 1967 وكأن مصر كانت لوحدها في ساحة المعركة ، طارحاً نفسه بصورة المنتصر عام 1973 . أما عبد الناصر وعلى العكس من ذلك ، فقد نجح في تجسيد آمال الأمة العربية والعالم الثالث ، رافضاً قدرية الهزيمة[1] . إنها فكرة حُلم الشعوب أو السعادة بحسب المصطلح الأفلاطوني .

لقد رفض هيكل الاقتناع بإمكانية حصول سلام وشيكٍ وغير عادل . ويبدو ذلك بوضوح في حواره مع هنري كيسنجر خلال زيارة هذا الاخير للقاهرة عام 1974 . حيث قال له أن الوضع في الشرق الأوسط ، والتعايش بين الدول العربية وإسرائيل يختلف جذرياً عن انقسام الالمانيتين أو الفيتيامين ، لأن النسيج الاجتماعي والثقافي في هاتين الحالتين هو واحد بين ألمانيا الشرقية والغربية أو بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية . في حين أن الأمر مع اسرائيل هو عكس ذلك ، حيث يعني زرع جسد غريب في الارض الشرق أوسطية وهي عملية تقود غالباً إلى رفض الجسم للعضو المزروع[2]

فهل يعني ذلك ، بأن هيكل بمعارضته لسياسة السلام الساداتي كان مؤيداً متحمساً للحرب .؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نستخرج المفهوم الهيكلي (نسبة لهيكل) للسلام مع اسرائيل لمقارنتة بمفهوم السادات .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة" ، مرجع سابق ، ص330 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، "الحل والحرب" ، مرجع سابق ، ص 16 .

لـم يكن هيكل يوماً ، مثله مثل عبد الناصر ، معارضاً للحل السلمي للصراع العربي الاسرائيلي شرط أن يستند هذا الحل إلى الحق والعدل . وهذا ما نجده في مقال نُشر بصحيفة الأخبار بتاريخ 26 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1977 على أن السلام مع اسرائيل ليس اختراعاً ساداتياً ، فقد كان عبد الناصر مستعداً للسلام ، شرط حل قضية اللاجئين الفلسطينيين وفق مقررات الأمم المتحدة واعادة الأراضي العربية المحتلة عام 1967 . أما بالنسبة للقدس فقد كان عبد الناصر يرى فيها خلافاً أردنياً اسرائيلياً ، مع ميله الشخصي لتقسيم المدينة[1] .

لقد كانت حقيقة هذا التفكير الناصري بخصوص السلام مجهولة تماماً في الغرب ، حيث كان الرأي العام ، يحتفظ ، بتأثير وسائل الاعلام ، بالصيغة التي تقول بأن العرب يريدون "رمي اليهود في البحر" . وفي حوار مع مجلة العلاقات الدولية الفرنسية ، يوضح هيكل ، نظرة عبد الناصر للسلام مع اسرائيل بقوله :

" بعد مؤتمر باندونغ ، دارت مناقشات طويلة بين عبد الناصر وتيتو ونهرو وسوكارنو تراجعنا بعدها عن رفضنا لوجود الدولة الاسرائيلية في الشرق الأوسط" وبحسب هيكل "فقد كان عبد الناصر يقول بأن مجمل الوطن العربي بات قابلاً بقرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة . أما القضية المتبقية فتتعلق بحدود الدولة العبرية وسلوكها إزاء جيرانها "[2] .

لقد أساء أعداء عبد الناصر وهيكل تفسير هذا الاعتراف وغيره من الاعترافات والتوجهات الناصرية نحو الحل السلمي مع إسرائيل ، خاصة الأخوان المسلمين والساداتيين الذين اتهموه بكل الأخطاء ، وكمثال على ذلك نسوق محتوى مقال كتبه وزير السياحة المصري السابق أمين شاكر في صحيفة الأهرام دفاعاً عن السادات وسياسته واتهاما لهيكل حيث يقول :

" لكن هذا الصحفي ، هيكل ، ينسى أنه كان يتبنى رأياً في السلام ، مناقضاً تماماً عندما قرر عبدالناصر الاتصال ببن غوريون وفريقه الحكومي في واشنطن . ويمكن القول بأن

1- أخبار اليوم ، القاهرة ، 26 تشرين الثاني 1977 .

2- Politique internationale, *op. cit.*, p. 116.

الاتصالات قد جرت عبر المكتب الصحفي في سفارتنا في باريس الذي كان تابعاً لمجلس الثورة . رغم أن هذه الاتصالات لـم تحقق إلا نتائج محدودة ولم تسمح باقامة السلام في المنطقة "[1] . كذلك يعتقد كتاب مصريون آخرون بأن عبد الناصر لـم يرد أبداً الحرب مع اسرائيل ، وإنما أراد اقامة السلام معها[2] .

ولقد اعترف موشي دايان في مذكراته أن عبد الناصر أصبح بعد ازمة السويس 1956 واحداً من الحكام العرب المعتدلين ، على عكس السوريين[3] .

لابد من التذكير هنا بأن نتائج زيارة السادات وردات الفعل عليها كانت متناقضة ، سواء على الصعيد العربي أم الدولي . فعلى الصعيد العربي أفتتحت زيارة السادات استبعاد مصر من سائر العالم العربي ودمرت إدعاءها بالزعامة[4] .

أما على الصعيد الدولي ، فقد انتقد الاتحاد السوفييتي الزيارة وأقنع سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية بتشكيل جبهة رفض لهذا التوجه[5] .

لكن هيكل يحلل موقف الاتحاد السوفييتي ، بالرغم من ردة الفعل السلبية هذه ، بقوله : "لم يفاجأ الاتحاد السوفييتي بالزيارة ونتائجها لأنه لـم يكن غريباً عن المفاجآت ، وعلى التغيرات السريعة في المواقف ، ففي تجربته كثير من السوابق الأخرى" :

- ففي آب/ أغسطس عام 1939 حصلت المفاجأة الكبرى في تاريخ السياسة الدولية ، وهي توقيع الاتحاد السوفييتي معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع هتلر ، علماً بأن النازية كانت منذ ظهوها هي العدو الأول والأكبر للاتحاد السوفييتي ، وظلّ الاتحاد السوفييتي يدافع عن موقفه وعن الاتفاقية مع هتلر حتى اندفاع المدرّعات الألمانية النازية ، بشكل مفاجىء مجتاحة بذلك حدوده عام 1941 .

- ولذلك لـم يكن الاتحاد السوفييتي ضد تسوية سياسية بين العرب والاسرائيليين ،

1- الأهرام ، القاهرة ، 16 كانون الأول1977 .

2- انظر كامل ، رشاد ، " عبدالناصر في تل أبيب" ، الصيداوي للنشر ، القاهرة ، 1991 .

3- Dayan, Moché, *op. cit.*, p. 30.

4- Rizk, Charles, *op. cit.*, p. 242.

5- Gendy, Moustafa, *op. cit.*, p. 239.

فقد سبق وأن عرض على عبد الناصر دعوة جميع الفرقاء إلى الاجتماع في طشقند لحل الخلافات ، على غرار مؤتمر طشقند الذي انعقد عام 1961 لحل مشكلة الهند وباكستان . لكن عبد الناصر أجاب أن القضية العربية الاسرائيلية هي أكثر تعقيداً من القضية الهندية الباكستانية .[1]

أما الأمريكيون ، فقد حيّيوا من جهتهم مبادرة السلام وزيارة السادات لأنها تفسح المجال امام حل الصراع دون مشاركة السوفييت . أما فيما يخص أوروبا ، فيعتقد هيكل ، بأنه لم يكن لها دور كبير في مبادرة السلام ، والدور الوحيد الذي لعبته أوروبا كان بعد حرب عام 1967 عندما عرض ديغول أن ينظم مؤتمراً لحل القضية . أما بعد عام 1970 فقد اقتصر دور أوروبا على العلاقات العامة في الصحف واللقاءات المشتركة . . إلخ[2] .

أما في مصر ، كان الشعب منقسماً إلى معسكرين : أحدهما يؤيد زيارة السادات ، والثاني يعارضها (اليساريون والشيوعيون والناصريون ، والأخوان المسلمون) . وكان في المعسكر الساداتي بعض المفكرين : مثل نجيب محفوظ الذي حصل على جائزة نوبل عام 1988 ، والذي كان يقول في تلك الفترة :

1- ليس أمام العرب إلا أن يجلسوا مع اسرائيل للتفاوض .
2- إن أفضل نظام حكم في الشرق الأوسط هو في اسرائيل .

وعندما أرسل له السادات إسرائيليين لمناقشته استقبلهم بالترحاب وعبّر عن سروره برؤيتهم ولقائهم[3] .

ولذلك انتقد هيكل نجيب محفوظ الذي لم يكن يبحث برأيه إلا عن جائزة نوبل ، عن طريق إبداء المرونة والتفهم إزاء اسرائيل[4] .

ويشارك الكاتب العراقي عزيز السيد جاسم هيكل هذا الرأي ، ليس فقط فيما يخص

1- هيكل ، محمد حسنين ، " حديث المبادرة " مرجع سابق ، ص134 - 135 .
2- المرجع نفسه ، ص150 - 152 .
3- دوارة ، فؤاد ، "حوار مع نجيب محفوظ" ، مجلة الغد ، العدد 505 ، بيروت ، تشرين الأول 1986 .
4- هيكل ، محمد حسنين ، "بين الصحافة والسياسة" ، مرجع سابق ، ص385 .

محفوظ ، بل وأيضاً ، فيما يخص توفيق الحكيم الذي أبدى مواقف مؤيدة للسلام الساداتي . ولذلك يتحدث عزيز جاسم عن " الانتهازية " و "الانهزامية " لدى المثقفين العرب[1] .

وهكذا عندما رأى السادات أن هيكل تجاوز الحدود في نقدهِ للنظام وسياسته قرر عام 1978 منعه من مغادرة الأراضي المصرية والتحقيق معه بتهمة التعرض للدولة ، والتحريض على الاضطرابات . وجعله يمثل أمام المدعي العام الاشتراكي في تحقيق استمر 10 جلسات كل منها ثلاث ساعات وعلى مدى 3 أشهر . وكانت المرافعات تتركز على مقالات وحوارات إذاعية وتلفزيونية أبدى فيها هيكل معارضة لسياسة السادات[2] . وهنا يفقد هيكل دوره كمستشار سياسي ويصبح الانفصال بين الرجلين حقيقياً وفعلياً .

وقد نشر هيكل ، فيما بعد ، تفاصيل هذا التحقيق في كتاب بعنوان ***تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي*** . يفسر فيه بأنه لـم يكن لهذا التحقيق أي طابع قانوني وإنما كان له طابع سياسي . وخلال هذا التحقيق لـم يغير هيكل مواقفه من السادات وسياسته ، لذلك اعتقل بأمر من هذا الأخير مع كل المعارضين ، ليطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر تقريباً إثر اغتيال السادات في 6 تشرين الأول/أكتوبر 1981 ووصول الرئيس حسني مبارك إلى السلطة[3] .

وعلى الرغم من كل آرائه وأفكاره الواضحة والصريحة والمباشرة عن السلام والحرب بين العرب واسرائيل ، إلاّ أن هناك ثمة أسئلة تطرح نفسها اليوم :

ماهو فكر هيكل إزاء مشروع السلام الحالي؟ هل يعتبر هذا هزيمة أم نوعاً من الاستسلام؟ وهل ينسجم ذلك مع مفهومه للسلام؟ وهل ما تزال أفكار هيكل إزاء اسرائيل مناسبة للحاضر؟

على أية حال ، إذ نترك هذه الأسئلة لتفتح آفاق جديدة فيما بعد ، يمكننا أن نخلص إلى أن مواقف هيكل المتعددة بخصوص القضايا المصرية والعربية ، خاصة القضية الفلسطينية ، ستصبح مادة للجدل المستمر حتى اليوم .

1- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص132 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، " تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي " ، مرجع سابق ، ص61 .

3- انظر أول حديث صحفي لهيكل مع مجلة المصور 4 كانون الأول 1981 . وانظر ايضاً : هيكل ، محمد حسنين ، "أحاديث العاصفة" ، مرجع سابق ، ص 107 .

2- هيكل : رجل جدلي

يبدو أن هيكل كان – وسيظل – الصحفي الأكثر إثارة للجدل والنقاش في مصر والعالم العربي ، هذا الرجل الذي كان قريباً لعبد الناصر خلال مرحلة الاشتراكية العربية ، ، هو أيضاً الرجل الذي ساهم بوعي أو بغير وعي ، في إضعاف الناصرية عبر دعمه لسياسة الانفتاح الساداتية . هذا الرجل الذي دافع عن الثورة الناصرية هو أيضاً الذي اتهم مرات عدة بأنه عميل للولايات المتحدة الأمريكية وأحياناً للاتحاد السوفييتي .

وسنحاول عبر هذا الجدل وهذا التناقض الذي يحيط – بالرجل السر– أن نستعرض الهجوم الاعلامي الذي تناول النظام الناصري ، وهيكل أيضاً ، ما يقوله ويعتقده خصومه ومؤيدوه . وسنحلل بالتالي" الكتاب الفخ" ***خريف الغضب***عام 1981 . الذي أثار الآراء والتساؤلات المتناقضة ، إذ كشف عن بعض الغموض في سيرة الرجل .

أ – الحملة ضد الناصرية :

لقد كان الرئيس السادات يعي القوة التي يحتلها ممثلو عبدالناصر داخل نظامه الجديد . فإذا أراد تطبيق سياسة جديدة مختلفة ، إن لم نقل متناقضة للسياسة الناصرية ، فقد كان عليه أن يتحرك بطريقة تدريجية مظهراً ، خطوة بخطوة étape par étape ، نقاط الاختلاف بين هذين الخطين السياسيين . لذلك ، بدأ بالحديث عن حرية الرأي وحرية التعبير وحقوق الإنسان ، قبل أن ينتقل إلى الحديث عن دولة المؤسسات ودولة القانون وهذا ما أسماه الانفتاح السياسي والاقتصادي .

الواقع أن سياسة الانفتاح ، كانت استراتيجية تهدف إلى خلخلة توافق الناصريين والشيوعيين بالاستناد على الكتاب والصحفيين المقربين إلى السادات ، والذين لديهم سبب آخر لمعارضة الناصرية . ويؤكد عبدالله إمام في كتاب خصصه للدفاع عن عبد الناصر والناصرية ، بعنوان ***عبد الناصر والحملة الظالمة*** أنه :

" بعد حرب اكتوبر عام 1973 ، أعطي الضوء الأخضر لانطلاق الهجوم بأقصى سرعة حيث حركت جميع وسائل الاعلام ، الصحف الرسمية ، التلفزيون ، الاذاعة ، السينما

والكتاب . ومن ثم دخل السادات نفسه مشعلاً النار في كل مكان . هكذا وضع أعداء عبد الناصر ، ومنهم من عاد من الخارج ، في المواقع الأكثر أهمية في وسائل الاعلام ، كما أنه تصالح مع التيار الاسلامي وسمح له بانتقاد الحقبة الناصرية . ثم صاغ نصاً دستورياً يقضي بأن جريمة التعذيب هي جريمة غير قابلة للتقادم " .

"أن هدف هذا النص ، يضيف عبد اللّه أمام ، هو السماح بفتح الملفات السوداء للفترة الناصريةعن طريق عناصر الحركات الدينية . وبعد ذلك أدار أنور السادات المعركة بنفسه عبر عشرات الخطط والاعلانات والمقالات التي تتناول سنوات الارهاب ، و الجرائم ، والاعتقالات الاعتباطية ، والسجن ، والديكتاتورية ، والاشتراكية والفقر"[1] .

بتنظيمه هذه الحملة الاعلامية ضد التجربة الناصرية وضد عبد الناصر نفسه ، بإبراز المظاهر السلبية فقط ، كان النظام الساداتي يحاول أن يجبر خصومه على الصمت وأن يعطي نفسه وسياسة الانفتاح التي انتهجها إزاء الغرب ، مشروعية . وقد بدأت بشائر الهجوم الاعلامي في شهر آذار/مارس عام 1974 ، أي بعد شهر واحد من إقالة هيكل من صحيفة الأهرام ، وذلك بنشر كتاب بتوقيع أستاذ بجامعة القاهرة يدعى إبراهيم عبده ، يقول فيه :

" عبد الناصر هو أمير التعذيب ، والاغتيال والتدمير . لقد نشر الخوف والرعب في المجتمع المصري" . ويضيف الكاتب نفسه بان " النظام الناصري لا يختلف كثيراً عن الأنظمة الهتلرية والفاشية ولا عن النظام الستاليني"[2] .

ورغم الطبيعة الهجومية والاستفزازية لهذا النقد في مرحلة كان فيها الهجوم على شخص عبد الناصر ما يزال غير مألوف ، فإن الكتاب قد طبع ووزع ، غير أنه لم يلبث أن اختفى من المكتبات بأمر من الحكومة ، بعد يومين من بيعه [3] .

ولابد هنا من التوقف أمام هذا التناقض الظاهر بين دور الحكومة من هذه الحملة من جهة ، وموقفها من نشر هذا الكتاب من جهة أخرى . فقد كانت الحكومة تحاول أن تبدي

1- إمام ، عبد اللّه ، "عبد الناصر والحملة الظالمة " ، دون ذكر لدار النشر ، القاهرة ، 1986 ، ص3-4 .

2- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 15.

3- *Ibid* .

تظاهراً بالتسامح ازاء الأشخاص الذين يهاجمون النظام الناصري ، ولكنه كان موقفاً يتسم بالخجل والغموض على الأقل في تلك المرحلة . والواقع أنه إذا كان النظام الساداتي قد تردد في اتخاذ موقف يعارض عبد الناصر بشكل معلن ، فذلك لأن نظام الحكم كله بكوادره وجهاته الحاكمة ، لم يكن إلا الإرث الخفي والطبيعي لعبد الناصر . إذ ان أكثرية كبار الموظفين في السلطة الجديدة كانوا يدينون بتطويرهم المهني للنظام الناصري . لذلك حاولت حكومة السادات أن تُبعد نفسها أمام الرأي العام على الأقل ، عن الهجوم الاعلامي المضاد للناصرية ، الذي ساهمت في شنّه . وهكذا أعلن خليفة هيكل في صحيفة الأهرام علي أمين بأنه رفض وقف هذه الحملة الاعلامية ، رغم أن السادات قد طلب منه ذلك شخصياً ، بحجة أن هذا الأخير قد اعطى الضوء الأخضر للهجوم المضاد على الناصرية وأنه لابد من المضي في هذا المنطق حتى النهاية[1] .

وإذا كان الهجوم المضاد على الناصرية متردداً في البداية فإنه قد أصبح فيما بعد أكثر حدّة ، وبلغت اصداؤه الضمير الشعبي المصري ، خاصة عندما نشر الأديب الكبير توفيق الحكيم كتابه ***عودة الوعي*** عام 1974 [2] .

وفي هذا الكتاب يوجه الحكيم نقداً قاسياً للنظام الناصري ، مؤكداً على أن عبد الناصر قد خدّر الشعب العربي والمصري بخطبه الحماسية وسياسته القمعية ، رغم أن توفيق الحكيم قد بلغ قمة مجده الأدبي في الفترة الناصرية ، بحصوله على عدة جوائز وامتيازات رسمية[3] .

وقد أدان هيكل غموض توفيق الحكيم وذلك في مجلة الصياد اللبنانية [4]حيث ذكره بأنه ، سمح له بانتقاد النظام والدولة المصرية من على صفحات صحيفة الأهرام ، مثل القصة القصيرة التي حملت عنوان ***بنك القلق*** ، ثم ، خلص هيكل ، إلى إبداء عجبه من أن الحكيم لم ينتبه إلى أنه كان مؤيداً لدولة من الأشباح التي تحاول ارهاب الشعب . إلا بعد

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 17 .

2- الحكيم ، توفيق ، "عودة الوعي" ، دار الشروق ، القاهرة ، 1974 .

3- إمام ، عبدالله ، مرجع سابق ، ص3 .

4- مجلة الصياد ، بيروت ، كانون الأول 1974 .

أربع سنوات من موت عبد الناصر . وهنا ثمة ملاحظتان تبدوان لنا ضروريتين :

أولاً : إن موقف توفيق الحكيم يعكس ، على طريقته ، تردد وعدم وضوح المثقف العربي أمام الأحداث الكبرى وأمام الشخصيات السياسية . فهو نفسه الذي كتب بعد موت عبد الناصر عام 1970 مقالاً بعنوان " تمثال لعبد الناصر " يمجد فيه ذكراه بحرارة ، حتى انه يقول بأنه مستعد للتبرع براتبه الشهري البالغ ٥٠ جنيهاً مصرياً ، للمساهمة في بناء تمثال (للزعيم الخالد) جمال عبدالناصر ، وهاهو نفسه يرد بعد اربع سنوات ضد سلطوية وأحادية زعيمه[1] .

موقف نجده أيضاً لدى نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1988 ، والتي يقول هيكل انها لم تكن في الواقع إلا مكافأة سياسية لكاتب كافح من أجل سياسة السلام الساداتية بين اسرائيل ومصر .

ففي حين كان بإمكان محفوظ أن ينتقد النظام والدولة في مرحلة عبد الناصر إلا أنه لم يفعل إلا في المرحلة الساداتية . مع انه بعد موت عبد الناصر كتب مقالاً تحت عنوان "كلمات من السماء" ، يرثي فيها جمال عبد الناصر قائلاً :

"حياك اللّه يا أكرم ذاهب . . حياكم اللّه وهداكم . إنني أحني رأسي حباً وإجلالاً . . . تحية طيبة . ولن تنسى اقوالك (ارفع رأسك يا أخي) ، إن عشرات التماثيل لا تكفي لتخليدك"[2] .

ثانياً : لم يكن هذا الخلاف بين هيكل رجل الاعلام ، وتوفيق الحكيم رجل الأدب جديداً ، فقد سبق وعبر الحكيم عن تحفظاته على تعيين هيكل وزيراً للاعلام عام 1970 ، كما انهما عادا إلى المواجهة من جديد عندما نشر هيكل كتابه ***خريف الغضب*** بعد موت السادات . يومها وجه له الحكيم رسالة لكن صحيفة الأهرام رفضت نشرها ، فنشرها في مجلة الأهالي المعارضة ، وفيها يقيم مقارنة بين هذا الكتاب وكتابه ***عودة الوعي*** . حيث يقول إن الكتابين قد كُتبا بعد موت رئيس ، وكل منهما قد انتقد النظام السابق .

1- إمام ، عبدالله . مرجع سابق ، ص196 .

2- المرجع نفسه ، ص194 .

لكن هيكل وجه له خطاباً جوابياً محاولاً اظهار الاختلاف بين حسابات الكاتب وحسابات الصحفي السياسي ، حيث يستند الأول إلى المثالية في حين يستند الثاني إلى الواقع . ويبرر هيكل تحليله هذا مذكراً بأنه انتقد السادات في حياته ولم ينتظر موته كي يفعل . وأن ***خريف الغضب*** لـم يكن إلا مجموعة من المقالات اليومية ضد السادات التي نشرت في حياته ، لذلك لا مجال للمقارنة إذاً بين المثاليين والواقعيين[1] .

الحقيقة أن هيكل لم يكن الوحيد الذي رد على "الحملة الاعلامية" الكبيرة المضادة للناصرية ، فقد انضم إليه الشاعر السوري المعروف نزار قبّاني . وإذا كان هذا الشاعر قد كتب خلال المرحلة الناصرية ديوانه ***هوامش على دفتر النكسة*** حيث ينتقد السياسة الناصرية التي قادت إلى نكسة عام 1967 . (ويومها منعت الصحف العربية التي نشرت هذه القصيدة من دخول مصر . كما شن عدد من الكتاب والنقاد المصريين حملة حادّة ضد نزار قباني) فإنه قد دافع عن عبد الناصر بعد موته[2] .

وهكذا يذكرنا الكاتب عبدالله إمام بأن عدداً كبيراً من الذين كانوا يدافعون عن عبد الناصر ، أصبحوا من بين أول من هاجمه بعد موته ، في حين أن نزار قباني قد برهن عن شجاعة وجرأة إذ انتقده في حياته وكان أكثر جرأة عندما دافع عنه بعد وفاته . حيث كتب نزار قباني قصيدته الأولى عن عبد الناصر بعد موت الأخير بعنوان "قتلناك يا آخر الأنبياء" ومن ثم كتب قصيدة ثانية بعنوان "الهرم الرابع" حيث اتخذ موقف المدافع عن عبد الناصر واتبعهما بمقال بعنوان "مظاهرة ضد رمسيس الثاني" قال فيه :

" هل يسامحني أستاذنا توفيق الحكيم إذا قلت له أن كتابه الأخير ***عودة الوعي*** هو رديء جداً ، وخفيف ، ومتأخر ؟

وهل يسامحني أيضاً إذا قلت له أن الكتاب الذي قدمه كتحد لا يتحدى أحداً لأن التحدي يفترض وجود الخصم ، غير أن خصمه الآن ينام تحت رخام قبر في ضاحية منشية

1- هيكل ، محمد حسنين ، "خريف الغضب" (باللغة العربية) ، مرجع سابق ، ص468 - 470 ، (لم تحتوِ الترجمة الفرنسية على هذه الرسالة) . .

2- إمام ، عبدالله ، مرجع سابق ، ص197 .

البكري في القاهرة . الكتاب لا شيء لأنه لا يضيف إلى ما يقال في الشوارع ، في المقاهي ، وبين العامة من الناس . إنه ليس أكثر من ثرثرة على النيل بين مجموعة من الناس الجهلة الذين يعتبرون الثقافة نوعاً من الفنتازيا "[1] .

ويضيف نزار :

" المثير للسخرية في هذا الكتاب هو محاولة الحكيم اقناعنا بأنه كان ، خلال سنوات الناصرية تحت تأثير السحر ، وانه كان تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، كيف يمكن لكاتب كبير أن ينزل إلى مستوى هذا التفكير السطحي ، بالقول لنا ، كإنسان بسيط : لا تلوموني على شيء لأنني كنت مجنوناً ومملوكاً تحت تأثير سحر أسود ومنوماً خلال عشرين عاماً "[2] .

ثم يضيف القباني : " ليس للمواقف التي تعلن بعد عشرين عاماً أي قيمة ، لأن الناس ينتظرون من الكاتب أن يضيء حاضرهم وأن يضيء منهجهم السياسي خلال الحدث ، لا أن يكتب قصيدة أو تأبيناً لرمسيس الثاني بعد خمسة آلاف عام من موته"[3] . " إذا كان الحكيم معارضاً هاماً للنظام الناصري ، لماذا لم يرفض وسام الشرف من رتبة الفرعون الذي أعطاه إياه عبد الناصر ولم يعلن اسباب رفضه أمام الرأي العام كما فعل بعض الكتاب الأجانب ممن رفضوا جائزة نوبل مثل باستر ناك" ولو كان ذلك قد حصل لكان هذا الرفض أول إشارة احتجاج يبديها مفكر عربي . لكن الوسام ظل على صدر الاستاذ توفيق الحكيم" . وأخيراً يختتم القباني قائلاً : " يا مصر ، إني استغفرك باسم جميع الكتاب الذين خرجوا من غرفة التخدير بعد عشرين عاماً وقرروا أن يسيروا في مظاهرة ضد المرحوم رمسيس الأول"[4] .

وعلى أية حال ، استمرت الحملة الاعلامية ضد عبد الناصر ونظامه بقوة ، حيث صدرت اعمال ومقالات جديدة ضد عبد الناصر ونظامه ، بقيادة علي أمين ، الرجل الذي

1- إمام ، عبدالله ، مرجع سابق ، ص202 .
2- المرجع نفسه .
3- المرجع نفسه ، ص203 .
4- المرجع نفسه .

حل محل هيكل على رأس صحيفة الأهرام بطلب من السادات[1] . علماً بأنه كان لعلي أمين في الستينات رأي آخر في الناصرية ، حيث كتب مقالاً بعنوان : " باسم مصر وسوريا نقول نعم" وذلك في إطار حملة عبد الناصر الانتخابية عام 1961 :

" باسم الدستور ننتخبه ، باسم المستقلين ، باسم الشهداء وباسم العدالة . باسم التجديد ننتخبه ، نعاهدك بأننا لن ننسى النصبين الذين بنيتهما بيديك ، الميثاق الوطني واعلان مارس : انت من قال : (نحن كلنا فلاحون ، عمّال وفقراء) انت من دعا إلى استقلال الأمة العربية وتحرير أرضها الشهيدة . إن طريق الحقيقة هو طريق العلم والاشتراكية والسلام . نحن كلّنا نذهب وتبقى مصر "[2] .

وإضافة إلى دور علي أمين في الحملة الإعلامية المناهضة لعبد الناصر ونظامه ، قام شقيقه مصطفى أمين الذي كان قد خرج لتوه من السجن بعد أن قضى عقوبة بتهمة التجسس لصالح الاجهزة السريّة الاميركية ، بنشر سلسلة من المقالات المفصلة في صحيفة الأخبار حول اساليب التعذيب التي تتبعها أجهزة الاستخبارات الناصريّة[3] .

وعلى أية حال ، فإن الهجوم قد بلغ ذروته عندما نشر جلال الدين الحمامصي ، وهو صحفي وأستاذ صحافة معروف ، كتابه ***حوار وراء الأسوار*** عام 1976 حيث يؤكد أن عبد الناصر قد اختلس 15 مليون دولار (البعض يقول 10) قدّمها الملك سعود[4] .

أمام هذا الاتهام تحرك عدد من الصحف والنقابات والصحفيين المستقلين بشكل حاد واصفين هذا العمل بالاستفزازيّ . حيث قدّموا احتجاجاً وشكوى ضد صحيفة الأخبار التي يرأس تحريرها مصطفى أمين ، غير أن الصحف الرسمية رفضت نشر كتاب الاحتجاج هذا .

وعندها قرر أحمد بهاء الدين وهو صحفي له احترام وتقدير من قبل الأوساط الإعلامية ، ورئيس تحرير سابق في صحيفة الأهرام ، نشر مقال للدفاع عن عبد الناصر .

1- لفهم المشكلة بين هيكل والأخوين أمين ، وخاصة مصطفى أمين ، راجع كتاب : حسنين ، كروم ، "ناصر بين هيكل ومصطفى أمين" ، دار المأمون للطباعة ، القاهرة ، 1975 .

2- إمام ، عبدالله ، مرجع سابق ص 186 .

3- انظر مصطفى أمين ، " سنة أولى سجن " ، منشورات دار الشروق ، القاهرة ، 1975 .

4- الحمامصي ، جلال ، "حوار وراء الأسوار" ، المكتبة المصرية الحديثة ، القاهرة ، 1976 ، ط 1 ، ص 190 .

لكن الصحف رفضت بأمر من الحكومة نشر هذا المقال[1] .

ولا بد من الإشارة هنا ، بأن جلال الدين الحمامصي كان مسؤولاً عن صحيفة الثورة (الجمهورية) وأن عبد الناصر قد عينه نقيباً للصحفيين ومسؤولاً عن الإعلام المصري في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أوكل إليه مسؤولية تأسيس وكالة أنباء الشرق الأوسط الرسميّة . وهو أيضاً الذي كتب في صحيفة أخبار اليوم في 10 حزيران/يونيو عام 1967 ، أي بعد استقالة عبد الناصر ، مقالاً بعنوان " إبق معنا " . يقول فيه :

" البطل يظل دائماً بطلاً ، وقد كان عبد الناصر يوم 23 تموز/يوليو عام 1952 بطلاً ، وهو ما يزال كذلك عام 1967 ، لأن جمال عبد الناصر أراد مواجهة نكسة العالم العربي بشجاعة نادرة . أراد أن يتحمل المسؤولية ، وفي هذا يجب أن نقول كلمة ، لم تكن المؤامرة موجهة ضد شخص عبد الناصر بل إنها كانت تستهدف الغاء الشعب العربي كلّه ، بكل طاقاته القومية وكل قدراته الهائلة . لذا فإن القوى المعادية قد جندت كل ما تطاله يدها ورسمت خطة المؤامرة بحيث تطعن قلب الشعب العربي . إن وجود عبد الناصر بيننا ، في هذه المرحلة هو واجب بل وضرورة "[2] .

ولمواجهة هذا الهجوم الإعلامي كتب هيكل عدة مقالات نشرها في الصحف العربية ، اللبنانية والكويتية والأردنية والاماراتية ، مؤكداً أن مصر تتعرض لعملية غسل دماغ ، وانتحار اخلاقيّ ضد عبد الناصر كما لم تعرف في تاريخها[3] .

ومن ثم عاد وجمع هذه المقالات في كتاب بعنوان : ***لمصر لا لعبد الناصر*** . حيث يؤكّد بأن عبد الناصر لم يكن طبعة سيئة من النازية [4] ، بل انه كان قومياً كريماً حاول أن يخلق مجتمعاً بدون فوارق بين الطبقات وأن يكافح الأميّة وأن ينمّي الصناعة والزراعة والدفاع . إنه الرجل الذي قام بالثورة في بداية الحرب الباردة ، أي في مرحلة كانت فيها الثورة المضادة تستند إلى استعمال عناصر ثورية داخلية أكثر مما تستند إلى الحرب ، وذلك ما

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 16.

2- إمام ، عبدالله ، مرجع سابق ص 192 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر" ، مرجع سابق ص201 .

4- جريدة صباح الخير ، مقابلة مع هيكل "لم يكن عبد الناصر طبعة رخيصة من عصر النازيين" ، القاهرة 14كانون الثاني 1982 . وانظر أيضاً : هيكل ، محمد حسنين " أحاديث في العاصفة " ، مرجع سابق ، ص135 .

يفسر التدابير الوقائية التي كان عليه أن يتخذها في هذه الظروف[1] .

" ولم يكن عبد الناصر سارقاً يقول هيكل ، بل قومياً كريماً ، إنه لـم يختلس أبداً مبلغ خمسة عشر مليون دولار التي قدّمها الملك سعود . ويشهد حاكم البنك المركـزي ووزير الاقتصاد في حينها ، اللـذان ما زالا أحياء ، كما يؤكد هيكل ، على أن عبد الناصر قد أودع هذا المبلغ في حساب عام مقابل وصولات تؤكد حقيقة هذه العملية . إضافة إلى أنه قد أشهر رسمياً إلى أن عبد الناصر قد مات مديوناً " [2] .

وفي جميع الأحوال ، فإن هيكل يصل في هذا الكتاب إلى الاستنتاج بأن هذا الهجوم لـم يجعلنا نسيء إلى أنفسنا ، بل إلى الأمة العربية كلّها ، فقد كنّا في وضع من يقول لهذه الأمة : لا تعتمدي على مصر في شيء . . . لأن مصر لا تملك إلاّ قناع الوهم ، ذاك أن الأمّة العربية أمام خيارين :

- إمّا أن تصدّق ما نقوله الآن وأن تحكم على مصر من 23 تموز/يوليو عام 1952 حتى أيار/مايو عام 1971 .

- أو أن ترفض ما نقوله وتحكم على مصر ما بعد عام 1971 وحتى أيامنا .

إن مصر هي الخاسرة في الحالين . . . . ومثلها الأمة العربية ، فالاثنتان ضحيتان ومن هو المذنب ؟ هنا يكمن السؤال ؟![3]

وهكذا يبدو هيكل ملتزماً لأفكاره ، حافظاً لعهده وآرائه رغم الحملات الاعلامية والسياسية المنظمة المقصودة أو غير المقصودة تجاه الناصرية ورموزها ، كما وتبدو صوره مخالفة تماماً وبشكل كامل لكثير من المثقفين الآخرين الذين يغيرون مسارهم الفكري والسياسي حسب تغير الأنظمة وتبدلها . ومن هنا ، فإن تكامل هيكل وانسجامه مع ذاته هما أمران لا غبار عليهما تقريباً .

1- هيكل ، محمد حسنين ، " لمصر لا لعبد الناصر " ، مرجع سابق ، ص75 .
2- المرجع نفسه ، ص13-14 .
3- المرجع نفسه ، ص48 .

ب- هيكل في قلب الجدل

نلاحظ ، عبر بحثنا ، أن هيكل قد تعرض إلى انتقادات وهجوم أعدائه وأعداء الناصرية قبل أن يستقيل من صحيفة الأهرام عام 1974 ، أو بتعبير أدق قبل أن يُقال منها ، بحسب صحيفة التايمز [1] . غير أننا لا نستطيع أن نتحدث عن هجوم حقيقي ضده إذ لم يبدأ هذا الهجوم فعلياً إلاّ بعد تركه صحيفة الأهرام ، حيث ادعى عدد كبير من الصحفيين أنه كان مسؤولاً عن سجن مصطفى أمين[2] ، رئيسه السابق وشقيق رئيس تحرير الأهرام الجديد علي أمين الذي عينه السادات بدلاً عنه ، علماً أن مصطفى أمين قد سُجن عام 1965 بعد أن اتهم بالتجسس لصالح الولايات المتحدة الأمريكية[3] .

وانطلقت الاتهامات الموجهة إلى هيكل من شخصيات تنتمي إلى عدة اتجاهات وتيارات سياسية مختلفة . فقد قالوا عنه أنه كان "صديق السوء" الذي زين طريق الحرب والهزيمة عام 1967 بكتاباته ودعمه غير المشروط للديكتاتورية . وعندها ظل هيكل هدفاً للاتهامات والتشكيك والحملات الاعلامية المنظمة . اتهامات تطال أحياناً تعاونه مع الأجهزة السريّة الامريكية والسوفياتية ، وأحياناً وصوليته السياسية ، بالاستناد إلى دعمه المطلق للسلطة وللقمع العنيف .

ولفهم طبيعة هذا الهجوم ومنفذيه ، علينا العودة قليلاً إلى الوراء ، لنرسم صورة أكثر أمانة وموضوعية لمختلف وجهات النظر المتناقضة بهذا الخصوص . لقد اتهم هيكل عدّة مرّات ومن قبل عدة اشخاص بإنه جاسوس للولايات المتحدة الامريكية وأنه يعمل لدى الاستخبارات المركزية الاميركية منذ ثورة عبد الناصر عام 1952 . فالأمريكي مايلز كوبلند عميل الاستخبارات الأمريكية في السفارة الأمريكية في القاهرة ، يؤكد هذا الطرح في كتابه الصادر عام 1969 بعنوان ***لعبة الأمم*** دون اعطاء أي دليل حقيقي أو ملموس . باستثناء الإشارة عن تردد هيكل للسفارة الأمريكية والحديث مع رجالاتها بكونه حلقة الوصل بين الضباط الاحرار والمسؤول السياسي في السفارة الامريكية وليام ليكلاند[4] .

1- جريدة التايمز ، لندن 4 شباط 1974 . انظر ملحق الكتاب ، ص332 .

2- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 99

3- جريدة السياسة ، الكويت ، 27 تشرين الأول 1975 .

4- كوبلند ، مايلز ، "العبة الأمم" ترجمة مروان خير " منشورات الانترناشنال سنتر ، بيروت ، 1970 ، ص96 .

ونجد معلومات تقول ، بأن هيكل كان بين الأشخاص الذين كانت لهم علاقات متصلة ومنتظمة مع السفارة الأمريكية واعضائها الذين يعملون لصالح الاستخبارات المركزية الامريكية . كذلك أوضح كوبلاند أفكاره هذه في كتاب تالٍ أصدره عام 1974 بعنوان ***دون ساعة أو خناجر: حقيقة الجاسوسية الحديثة*** . حيث يحاول هذا الكتاب أن يحلل المحيط الصحفــي والسياسي والتجسسي . ويقول كوبلاند" إن هيكل كان بين هــؤلاء الصحفيين الذين ينتقدون السياسة الأمريكية عندما يريدون مع محافظتهم على علاقات وثيقة مع السفارة الأمريكية ، كي يتمكنوا من الإفادة من المعلومات التي تنشرها"[1] .

لكن هيكل نفى الاتهامات الموجهة إليه في هذا الكتاب ، مركزاً على أن مايلز كوبلند ليس أهلاً للثقة ، لأنه وبصفته عميلاً لأجهزة الاستخبارات ، لـم ينشر اعترافاته هذه إلا بعد موافقة الاستخبارات المركزية الامريكية . والتي كانت تهدف إلى شيء واحد : هو تشويه التجربة الناصرية وتدمير رموزها .

من جهة أخرى ، يوضح هيكل أن عبد الناصر لـم يلق بالاً لعروض الخدمات التي قدمها له مايلز كوبلند الذي كان يأمل بأن يعين مسؤولاً عن العلاقات العامة لدى عبد الناصر مكان هيكل[2] . إضافة إلى ذلك يقول هيكل انه من الضروري التمييز بين العلاقات المفتوحة التي كان يقيمها مع السفارة الأمريكية ، والعلاقات المشبوهة مع الاستخبارات المركزية . فليس الحوار مع السفير حواراً مع مسؤول من الاستخبارات وإلاّ أصبح الجميع متهمين بالعمالة والتآمر .

وفي كل الأحوال ، وسواء أكانت اعترافات كوبلند حقيقية أو كاذبة ، فإن أعماله قد حققت هدفها : التشكيك بالتجربة الناصرية وتشويه رموزها ومنها هيكل . وهكذا فإن بعض الصحف اللبنانية ، خاصة مجلة الحوادث ، عمدت إلى نشر مقاطع من هذا الكتاب وهذه الاتهامات لتبدأ بها حملة اعلامية كبيرة ليس فقط على عبد الناصر ونظامه ، بل أيضاً على هيكل . وقام رئيس تحرير الحوادث سليم اللوزي بعد ذلك بقليل ، بنشر حوار طويل مع محمد

1- Copleand, Miles, *Without Cloak or Dagger: The Truth About The New Espionage* , Simon and Shuster, New York, 1974, p. 53.

2- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 1994 .

نجيب ، أول رئيس جمهورية لمصر المعاصر بعد سقوط النظام الملكي عام 1952 والذي أبعد عن الحكم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1953 على يد عبد الناصر . في هذا الحوار يذكر محمد نجيب بأنه ، وعندما كان رئيساً لمصر ، رفض اربع مرات لقاء هيكل لأنه كان يمتلك معلومات زودته بها أجهزة الاستخبارات المصرية تقول بان هيكل هو عميل للاستخبارات المركزية الأمريكية[1] ولم يشر محمد نجيب ، لا من قريب ولا من بعيد لهذه المعلومات في كتابه الصادر عام 1975 بعنوان ***كلمتي للتاريخ***[2] . ومن المحتمل أن يكون محمد نجيب غير راضٍ عن موقف هيكل المؤيد للناصرية في الصراع بينه وبين عبد الناصر عام 1954 . وخاصة وأن هيكل يرى أن عبد الناصر كان الصانع الحقيقي للثورة ، وبأن نجيب لم يكن إلا الواجهة . ولم يكن من شأن هذا الموقف إلا أن يثير كراهية وحساسية محمد نجيب .

وللإجابة عن هذه الاتهامات كتب هيكل عدة مقالات في صحيفة الأهرام التي كان ما يزال رئيساً لتحريرها (1970 – 1973) مطالباً السادات بوقف توزيع الحوادث في مصر . وعندها اتهمه اللوزي بأنه المحرّض الذي يقف وراء حملة الصحف اللبنانية ضد مجلة الحوادث بقيادة مجلة الصيّاد وبعض الصحف اللبنانية الأخرى[3] .

والحق يقال ، إن حدّة الحملة الاعلامية ضد هيكل تصاعدت عندما نشر كوبلند كتابه الثاني عام 1974 مركزاً على دور هيكل في نقل المعلومات . حيث نشرت مجلة الحوادث أجزاء من هذا الكتاب ، ثم كشفت عن معلومات اضافية تستند بحسب المجلة إلى مصادر سوفييتية .

وتقول هذه المعلومات بأن خروتشوف ، وخلال زيارة قام بها هيكل بصحبة عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتي عام 1957 قد اتهمه بأنه عميل لأجهزة الاستخبارات الأمريكية لأنه كان ينتقد سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط على قاعدة معلومات تعطيها له السفارة الأمريكية . كما قالت المصادر السوفييتية بأنه تلقى مبالغ من المال وشيكات خلال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية . غير أن هيكل نفى هذه المعلومات وقال إن المال الذي تلقاه كان لقاء المقالات التي نشرها في نيويورك تايمز وواشنطن بوست حول حرب كوريا .

1– كروم ، حسنين ، "عبد الناصر بين هيكل ومصطفى أمين" ، دار مأمون للطباعة ، القاهرة ، 1975 ، ط1 ، ص70 .

2– نجيب ، محمد ، "كلمتي للتاريخ" منشورات الكتاب النموذجي ، القاهرة ، 1975 .

3- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 118.

لكن خروتشوف لـم يقتنع بهذه التوضيحات مما اضطر هيكل إلى مغادرة الاتحاد السوفييتي في اليوم التالي[1] .

وقد عاد هيكل ونفى في معظم مقالاته وكتبه هذه الاتهامات . وفي الحوار الذي منحنا إياه عاد وأكد مواقفه هذه[2] . ويمكن اختصار وجهة نظره بما يلي :

أولاً : أنه أجرى مع خروتشوف حواراً طويلاً نشر في الأهرام عام 1964 فكيف كان يمكن للزعيم السوفييتي أن يقبل بهذا الحوار لو انه كان يعتقد بأن هيكل عميل أمريكي منذ عام 1957؟ إضافة إلى ذلك ، كيف يمكن أن يكون خروتشوف قد اتهمه بالتجسس وهو الذي طلب منه مرافقته في رحلته إلى مصر للمشاركة في افتتاح سد اسوان؟

ثانياً : يقول هيكل بأنه لـم ينشر أي مقال في أي صحيفة أمريكية قبل بداية السبعينات[3] .

ومما يدلُ على وجود حملة ضد هيكل ، ان صحيفة الأخبار المصرية التي يرأسها مصطفى أمين ، رئيس هيكل السابق وعدوه فيما بعد ، قد عادت ونشرت هذه المعلومات قائلة بأن وثائق تعود لوزير الخارجية البريطانية تدل على أن هيكل قد اعطى معلومات لبريطانيا حول تغيير حكومي محتمل في مصر قبل انقلاب عبدالناصر عام 1952[4] .

الواقع أن هذه الحملة ضد هيكل ماهي إلا حملة ضد التجربة الناصرية كلها . وليس من المستغرب أن نجد فيها كتاباً ساداتيين مثل محمد جلال كشك الذي لا يشك لحظة واحدة في أن هيكل هو عميلٌ للاستخبارات الأمريكية ، بل ويعتبر الثورة نفسها عميلة للاستخبارات الأمريكية ، لأنه يرى فيها يداً للولايات المتحدة الأمريكية . ويدل عنوان كتاب جلال كشك ***ثورة يوليو الأمريكية : وعلاقة عبد الناصر مع المخابرات الأمريكية*** بوضوح على ذلك[5] .

وقد ازدادت الحملة الإعلامية ضد هيكل عام 1975 ، نتيجة ، لتوقيع اتفاقية وقف

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 118.

2- "حوار شخصي مع هيكل" ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

3- هيكل ، محمد حسنين ، "الحل والحرب" ، مرجع سابق ، ص217 .

4- هيكل ، محمد حسنين ، "وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص319 .

5- كشك ، محمد جلال ، "ثورة يوليو الأمريكية : وعلاقة عبدالناصر مع المخابرات الأمريكية 1952" ، مرجع سابق ، 1986 .

إطلاق النار بين مصر واسرائيل وقيام وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر بجولاتٍ عدة في الشرق الأوسط ، هدفت إلى فصل قوات الطرفين وإحلال قواتِ فصل بينهما .

حيث انتقد هيكل هذه الاتفاقات مبرهناً على أنها لا تمثل إلا طريقاً مفتوحاً لعزل مصر عن الأمة العربية ، وبداية لتطبيق الحلول الانفرادية لقضايا منطقة الشرق الأوسط[1] .

وبسبب هذا الموقف النقدي وجد هيكل نفسه من جديد هـدفاً لاتهامات الصحف الرسمية التي اتهمته بـأنه قدم عام 1975 معلومات عن الوضع العام في مصر ، مضرة بالمصالح السياسية للبلاد ، لعضو في الكونغرس الأمريكي أدلاي ستيفنسون الذي كان في زيارة لمصر[2] .

ومما ساهم في تفاقم الوضع بين هيكل والسادات ونظامه ، أن الصحف والاذاعة السورية راحت تدافع عن هيكل ، وتهاجم السادات متهمه إياه بأنه باع نفسه للولايات المتحدة الامريكية واسرئيل ، وأنه يقمع الأصوات النقدية ومنها صوت هيكل[3] .

لكن التصرف الأكثر تأثيراً على هيبة النظام الساداتي وعلى نزاهته الأخلاقية والفكرية ، تمثل في النقد الذي وجهه له هيكل على شاشة التلفزيون الهنغاري بعد مظاهرات عام 1977 ، حيث عبّر عن استيائه من السياسية المتبعة . وبحسب هيكل فإن حل الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المصرية يكمن في العودة إلى الناصرية ، وإلى الاشتراكية ، والتحالف مع الاتحاد السوفييتي . بعد ذلك تناول هيكل موضوع المظاهرات والأحداث التي أدت إلى سقوط أكثر من مئتي ضحية بين قتيل وجريح بحسب الارقام الرسمية ، موضحاً موقف الشيوعيين ، ومبرهنـاً على أنهم لا يتحملون أي مسؤولية في مسار هذه المظاهرات[4] .

وما أن اطلع السادات على هذه المقابلة حتى أسرع في الرد عليها متنصلاً من كل مسؤولية عن النتائج الدراماتيكية لأحداث كانون الثاني/يناير 1977 ، وزارعاً الشك في الصدق السياسي والأيديولوجي لدى هيكل . فخلال استقباله وفداً من الطلاب المصريين

1- جريدة الوطن ، الكويت ، 19 تشرين الأول 1975 .

2- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 99.

3- *Ibid*, p. 101.

4- *Ibid.*

في المانيا ، قال ، ودون أن يذكر الاسم ، إن " هذا الصحفي الذي تحدث إلى التلفزيون الهنغاري ، والذي ادّعى أن ما حصل لم يكن إلاّ ثورة شعبية مع العلم أنها ليست إلاّ "ثورة حرامية" ، لهذا الصحفي موقفٌ مختلفٌ من السوفييت : فهو يُطالب دائماً بحوارٍ مع الولايات المتحدة الامريكية لأنه كان عميلاً ذا علاقات منتظمة معها قبل عبد الناصر ، ولكنه أصبح الآن بطلاً نشيطاً مؤيداً للسوفييت (على الموضة) "[1] .

وفي عام 1983 ، أُتهم هيكل من جديد بالتعاون مع الولايات المتحدة وأجهزتها الاستخبارية وذلك بعد موت السادات ، بمناسبة صدور كتابه ***خريف الغضب*** الذي يكشف عن حقائق جديدة . فمع اعترافه بأهمية كتابات هيكل لفهم التاريخ السياسي لمصر وللأمة العربية ، يطرح المفكر المصري فؤاد زكريا سؤالاً يثير الشكوك حول شخصية هيكل "هل من المعقول الافتراض بأن رجلا واحداً مثل هيكل قد جمع ونظم ورتب هذا العدد من الوثائق والمعلومات دون الإفادة من أي مساعدة أجنبية ؟" وعلى ذلك يجيب بنفسه قائلاً :

" أنا لا أستطيع أن أتصور ذلك ، لأن هذا العمل يتجاوز قوة وقدرة دولة من دول العالم الثالث ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه ثمرة جهاز استخباراتِ قوةٍ عظمى "[2] .

أصبح هذا الاتهام أقوى عندما طلب وزير الخارجية الأمريكي سايروس فانس من هيكل التدخل لدى السلطات الايرانية لتحرير الرهائن الأمريكيين[3] ، وعلى أية حال ، وقبل أن ندخل في تفحص الاتهام الآخر الذي واجهه هيكل ، والقائل بأنه كان عميلاً لأجهزة الاستخبارات السوفييتية ، علينا أن نلقي الضوء على حقيقة رؤية هيكل للعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وبهذا الخصوص سنأخذ بعين الاعتبار رأي صحفيين معروفين بحكمتهما وموضوعيتهما النسبية :

أولاً : الاستاذ محمد سيد أحمد رئيس قسم الدراسات الاستراتيجية في صحيفة الأهرام ، الذي يعتبر أن هيكل وعبد الناصر هما رجلان قوميان واشتراكيان لكنهما ليسا شيوعيين ، لذلك ترك عبد الناصر الباب مفتوحاً للامريكيين بواسطة هيكل .

1- الأهرام ، 21 نيسان 1977 .

2- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص18 .

3- انظر ملحق الكتاب ص335 .

ويرى محمد سيد أحمد ، بأن هيكل كان يحرص على توازن القوى بين القوتين العظمين ، مما جعله ينتقد الحكومة المصرية عندما تراهن على سياسة أكثر ميْلاً للسوفييت أو أكثر ميْلاً للأمريكيين[1] .

ثانياً : الصحفي المشهور أحمد بهاء الدين ، المدير السابق لتحرير صحيفة الأهرام ، والذي يرى بأن هيكل لم يكن يوماً ضد الأمريكيين بل ضد مواقفهم بخصوص السياسة المصرية ، وفي ذلك كان متفقاً مع عبد الناصر الذي كان يريد ممارسة ضغط على الولايات المتحدة بواسطة هيكل ، لذلك عندما زار وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر مصر بعد حرب عام 1973 ، رغب السادات في أن يتحدث إليه على انفراد ، كي تكون هناك لغة واحدة لا اثنتان كما كان الوضع في المرحلة الناصرية (كان يقصد بذلك لغة هيكل ولغة عبد الناصر)[2] .

وحتى في ظل السادات ، اتهمت جهات سياسية مختلفة هيكل بخدمة السوفييت ، وهكذا ، كما رأينا سابقاً ، فإن هيكل قد اعترض على استراتيجية السادات المبنية على التفاوض مع الامريكيين ، لأنه كان يعتبر أن السادات يعرّض التحالف الاستراتيجي مع السوفييت للخطر . وقد نشر مقالاً بعنوان " حوار مع كيسنجر"[3] ، بعد لقائه بالدبلوماسي الامريكي للمرة الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1973 ، يُحذّر فيه مصر من سياسة كيسنجر التي تهدف إلى إبعاد الاتحاد السوفييتي من الشرق الأوسط . ويقول الكاتب الأمريكي إدوارد شيهان ، في كتابه ***العرب ، والإسرائيليون ، وكيسنجر*** ، إن كيسنجر قد طلب شخصيا من السادات إبعاد هيكل من صحيفة الأهرام ، لأنه يشوش العلاقات الأمريكية المصرية[4] .

وبالفعل ترك هيكل صحيفة الأهرام في 4 شباط/فبراير عام 1974 بأمرٍ من الرئيس السادات ، ومنذ زيارة السادات إلى القدس واتفاقات كامب ديفيد التي تلتها عام 1978 ،

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 120

2- *Ibid.*

3- الأهرام ، القاهرة ، 16 تشرين الثاني 1973 . انظر ملحق الكتاب ، ص 313 .

4- Sheehan Edward, *The Arabs, Israelis and Kissinger*, Reader's Digest Press, New-York 1976, p. 112.

أصبحت الانتقادات الموجهة إلى هيكل أكثر حدّةً . حيث كانت تصدر من الساداتيين الذين لهم مصلحة في إضفاء مشروعية على مفاوضات السادات ، ومن الإخوان المسلمين الذين اصطف عدد كبير منهم إلى جانب الرئيس الجديد .

هكذا نرى موسى صبري ، وهو أحد الصحفيين الأكثر قرباً من السادات ، يكتب في جريدة الأخبار :

1- إن هيكل يكتب في الصحف اللبنانية والكويتية والأردنية التي يمولها القذافي والاتحاد السوفييتي ويقبض ثمن انتقاداته للسادات .

2- في عهد عبد الناصر ، كان هيكل المساعد رقم واحد للنظام في ممارسته للسلطة . ولذلك كان هنالك صراعٌ بين هيكل وبعض رجال السلطة .

3- لقد بدأ هيكل بالكتابة ضد سياسة التقارب مع الولايات المتحدة ، خدمة للاتحاد السوفييتي الذي يعتبره عميلاً للقوى الامبريالية والرجعية في مصر والشرق الأوسط .

4- لماذا يتوجب علينا أن نتحمل النتائج السلبية الناجمة عن سلوكيات هيكل المضادة للديموقراطية[1] .

بعد فترة ، اتهمه المدعي العام الاشتراكي بأنه استنجد بالاتحاد السوفييتي ليحافظ على وجوده في الشرق الأوسط ، حتى ولو اقتضى الأمر استعمال القوة[2] .

غير أنه لا يجوز لهذه الاتهامات أن تحجب مهنيته الكبيرة فهيكل ، وكما يقول الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد الأستاذ في جامعة كولومبيا ، هو من أدخل مفردات جديدة إلى اللغة الصحفية ، مثل " زوار الفجر " " النكسة " "التأميم " ، مصطلحات أصبحت شائعة في الاستعمال اليومي ودخلت القاموس الفكري والسياسي [3] .

أما غالي شكري ، فيقول " بأن هيكل هو الناطق الرسمي باسم اليمين المتحضر والمستنير ، وهو المؤيد الجريء لتحييد الولايات المتحدة في الصراع في الشرق الأوسط ،

1- الأخبار ، 21 آب 1977 .

2- هيكل ، محمد حسنين ، "تحقيق سياسي مع المدعي الاشتراكي" ، مرجع سابق ، ص 318 .

3- Abdel Malek, Anouar, (1970), *op. cit.*, p. 196.

والمعارض للتحالف معها"[1] .

كذلك يقول الكاتب المصري لويس عوض في كتابه **أقنعة الناصرية السبعة** ، محاولاً أن يقارن تحليل هيكل للناصرية بتحليل توفيق الحكيم : " ان هيكل هو بدون شك أكثر الناصريين صدقاً ، رغم التأييد الذي كان يحملهُ لنظام عبد الناصر الديكتاتوري "[2] .

كذلك يقول الكاتب اللبناني فؤاد مطر في كتابه **بصراحة عن عبد الناصر** ، إن هيكل هو ممثل المدرسة الصحفية في العالم العربي كونه أصبح المرجع الرئيسي لفهم فكر عبد الناصر وفلسفته السياسية . وبرأية أن العودة إلى هيكل تعني العودة إلى التاريخ السياسي العربي في سنوات التجربة الناصرية[3] .

وأخيراً فإن الكاتب الفرنسي جان لاكتور يقول في مقالٍ بعنوان " الرجال : محمد حسنين هيكل " إن هيكل هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام في مصر المعاصرة[4] .

ج - " خريف الغضب " كتاب غامض

بعد اغتيال السادات في 6 تشرين الأول/أكتوبر عام 1981 ووصول حسني مبارك إلى السلطة ، خرج هيكل من السجن الذي أمضى فيه ثلاثة أشهر تقريباً ، خلال حملة اعتقالات أمر بها السادات ضد ثلاثة آلاف معارض لمنطق المفاوضات مع اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في حل أزمة الشرق الأوسط . ومنـــذ خروجه عكف على كتابة عمل جديد بعنوان **خريف الغضب** نشره عام 1981 . وكي لا تفسر هذه الوثيقة الكبيرة عن التاريخ السياسي المصري كانتقام من المصير الذي لاقاهُ السادات فإن هيكل يؤكد أن الخريف كان فعلاً خريف الغضب في مصر كلها :

فالاقتصاد قد دُمِر ، المعارضة سُجِنت ، الكنائس مراقبة ، والمساجد في حالة ثورة .

1- Shoukri, Ghali, *op. cit.*, p. 74.

2- عوض ، لويس ، " أقنعة الناصرية السبعة" ، مرجع سابق ، 1987 ، ص172 .

3- مطر ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص9-10 .

4- Lacouture, Jean, "*Les hommes: Mohammed Hassanein Heykal*", Machrek,-Magrab, Mai-juin, Paris, 1974. (انظر أيضاً ملحق الكتاب ، ص 337)

بحيث لـم يكن اغتيال السادات نفسه إلاّ دليلاً على أن الغضب قد بلغ قمّته[1] .

لكن مضمون الكتاب لا يترك أدنى شك حول نوايا الكاتب : فهو " مرافعة عن الناصرية" وهجوم على مشروع الحل السلمي " ، وفيه يؤكد هيكل بأن السادات يعيش عقدة نقص كبيرة لأن أمه كانت عبدة سوداء ، وأنه مهووس بالكوميديا ومولع بالكذب والاستعراضية ، وبأنه تعاون مع القصر الملكي ضد الحزب القوميّ (حزب الوفد) ، وتعاون مع الألمان والنازيين ، وكانت له علاقاتٌ مثيرة للشكوك مع بعض إمارات الخليج وأوساط البترودولار .

وقد أثار ظهور ***خريف الغضب*** هزّة في الأوساط الفكرية والسياسية المصرية ، ورغم أنه حقق نجاحاً كبيراً منذ ظهوره إلاّ أن ردات الفعل عليه جاءت متناقضة .

والحقيقة أن نقطتي ضعف تشوبان حجج هيكل ، وتتسعان كلما حاول تبرئة نفسه ؛ العلاقات الشخصية بين عبد الناصر والسادات من جهة . واختيار الأول للثاني كنائب له في حين أن ماضي السادات مشكوك فيه من جهة أخرى .

في ***خريف الغضب*** يقول هيكل : "أن السادات أصبح في نهاية عام 1951 عضواً في تنظيم الضباط الأحرار ، وقد اعترض جميع أعضاء التنظيم على ذلك باستثناء عبد الناصر . لأنهم كـانوا يعـــرفون ماضيه المبهم ولا شك في أن عبد الناصر أيضاً كان يعرف ذلك"[2] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : كيف يمكن تفسير موقف عبد الناصر إزاء السادات مع معرفته بماضيه؟ لقد كان السادات ، بحسب هيكل ، قادراً على إعطاء معلومات عن القصر بسبب علاقاته مع رئيس البروتوكول رشيد يوسف . إضافة إلى ذلك أن عبد الناصر أراد بقبوله السادات في حركته ، أن يجمع كل الضباط اللذين يتمتعون بتجربة سياسية . وإزاء المهمات الهامة التي أوكلها لتنظيم الضباط الأحرار ، كان وجود ضباط ارتباط مثل السادات نافعاً[3] .

وينتقد المفكر فؤاد زكريا هذه الحجة ، ويقول بأنه كان على عبد الناصر أن يتخلص من السادات فور نجاح الثورة ، ولا شيء يبرر وجود متعاون مع القصر بعد انتهاء مهمته . غير أن

1- هيكل ، محمد حسنين ، "خريف الغضب" (باللغة العربية) ، مرجع سابق ، ص9 .

2- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 42.

3- المرجع نفسه .

السادات قد بقي ، رغم ذلك في قلب مجلس الثورة [1] .

كذلك يعلق الكاتب العراقي عزيز السيد جاسم على تبرير هيكل هذا مؤكداً نقد زكريا ، ومضيفاً أن تحليل هيكل كان يمكن أن يكون موضوعياً ومقبولاً لو أن ادماج عبد الناصر للسادات في صفوف الضباط الأحرار لم يعكس إلاّ ضرورة مرحلية تعود إلى متطلبات تقوية الحركة الوطنية المصرية خلال مرحلة 51 - 52 ، غير أن الحال لم يكن هكذا ، لأنه كان من الممكن أن يعرض الحركة لخطر الانكشاف والحل أمام جهاز الشرطة القمعي الملكي . فلم يسبق أبداً في تاريخ الأحزاب الثورية والحركات السرية أن قُبل عنصر مشكوك بأمره حتى ولو أنّ البعض من هؤلاء قد وصل إلى مناصب عُليا ، مثل ملينوسكي الذي أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب البولشفي مع ثورة أكتوبر[2] .

أما نقطة الضعف الثانية في تحليل هيكل فتكمن في أن عبد الناصر قد سمّى السادات نائباً له:

" فإثر النوبة القلبية الثانية ، التي أصيب بها عام 1968 ، يروي هيكل ، أنّ عبد الناصر عيّن السادات على رأس لجنةٍ من المقربين كلفت بإدارة شؤون البلاد خلال غيابه ، وفي كانون الأول/ديسمبر عام 1969 حين كان عبد الناصر متوجهاً للمشاركة في قمة الجامعة العربية في الرباط . وفي الطائرة التي أقلته إلى هناك أسرّ إليّ بأنه عيّن السادات نائباً للرئيس ، إثر معلوماتٍ وردته تفيدُ من أن وزير الداخلية المغربي الجنرال علي أوفقير يهيّىء بالتعاون مع الاستخبارات الأمريكية عملية ضده . وإذا كانت هذه المعلومات صحيحة يمكن للسادات تأمين المرحلة الانتقالية ، ثم أضاف عبد الناصر لهيكل أن كل أعضاء مجلس قيادة الثورة قد قيض لهم أن يشغلوا منصب نائب الرئيس باستثناء السادات"[3] .

وهنا يُبرز فؤاد زكريا التناقض التالي في طرح هيكل "كيف أمكن لعبد الناصر أن يسمي السادات نائباً للرئيس ، علماً منه باحتمال حصول انقلاب أمريكي ضده في حين كان

1- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص89 .

2- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص72 .

3- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 49.

السادات لا يخفي إعجابه بالأمريكيين منذ زيارته للولايات المتحدة عام 1966 "[1] .

وهنا ، لا يبدو تحليل زكريا مقنعاً إذ انه من الطبيعي أن يكون في داخل كل حكومة تيارات مختلفة في ميولها لدول مختلفة . بما يعطي لهذه الحكومة هامش حرية أوسع في اتخاذها لقراراتها . فإذا أخذنا مثلاً وضع فرنسا ، يمكننا أن نجدَ ، وفي مرحلة قريبة ، وزراء مؤيدين للعراق ، وآخرين متفهمين لإيران دون أن تحدد اعتباراتهم سياسة فرنسا .

وعلى أية حال يقول زكريا أن عبد الناصر بعد أن عيّن السادات عاد فنسيه[2] . والواقع أن عبد الناصر ، كما يقول هيكل كان منشغلاً بمشاركته في قمة الرباط[3] ، وبالهجوم الاسرائيلي على بعض المدن المصرية عام 1970 مما دفعه إلى الذهاب سراً إلى موسكو ليطلب مساعدة عسكرية . وإضافة إلى ذلك ، كان على عبد الناصر أن يجيب عن مقترحات وزير الخارجية الأمريكي وليام روجرز بخصوص السلام في 25 حزيران/يونيو عام 1970 . وأخيراً علينا ألاّ ننسى ، كما يقول هيكل ، بأن عبد الناصر كان يعرفُ وهو يسمي السادات نائباً للرئيس ، بأن الاتحاد الاشتراكي هو صاحب الكلمة النهائية في هذا القرار[4] .

إذن ، ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها من هذه التحليلات المتناقضة حول علاقة عبد الناصر بالسادات؟ هل كان عبد الناصر رجلاً ازدواجياً متورطاً سراً بعلاقته مع السادات منذ أن ضمّه إلى تنظيم الضباط الأحرار رغم معارضه زملائه ومؤيديه ؟ أم أن عبد الناصر لم يكن على علم بماض السادات المعروف للجميع؟ أم أن هيكل لا يكشف من الحقيقة إلاّ جزءاً يخدم مصالحه وأغراضه ؟

ليس من الصعب القول ، بأن العلاقات الشخصية والعاطفية لقد لعبت دوراً هاماً في قرارات عبد الناصر ، خاصة بالنسبة للضباط الأحرار ، فعبد الناصر الذي سمّى السادات نائباً للرئيس ، وأنتُقِد على ذلك ، هو الذي عيّن عبد الحكيم عامر نائباً للرئيس في الجمهورية العربية المتحدة في سوريا خلال الوحدة المصرية السورية عام 1958 مما ساهم بقوة

1- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص98 .

2- المرجع نفسه ، ص97 .

3- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 49.

4- *Ibid.*

في الانفصال بسبب سلوكيات الأخير اللامسؤولة .

لكن هذا لـم يمنع عبد الناصر من تعيينه بعدها مسؤولاً عن العمليات العسكرية في اليمن 1962 - 1967 ، ومن تكليفه بمنصب القائد العام للقوات المسلحة خلال حرب 1967 ، لذا يبدو لنا أن إحدى نقاط الضعف لدى عبد الناصر كانت تكمن في تفضيله لرفاقه في الثورة وذلك ما استفاد منه السادات .

كان عبد الناصر يستبعد احتمال أن يقوم نائبه ، السادات ، بهدم كل الصرح الاشتراكي الذي بناه ، وتنظيم "ثورةٍ مضادة" تجرف في طريقها إرث الاشتراكية العربية الناصرية كله . وكان يُعتقد بأن مساهمته في بناء الصرح الاشتراكي تجعل هذا الخطر مستبعداً .

ولم تكن المسؤوليات الكبيرة التي اضطلّع بها السادات تترك مجالاً للشك في إخلاصه تجاه الاشتراكية الناصرية ، ألم يكن وزيراً في الحكومة الأولى للثورة ، ثم مسؤولاً عن العمليات في اليمن ثم رئيساً لمجلس الشعب؟ ويبدو أن الثقة الكبيرة التي منحت للسادات قد أدت في النهاية إلى نتيجةٍ معكوسة .

يعتقد البعض أن السادات لـم يكن أبداً على اتفاق مع عبد الناصر ، وأنه كان دائماً مؤيداً للأمريكيين وللغرب ، وكان ينتظر الفرصة المناسبة لإعلان وتطبيق أفكاره[1] . في حين يعتقد آخرون بأنه من الطبيعي في تاريخ كل الشعوب ، أن يأتي بعد رجل قوي بحجم عبد الناصر حاكم ضعيف ومتواضع الكفاءة كالسادات . إذن هناك استمرارية مع نوع من الاختـلاف[2] .

مع ذلك يظل السؤال المطروح هو معرفة لماذا دعم هيكل السادات مع معرفته بماضيه الغامض والمثير للشك؟

لقد حاول هيكل أن يبرر ذلك بقوله :

" أعتقد أنني لـم أكن أغفل حدود إمكانياته وقدراته ، وقد رأيته لكنني تصورتُ أن صعوبة العبء وعلو المسؤولية سيقويان العناصر الإيجابية في شخصيته ويساعدانه في

1- نافعة ، حسن ، "مصر والصراع العربي – الإسرائيلي : من الصراع المحتوم الى التسوية المستحيلة" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1984 ، ط1 ، ص47 .

2- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص103 .

الانتصار على ضعفه . كان في ذهني دائماً ، يتابع هيكل ، نموذج الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، الذي خلف فرانكلين روزفلت في نهاية الحرب العالمية الثانية ، لقد دخل إلى المنصب الرئاسي وهو شخصية مجهولة ومهمّشة ، لا تقاس أبداً بحجم الصراع الإنساني في الحرب العالمية التي كان عليه أن يقودهُ حتى النهاية ، لكنه ومع التحديات التي فرضتها عليه هذه التجربة العالمية ، اكتسب نضجاً كبيراً وأصبح واحداً من أهم الرؤساء الأمريكيين المعاصرين . تخيلتُ أن الشي نفسه سيحصل مع السادات"[1] .

لكننا نستطيع هنا أن نشارك فؤاد زكريا تساؤلاته : لماذا لم يواجه هيكل الاحتمال الآخر ، اي احتمال أن يصبح السادات مع امتلاكه السلطة والقوة ، أكثراً فساداً وأكثر قمعية؟ بل ان فؤاد زكريا يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك حين يؤكد بأن أحداً لم يقل بأن هاري ترومان قد أصبح واحداً من أهم الرؤساء الأمريكيين في الفترة المعاصرة ، لأن تاريخه مرتبط بالقرار الأكثر إجراماً في تاريخ الإنسانية ، أي قرار إطلاق القنبلتين النوويتين على هيروشيما وناكازاكي في عام 1945 . كذلك فإن ذكرى ترومان في التاريخ العربي نفسه ، كما يرى زكريا ، ليست أقل سواداً ، لأنها مرتبطة بذكرى إقامة دولة إسرائيل والاعتراف بها عام 1948 [2] .

من جهته ، يرى عزيز السيد جاسم أن هذه المقارنة بين ترومان والسادات خاطئة ، ويعتقد بأن هيكل اختارها كي يفهمها القارىء الأمريكي ويقيّمهُ أكثر [3] .

بالنسبة لنا ، نعتقد أن هيكل قد أخطأ في المقارنة بين السادات وترومان ، لكن التفسير الذي يورده جاسم يمكن دحضه ، فهيكل وجّه كتابه للرأي العام الغربي عامة لا للقارىء الأمريكي خاصة . ثم أنه لم يُرد توضيح علاقاته بالرجل الذي حكم مصر لأسباب مادية أو شخصية ، بل ليبرهن للرأي العام الغربي الذي كان يرى فيه رجلاً ملهماً ، رجلاً يعبده شعبه ، أن الشعب المصري والعربي لا يوافق على هذه الصورة الزاهية المرسومة للسادات . فكيف يمكن تفسير المشاركة المصرية والعربية الضعيفة جداً في جنازة السادات بل شبه

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 9.

2- زكريا ، فؤاد ، مرجع سابق ، ص113 .

3- جاسم ، السيد عزيز ، مرجع سابق ، ص95 .

المعدومة . في حين أن الوفود الغربية كانت أكثر أهمية خاصة مع وجـود ممثلين مهمين مثل جيرالد فورد وجيسكار ديستان وغيرهم .

لذا لـم يكن هدف هيكل الحصول على إعجاب القارىء الأمريكي ، بل أن يبرهن على الاختلاف الحقيقي بين الرأي العام الغربي والرأي العام العربي ، لذلك لا بدّ من القول بأن الحزن والفجيعة لدى الغربيين كانا أكبر منها لدى المصريين والعرب . وفي التاريخ المعاصر حالات مشابهة تماماً مثل شاه إيران ، وموت الرئيس الفلبيني السابق ماركوس خارج وطنه .. وغيرهم

وبرأينا ، فبالرغم من عدم انسجام أفكار هيكل وترابطها الناتجة عن غضب هيكل من السادات لسجنه له ، فإن ذلك لم يمنعه من القول في نفس الكتاب بأن هناك " ثمة مرحلة في علاقاتنا كانت فيها أهدافنا واحدة ، أو على الأقل ذاك ما كان يبدو لي حينها ، لأن كلّ منا كان يريد سلاماً عادلاً وشاملاً في الشرق الأوسط ، وكلاً منا كان يريد مصر حرّة ومزدهرة ، وعالماً عربياً موحداً وقوياً . لكن الأحداث قد تطورت لتوسّع شقة الخلاف بين وجهات نظرنا التي بدأت بالخلاف على الوسائل ، وانتهت بالخلاف على الأهداف . ومع ذلك فأنا لا أعتبر نفسي معارضاً للرئيس السادات ، بل إنني أدافع عن خطٍ مستقل "[1] .

وفي كل الأحوال ، فإن الكتاب ، قد أثار عاصفة داخل التيارات الفكرية والسياسية في مصر ، وانقسم القرّاء حوله بين معجبين ومعارضين سواء في أوساط اليسار الشيوعي أو الناصريين أو بين صفوف المحبطين من سياسة الانفتاح والذين وجدوا في هذا الإحباط حجة لصالح الاشتراكية الناصرية .

أما في أوساط المعارضين أثار هذا الكتاب ردات فعل متعددة بسبب المعلومات التي اعتبروها كاذبة أو ملفقة . وتضم هذه الأوساط بشكل رئيسي الساداتيين ودعاة الانفتاح . إنها المجموعات التي تشكل ما أسماه هيكل " الطبقة الطفيلية " .

وعندما نقرأ صحف القاهرة منذ نشر الكتاب عام 1981 حتى عام 1984 نلاحظ أن المستهدف لـم يكن الكتاب وإنما هيكل نفسه ، بشخصه وبما يمثل ، وإذا ما كان ثمة غموض

1- Heikal, M.H, *l'Automne de la colère, op. cit.*, p. 10.

يلفُ هذا الكتاب ، فإنه يعود إلى خبرة هيكل في السياسة . فهو يعرف متى يجب عليه أن يتكلم ومتى يجب عليه أن يصمت . فهو يبقي في يده دائماً "ورقة " من المعلومات Information والوثائق documents ، تسمح له باتخاذ موقف قوي إزاء خصومه .

ويظل رغم كل شيء ، أن هذه القوة المتمثلة بالمعلومات والوثائق ، تبدو لنا أحياناً بمثابة نقطة ضعف في مسيرته . لأنها نقطة تحدُ من الانسجام بين قناعاته وأفعاله . وفي الختام يبدو لنا أن هيكل وبعيداً عن المناورات في اللعبة السياسية ، قد ظل بشكل عام وفياً لروح مثالهِ كي لا نقول لمثاله نفسه .

الخلاصة العامة

لقد حاولنا تحليل شخصية "اشكالية" ، صحفيّ غير نمطي يرمز إلى مرحلة كاملة عاش على التوالي سياسة القومية العربية الناصرية ، وسياسة الانفتاح الساداتية ، ومن هنا فهو يمثل مرآة حقيقية لتاريخ وذاكرة مصر السياسية المعاصرة .

بيانياً ، تسمح تحليلاتنا بتقسيم تطور مسيرته الصحفية السياسية إلى ثلاث مراحل أساسية :

- المرحلة الأولى "مرحلة صحفية غير سياسية" ، تمتد من عام 1942 إلى عام 1952 . وفيها عمل هيكل على التوالي في الصحيفة البريطانية الايجبشيان جازيت (The Egyp-tian Gazette) ، ثم في صحيفة الوفد آخر ساعة ، ثم في الصحيفة الملكية أخبار اليوم . وقد نمت تجربته كمراسل صحفي في الصحيفة البريطانية ، حسّ المراقبة والواقعية لديه ، أما انتقاله من الصحيفة البريطانية إلى الصحيفتين العربيتين ، فقد وسمت توجهه القومي الذي تجلّى فيما بعد في مستقبله السياسي ، حيث أفسحت له هاتان الصحيفتان مجال الاتصال المباشر ، بكواليس السلطة (البرلمان والحكومة) .

- المرحلة الثانية في تطور هيكل هي "المرحلة الناصرية" ، وهي تبدأ مع ثورة تموز/يوليو عام 1952 وتنتهي بموت عبد الناصر في 28 أيلول/سبتمبر من عام 1970 . فقد اتخذ هيكل ، ومنذ بداية الثورة ، موقفاً مؤيداً للضباط الأحرار ، ثم أصبح منظّر النظام .

- المرحلة الثالثة وتمثل " المرحلة الساداتية" ، وهي تبدأ بالحملة الانتخابية التي نظمها لصالح السادات عام 1970 وتنتهي باغتيال هذا الأخير عام 1981 . لكنها علاقة تتراجع بسرعة بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 بسبب التقارب الساداتي الأمريكي ، لتصل

إلى القطيعة عام 1974 ، قطيعة تمثلت فيما بعد بانتقاداته لاتفاقية كامب ديفيد عام 1978 .

إن التطورات المتعاقبة التي حددت اتجاه مسيرة هيكل ، وتأييده للناصرية الذي لا يخلو من ميل ليبرالي ، وتأييده للساداتيه الذي أصبح تدريجياً ضد الساداتية ، قد أثارت جميعاً حماس البعض وانتقادات البعض الآخر .

فبالنسبة للبعض ليس هيكل إلاّ سياسياً وصوليا ، وفدياً في مجلة آخر ساعة عندما كان الوفد في السلطة ، ملكياً في صحيفة أخبار اليوم عندما كان الملك ما يزال حاكماً قوياً ، ثم ناصرياً عندما استولى عبد الناصر على السلطة ، وأخيراً ساداتياً عندما حلّ السادات محله . وأخيراً ، أصبح ضد الساداتية عندما دخل في علاقة إشكالية مع السادات .

ويعتقد البعض أنهم وجدوا دليلاً على انتهازيته في مسيرته الاجتماعية بالقول ، إنه أصبح واحداً من الاشتراكيين الأكثر ثراء ، حيث تقدر ثروته ما بين 28 – 38 مليون دولار[1] .

أما البعض الآخر فيرى في هيكل رجلاً قدّس شخصية عبد الناصر ، حليفه المطلق في ملاحقة الإسلاميين والشيوعيين في ظل حكم هذا الأخير .

في حين أن جماعة ثالثة تتهمه بأنه لـم يكن إلاّعميلاً للأمريكيين ، مما يفسر دعمه للسادات قبل أن يتخلى عنه هذا الأخير . وهناك من يمضي حتى في اتهامه بإقامة علاقات مع بعض المجموعات الارهابية كالمتمردين المغاربة عندما حاولوا اغتيال ملك المغرب عام 1970 ، وذاك ما وردَ في الحوار بين الصحفي والدبلوماسي الفرنسي إريك لوران والملك الحسن الثاني :

ايريك لوران : لقد أعلنت فور محاولة الاغتيال في صخيرات . . بأن هذه الأحداث ليست أحداثاً عفوية . .

الملك الحسن : لقد سار مدبوح مع المصريين ، حيث طبعت الصحف المصرية نسختها قبل 6 ساعات من وصوله إلى هناك . ويوم 10 تموز/يوليو وبعد ساعات قليلة من المحاولة خرجت صحيفة الأهرام القاهرية بعنوان على خمسة أعمدة على الصفحة الأولى . . " مات الطاغية الحسن الثاني . . مات الديكتاتور" .

1- Nasser, Munir, *op. cit.*, p. 122.

ايريك لوران : هل طلبت توضيحاً من السادات ؟

الملك الحسن : كان أنور السادات صديقاً حقيقياً ولم يكن أبداً قاتلاً أو متآمراً . وعندما تحدثنا عن ذلك قال لي :

" أنت تعرف أن حسنين هيكل ، رئيس تحرير الأهرام كان رجل عبد الناصر . لقد كتب كثيراً ضدي وسأتخلص منه عندما أستطيع إلى ذلك سبيلا" . بعد ذلك التقيت حسنين هيكل وتحاورنا طويلاً . وأعطيته وعداً بأني لن أفشي السرّ أبداً .

ايريك لوران : لماذا ؟

الملك الحسن : لن أفشيه أبداً[1] .

إن مميزات مسيرة هيكل هي مميزات غير عادية ، متناقضة في الظاهر بحيث يمكنها أن تقدم حججاً لهذا الطرف ونقيضه . لكن تمحيص المدقق لهذه المسيرة يشي بتناغم في فكره وبحرية في تعبيره . كان هيكل ناصرياً معتدلاً ، مؤيداً للقومية ، لكنه مدافع عن سياسة الانفتاح مع الولايات المتحدة الامريكية . سياسة تمليها متطلبات الدبلوماسية التي علّمه حسّ المراقبة والواقعية ، أن يأخذها بعين الاعتبار . ولـم يكن مؤيداً للناصرية ، كالمتشددين من قدماء الضباط الأحرار ، ولا مؤيداً للساداتية في خطه الليبرالي الفظ .

والواقع أن العلاقة التي قامت بين هيكل وعبد الناصر ، منذ البداية وطوال مسيرتهما التاريخية والسياسيــة ، لـم تكن علاقة أحادية الجانب ، غير تناظرية يتعامل فيها أحدهما مع الآخر بفوقية ، بل كانت علاقة تناظرية تبادلية .

فرغم أن هيكل كان قطباً من أقطاب النظام الناصري ، إلاّ أنه لـم يتردد أبداً في إظهار وجهة نظره بخصوص آليات تشكل صنع القرار السياسي ، ووضع حلول للمشاكل المطروحة ، وتظهر استقلالية شخصية هيكل هذه على مستويين :

1- على المستوى الوطني :

أ . لقد انتقد هيكل ممارسات الأجهزة السرية المصرية إزاء المعارضين . سواء أكانوا من الإخوان المسلمين أو من الحزب الشيوعي ، فهو الذي سوق في مقالاته تعبير " زوار الفجر " ،

1- Eric, Laurent, *Hassan II: la Mémoire d'un roi*, Plon, Paris, 1993, p. 161-162.

مشيراً به إلى رجال الأجهزة السريّة ، ولذلك كان ضد " مراكز القوى" ، داخل النظام الناصري .

ولهذا السبب أيضاً ، لم يتردد فيما بعد في الوقوف إلى جانب السادات ضد هؤلاء الرجال الناصريين الذين كانو يجمعون كثيراً من السلطات بين أيديهم ، فهو وإن كان مؤيداً للناصرية ، فإنما يؤيد ناصرية تمتلك فيها البيروقراطية العسكرية سلطات أقل .

ب . كرئيس لتحرير صحيفة الأهرام ، نشر هيكل قبل هزيمة عام 1967 ، وبعدها ، كثيراً من الكتابات النقدية لكتاب مشهورين احتجوا على المظاهر السلبية في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في ظل عبد الناصر . وكثيراً ما كانت هذه الكتابات تنشر رغماً عن بعض الضباط الأحرار المتشددين ، وهذا ما حصل مثلاً عند نشر قصص : ***بنك القلق*** لتوفيق الحكيم ، ***ثرثرة فوق النيل ، اللص والكلاب*** ، لنجيب محفوظ وغيرها .

2- أما على مستوى السياسة الخارجية :

عبّر هيكل عن تحفظاته عن إرسال الجيش المصري إلى اليمن عام 1962 ، ورغم أنه قبلَ فيما بعد قرار عبد الناصر ، فإن موقفه يدل على استقلالية رأيه وعلى حريته في التعبير عنه ، وعلى المستوى ذاته ، كثيراً ما دعا هيكل إلى إقامة علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام 1965 ، ثم ألحّ على هذه النقطة بعد حرب عام 1967 في حين كان كثير من الضبّاط الأحرار المتشددين يعارضون هذا الخيار .

كذلك يظهر الموقف ذاته ، موقف استقلالية الشخص وحريته واستمرارية فكره في علاقات هيكل مع السلطة الساداتية التي برهنت عن استمرارية أيديولوجية للفترة الناصرية .

فقد عبّر هيكل ، سواء بصفته رئيساً لتحرير صحيفة الأهرام ، أو بصفته مستشاراً للسادات ، عن موقفه الخاصة خلال عدة أحداث مفصلية تركت بصمتها على الحياة السياسية المصرية :

– لقد عارض فكرة السادات بجعل عام 1971 " عام القرار " وعاد فأكّد هذه المعارضة عام 1972 . وكانت وجهة نظره أنه حتى لو كانت مصر تتهيأ لعام فاصل أو حاسم ، فليس من واجب الرئيس أن يحدده ويتحدث عنه .

– رفض أمر السادات 1973 بفصل بعض الصحفيين والعاملين في صحيفة الأهرام وفي وزارة الاعلام . وقد برر رفضه معلناً أنه ليس من شأن الرئيس أن يقرر ذلك ، بل من

شأن رئيس التحرير .

- في مؤتمر صحفي عقد في باريس عام 1972 ، لـم يتردد هيكل من انتقاد السادات وحكومته لمنعهم أربعين ألف ليبي من اجتياز الحدود المصرية للتعبير عن رغبة الشعب الليبي في إقامة الوحدة مع الشعب المصري . وتبرهن لنا هذه الحادثة ، بما لايقبل الشك ، بأن هيكل لـم يتخل عن حلم عبد الناصر القومي العربي في سبيل تحقيق أهدافه الشخصية .

- لـم يوافق هيكل السادات على إبعاد وطرد الخبراء السوفييت من مصر عام 1972 ، واعتبر أن القرار كان مبتوراً وانفعالياً .

- في سلسلة من المقالات نشرها ما بين تشرين الأول/أكتوبر 1973 وشباط/فبراير عام 1974 ، تم جمعها فيما بعد في كتاب باسم ***الطريق إلى رمضان*** انتقد هيكل بوضوح سياسة السادات في الحرب . وهكذا نرى أن معارضة هيكل الاستراتيجية للسادات ظهرت قبل أن يغضب عليه هذا الأخير ويبعده عن صحيفة الأهرام . ولو أنه كان انتهازياً لفعل العكس .

- رفضه الاجتماع بالمسؤولين الأمريكيين ، بناءً على طلب السادات لتحضير عملية السلام المحتملة .

- بعد أن اقاله السادات من رئاسة تحرير صحيفة الأهرام عام 1974 بسبب انتقاداته عاد وعرض عليه منصب مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي ومنصباً وزارياً في حكومة ممدوح سالم عام 1975 ، لكن هيكل رفض العرضين مفضلاً التعبير الحرّ عن فكره في منابر صحف عربية أخرى .

لذا فإنه من المستغرب الادعاء بأن هيكل قد خان الناصرية ، وأنه انتهج سياسة مناسبات تتغير بحسب الحكومات ، بل أنه وعلى العكس من ذلك ، كان مسكوناً بأفكار تتأقلم مع الظروف التي تمر بها مصر مما يقودنا إلى الاعتراف له ، باستمرارية في فكره منذ المرحلة الناصرية .

أما على صعيد السياسة الخارجية ، أظهر هيكل ذات الاستقلالية وحرية الفكر ، خلال مرحلة الحكم الساداتي وذلك ما تبرهنه الأحداث التالية :

1- لقد انتقد سياسة السلام الساداتية إزاء اسرائيل . وقد ظهر هذا الانتقاد منذ البداية عبر

الموقف السلبي الذي اتخذه من اتفاقيات فصل القوات عام 1975 ، ذاك الاتفاق الذي كان ينصّ على إنزال قوات تابعة للأمم المتحدة للفصل بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي .

2- لقد أطلق حملة إعلامية في الصحف العربية والأجنبية ضد زيارة السادات للقدس في 19تشرين الثاني/نوفيمبر عام 1977 ، معتبراً أنه لاسابق لها في التاريخ السياسي المصري ، ولا نتائج إيجابية لها على مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي ، ومن ثم انتقد اتفاقيات كامب ديفيد عام 1978 .

هذه الحملات النقدية المتكررة تجاه السادات ونظامه تكشف لنا عن طبيعة رجل مُصرّ واع للأبعاد البراغماتية للسياسة ، مقتنع بمبادئه ، وذلك ما كلفه المثول أمام المدعي العام الاشتراكي عام 1978 ، ثم السجن عام 1981 ، الذي لـم يخرج منه إلاّ بعد اغتيال السادات في السادس من تشرين الأول/أكتوبر عام 1981 .

يمكن التأكيد ، إذن ، على أن هيكل ومنذ ثورة عام 1952 قد حدد خياره إلى جانب الجمهورية ضد الملكية ، ومع الاشتراكية الناصرية ضد الليبرالية الفجة والجشعة ، وهو خيار مبدئي وخيار المصلحة الوطنية والعدالة الاجتماعية لكنه في الخط الناصري الذي اختاره ، لـم يكن واحداً من النواة المتشددة التي شكلها الضباط الأحرار .

فهو مؤيد لخط وسطي في الدبلوماسية الدولية ، بين الولايات المتحدة الامريكية او الاتحاد السوفييتي كما أوضح دائماً ، كما أنه كان مؤيداً لديمقراطية الحياة السياسية والاجتماعية وذاك ما كرره مراراً على أعمدة صحيفة الأهرام حتى في ظل حكم عبد الناصر .

لذا ، فإن دعمه للسادات في البداية يأتي منسجماً مع توجهاته الأيديولوجية ، إذ رأى فيه رجل تجديد ، ورجل وسطية تعطي البرهان على مزيد من الديمقراطية والبراغماتية دون التنكر للناصرية . وما أن ابتعد السادات عن قناعاته حتى انتقده ، جارّاً على نفسه نيران أعدائه والذين اساؤوا فهمه ، ورغم ذلك ثمة نقطتان هامتان في موقف هيكل تجعلان منه سراً كاملاً وحياً .

أ . نجد أن لنا الحق في التساؤل عن أسباب دعمه للسادات في حين يقول لنا في كتاب ***خريف الغضب*** أنه كان يعرفه معقداً بسبب أصل أمه الافريقي الأسود ، وطفولته المضطربة .

فلماذا دعمه إذن؟ في حين أنه يقول لنا أيضاً وفي الكتاب ذاته ان السادات كان معروفاً منذ الثورة بنقص الذكاء والاستقرار وبمظهره الكوميدي أكثر منه السياسي ؟ فهل كان هيكل إذاً غير مبالٍ إزاء اختياره رجلاً مرفوضاً إلى هذا الحد ليرأس دولة مثل مصر؟

يمكن أن نلاحظ هنا ، أن هيكل لم يفهم الرجل الذي كان يعرفه الغرب ولم يفهم هدفه المتمثل في إقامة سلام حقيقي . وبالنسبة لرجل رؤيوي مثل هيكل ، يشكل هذا حداً لمنظوره للأحداث ، وذلك على ضوء نتائج مشروع السلام الحالي بكل نقاط ضعفه وكل نواقصه .

وهنا لا بدّ من الاعتراف بالفوارق الكبرى بين رؤية وتقييم المراقبين العرب والمحللين الغربيين بخصوص السلام . فاتفاقيات كامب ديفيد بالنسبة للغربيين حدث سعيد يشكل أول مشروع السلام ، بينما هي بالنسبة لغالبية العرب اتفاق يجزّىء العالم العربي ويعزل مصر عن سائر أشقائها .

ب . لا بدّ من ملاحظة أن هيكل يبدو وكأنه يقدم صورة رجل لم يتورط أبداً في الأخطاء السياسية للرؤساء المختلفين الذين عرفهم وللحكومات التي تعاون معها . فالواقع أنه رفض دائماً تحمل المسؤولية السياسية لأنه ربما يخاف من تحمل المسؤولية ونتائجها وأن يحاكم لذلك . مما يفسر سبب بقائه دائماً في الظل رافضاً المناصب الوزارية والمسؤوليات السياسية .

وبحسب التمييز الأساسي الذي يقيمه ماكس ويبر ، فإنه "رجل قناعة homme de conviction لا رجل مسؤولية non de responsabilité " علماً بأن علم الأخلاق بالنسبة للمسؤولية يميز رجل السياسة ، في حين أن علم الأخلاق بالنسبة للقناعة يميز العالم والمفكر .

ورغم هذه النقاط الغامضة ، يمكن القول أن هيكل كان أميناً لذاته ، أي لمبادئه ، وأن وفاءه لرجل دولة ، كان يتوقف على وفاء هذا الأخير لهذه المبادىء ، مبادىء يمكن تلخيصها بثلاثة عناصر :

- الاستقلالية الوطنية .
- انتماء مصر إلى العالم العربي .
- الانفتاح على الحضارة الغربية .

والواقع أنه يقوم بتحديد ذاته كما فعل أندريه مالرو ، أي أنه يعتبر نفسه رجلاً ملتزماً ، مفكراً ، كاتباً ، فيلسوفاً ، سياسياً يحافظ على وفائه لذاته ولمبادئه .

وفاء لا يستطيع أحد أن يعبرّ عنه أفضل مما فعل أثناء لقائنا به :

" لايستطيع الكاتب بطبيعته إلاّ أن يكون مستقلاً ، دون أن يعني الاستقلال غياب الوفاء ، بل إن الوفاء مع الاستقلال هو وفاء لفكرة لا لشخص أو تنظيم"[1] .

ونخلص الى القول ، بأنه كان لهيكل فكر سياسي متناسق ومستمر ، على الرغم من وجود بعض الأخطاء السياسية ، التي ظهرت نتيجة طول الفترة التي قضاها في العمل السياسي والاعلامي قرب صاحب القرار السياسي المصري ، حيث امتدت هذه الفترة الى ربع قرن تقريباً . وكي ننهي هذا النقاش دون أن نغلقه ، يمكننا أن نطرح تساؤلين على الأقل :

1- هل استبعد هيكل من الحياة السياسية المصرية حيث فقدت أفكاره تأثيرها؟

إننا في الواقع نشهد منذ عدة سنوات أزمة أيديولوجية وفقدان "الأفكار القوية" idées-forces . حيث ان تراجع الماركسية وسقوط الأنظمة وذبول الأفكار قد فتح الطريق أمام غروب المفكرين ، وظهور أزمة " الأساتذة المفكرين " كما يقول ريمون ارون . فهل يمكن أن نضع الانسحاب السياسي لهيكل في الإطار العام لأزمة المفكرين ، لا في سياق السياسة العربية فقط؟

2- هل علينا أن نحلل ظاهرة هيكل في السياق العربي المصري وحده ، أم أن علينا أن نقيّمها في محيط أوسع ، انطلاقاً من الإطار الغربي ؟ وبتعبير آخر هل من الممكن أن توجد ظاهرة phénoméne هيكل في الغرب الديمقراطي القائم على احترام القانون والعمل المؤسسي ، والأخذ بعين الاعتبار لدور الرأي العام واتجاهاته ؟

1- حوار شخصي مع هيكل ، الاسكندرية ، 9 آب 1994 .

الملاحق

1- مناقشة مع كيسنجر*

لا أعرف ماذا أترك ، وماذا أتناول ، من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية .

من ناحية ، لأن الحديث بيننا طال وتفرع وتشعب . ومس أفكارا وأدوارا وأحداثا تمتد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، وتتصل من نواح عديدة بفلسفة السياسة والتاريخ والتطور ، ثم إنه اتسع من مصر إلى الشرق الأوسط إلى العالم المعاصر بأوضاعه وحقائقه وموازينه .

ومحاولة ربط هذا كله معا وضغطه في مساحة محدودة- مهمة صعبة - خصوصاً وأن المساحة ليست محدودة فقط ، وإنما الظروف إلى جانب ذلك دقيقة لا تحتمل المغامرات . . . ولو حتى بالحكايات!

ومن ناحية أخرى ، فلقد احسست - أن الدكتور هنري كيسنجر- حاول أن يكون مفتوحاً وواضحاً معي إلى درجة كبيرة . وقد كان لقاؤنا بناء على رغبة أبداها ، فقد نزل إلى مطار القاهرة مساء يوم الثلاثاء 6 نوفمبر الماضي ليقول لمضيفه إسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية " إنه قرأ مقالاً لي نشر قبل أيام عن الدور الأمريكي في الأزمة وأهميته وقيمته ، وهو يريد مناقشتي فيما كتبت ." - ثم عاد الدكتور هنري كيسنجر فأثار موضوع هذا المقال خلال اجتماعه مع الرئيس أنور السادات صباح يوم الأربعاء 7 نوفمبر . وعندما التقيت بالدكتور هنري كيسنجر على العشاء ، مساء نفس اليوم : الاربعاء - وكان هذا أول لقاء بيننا- فوجئت به أمام كثيرين من المدعوين في بيت وزير الخارجية يأخذني بحفاوة شديدة ويقول لي برقة زائدة : "إنني من كثرة ما قرأت لك أشعر وكأننا أصدقاء من عشرين سنة على الأقل ."

ثم اقترح أن نلتقي بعد العشاء في الجناح الذي ينزل فيه بفندق هيلتون ، وأن نتناقش "بصراحة " كاثنين من المهتمين بالتفكير السياسي الجديد وتطبيقاته وبصرف النظر عن

---

* الاهرام ، بصراحة ،" مناقشة مع كيسنجر" ، 13تشرين الثاني/ نوفمبر 1973 .

الخلافات الناشئة من تباين المصالح القومية والعقائدية الاجتماعية .

وأحسست ونحن وحدنا في الجناح الرئاسي في الدور الثاني عشر بفندق هيلتون - أنه يريد المناقشة حرة من أي حرج- فقد قال وسأل بغير تردد ، وإن كان قد توقف في بعض مواضع الحوار ليقول لي :

بالطبع . . هذا لعلمك فقط .

ولقد قدرت صراحته فيما قال وسأل بغير تحرج ، ثم إنني ملتزم بتقدير رغبته فيما طلب كتمانه - وتلك قيود أخرى إلى جانب قيود السماحة المحدودة ، والظروف الدقيقة!

ومن هنا تساؤلي في مطلع هذا الحديث من أنني لا أعرف ماذا أترك وماذا أتناول من حوار دام ساعتين ونصف الساعة مع الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة؟![1]

* * *

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً مساءً عندما دخلت الجناح الذي ينزل فيه الدكتور هنري كيسنجر ، وقوطع حوارنا قبل أن يبدأ عندما جاء روبرت ماكلوسكي المتحدث الرسمي باسم وزير الخارجية يهمس بشيء في اذن كيسنحر والتفت اليّ كيسنجر يقول :

هل يضايقك لو تركتك لمدة عشر دقائق أذهب فيها إلى لقاء الصحفيين الأمريكيين الذين يتابعون مهمتي في القاهرة فهم في غرفة اعددناها للمؤتمرات الصحفية هنا . . ويبدو أنهم يريدون مني أن احدثهم عن نتائج عملنا اليوم . . وأظنك تعرف الصحافة . .

وذهب وعاد بعد ربع ساعة وبدأ حوارنا في حوالي الساعة الحادية عشرة تماماً ، وقوطع مرة أخرى في منتصفه ولم تكن المقاطعة هذه المرة من الصحافة وإنما كانت من جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ، فقد دخل علينا أحد مساعدي كيسنجر ، وكان الهمس مرة أخرى ، وقال لي كيسنجر :

■ سوف أذهب دقيقتين إلى غرفة استقبال الرسائل . .إذ يبدو لي أن آلاتنا تدق برسالة من جوزيف سيسكو مساعدي لشؤون الشرق الأوسط الذي بعثت به إلى تل أبيب ظهر اليوم يحمل بعض مقترحاتي إلى رئيسة وزراء اسرائيل . . يبدو أنه قابلها . . ويبدو انه يدق على

1- يدّعي هنري كيسنجر أن هذا اللقاء لم يأخذ منه سوى عشر دقائق فقط ، وأن مجمل القضايا والنقاشات المطروحة من اختلاق وتصنيع هيكل . انظر: Nasser, Munir. op. cit., p. 166.

أجهزة اللاسلكي الآن ردها المبدئي على مقترحاتي" .

وذهب كيسنجر وعاد بعد خمس دقائق . . واتصل حوارنا .

* * *

كنت البادىء بفتح باب الحوار . . قلت لكيسنجر ونحن بالكاد نجلس في مقعدين متواجهين في صالون جناحه :

■ أنت رجل مشغول ، ثم إنك مرهق برحلتك الطويلة وأنت بعد في مقدمتها . ولا أريد أن أطيل عليك بعد الحد الذي تراه أنت .

وقال كيسنجر : بإنجليزية ملكونة بلهجة أمريكية ، معجونة بنبرة المانية ، لكن كل كلمة فيها واضحة بدقة أستاذ بارز في العلوم السياسية اتيحت له الفرصة لكي يفكر نظرياً ويمارس على نحو لم يتح لغيره من اقطاب العالم المعاصر البارزين :

■ ربما كنت مشغولاً . . وربما كنت مرهقاً . . ولكنني أريد أن أسالك في أشياء كثيرة لأني أريد أن أعرف وأفهم من وجهة النظر العربية ما هو أبعد من سطح المشاكل العملية التي تشدنا إليها الأزمة .

انني لم أكن قد فتحت بعد ملف أزمة الشرق الأوسط .

كنت أتصور أنها سوف تنتظر دورها .

ولكن الأزمة فرضت نفسها على الجميع وأنا بينهم على غير انتظار .

واستطرد مبتسماً :

■ إنكم في هذا نجحتم ، وأنا أول من يسلم لكم بهذا النجاح .

وها نحن جميعاً . . أمام الأزمة وجهاً لوجه . . وأنا كما قلت لك لم أفتح ملفاتها القديمة بعد .

قلت لهنري كيسنجر :

قبل أن نفتح بالحديث ملفات الأزمة القديمة لديّ سؤال متصل بهذه الدقيقة .

سؤال متصل بك انت وبدورك الذي تقوم به الآن هنا في القاهرة ، وغداً في عمان ، وبعد غد في الرياض .

أريد أن أسالك : من أنت؟

إنك عالجت من قبل وباقتدار كبير مشاكل ضخمة : حرب فيتنام . . فتح الأبواب مع الصين . . الوفاق مع الاتحاد السوفييتي .

لكنك في هذه المشاكل جميعاً كنت تمثل الطرف الآخر في المشكلة .

كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الطرف الآخر المباشر في مشكلة حرب فيتنام ، وفي العلاقات مع الصين ، وفي الوفاق مع الاتحاد السوفيتي .

باختصار فانت في المرات السابقة كنت مفوضاً من حيث أنك كنت طرفاً مباشراً .

أما هذه المرة وفي أزمة الشرق الأوسط فان السؤال عن : من أنت؟ يصبح سؤالاً ضروريا لكي نعرف أين نحن بالضبط!

هل أنت طرف؟ . . هل أنت مفاوض؟

لا أظن .

إنكم أول من يقول بأن اسرائيل لها إرادة مستقلة عن الولايات المتحدة ، ومع انكم تعترفون بأن لكم تأثيراً كبيراً عليها ، ولكن مؤدى ما تقولون به في النهاية هو أن هناك مساحة ما بين الارادة الأمريكية والارادة اسرائيلية . . أنتم ترون هذه المساحة بين الارادتين واسعة وربما اختلفنا معكم ووجدنا هذه مساحة لا تجعلك بالضبط طرفا ، وبالتالي لا تجعلك بالضبط مفاوضاً!

وإذا لم يكن دورك هو دور " الطرف الثاني" " دور المفاوض" - إذن فما هو دورك بالضبط . . هل هو دور " الوسيط"؟ لا أظن مرة أخرى . . بل لعلي واثق!

إن دور " الوسيط" يقتضي حيادا بين الطرفين . . أو على الأقل احساس الطرفين بوجود او إمكانية وجود هذا الحياد .

ونحن لا نشعر بذلك . . انحيازكم لاسرائيل لا يحتاج إلى دليل . . آخر هذا الجسر الجوي والبحري الذي يحمل الاسلحة والذخائر من الولايات المتحدة إلى اسرائيل .

وإذن فأنتم لستم - ولا يمكن أن تكونوا - محايدين .

وإذن فإنك لا تستطيع أن تكون " وسيطاً" .

وإذا لم تكن " مفاوضاً" لأنك لست طرفا مباشراً ، وإذا لم تكن " وسيطاً" لأنك لست محايداً- إذن فما هو دورك بالضبط؟

إنني لا أسأل هذا السؤال من باب الفضول ، ولكن لأن اجابتك عليه سوف تضبط ايقاع الكلام بيننا كله" .

■ إنني وجهت هذا السؤال لنفسي ، وإذا كان السؤال مهما لك في ضبط ايقاع الكلام بيننا فهو مهم لي لضبط ايقاع الحركة حركتنا ، حركة الولايات المتحدة في الأزمة .

لنقل ، ونتفق على القول ، بأنني أمثل " اهتمام " الولايات المتحدة بأزمة خطرة ، تدور في منطقة حساسة بالنسبة لنا ، منطقة لنا فيها مصالح استراتيجية - سياسية واقتصادية ومصالح أمن- ونحن نريد المحافظة على هذه المصالح وذلك بالطبع إلى جانب اهتمامنا بالسلام العالمي والى جانب حرصنا على صداقة شعوب هذه المنطقة .

لنقل ما يلي :

1- إن لنا مصالح استراتيجية في المنطقة .

2- إن القوة الأعظم الثانية- الاتحاد السوفييتي - لها مصالح في هذه المنطقة .

اننا نحاول اقامة نظام عالمي جديد يقوم على الوفاق بعد زوال عصر الحرب الباردة ولكن الوفاق لن يجرنا إلى ترك المنطقة لنفوذ القوة العظمى الثانية .

إننا لا نريد أن تتصاعد أي أزمة لكي تؤثر على الوفاق لأن مخاطر ذلك أخطر من أن تتحملها البشرية بأسرها .

إن لنا علاقة خاصة بإسرائيل ونحن ملتزمون بحماية أمنها ، ونحن نعتبر أن حماية أمن اسرائيل لا يمكن أن تتحقق إلا باحترام سيادتكم .

إذا كانت لنا علاقة خاصة باسرائيل فإننا لا نجد في ذلك تعارضاً مع صداقة نريد تنميتها وتقويتها معكم .

إننا لا نريد أن نكون بمفردنا ، ولا بالمشاركة مع غيرنا ، أوصياء على المنطقة ولكننا نريد لشعوب هذه المنطقة أن تبني لنفسها نظام حياتها وأمنها وفق ما تراه وبانسجام مع حقائق العالم .

هذه هي عناصر موقفنا كما يتصوره الرئيس نيكسون ، وكما اتصوره أنا وأتفق معك على أني لست " طرفاً" .

وربما تتفق معي على أن ما أمثله هو : " اهتمام " امريكي بأزمة الشرق الأوسط ، وهو اهتمام يحاول أن يؤدي دوره حفاظاً على مصالحة وبغير تناقض مع مصالح الآخرين ."

* * *

واستطرد هنري كيسنجر :

إنني أعرف أنني أتناول مشكلة معقدة وصعبة

أجدها أصعب من مشكلة فيتنام ، وأجدها أصعب من فتح أبواب الصين ، وأجدها أصعب من الوفاق مع الاتحاد السوفييتي .

المشكلة هنا معبأة على الآخر بعناصر متضاربة ومتفجرة . .

عناصر تاريخية وقومية ونفسية ، ورواسب قديمة وجديدة ، ونزعات شك وخوف لا نهاية لها ،

ولقد تناولتُ مشكلة الشرق الاوسط عارفاً بما ينتظرني ، إنني لا أمثل " طرفاً" كما أنني لست " وسيطاً " وما أدعيه هو أنني تعبير عن اهتمام امريكي .

سوف أقول لك شيئين فيما يتعلق بطريقة تناولي للمشاكل .

الشيء الأول : هو أنني لا أحب أن اقترب من مشكلة إلا إذا أحسست أن عناصرها الأساسية أو على الأقل جزءاً كبيراً من عناصرها الأساسية في يدي .

كان ذلك متوفراً لي في حرب فيتنام فقد كان الرأي العام الامريكي يريد نهاية لهذه الحرب .

وكان ذلك متوفراً لي في بكين وموسكو لأن حقائق العصر الجديد كانت تسير في الاتجاه الذي أسير فيه .

في أزمة الشرق الأوسط لا أستطيع بالضبط أن أحسب ما في يدي من العناصر الأساسية في الأزمة .

الشيء الثاني : هو أنني أكره الفشل . . .

إن لدي رصيداً من النجاح ولست أريد أن أفرط فيه .

لا أتحدث عن جائزة نوبل للسلام . ."

واستدرك كيسنجر :

هناك قصة سوف أحكيها لك : ذهب بعض زملاء ابني في المدرسة إليه يقولون له : هل تعلم أن بعض أصحابنا يقولون إن أباك لا يستحق جائزة نوبل للسلام ولقد غضبنا منهم وقلنا لهم إن ذلك لا يصح . ولكن ابني قال لزملائه :

وماذا يهم . . إن أمي قالت لي نفس الشيء!" .

وضحك كيسنجر واستطرد :

مشكلتي إذن في أزمة الشرق الاوسط كما يلي :

ليست في يدي عناصر كافية من عناصر الأزمة ، أمثل اهتمامنا امريكياً بها ، ولكن كل ما استطيع الاعتماد عليه سمعتي الشخصية ورصيدي الشخصي . .

وأعتقد برغم صعوبة الظروف أن هناك فرصة للنجاح ولكني أريد وقتاً . .

أريد من الاطراف أن يعطوني صبرهم .

ما أطلبه الآن هو الصبر .

وأعترف انني خائف من الرومانسية العربية ، أخشى أن تتصوروا الحل عند أول منحنى من الطريق . . واعتقادي أنه تلزمنا فترة ما بين ستة أشهر إلى سنة كاملة حتى نصل إلى بداية شيء معقول .

وعندما اجتمعت مع وزراء الخارجية العرب الأربعة في بداية الحرب الأخيرة في الشرق الأوسط قال لي بعضهم :

إن الرجل الذي استطاع حل مشكلة حرب فيتنام ، وفتح الأبواب مع الصين ، وبنى الوفاق مع الاتحاد السوفييتي- يستطيع أن يحل أزمة الشرق الأوسط .

وقلت لهم : أرجوكم أن لا تنظروا إلى الأسبوعين الأخيرين في باريس مقر مفاوضات فيتنام أو الأيام الأخيرة في بكين أو موسكو . . إن هذه الأيام سبقها تحضير وعمل سنين طويلة حتى استطعنا أن نصل إلى الأسابيع والأيام الحاسمة .

قلت لهم إنه ليس في وسعي ولا في وسع غيري أن يصنع المعجزات السياسة الدولية ليست مهنة الهواة" .

* * *

واستطرد كيسنجر :

إن بعضاً منكم في العالم العربي أساء فهم اقتراحي الذي طرحته في اليوم التالي لنشوب القتال في الشرق الأوسط وهو اقتراحي بعودة القوات المتحاربة إلى المواقع التي كانت فيها قبل ظهر يوم 6 اكتوبر .

لم أكن في هذا الاقتراح متحيزاً لإسرائيل كما بدا لكم وإنما كانت لي تصورات مختلفة .

سوف أروي لك القصة كلها :

قبل 6 تشرين الأول/اكتوبر كانت كل معلوماتنا تستبعد احتمال قيام الحرب ومع انه كانت هناك أخبار كثيرة متواترة عن حشودكم فقد كان التقدير أنّ الحشود هي للقيام بمناورة وليست لشن حرب .

ثم أن جميع الخبراء لدينا كانوا يتصورون أنكم لو بدأتم الحرب فإن القوة العسكرية الإسرائيلية سوف توجه اليكم ضربة قاضية .

وعندما بدأت الحرب فعلاً فلقد ثبت أن معلوماتنا كانت خاطئة وبقي لدينا الاعتقاد بأن تصوراتنا حول نتائجها ما زالت صحيحة .

وفي ذلك الوقت جاء اقتراحي بوقف اطلاق النار وعودة القوات المتحاربة إلى الخطوط التي كانت عندها قبل بدء القتال .

تصورت أن ذلك في مصلحتكم قبل أن يكون في مصلحة اسرائيل .

دعني اضع المسألة أمامك بطريقة أخرى .

لو قلت لك إنني كنت أفكر في مصلحتكم فقط لأحسست أني أخدعك وأنا لا أريد أن أفعل ذلك أو أحاوله لأنك تستطيع اكتشاف الحقيقة .

إن تفكيري سار على النحو التالي :

إن المصريين قاموا بمغامرة خطيرة .. ربما دفعهم اليها اليأس ، ولكن القوة العسكرية الإسرائيلية سوف تنقض الآن عليهم بمنتهى القسوة .

ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

ان مصر سوف تتجه الى الاتحاد السوفييتي لينقذها وهناك احتمالان :

ان يتدخل السوفييت بطريقة تفرض علينا التدخل نحن الآخرين وهذا يضعنا أمام احتمال رهيب .. نحن وهم معاً :

وإما أن لا يتدخل السوفييت ولكنهم سوف يدخلون إلى مصر بطريقة لا يخرجون منها بعد ذلك ابدا ، وهذا أيضاً احتمال لا نريده .

لم تكن المسألة حرصاً على مصر وحدها ولكن المسألة بالدرجة الأولى كانت حرصاً على حقائق وموازين القوة في هذا العصر ، ومن هنا جاء اقتراحي بوقف اطلاق النار فوراً وعودة القوات المتحاربة إلى مواقعها قبله .."

* * *

واستطرد هنري كيسنجر :

بعد يومين كان القتال ما زال عنيفاً في سيناء .

معلوماتنا كانت خاطئة عن حشودكم للحرب .

تصوراتنا بدت هي الاخرى خاطئة عن قدرتكم على الحرب!

لقد رحت أطلب تقارير البنتاجون عن سير المعارك وسألتهم في قيادة الجيش الامريكي أكثر من مرة :

ماذا يجري في الشرق الأوسط بالضبط؟

وكان ردهم :

ان الصورة تختلف كثيراً عن تصوراتنا السابقة .

وجاءتني التقارير بعد التقارير ، عن عملية عبوركم لقناة السويس ، وعن ارادة القتال لدى جنودكم وضباطكم ، وعن معارك الدبابات في الصحراء .

وكانت المعارك ما زالت مستمرة" .

واستطرد هنري كيسنجر :

لقد قلت وقتها ، إن الظرف أصبح الآن ملائماً لوقف اطلاق النار .

إن المصريين اثبتوا قدرتهم على القتال . إنهم غيروا الأوضاع في الشرق الأوسط وهناك الآن حقائق جديدة يجب أن نأخذها في الحساب .

وكان رأيي أن الاستمرار في اطلاق النار بعد ذلك لا مبرر له .

إن الهدف السياسي من قبول المصريين لمخاطرة الحرب أصبح واضحاً ، وإذن فإنه لا بد أن نسعى جميعاً إلى وقف اطلاق النار وأن نباشر العمل السياسي لحل الأزمة من أساسها .

واتصلت بالسوفييت وربما قلت لك أيضاً إنني بعثت برسالة إلى القاهرة .

كان اقتراحي وقتها هو وقف اطلاق النار في المواقع الحالية ، كان ذلك فيما أظن اليوم العاشر من أكتوبر .

وقد اذكرك هنا بنقطتين :

الأولى - أنك قد تلاحظ أننا لم نتوقف طويلاً أمام السؤال الذي يقول :

من الذي بدأ اطلاق النار؟

والثانية- أنك قد تعرف أن التقدم لاسرائيل باقتراح لوقف اطلاق النار في مواقع العاشر أو الحادي عشر من اكتوبر لم يكن سهلاً .

لقد كانت ثورتهم علينا عارمة لأنهم كانوا يقدرون أنه مع إتمام حالة التعبئة العامة في اسرائيل فإنهم سوف يصبحون قادرين على تغيير سير المعارك لكنهم في النهاية رضخوا ، أما أنتم فقد جاءتنا الكلمة منكم بواسطة السوفييت - والبريطانيين ايضاً - بأنكم لستم على استعداد للقبول ، ولو أني تلقيت في ذلك الوقت ومن القاهرة شروط الرئيس السادات للسلام وهي الشروط التي أعلنها بعد ذلك بأيام أمام البرلمان- لاختلف الحال ولم تكن المشكلة في ذلك الوقت شروط السلام وإنما كانت شروط وقف اطلاق النار . . ." .

(هناك أجزاء من حديث هنري كيسنجر في هذا الموضع لم يحن وقتها بعد . . وهي في نطاق ما لا داعي لقوله الآن ثم هي في نطاق المحظور مما طلب كتمانه) .

* * *

ويستطرد هنري كيسنجر :

الخلاصة أننا لم نستطع التوصل إلى وقف إطلاق النار في ظرف اعتبرته مناسباً .

دعني أقل لك شيئاً عن رأيي في حل النزاعات .

إذا كنا نريد حل نزاع متأزم فيجب أن تكون النقطة التي نبدأ منها هي نقطة يشعر فيها كل طرف أنه حصل على شيء . . وأن التوقف عندها ليس هزيمة له .

ومثل هذا الوقف كان متاحاً لنا في نهاية النصف الأول من اكتوبر .

مصر عبرت قناة السويس واقتحمت خط بارليف وتقدمت بضعة كيلومترات في سيناء الى الشرق من خط وقف اطلاق النار قبل 6 اكتوبر .

وإذن فإن كل طرف حصل على شيء مما كان يريد وإن لم يحصل على ما يريده كله .

وإذن فهذا هو الوقت للتوقف عن القتال والبحث بالسياسة عن حل .

ويستطرد هنري كيسنجر :

إنك تستطيع بالطبع أن تتصور الضغوط الداخلية التي بدأنا نتعرض لها لكي نسارع إلى مساعدة اسرائيل .

وعندما لم نستطع مواجهة الضغوط الداخلية بقرار من مجلس الأمن بوقف اطلاق النار فقد بدأنا نساعد اسرائيل .

ودار نقاش طويل بين كيسنجر وبيني في ثلاث نقاط .

الأولى - أن شحنات السلاح السوفييتي لنا في تلك الفترة كانت تنفيذاً لعقود سابقة عن الحرب .

والثانية - أن هناك فارقاً في الحجم بين ما قدمه الاتحاد السوفييتي لنا تنفيذاً لعقود سابقة وبين ما قدمته الولايات المتحدة لاسرائيل في وقت حاسم من سير الحرب .

والثالثة - أن مصر وسوريا كانتا تحاربان لتحرير ارض لهما احتلها العدوان الاسرائيلي قسراً لأكثر من ست سنوات .

وقال هنري كيسنجر :

هناك اعتبار آخر أرجوك أن تضعه في اعتبارك ، ولست مستعداً لأن أخدعك فيه أيضا! .

إن الولايات المتحدة لا تستطيع اليوم ولا غداً أن تسمح للسلاح السوفييتي بأن يحقق انتصاراً كبيراً - وحتى إذا لم يكن انتصاراً حاسماً - ضد السلاح الامريكي . .

هذه مسألة لا علاقة لها بكم . . ولا علاقة لها بإسرائيل ، هذه مسألة تتصل مباشرة بتوازن القوة بين الدولتين الأعظم ."

* * *

واستطرد هنري كيسنجر :

إن الامور تطورت في سير الحرب . . ولم يكن ذلك بسبب السلاح الأمريكي الذي ارسلناه لاسرائيل .كما قلت أنت في مقال قرأته لك ، ولكن لأن القوة العسكرية الإسرائيلية كانت ما تزال بعد قادرة .

لقد كانوا في حاجة إلى ما ارسلناه لهم ، ولكنهم بدونه لم يكونوا في حالة عجز كما تتصورون .

إننا جميعاً كنا نبالغ في تصوراتنا عن ضعف قوتكم ، فلا تفعلوا أنتم ذلك الآن بالنسبة لقوة من تعتبرونه عدوكم .

ذلك خطأ . . ثم هو خطر لقد جاء هجومكم المضاد في غرب قناة السويس وكانوا على استعداد لذلك من قبل مساعداتنا لهم .

(دار نقاش طويل آخر حول هذه النقطة وشرحت لكيسنجر شواهدي من متابعة سير المعركة) .

وقال هنري كيسنجر :

قد نتجادل في ذلك من الآن إلى الصباح لكن علينا أن نفرق بين الجدل السياسي وبين الحقائق السياسية . .

نحن الآن أمام الوضع الذي نراه أمامنا على الطبيعة .

ومهما كانت أسبابه فنقطة البداية لمواجهته هو أن نأخذه كما هو في اعتبارنا بصرف النظر عن أسبابه ،

ومع ذلك فهو وضع لا يزال ملائماً لحل سياسي .

قواتكم عبرت وهي في مواقع إلى الشرق من قناة السويس .
وقواتهم عبرت وهي في مواقع إلى الغرب من قناة السويس" .

* * *

واستطرد هنري كيسنجر :

هكذا وجدنا أن الوقت ما زال مناسباً للبحث عن حل وتعاون مع الاتحاد السوفيتي ومعكم ومع غيرنا في مجلس الأمن لكي يصدر قرارا بوقف اطلاق النار .

أريد أن أقول لك شيئاً آخر :

إنكم في هذه المرة تصرفتم بشكل مختلف عن تصرفكم سنة 1967 .

سنة 1967 أثرتم الدنيا علينا .

أتحدث عما وقع وقتها بصرف النظر إن كنتم أو لم تكونوا على حق فيه والنتيجة أن موجة عداء عارمة ضد الولايات المتحدة سادت المنطقة كلها . . وهكذا عطلتم أي رغبة للولايات المتحدة في اداء دور لها تحس أنها قادرة عليه .

سنة 1973 تصرف الرئيس السادات بهدوء أكثر – وسواء كنا مخططين أو لم نكن مخططين – فإنكم فتحتم الباب أمامنا لدور نرغب في القيام به ونحس أننا قادرون عليه .

إن الاتحاد السوفييتي يستطيع أن يعطيكم سلاحاً .

ولكن الولايات المتحدة تستطيع أن تعطيكم حلاً عادلاً تعود به اليكم اراضيكم خصوصاً وأنكم استطعتم تغيير الموقف فعلاً في الشرق الأوسط .

لا تتصور أن اسرائيل راضية عما نفعله .

وفي نفس الوقت فنحن لا نتصور أنكم سوف ترضون بما نفعله .

ومع ذلك فإن السياسة في عصرنا الآن ليست مسألة عواطف ، وإنما هي حقائق قوة .

واستطرد كيسنجر :

أريد أن أناقشك الآن في مقالك عن أهمية وقيمة الدور الأمريكي في الأزمة . . إنك ترى أن الرئيس الامريكي حتى لو اراد عاجز عن ممارسة أي دور ايجابي في أزمة الشرق الأوسط بسبب الضغوط الداخلية عليه .

ربما تسمح لي أن اختلف معك

هناك مشاكل تواجه البيت الأبيض ، ولكنني لا اعتقد أن ريتشارد نيكسون سوف يستقيل كما أنه لن يعزل .

والضغوط الداخلية علية شديدة ، ولكنني ما زلت اعتقد أن مجال الحركة مفتوح أمامه حتى تحت هذه الضغوط .

(دار نقاش طويل هنا حول الأوضاع الداخلية في الولايات المتحدة وكان هذا النقاش من مواضع الحديث التي قال لي فيها هنري كيسنجر : ذلك كله لعلمك الخاص بالطبع) .

* * *

سألني هنري كيسنجر بعد ذلك في أمور عديدة :

سألني هنري كيسنجر :

منذ متى كانت سيناء مصرية؟

قلت له : سوف أبعث اليك بمجموعة خطابات غرامية مكتوبة على أوراق بردي عمرها خمسة آلاف سنة وهي من قائد مصري في حامية العريش إلى زوجته وكانت أميرة فرعونية وفيها يقول بالحرف :

" إنني أتذكرك من هذا المكان البعيد الذي انتظر فيه لأصداء الأعداء عن حدود الوطن المقدس" .

وقلت له : أنت الآن في اعرق أمة في التاريخ .

سألني هنري كيسنجر :

ما هو الأساس في حركة القومية العربية . . والوحدة العربية؟ .

وأجبت باستفاضة .

سألني هنري كيسنجر :

إن جولدا مائير اطلعتني على مقال لك قلت فيه إن استراتيجيتكم فيها هي القضاء عليها . . هل ذلك رأيك؟ .

واجبت باستفاضة .

سألني هنري كيسنجر :

" إلى أي مدى سوف تواصلون استعمالكم لسلاح البترول . . إن استعمالكم له ربما يوجعنا ولكنه لن يجرحنا اويقتلنا وبالعكس فإنه سوف يحفزنا إلى البحث عن مصادر جديدة للطاقة؟" .

وأجبت باستفاضة .

سألني هنري كيسنجر :

" هل الملك فيصل مستعد للشوط إلى نهايته؟" .

قلت :

إنك في طريقك إلى الرياض ، وسوف تقابل الملك . وسوف تجده أصلب مما تصور كثيرون وأعترف أني كنت بينهم .

إنه مجروح من السياسة الأمريكية فقد حسبناها عليه طويلاً .

ثم إنه غاضب لوعود تكررت منكم بغير وفاء .

ثم إن عروبة القدس موضوع لديه لا يقبل المناقشة وفي هذه النقطة فإن الأمة العربية كلها معه" .

وقال لي كيسنجر :

إنني قبل مغادرة واشنطن قرأت كل مراسلاته مع ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين : كينيدي وجونسون ونيكسون وأشعر أن فيصل له الحق في الإحساس بالمرارة . . ."

ثم أضاف كيسنجر :

إنني في الطريق غدا إلى عمان والرياض . . ولست اتوقع مشاكل مع حسين . . ولكني انتظر المشاكل كلها مع فيصل" .

* * *

وتركت هنري كيسنجر في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الخميس 9 نوفمبر وخرجت إلى شوارع القاهرة المعتمة في ظلام الحرب أسأل نفسي باحثاً عن ضوء :

ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن أتوصل إليها بعد حوار طويل مع هنري كيسنجر؟" .

وعندما وصلت إلى بيتي في تلك الساعة من الصباح الباكر أمسكت ورقة وقلماً ورتبت الاستنتاجات التالية :

1- إن هنري كيسنجر جاد في البحث عن حل ، وإن كنت لا أعتقد بعد أن لديه خطة كاملة يريد تطبيقها ، ولقد كان ما أحسست به هو أنه يحاول تحريك الأمور ومن خلال الحركة فإنه قد يجد منفذاً .

2- إن يهودية هنري كيسنجر لن تكون قيداً عليه بل لعلها تعطيه مناعة ضد جماعات الضغط الامريكية في المجتمع الأمريكي .

3- إن هنري كيسنجر يحسن الظن - كما بدا لي - في قدرته على الحركة ازاء أوضاع السياسة الأمريكية الراهنة وأمام الضغوط الهائلة في المجتمع الأمريكي - ومع ذلك فلقد أكون أول من يتمنى له النجاح إذا حاول وأول من يهنئه إذا وصل .

4- إن المستقبل العربي لا يستطيع أن يطمئن إلى جهد رجل واحد داخل امريكا ، ثم انه ليس من حق العرب أن يتركوا أنفسهم للانبهار بأي بريق يحيط بهنري كيسنجر من تأثير نجاحه في ازمات أخرى وإن كان هنري كيسنجر بغير شك شخصية تدعو الى الاعجاب .

5- إن هناك مشكلة في نظرته العملية إلى القضايا فهو من مدرسة تعتقد أن الحقيقة هي ما نراه هذه اللحظة وليست الحقيقة هي ما نظنه أو نعتقده - نتيجة لما جرى قبلها - وذلك تقليل لأهمية التاريخ في الصراعات الكبرى .

6- إن حقائق القوة تسبق في تقديره أي عامل آخر في حسابات الأزمات وهذه نقطة تدعو الى اليقظة لأن حقائق القوة لا تتوقف عند لحظة معينة وإنما هي جدل بين الحوادث مستمر . وتطبيق ذلك عملياً أنه إذا استطاعت اسرائيل تغيير أوضاع القوة في الميدان فقد نجد أنفسنا مطالبين بقبول الأوضاع الجديدة كأساس جديد ، وهذه بالضبط هي المشكلة التي قابلناها بعد قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النار يوم 22 أكتوبر 1973 .

7- إن أهمية عنصر الزمن لديه تختلف عن أهمية عنصر الزمن لدينا ، ذلك أننا تحت ضغوط من الأوضاع الراهنة العسكرية والسياسية والنفسية . وهذه الضغوط بالنسبة لنا هموم نهار وأرق ليل ، ولكنها بالنسبة له مذكرات على ورق ، وتصورات ، واحتمالات على موائد بحث .

8- إنني لم اقتنع بعد كل ما سمعته منه بأن الرئيس الأمريكي الحالي في وضع يسمح له بممارسة ضغط مؤثر على إسرائيل ، واتصور أنه إذا بدأ الرئيس الأمريكي بظروفه الحالية في ممارسة ضغط على اسرائيل ، - مع فرض أنه يريد ممارسة مثل هذا الضغط- فإن قوى الصهيونية في الولايات المتحدة لن تتأخر عن تجريحه بأكثر مما هو مجرح فعلاً ، ولسوف يحتاج الرئيس الأمريكي إلى شجاعة فائقة لكي يشرح للرأي العام الامريكي أن هناك جماعات في الولايات المتحدة لا يعنيها أن تصل الأمور إلى حد المواجهة النووية ولتغرق الدنيا بأسرها في طوفان من الدمار إذا كان في ذلك مصلحة لاسرائيل -هذا مع العلم بأن اعتقادي - تأكد بالتجربة ولم يتزعزع - بقدرة الولايات المتحدة على الضغط- بل والارغام - إزاء اسرائيل بما ليس متاحاً لغيرها في العالم شريطة أن يكون الرئيس قائدا ولا يكون الرئيس مقوداً! .

9- إن موازين القوة العالمية لها دخل كبير في تقديراته وبالتالي فإن علينا أن ندرك وبغير لبس أهمية الدور السوفييتي في الأزمة وهذا الدور أن يتصل ويتأكد . . تفاهما سوفييتياً عربياً عميقاً ، وصداقة طويلة المدى .

10- لست أعتقد أن هناك اتفاقاً سوفييتياً امريكياً محدداً ومفصلاً نستطيع أن نرتكن إليه ، ثم إنني لا أعتقد أن هناك ضماناً امريكياً نستطيع قبوله إزاء اسرائيل ، وإذا كان هناك ضمان امريكي فلست أعرف لهذا الضمان ما يضمنه إلا القوة العربية الشاملة (سياسية ، واقتصادية وعسكرية) وربما من هنا آمال أعلقها على " مؤتمر القمة العربي" المنتظر لكي يحمل في يده مستقبل الأمة العربية ويخطط له ويحميه في كل الظروف .

2- سقوط رئيس تحرير كبير*

باستثناء استقالته الشخصية ، لـم يكن بمقدور الرئيس السادات أن يقوم بتغيير اكثر استعراضية من إقاله محمد حسنين هيكل من صحيفة الاهرام .

فالوزراء غالباً ما يأتون ويذهبون في مصر ، وتعيين رئيس جديد للوزراء قد اعلن مبكراً بما فيه الكفاية كي لا يثير الاضطراب . لكن محمد حسنين هيكل هو مؤسسة بذاته!!!

فخلال 17 عاماً من النشر انتقل رقم توزيع الاهرام من سبعين ألفاً إلى ثلاث مئة الف نسخة . وكان يتم تداول وتحليل مادتها ، خاصة مقال محمد حسنين هيكل " بصراحة " في العالم أجمع باعتباره مصدر الفكر الرسمي المصري . كذلك فإن الصحيفة قد حققت ثراء مادياً (أكثر من مليون جنيه مصري سنوياً بفضل الاعلان ، كما يقال) كذلك فإن مكاتبها قد انتقلت إلى ناطحة سحاب فخمة . فاصبحت على الأقل قانونياً ، جمعية تعاونية يملكها الاشخاص الذين يعملون فيها (كان هيكل فخوراً بشكل خاص بهذه النقطة ولكن لم يكن لهؤلاء المالكين على ما يبدو الكلمة في قرار إقالة رئيسهم) .

لا شك في أن كل هذا الانجاز وهذا النجاح هو عمل هيكل . بموهبته كصحفي وكرجل أعمال ، لكن وبالضرورة وبالصداقة الحميمة التي كانت تربطه بالرئيس الراحل عبد الناصر ، تلك الصداقة التي بدأت عندما كان مراسلاً حربياً شاباً في حرب فلسطين عام 1948 . لقد عينه عبد الناصر رئيساً لتحرير الاهرام وعادة ما كان يستعمله كناطق نصف رسمي باسمه .

وخلال سنواته الاخيرة بدا أنه يضع فيه ثقته كاملة ويعتبره مستشاره . أما خلال الأشهر الستة الأخيرة من حياته فقد عينه وزيراً لمجلس الشعب في حكومته . وفي فترة موت عبد الناصر كان يعتبر وجهاً مصرياً محترماً والاكثر قرباً من الغرب ، أما بعد التخلص من الفريق المقرب من السوفييت عام 1971 فإن وضع هيكل في مصر اصبح أكثر احتراماً مما كان عليه في عهد عبد الناصر .

لكن هذا لا يترك مجالاً للشك بأن شهرة كهذه تتضمن مخاطر جمّة ، وأن الرئيس

---

* *The Times, The Fall of A Great Editor, 4 Feb 1974, London.*

الجديد سيحاول التخلص منه عاجلاً أم آجلاً .

ثم إن خلافات سياسية جدية نشأت بين الرجلين ، والمفارقة أن هيكل الرجل القريب من الغرب ، قد اعتبر المدافع عن افكار عبد الناصر الراديكالية ضد زحف البورجوازية ، وضد التأثيرات الغربية المتعاقبة .

فمنذ إعلان حرب اكتوبر عبّر هيكل عن مخاوفه إزاء هذه السياسة المتمثلة في اتباع دبلوماسية الدكتور كيسنجر حول الانسحاب الإسرائيلي ومجرياته ، بتبعية كاملة وحيدة .

وبهذه الحركة التي عبرت عن رغبته في استبدال هيكل ، برهن الرئيس السادات على أنه حساس ازاء هذه الانتقادات ويرفض الانصياع لها . فقد بنى كل شهرته على نجاح سياسة كيسنجر ، وقد يكون على حق في ذلك ، لكن إقالة هيكل هي عمل محبط لمصر .

فقد كانت صحيفة الاهرام في ظل ادارة هيكل ما يمكن أن نسميه جزيرة يخفق فوقها علم الفكر الحرّ ، وطريقة للتعبير دون خوف ، في مصر الثوريّة . وسيكون الأمر مأساوياً إذا كان اعلان الدكتور عبد القادر* السيطرة على مقاليد الشركة بصفته وزيراً للإعلام ، يعني أن الخط االرسمي قد فرض نفسه على كل نشاط .

---

* *عبد القادر حاتم وزير الاعلام المصري السابق .*

3- نحو نظام عربي جديد*

بقلم : محمد حسنين هيكل

لقد صور احتلال الكويت في الغرب كعمل مجنون استفاق من غفوته ليبتلع جاره لكن الواقع اكثر تعقيداً .

أنا لا أبرر اطلاقاً الاجتياح ، فهو خطأ وعلى العراق أن ينسحب من الكويت . خاصة وان ذلك يعمق الانقسامات داخل العالم العربي ، لكن الغرب لم يفهم أن ردّة فعله هو قد جعلت الوضع يتفاقم إذ ركزت أحاسيس الغضب والاذلال في العالم العربي .

إن محاولة الولايات المتحدة فرض حلها الخاص بغطاء عربي (ارسال عدّة آلاف من الجنود المصريين والمغاربة والسوريين) سيشكل فشلاً لأن حلاً عربياً يتناسب مع العقلية العربية ، هو وحده المناسب لهذه القضية .

لقد ولدت حدود دول الخليج من العبقريّة البريطانية ، بحيث تعطي للإنكليز حجة العودة إلى المنطقة في كل لحظة . وقد قبل العرب هذه الحدود ليتخلصوا من المرحلة الاستعمارية . فنحن نفترض أنها قابلة للتطور والتغيّر مع تشكل وبناء الامة العربية ، تماماً كما تطورت اوروبا لتكتسب هويّة جديدة .

لكن انقسامات حادة تعترض دائماً طريق آمالنا : توترات بين رجال الصحراء ورجال المدينة ، بين القوى التقدمية والقوى الرجعية .

قد حصل النضال من اجل الاستقلال والسيطرة على البترول في المدن (القاهرة ، دمشق ، بغداد وبيروت) لكن الحكام القبليين هم الذين حصلوا في النهاية على البترول في حين حرم أهل المدن في النهاية من ثمار نضالهم .

فبعد ذهاب الإنكليز ، تصرف الجيل الاول من المسؤولين القبليين بمسؤولية محترمين

* *Jeune Afrique, Crise Du Golfe: Pour un nouvel ordre arabe, septembre, 1990, Paris.*

ميثاق الثقة مع المدن . غير أن اولادهم قد شبوا في جو الاعتقاد بأن لهم حقاً مطلقاً في الحكم . وقد وجدوا مشرعين يساعدونهم على تعديل النظام القبلي إلى إمارات أو ممالك وكلما كانت إحدى هذه الاسر الملكية تكبر كانت تسيطر على جميع شعب الحكم . فالعائلات المالكة في العربية السعودية مثلاً تعد ما بين 6500 إلى 7000 شخص وهؤلاء هم في كل مكان .

إن نظاماً عالمياً جديداً يرتسم ، لكن العرب يواجهون خطر البقاء خارجه . ومنذ أن بدأ التقارب بين الشرق والغرب ، تفاقمت شيخوخة الأنظمة العربية في حين غذت مبالغة بعضهم الاستياء لدى الجماهير . فلم يسبق لي أن رأيت العالم العربي منقسماً كما هو اليوم . وإذا سألت عربياً في أية جهة يقف فإنك لن تحصل على جواب حاسم .

إن حالة اليأس ، الغضب والاحساس بالذل ، عامّة . النظام القديم لا يريد أن يموت والنظام الجديد يرفض الخروج إلى النور . إننا نشهد مرحلة نزع مؤلمة إذ إن الحل العربي بدا ممكناً في الأيام الأولى التي تلت اجتياح الكويت ، ولو أن البحث عنه تم بصدق وصلابة لكان قد أدى إلى نتيجة . فمهما كنا ضعفاء يظل أي حلّ عربي هو أفضل من أيّ حلّ أمريكي . واللجوء إلى التهديد الأمريكي لم يؤد إلاّ إلى تفاقم الأمور ، إذ وحّد وراء صدام حسين عرباً كثيرين كان يمكن أن يكونوا معارضين له .

إن وجود الجيش الأمريكي في العربية السعودية ، وبالتالي بالقرب من مكة والمدينة هو إهانة لأعمق مشاعر المسلمين ، وفي هذا النوع من الأوضاع تكون الرموز أكثر تفجراً من القنابل . لن يقبل الرئيس صدام حسين أبداً سحب قواته تحت التهديد الأمريكي . لكنه ، وعلى العكس من ذلك كان يمكن أن يفعل ذلك لو أن القوات التي واجهته هي كلها عربيّة .

فالتكتيك الأمريكي يثير التصرفات اللاعقلانية أكثر مما نتصور . إذ أن البشر يقبلون أحياناً الاستشهاد كفعل تحدّ . وحتى لو أن حلاً عملياً كان يمكن أن يقود إلى حرب أهلية فإنها تظل أفضل من تدخل خارجي وسيطرة أجنبية . إنني أشعر بالخوف عندما أتصور ما سيكون عليه العالم العربي بعد الهجوم الأمريكي . ماذا علينا أن نفعل الآن؟ لقد أعطت قمّة هلسنكي (بين جورج بوش وميخائيل غورباتشوف) العرب فرصة . فواشنطن تستمر في

التحضير للحرب في حين أن موسكو تبحث عن حل سلمي .

وهنا على العرب أن يبادروا إلى الاستنجاد بموسكو ، علينا أن نبحث منذ الآن ، عن نظام عربي جديد للمستقبل . علينا أن نتأمل دروس التقارب بين الأمم الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية .

لقد بدأت هذه الأمم عام 1957 بتأسيس وحدة الفحم والفولاذ . وهي فكرة نستطيع استلهامها مع بعض الأقلمة .

إن بعض الدول العربية تنتج النفط في حين تقدم دول أخرى وسائل النقل (الانابيب ، الطرقات ، الأقنية . . الخ) وأنا أدعو إلى انشاء تنظيم عربي يكلّف بجمع مصالح هذه وتلك . إن اقتسام المصادر يجب أن يأخذ باعتباره ، الجغرافيا والتاريخ ، بحيث يخصص قسم للدول المنتجة للنفط والدول التي ينقل عبرها ، بينما يخصص قسم آخر لسلطة عربية مشتركة للتنمية ، بحيث يهدف الجميع إلى تخفيض الفوارق الحالية ، بما يصب في مصلحة جميع العرب . قد يبدو هذا حلماً ، لكن الأحلام هي ضرورية في فترات الخطر الشديد .

إن احترام الحدود ، مهما يكن رسمها ظالماً ، يجب أن يترافق مع تقاسم للثروة . الشرعية هي أمر أكبر من الحفاظ البسيط على الوضع القائم : إنها قبل كل شيء تعبير عن الحقائق الجغرافية والتاريخية في المنطقة . ويجب عليها ، إضافة إلى ذلك ، أن تعكس القيم والتطلعات الإنسانية . وواقع كون هذه التطلعات تتغير مع الزمن .

4- رسالة سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي إلى محمد حسنين هيكل في سبيل إيجاد حلّ لأزمة رهائن السفارة الأمريكية في طهران* .

تكمن الفكرة في أن يذهب هيكل إلى إيران ويقترح على بني صدر وسيلة للإفادة من فشل مهمة الإنقاذ ، وذلك للحصول على تحرير الرهائن ، مع النتيجة التي يمكن أن يعود بها ذلك عليه . وعلى هيكل أن يقنعه بأن هذه القضيّة تقدم له فرصة فريدة لحو القوميّة الإسلامية في سبيل تقوية وضعه الخاص . ويمكن أن تعرض الفكرة على الخميني نفسه إذا كان يشترك في الرغبة في التخلص من المشكلة[1] .

أما المواضيع التي يمكن لهيكل أن يطرحها فهي التالية :

1- لقد برهن الفشل المزري لمهمة الإنقاذ التي نفذتها الحكومة الأمريكية على نجاح الثورة الإيرانية الواضح والنهائي . حيث برهن اللّه للعالم بأنه مهما تكن قوة العدوّ فإن الضحية تلقى العدالة . . . إن التفوق الأخلاقي للجمهورية الإسلامية هو قطعيّ بنظر الجميع .

2- لقد أدى الرهائن الأمريكيون الدور الذي أرادته منهم إيران ، فقد افسحوا المجال ، وبطريقة دراماتيكية ، لتقديم البرهان للعالم على سيئات نظام الشاه والدعم الذي كانت تقدمه له الحكومة الأمريكية . كما أن فشل أمريكا في انجاح مهمة الإنقاذ يشهد من جديد على عدالة قضيتهم (مثلاً ، لقد أثار التصرف الإيراني ردّة فعل أمريكية ، غير أن فشلها أوضح الرسالة التي أرادت إيران تمريرها) . ولذا لـم يعد للرهائن من ضرورة .

3- سيطلق سراح الرهائن . وسيقال إن إيران لـم تكن أبداً تنوي الإساءة إليهم . وستجسد هذه البادرة بشكل واضح نبل الإسلام ورحمته . إذ لـم تكن هناك أبداً ، كراهية إزاء الشعب الأمريكي ، بل إزاء حكومته . (فلنطلق الآن سراح الرهائن ونظهر الأمريكيين في مظهر البلهاء ونجعلهم أكثر عرضة للسخريّة . ويمكن أن يمرّ هؤلاء الرهائن بطابا ويلتقون صحفيين

---

* جزء من الرسالة التي أرسلها سايروس فانس . انظر كتاب هيكل :
Khomeiny et sa révolution, Jeune Afrique, Paris, 1983. p. 205-206.

1- نشر هيكل هذه الرسالة ليبرهن مدى ابتعاد الأمريكيين عن الواقع .

ينقلون تعليقاتهم الفظّة) .

وهكذا تخرج إيران والجمهورية الإسلامية منتصرة ، ومتفوقة أخلاقياً في آن واحد .

4- هكذا يبدو الخاطفون منتصرين وأبطالاً قوميين ، فهم لـم يسيئوا لأحد ، وقد اتبعوا تعاليم الإسلام . كما أنهم سيكافأون من قبل الحكومة ويحصلون على اعتراف الإمام بهم . وقد تكون هذه آخر فرصة للخاطفين ليغادروا السفارة دون أن يفقد أحد في إيران ماء وجهه .

5- يجب أن يعلن نبأ تحرير الرهائن من قبل إيران نفسها كفعل تسامح ورحمة إزاء الرهائن ، قرّره الخميني نفسه . . وستعطي إجراءات التحرير في إيران فرصة رائعة للدعاية تغرق أشهر الاحتجاز البائسة الخمسة في فيض من الرحمة والتسامح والشفقة .

هكذا تعيد إيران تجميل وجه الإسلام بما يرضي جميع مسلمي العالم . في حين تظهر الحكومة الأمريكية ، وعلى عكس الشعب الأمريكي ، ملوّثة بعدائها للقضايا العادلة : دون أن يفرض ذلك أي تراخ في صراع إيران ضد الحكومة الأمريكية أو أي تفاهم معها .

5- الرجـــال : محمد حسنين هيكل*

بقلم : جان لاكوتور

ضخم ورشيق ، حاد الطبع وقويّ ، ذو وجه فلاح ، اختار بدلاً من أن يصبح فرعوناً ويدخل المتحف ، أن يقوم بالإدارة ، أسمر اللون كصعيدي (مثل صديقه جمال) ، سريع الجملة وحادّها ، ذو نظرة متقدة غالباً ، وذو ابتسامة ماكرة ، ربما يكون محمد حسنين هيكل الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام في مصر المعاصرة ، وفي أية حال فإنه النموذج الذي يمثل هذه المرحلة التاريخية التي عبرت فيها بلاده من آخر ارتعاشات الاقطاعية التي يسيطر عليها ويحركها الأجنبي ، إلى إقامة سلطة بورجوازية وطنية ، مؤطرة بالبيروقراطية ، مسلحة بالكبرياء الوطني ، يحركها حسّ التجارة ، والتي كانت الناصرية إحدى تجلياتها .

ناطق رسمي متحمس وصديق وفيّ - من وجهة نظر قد تكون ذاتية أكثر منها موضوعية - للرئيس الراحل ، المحرك لعملية تحديث تقني ، آتت ثمارها ولحرب سيئة . تبدو استقلالية رئيس تحرير الأهرام السابق ، التي لا تفتقر إلى النبل ، بشخصيته وبالطاقات التي كان يعبر عنها ، متجاوزة للناصرية أو بالأحرى ، أنه يقف في خط أكثر ضيقاً وأكثر اتساعاً . فهو يجمع في شخصيته شيئاً من التيارات الثلاثة التي جعلت مصر العابرة إلى الاستقلال عام 1922 ، ما هي عليه اليوم . . تيار الوفد المنفتح والتعددي ، تيار الرجال المعتمدين على ذاتهم ، مثل محمد عبده ، وأخيراً التيار المنتصر على فاروق ، جمال عبد الناصر ، الرجل الصلب الذي أصبح بقوة الأشياء ، وربما بفضل أستاذ العلاقات العامة الاستثنائي هيكل ، زعيماً شعبياً كبيراً .

ينحدر محمد حسنين هيكل من البورجوازية المتوسطة التاجرة في دلتا النيل . فقد كان

---

* *Lacouture, Jean, "les hommes: Mohammed Hassanein Heykal", Maghreb-Machrek, - Paris, Mai-Juin, 1974.*

أبوه تاجر حبوب في منطقة البحيرة ، ورغم تعرّضه للإفلاس بسبب سقوط مفاجىء في الأسعار ، فقد استطاع أن يؤمن لابنه تعليماً جيداً بحيث أصبح في عام 1948 ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، صحفياً شاباً لامعاً في اسبوعية آخر ساعة ، وإذ أرسل كمراسل عسكري إلى الجبهة الفلسطينية ، تعرّف هناك على ضابط شاب مفكر ومتمرد يدعى جمال عبد الناصر . وبسرعة نشأت بين الضابط الصامت والصحفي المشتعل علاقات لم تلبث أن تحولت إلى صداقة وثيقة ، رغم ذلك كم من نقاط عدم التشابه بين جمال الخجول ، الانطوائي ، المتشائم ، الموسوم ببصمة طفولته الصعبة ، المشتعل بالوطنية المصرية ، وبين الصحفيّ المنفتح القوي الذي يؤمن بقوة الكلمة والذي ستكون مقالاته المشبعة بالغضب على الهزيمة ، إحدى النصوص التي يجب أن نبحث فيها عن جذور الحركة المباركة ، فيما بعد .

هكذا دخل هيكل في الحياة السياسة المصرية إلى جانب صديقه ، في الظل أولاً قبل أن تتركز الأضواء عليه . وذلك ما لم يتأخر لأن الزعيم الجديد أراد أن يعطي لنفسه أيديولوجية ما ، برنامجاً ، اعلاناً (مانيفيستو) . ككل البراغماتيين والعصاميين ، أراد أن يؤكد نفسه في النظرية ، في الكتابة ، وعلى الصعيد الفلسفي . ولذا انفرد بضعة أسابيع بالصحفيّ ، وعن هذه المناقشات والملاحظات التي سجلها الثاني باملاء من الأوّل أو بالأحرى بإيحاء من الأول ، ولد كتاب صغير غريب ، قارنه جي موليه بكتاب ***كفاحي*** ، والواضح أنه ليس إلاّ نسيجاً من الأحلام ، من المدارات ، من الطموحات ، من الاعترافات ، التي توحي ببيان قائد شعب أكثر منها بدفتر سري لضابط شاب يعيش حالة حنين . أما العنوان الفخور ***فلسفة الثورة*** فإنه يستحق هذا الكتاب الصغير الذي اعتبرته مصر لفترة ، كتاباً أحمر صغيراً . بعد ذلك بسنتين جاءت السويس بعد باندونغ ، وإذ بجمال عبد الناصر المنطوي ، يصبح الناطق الرسمي باسم شعوب البروليتاريا ، زعيم العرب ، الزعيم الوطني لمصر في حالة غليان .

عندها أصبح هيكل ، رجل الكلمة ، أكثر من مستشار ، من مؤيد وفيّ بل نوعاً من المحرك القوي verbo-moteur ، يبث صورة جمال أسطوري ، أمام جمال الحقيقي ، يكتب ويروي جمال ، قبل أن يتحرك هذا الأخير أو يتصرف ، إنجيلي يكتب إنجيل الآلام قبل أن

برتفع الصليب ، ويروي القيامة قبل نزول المسيح إلى القبر ، وتسبق مقالاته التاريخ كما سبقت نبوءة يوحنا قصة المسيح .

أمين سر ، أم ملقّن؟ فلنبق عند الافتراض الأول ، كي لا نعتبر عبد الناصر نتاجاً لخيال هيكل . فقد كان عبد الناصر موجوداً بذاته ، ولم يعتبره أحد من الذين اقتربوا منه دمية متحركة . لقد كان " الرئيس " السيد ، بشكل كامل . لكن هيكل كان إلى جانبه ، خصب الخيال وذلق اللسان ، يحضر الملفات ، ويفجر الشعارات ، ويقترح أفكاراً ، وينشر بقريحته ، وبجرأة نادرة ، نشيد الناصرية .

في نهاية الخمسينات ، أصبح هيكل على رأس الأهرام ، أكثر الصحف المصرية هيبة ، وأقدمها (حيث أسسها عام 1875 مجموعة من المسيحيين اللبنانيين ، الذين اختاروا لها اسم الأهرام لتأكيد أصالتها) .

وخلال أشهر قليلة ، حولّها أمين سر عبد الناصر من ، ورقة محترمة لكنها صفراء . . . إلى الصحيفة الأكثر حيوية في الشرق الأوسط ، وذلك أولاً لأن الحميمية بين سيد الأهرام وزعيم العالم العربي ، كانت تؤمن للأول المعلومات التي بحوزة الثاني ، وثانياً لأن هيكل ، كرجل أعمال كبير ، استطاع أن يؤمن لصحيفته ، قواعد مالية صلبة ، سمحت له بأن يكون سخياً وأن يدفع ثمناً عالياً للمعلومات والمقالات ، على الطريقة الأمريكية . وأخيراً لأنه كان ينشر كل يوم جمعة مقالاً طويلاً بعنوان " بصراحة " ، ظل طوال عشر سنوات يعبّر عن فكر ونوايا الرئيس جمال عبد الناصر ، ومن هنا ذاك التعطش الكبير لهذا المقال الذي أصبح عنصراً أساسياً من عناصر السياسة العربية ، وأحياناً العالمية .

وإذ انه اعتبر مؤيداً للغرب ، وقليل الانجذاب إلى الشيوعية ، فقد عرف كيف يجعل من صحيفته ساحة تطرح فيها كل التوجهات ، بما فيها تيارات ماركسية مختلفة . حيث كان بإمكان أفضل صحفيي اليسار ، واليسار المتطرف ، من سيد أحمد إلى لطفي الخولي أن يعبروا عن آرائهم ، سواء في أعمدة الأهرام أم على صفحات المطبوعات الملحقة الصادرة عن دار الأهرام ، مثل " الطليعة" .

بحيث وصفت مهنة الرجل الثوري خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة ، بأنها ، تنقل

بين السجن والأهرام . كذلك كان هيكل يعرف كيف يدافع عن مساعديه الذين يعينهم أحياناً في ظروف صعبة ، حتى ولو كان ذلك ضد صديقه جمال عبد الناصر .

غير أن الثقة التي كان الرئيس يوليها للصحفي ، وحميمية علاقاتهما ، هما وحدهما ما كان يمنع خلافاتهما من التحول إلى ضجيج . ولا شك في أن خط هيكل كان أكثر تأييداً للأمريكيين من خط عبد الناصر . وأن الأول كان يكبح ميول الثاني إلى جعل الاقتصاد المصري اقتصاداً اشتراكياً ، معتبراً أنه من المفيد اعطاء فرصة للمبادرة الفردية (بدعم قوي من الدولة ، وقد عرف كيف يبرهن بنفسه على فعاليتها) . ان الصحفي كان أقل ثقة من الزعيم ، بروح التضامن والوحدوية العربية ، وأخيراً ، ان رئيس تحرير الأهرام كان يدفع نحو سياسة ليبرالية ، وتحسين مستوى المعيشة ، مما كان يرى فيه الرئيس خطر جر البلاد نحو العودة إلى النظام القديم ، نظام الأحزاب والفساد .

لقد بدا أن الموت المفاجىء لجمال عبد الناصر سيؤدي إلى إبعاد هيكل عن الحياة السياسية . لكن هيكل وجد لدى النظام الجديد ، موقعاً بدا في البداية أفضل من موقعه في القديم ، وذلك بسبب مساهمته في نقل السلطة إلى السادات ، ولأن أفكاره حول الليبرالية والانفتاح على الغرب ، كانت تلتقي مع أفكار الرئيس الجديد . وكون شخصية الرئيس الجديد كانت أقل قوة من شخصية سلفه ، فهل سيتحول المستشار إلى عرّاف ، وموحٍ ، ومرشد؟

لقد بدا أن مساهمة هيكل في انتصار السادات على جماعة صبري - جمعة ، قد أكّد هذا التشخيص . لكن الأمر لم يلبث أن كشف عن العكس . وإذ يلعب صحفي آخر ، هو احسان عبد القدوس ، دور المستشار وأمين السر إلى جانب الرئيس الجديد .

لقد وضع مشروع الوحدة مع ليبيا ، هيكل المؤيد لمبادرة القذافي ، ضد الرئيس الحذر منها . ثم جاء تصريح لهيكل صدر في باريس " لست على اتفاق مع السادات حول هذه النقطة" ليحوّل استياء الرئيس إلى غضب ، ومنذ ذلك الحين راح يبحث عن الفرصة المناسبة للقطيعة مع الصحافي النافذ .

وقد وجدها في حرب أكتوبر ، والمفاوضات التي تلتها : لا لأن هيكل قد أعلن معارضته

لمبادرة 6 أكتوبر : فقد كانت نوعاً من الاستراتيجية التي طالما دعا إليها ، حرباً محدودة ، تستدعي تحكيم القوتين العظميين .

لكن معارضة صديقه القذافي للمبادرة تقوي وضعه ، ثم أن التحفظات التي أبداها على اتفاقيات فك الارتباط ، التي لا تفيد برأيه إلاّ اسرائيل والأمريكيين ، قد جعلت حساسية الرئيس تجاهه تبلغ أوجها ، وفي 1974 أُقيل هيكل من منصبه كرئيس لمجلس إدارة الأهرام ، أي أنه جرّد من امبراطوريته الصغيرة ، من الدولة داخل الدولة ، التي بناها بصبر ونجاح باهر .

وهكذا فإن هذا الرجل الذي اعتبر طويلاً " رجل الأمريكيين " في مصر ، قد سقط لمجرد أنه أدان عملاً سياسياً يصب في صالح واشنطن .

لكن ، ربما يكون قد سقط ، لأنه مازال يجسّد ، بكل جوانبه الغامضة ، ناصرية يميل النظام الجديد إلى التخلص منها . ومع خليفته ، علي أمين ، بدأ خط جديد سياسي واجتماعي ، غريب كلياً عن الناصرية ، يشق طريق السلطة ، في القاهرة .

إن إبعاد هيكل ، هو بحق بداية مرحلة ما بعد الناصرية .

المراجع

مراجع عامة

أولاً : مراجع عربية

1• كتب :

1 . إبرهيم ، سعد الدين (وآخرون) ، " *مصر العربية وثورة يوليو* " ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1982 .

2 . امام ، عبد الله ، " *عبد الناصر والحملة الظالمة* " ، دون ذكر لدار النشر ، القاهرة ، 1986 .

3 . البشري ، طارق ، " *الحركة السياسية المصرية : 1945-1952* " ، دار الشروق ، القاهرة ، 1983 ، ط2 .

4 . الغزالي ، محمد ، " *الاسلام بين ضعف الداخل وكيد الخارج* " ، دار الصحوة ، القاهرة ، 1988 .

5 . ________________ ، " *قظائف الحق* " ، دار السلاسل ، الكويت ، 1984 .

6 . ________________ ، " *الاسلام في وجه الزحف الأحمر* " ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، 1984 ، ط8 .

7 . الحاج ، جبر ، " *فشل ثورة يوليو بعدائها للتيار الإسلامي* " ، دار الاعتصام ، القاهرة ، 1987 .

8 . الحمامصي ، جلال ، " *حوار وراء الأسوار* " ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ، 1976 .

9 . الشاذلي ، سعد الدين ، " *حرب أكتوبر* " مؤسسة الوطن العربي ، باريس ، 1980 .

10 . التلمساني ، عمر ، " *قالوا ولم أقل عن عبد الناصر* " ، دار الاعتصام ، القاهرة ، 1985 .

11 . الفهد ، ياسر ، " *تاريخ الصحافة العربية* " ، منشورات اطلاس ، دمشق ، 1980 .

12 . بغدادي ، عبد اللطيف ، " *مذكرات بغدادي* " ، روز اليوسف ، القاهرة ، 1977 .

13 . حمروش ، أحمد ، " *ثورة يوليو والفكر المصري* " ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1985 .

14 . رشاد ، كامل ، " *عبد الناصر في تل أبيب* " ، دار الصيداوي للنشر ، القاهرة ، 1990 .

15 . رمضان ، عبد العظيم ، " *ناصر وأزمة مارس* " ، روز اليوسف ، القاهرة ، 1976 .

16 . فرهود ، أحلام ، " *التيار الاسلامي والسياسة المصرية تجاه الصلح مع اسرائيل* " ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1991.

17 . كشك ، محمد جلال ، " *ثورة يوليو الأمريكية : علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية*"
الزهراء للإعلام ، القاهرة ، 1988
18 . كوبلند ، مايلز ، "*لعبة الأمم* " ، منشورات انتر ناشنال سنتر ، بيروت ، 1970 .
19 . قطب ، سيد ، " *معالم على الطريق*" ، دار القرآن الكريم ، شتوتغارت ، 1978 .
20 . نافعة ، حسن ، "*مصر والصراع العربي الاسرائيلي : من صراع داهم إلى اتفاق مستحيل*" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1984 .
21 . حمودة ، عادل ، " *نهاية ثورة يوليو*" ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1983 .
22 . ________________ ، "*أزمة المثقفين وثورة يوليو*" ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1984 .
23 . ________________ ، " *اغتيال رئيس*" ، دار الجيل ، بيروت ، 1991
24 . محيي الدين ، خالد ، "*الآن أتكلم*" ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1992 .

2• مقالات ودوريات :

1 . المرغني ، محمود ، " *وجهاً لوجه : هيكل والمرغني* " ، مجلة العربي ، عدد 320 ، الكويت ، يناير 1986 .
2 . دوارة ، فؤاد ، " *حوار مع نجيب محفوظ* " ، مجلة الغد ، بيروت ، عدد 505 ، تشرين الأول/ أكتوبر ، 1981 .
3 . رؤوف ، عباس ، " *تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية* " ، السياسة الدولية ، عدد 66 ، القاهرة ، 1981 .
4 . نصر ، مارلين ، " *القومية والدين في فكر عبد الناصر*" ، المستقبل العربي ، بيروت ، السنة الثالثة ، عدد 24 ، شباط/فبراير 1981 .

ثانياً : مراجع فرنسية وانكليزية :

1- Books

1. ABD EL-NASSER, Gamal, *la Philosophie de la révolution*, Dar Al-Marif, Le Caire, 1954.

2. ABDEL MALEK, Anouar, *l'Egypte: société militaire,* Seuil, Paris, 1962.
3. ABDEL MALEK, Anouar, *la Pensée politique arabe contemporaine*, Seuil, Paris, 1970.
4. ALASHAMAWY, Mohammed, *l'Islamisme contre l'islam*, la Découverte, Paris, 1989.
4. ALEME, Jean-Pierre, *le Proche-Orient arabe*, P. U. F, Paris, 1977.
5. ALSAFOURI, Mohammed Ali, *l'Islam: droit et pouvoir en Egypte,* Thèse de Droit, Paris II, 1986.
6. BERQUE, Jacques, *l'Egype: impérialisme et révolution,* Seuil, Paris, 1968.
7. BARTHELEMY, André, *Israéliens et palestiniens*, Chronique Sociale, Lyon, 1992.
8. BOTMAN Selma, *The Rise of Egyptian communism: 1939-1970*, Syracuse University Press, New-York, 1988.
9. BRIERE, Claire et CARRE, Olivier, *Islam: guerre contre l'Occident?*, , Autrement à ciel ouvert, Paris, 1983.
10. BURLOT, Jean, *la Civilisation islamique*, Hachette, Paris, 1982.
11. CARRE, Olivier, Michaud, gerard, *les Frères musulmans en Egypte et en Syrie: 1928-1982*, Gallimard, Paris, 1989.
12. COPELAND, Miles, *Without Cloak or Dagger, The Truth About the New Espionage*, Simon and Shuster , New-York, 1974.
13. CUAU, Yves, *Ce jour là: 5 juin 1967 Israël attaque*, Robert Laffont, Paris, 1968.
14. DAYAN, Moshé, *Histoire de ma vie*, Fayard, Paris, 1976.

15. DESJARDINS, Thierry, *Sadate, Pharaon d'Egypte*, Marcel Vattat, Paris, 1981.

16. El-SADATE, Anwar, *Révolte sur le Nil*, Pierre Amiot, Paris, 1957.

17. El-SADATE, Anouar, *A la recherche d'une identité*, Fayard, Paris, 1978.

18. ERIC, Laurent, *Hassan II, La mémoire d'un roi*, Plon, Paris, 1993.

19. FLORY, Maurice (et al), *Les Régimes politiques arabes*, PUF, Paris, 1980.

20. GARAUDY, Roger, *l'Intégrisme*, Belfond, Paris, 1990.

21. GENDY, Moustafa, *la Détente internationale et la politique étrangèere égyptienne*, Thèse de Science Politique, Université d'Aix-en-Provence, 1988.

22. GHALIOUN, Burhan, *le Malaise arabe: l'Etat contre la nation*, La Découverte, Paris, 1991.

23. GRESH, Alain. et VIDAL Dominique, *Les 100 portes du Proche-Orient*, Autrement, Paris, 1986.

24. GROWLEY, D.W, *The Backgroung to Affairs*, Mc Millan Press Ltd, London, 5 Editions, 1972.

25. HUSSEIN, Mahmoud, *La lutte des classe en Egypte:1945-1970*, François Maspero, Paris, 1971.

26. Ismael, TARIQ, and ELSA'ID, RIFF'AT, *The Communism Movement in Egypt: 1920-1988*, Syracuse University Press, New-York, 1990.

27. KEPEL, Gille, *Le prophète et le pharaon*, Seuil, Paris, 1993.

28. KISSINGER, Henri,*The White House Years*, Littlebrown and Co, Bos-

ton, 1979.

29. LACOUTURE, Jean et Simon, *l'Egypte en mouvement,* Seuil, Paris, 1956.

30. LACOUTURE, Jean., *Nasser,* Seuil, Paris, 1971.

31. LAPIERRE, Dominique et COLLIN, Larry, *ô Jérusalem,* Robert Laffont, Paris, 1971.

32. LAROUI, Abdallah, *la Crise des intellectuels arabes,* Seuil , Paris, 1972.

33. MANSOUR, Fawzi, *l'Impasse du monde arabe*, L'Harmattan, Paris, 1990.

34. MIREL, Pierre, *l'Egypte des ères de Nasser, Sadate et Moubarak,* Sindbad, Paris, 1982.

35. NASSER, Munir, *Press Politics and Power: Egypts Heikal and Al-Ahram,* The state University press, Iowa, 1979.

36. RIZK, Charles, *les Arabes ou l'histoire à contre sens*, Albin Michel, Paris, 1992.

37. RODINSON, Maxime, *Marxisme et monde musulman,* Seuil, Paris, 1970.

38. SABRI, Ali, *Nasser en procès face à la nation arabe*, Point de vue, Paris, 1968.

39. SAINT-PROT, Charles, *la France et le renouveau arabe*, Copernic, Paris, 1980.

40. SHOUKRI, Gali, *Egypte: contre-révolution,* Le Sycomore, Paris, 1979.

41. TOMICH, Nadia, *l'Egypte moderne,* PUF , Paris, 1966.

42. VAUCHER, Georges, *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, 2 tomes , Jailliard, Paris, 1959-1960.

43. VERNIER, Bernard, *Rapport sur la R.A.U : le rôle xtra-militaire de l'armée dans le tiers-monde*, P.U.F, Paris, 1968.

44. WEBER, Max, *le Savant et le politique*, Introduction par Raymond Aron, Plon, Paris, 1959.

45. ZORGHIBE, Charles, *Terres trop promises*, La Manufacture, Paris, 1991.

2- ARTICLES

1. ARCHER, R. Calnest, *"How to make a business decision and analysis of theory"*, Review American Management Association, February 1980.

2. AWWAD, Emad: *"l'Impact et l'influence de la révolution française sur l'Egypte"*, Défense Nationale, Paris, 1989.

3. CHARTOUNI-DUBARRY May, *"Egypte: la montée de l'islamisme révolutionnaire"*, Etudes, Paris, n 367, 1987.

4. DUCLOS, Louis-Jean, *"La bataille d'Octobre"*, Revue Française de Science Politique, Paris, 1974.

5. HEIKAL, H. Hohammed, *"Nous et le communisme"*, l'Encyclopédie de l'Orient, n193, Paris, 1964.

6. HEIKAL, H. Mohamed, *"le Monde arabe: le retour de l'Egypte"*, Politique internationale, n32, Paris, 1986.

7. LACOUTURE, Jean, *"les Hommes: Mohammed Hassanein Heykal"*, Maghreb-Machrek, n 58, Paris, mai-juin 1974.

8. ROULEAU, Eric, *"l'Equilibre précaire au Proche-Orient"*, le Monde diplomatique, décembre, Paris, 1967.

9. SENARCLENS, Pierre (De), *"la Politique israëlienne dans les territoires occupés"*, Politique Etrangère, n44, l'Institut français des Relations internationales, Paris, 1979.

ثالثا : مراجع متعلقة بهيكل :

1 • مؤلفات هيكل باللغة العربية :

1 . هيكل ، محمد حسنين ، "*أحاديث في آسيا*" ، دار المعارف ، بيروت ، بدون تاريخ .

2 . ______________ ، "*لمصر لا لعبد الناصر*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ،1986 ، ط 7 .

3 . ______________ ، " *بين الصحافة والسياسة*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1984 ، ط 3 .

4 . ______________ ، " *زيارة جديدة للتاريخ* " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1987 ، ط 6 .

5 . ______________ ، "*حديث المبادرة* " ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1988 ، ط9 .

6 . ______________ ، "*وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي العام الاشتراكي*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1983 ، ط3 .

7 . ______________ ، " *السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1988 ، ط 6 .

8 . ______________ ، "*قصة السويس*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1985 ، ط 5 .

9 . __________ ،" *أحاديث في العاصفة* " ، دار الشروق ،1987 ، ط 2.

10 . __________ ، "*آفاق الثمانينات*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1983 ، ط3 .

11 . __ __________ ، "*عند مفترق الطرق*" ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، 1983 ، ط 1 .

12 . __________ ، "*ملفات السويس : حرب الثلاثين سنة*" ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1986 ، ط 1 .

13 . __________ ، " *سنوات الغليان :حرب الثلاثين سنة*" ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1988 ، ط 1 .

14 . __________ ، " *الانفجار 1967 : حرب الثلاثين سنة*" ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1990 ، ط 1 .

2 • مؤلفات هيكل باللغة الفرنسية :

1. HEIKAL, M. H, *les Documents du Caire*, Flammarion, Paris, 1972.

2. __________, *le Sphinx et le commisssaire: heures et malheurs des Soviétiques au Proche-Orient*, Jeune Afrique, Paris, 1978.

3. __________, *Khomeiny et sa révolution*, Jeune Afrique, Paris, 1983.

4. __________, *l'Automne de la colère: l'assassinat de Sadate*, Ramsay, Paris, 1983.

5. __________, *l'Affaire de Suez: un regard égyptien*, Ramsay, Paris, 1987.

6. __________, *l'Ilusion du Triomphe*, Ramsay, Paris, 1993.

3• أهم مقالات هيكل " بصراحة ":

1 . " *الطريق إلى المعركة* " ، 15 أيلول ، 1967 .

2 . " *هل حصل التغيير* " ، 11 تشرين الأول 1967 .

3 . " *المجتمع المفتوح* " ، 18 تشرين الأول 1968 .

4 . " *كيف تتشكل مراكز القوى* " ، 1 تشرين الثاني 1968 .

5 . " *شكل المعركة القادمة ما يجري في سوريا؟* " ، 7 آذار 1969 .

6 . " *أهمية هزيمة اسرائيل في معركة* " ، 11 نيسان 1969 .

7 . " *الجانب العسكري من النكسة* " ، 20 تشرين الأول 1969 .

8 . " *باب الحرب* " ، 19 كانون الأول 1969 .

9 . " *أمريكا ونظرتها للأزمة* " ، 11 كانون الأول 1970 .

10 . " *ماذا أقول؟* " ، 12 أيار 1971 .

11 . " *الخطوة الضرورية* " ، 24 تشرين الثاني 1971 .

12 . " *نقاش تجربة* " ، 1 كانون الثاني 1972 .

13 . "*اشارات على طريق طويل*" ، 11 تشرين الثاني 1972 .

14 . "لا سلم ولا حرب " ، 16 تموز 1972 .

15 . " *سؤال* " ، 13 تشرين الثاني 1973 .

16 . " محاولات *لتخيل الوضع* " ، 16 تشرين الأول 1973 .

17 . "*لقاء مع وزير الدفاع أحمد اسماعيل*" ، 2 تشرين الثاني 1973 .

4• كتب عن هيكل :

1 . المحلاوى ، حنفي ، "*السادات بين هيكل وموسى صبري*" ، مكتبة دار العربية للكتاب ، القاهرة ، 1994 .

2• جاسم ، السيد عزيز ، " *سقوط مدرسة هيكل وأزمة العقل المصري*" ، مكتبة النهضة ، بغداد ، 1987 .

3 . زكريا ، فؤاد ، "*كم عمر الغضب : هيكل وأزمة العقل العربي*" ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1983 .

4 . عوض ، لويس ، "*اقنعة الناصرية السبعة : مناقشة توفيق الحكيم و محمد حسنين هيكل*" ، دار الرقي ، بيروت ، 1987 ، ط1 .

5 . كروم ، حسين ، " *عبد الناصر بين هيكل ومصطفى أمين*" ، دار مأمون للطباعة ، القاهرة ، 1975 ، ط1 .

6 . مطر ، فؤاد ، " *بصراحة عن عبد الناصر : عشرون ساعة حوار مع هيكل* " ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1989 .

7 . همام ، طلعت ، "*هيكل الرجل اللغز : القصة الكاملة لعلاقة عبد الناصر وهيكل*" ، دار نصّار للنشر والتوزيع ، الكرك ، 1984 .

8. Nasser, Munir, *Press, Politics and Power: Egypts Heikal and Al-Ahram,* The State University Press, Iowa, 1979.

فهرس الأعلام

(ش)

(ص)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

قائمة المحتويات

المؤلف في سطور :

من مواليد 1 كانون الأول / ديسمبر عام 1965 في دير علا- البلقاء .

- درس مراحله التعليمية الأساسية في مدينة اربد والرياض ، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية من مدرسة اربد الأولى (القسم العلمي) عام 1984 .
- حصل على درجة البكالوريوس في الصحافة والإعلام من كلية الآداب - جامعة اليرموك عام 1988 (الأردن) .
- حصل على درجة الماجستير (D.E.A) في التحليل السياسي المقارن من كلية القانون - جامعة بوردو 1 عام 1991 (فرنسا) .
- حصل على درجة الدكتوراة (PH.D) في العلوم السياسية من كلية القانون - جامعة باريس II (السوربون) عام 1995 (فرنسا) .
- يعمل منذ تخرجه كأستاذ مساعد في معهد بيت الحكمة للعلوم السياسية - جامعة آل البيت / الأردن .

كتب تحت الطبع :

- "محمد حسنين هيكل : استمرارية أم تحول" ، سيصدر باللغة الفرنسية عن دار النشر المتخصصة في شؤون العالم العربي والشرق الأوسط لارماتان (L'HARMATTAN) في باريس نهاية عام 1998 .
- "التحول الديموقراطي وحرية الصحافة في الأردن" ، سيصدر عن مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية في أبو ظبي/ الإمارات العربية المتحدة .

البحوث المنشورة :

- "صورة العرب والإسلام في الإعلام الفرنسي : وجهة نظر عربية" ، مجلة العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية عدد 4 ، تشرين الأول / اكتوبر عام 1997 .
- "الوحدة الأوروبية : الإسقاطات والتمثل" ، مركز دراسات المستقبل - جامعة أسيوط ،

أيار / مايو عام 1998 .

- "الإشكاليات المنهجية في دراسة النظرية السياسية" ، معهد بيت الحكمة للعلوم السياسية - منشورات جامعة آل البيت ، عدد 44 ، آب/ أغسطس عام 1998 .

-"العرب وأوروبا : من الحوار العربي الأوروبي الى الشراكة الأوروبية المتوسطية" ، مجلة مركز الدراسات الإسلامية ، (VOl 10, NO. 3(October 1999 ، جامعة بيرمنجهام بالتعاون مع جامعة جورج تاون - واشنطن D.C .

- "أثر قانون المطبوعات والنشر على الانتخابات التشريعية الأردنية لعام 1997" ، مركز الدراسات والبحوث حول الشرق الأوسط المعاصر ، (C.E.R.M.O.C) ، عمان ، 1998 . (باللغة الفرنسية) .

المترجمة في سطور :

حياه الحويك عطية حقوقية ، كاتبة ، اعلامية ، ومترجمة .

تكتب في المسرح ، أدب الرحلات ، النص المفتوح ، القصة القصيرة ، النقد ، البحث السياسي والفكري .

تعمل في الاعلام المرئي والمكتوب منذ أكثر من عشرين عاماً ، حيث كانت لها مهامها المختلفة في أكثر من صحيفة ومجلة عربية ، وزاويتها الخاصة ، في المجالين الثقافي والسياسي .

كما كانت لها برامجها الثقافية والوثائقية في عدد من المحطات العربية .

في مجال الترجمة : نقلت الى العربية اثني عشر كتاباً من أهمها :

عالم صوفي (رواية حول تاريخ الفلسفة لجوستيان غاردير) ، قصر الاحلام (رواية لاسماعيل كاداريه) ، الاساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية وحق الرد (لروجيه غارودي) ، أنا وحرب الخليج (جان بيير شفينمان) ، نصوص مسرحية (لكارلوس فونيتس-فاليري نوفارينا ، برنار ماري كولتيس) .

المترجمة في سطور :

حياة الحويك عطية : حقوقية ، كاتبة ، إعلامية ، ومترجمة .

تكتب في المسرح ، أدب الرحلات ، النص المفتوح ، القصة القصيرة ، النقد ، البحث السياسي والفكري .

تعمل في الإعلام المرئي والمكتوب منذ أكثر من عشرين عاماً ، حيث كانت لها مهامها المختلفة في أكثر من صحيفة ومجلة عربية ، وزاويتها الخاصة ، في المجالين الثقافي والسياسي .

كما كانت لها برامجها الثقافية والوثائقية في عدد من المحطات العربية .

في مجال الترجمة : نقلت إلى العربية اثني عشر كتاباً من أهمها :

عالم صوفي (رواية حول تاريخ الفلسفة لجوستيان غاردير) ، قصر الأحلام (رواية لإسماعيل كاداريه) ، الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية وحق الرد (لروجيه غارودي) ، أنا وحرب الخليج (جان بيير شفينمان) ، نصوص مسرحية (لكارلوس فوينتس - فاليري نوفارينا ، برنار ماري كولتيس) .



محمد حسنين هيكل استمرارية أم تحول؟

يستعرض مكيافيللي في الفصل الرابع والعشرين من الكتاب الثاني، وسائل احتواء شعب من الشعوب، فيطرح جملة تساؤلات، آخرها: «القضاء على زعمائه واحداً واحداً؟» ليستدرك: «لكن الزعماء ينبعثون كرؤوس الهيدرا».

لكن... هل كان في ذهاب عبد الناصر، إثبات لمقولة مكيافيللي؟

لا لأن عبد الناصر، قد قاد ثورة، بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات، وبنى مرحلة من تاريخ مصر والعالم العربي، والعالم الثالث... بل لأنه شكل تجسيد التحدي الذي قاله مقولة تاسيت: «في الحروب، العيون هي التي تهزم أولاً».

فأين نحن من الزعماء الذين لا تهزم عيونهم؟

وإذا كان محمد حسنين هيكل، هو الشاهد الأبلغ على مسيرة عبد الناصر، أي مسيرة مصر في عهده فإنه ظل كذلك شاهداً عليها في مرحلة السادات. كثيرة هي الأسئلة التي أثيرت وتثار حول شخصية الرجل وسلوكه:

هل كان منظر الناصرية، مجرد محرر لـ «فلسفة الثورة» أم مشاركاً فيه؟

مسار علاقته غير الودية بالمثقفين، بالإسلاميين وبالشيوعيين؟

موقفه من الطلبة؟

هل كان عميلاً للأمريكيين، أم صديقاً، أم يد عبد الناصر الممدودة إليهم، مقابل أيد أخرى ممدودة لآخرين؟

لماذا دعم بعنف اختيار السادات، وحكمه، حتى ما بعد حرب رمضان، حيث كان وراء قرار فتح القناة عام 1975. ولماذا تأجج الخلاف بينه وبين الرجل حتى السجن وكتاب «خريف الغضب».

الباحث الدكتور جمال الشلبي يبني بحثه كله على عمود فقري قوامه الثبات والقانون: وفاء هيكل لعبد الناصر وللناصرية ووفاء هيكل لفلسفة الناصرية... لكن الليبرالية... وللموقف المحدد من العروبة ومن إسرائيل...

بحث قد توافق على بعض تحليلاته أو استنتاجاته، وقد تختلف مع الكثير منها، لكنك تجد في وثائقه المتدفقة التي جمعت بتبويب محكم ودقة علمية سجلاً نادراً لمرحلة من أخطر مراحل تاريخنا المعاصر.

الترجمة

